مقدمة المصنف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رب يَسِّرْ وأعِنْ بكرمك

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد:

فإن أعظم ما تقضى فيه الأعمار هو تدبر القرآن الكريم واتباع نوره وهداه، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩**﴾ [الإسراء: ٩] فأقوم الطرق في العقيدة والعبادة والأخلاق والسلوك والمعاملات وفي كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة يهدي إليه كتاب ربنا جل وعلا، وصدق الله حيث قال: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣**﴾ [طه: ١٢٣].

وقد قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة»، ثم تلا: ﴿**فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣**﴾ [طه: ١٢٣].(١)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٧٨١)، والطبري في "جامع البيان" (١٦/ ١٩١)، وأخرجه الحاكم في"المستدرك"(٣٤٣٨)وصححه،ووافقه الذهبي بلفظٍ مقارب

وأمر الله سبحانه بتدبر كلامه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، لذا كان سلفنا الصالح يقبلون على تعلم القرآن الكريم علماً وعملاً.

قال عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حدثنا الذين كانوا يُقرؤننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قالوا: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آياتٍ لم نجاوزها حتى نتعلم ما فيها من العلم فتعلمنا العلم والعمل جميعاً"(١).

فمن عظيم نعمة الله علينا أن أكرمنا بالاعتناء بكلام الله تعالى، بتفسيره، والبحث عن معانيه، ومراد الله تعالى من آي الذكر الحكيم، واستنباط أحكامه، والسير في ذلك على طريقة سلفنا الصالح وهي:

تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة فإنها شارحةٌ للقرآن وموضحةٌ له، وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن" اهـ، ثم بعد ذلك أقوال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ثم أقوال التابعين، وهذا هو أكمل الهدي وأجمله.

ويَتَّسم هذا الجزء -جزء تبارك- أنه جزءٌ مباركٌ أظهر الله تعالى فيه قدرته، وكذلك أظهر بعض آياته ومخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته؛ كما في (سورة الملك) مثلاً، وكذلك أثنى الله فيه على نبيه ﷺ وأعلى قدره وشَرَّفه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

(١) **(حسن)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٣٤٨٢)، وابن أبي شيبة في " مصنفه " (٣٠٥٤٩)، والطبري في " جامع البيان" (١/ ٧٤)، والحاكم في " المستدرك " (٢٠٤٧) وصححه، وحسنه شعيب الأرناؤوط في " تحقيق المسند " (٣٨/ ٤٦٦) عن أبي عبد الرحمن، بلفظٍ مقارب

عَظِيمٍ﴿٤﴾﴾، وكذلك نفى عنه تهمة المشركين له بأنه تَقَوَّل هذا القرآن من عند نفسه، فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴿٤٧﴾﴾ وأوصاه بالصبر كما صبر إخوانه الأنبياء قبله، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وفيه كذلك رسم الطريق إلى الداعية إلى الله؛ أنه لا بد له من الصبر في ذات الله، وتحمل المشاق من أجل الدعوة إلى الله تعالى، وفيه تذكيرٌ بيوم القيامة، وما يكون فيه من أهوالٍ وشدائد، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴿٢﴾﴾ وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴿٢﴾﴾ وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴿١﴾﴾ وهكذا، وفيه أيضًا الحديث عن نعيم المؤمنين يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴿٢٣﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴿٥﴾﴾ فأكثر الله تعالى من ذكر نعيم الأبرار المطيعين لربهم المعظمين لنبيهم ﷺ، وكذلك ذكر فيه عذاب الكافرين وأظهر حسرتهم يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴿٢٧﴾﴾ إلى آخر الآيات الكريمات، وكذلك ذكر الله تعالى بعض قصص الأنبياء كما في (سورة نوح) وبين ما فيها من عبرٍ وعظاتٍ لعموم المسلمين، و كذلك في هذا الجزء إظهار عموم بَعْث النبي ﷺ لجميع الإنس والجن؛ حيث أُفردت سورةٌ كاملةٌ وهي (سورة الجن)؛ يخبر الله فيها عن إيمان الجن بالرسول ﷺ، وكذلك فيه سورتان عظيمتان تتحدثان عن أوائل بعث النبي ﷺ وهما (سورة

المزمل) و(سورة المدثر) وفيهما شدة تحمله الأذى من المشركين وعظيم صبره ﷺ وهكذا...،

فهو جزءٌ مباركٌ مليءٌ بالدرر التي سيطلع عليها القارئ الكريم، ويراها ظاهرةً جليةً؛ تزيده إيمانـًا، وتأخذ به إلى طاعة ربه ومولاه، نسأل الله أن ينفعنا بها و عموم المسلمين إنه جوادٌ كريمٌ

منهجي في الكتاب:

قمت بوضع مقدمةٍ يسيرةٍ في أول كل سورةٍ؛ بينتُ فيها هذه السورة مكيةً أم مدنيةً، وعددَ آياتها ومناسبتَها لما قبلها.

ثم قمت ببيانِ غريب القرآن وذكرت ما صح من أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك مما تيسر من علوم القرآن التي تأتي في ثنايا آيات الكتاب العزيز.

وهذا التفسير أرجو من الله تعالى أن يكون حديقةً غَنَّاءَ، يجد فيها القارئُ الكريمُ ما ينفعه الله به في سيره إلى الله تعالى وإصلاح عقيدته وعبارته ومعاملاته وأخلاقه وسلوكه.

وقد قمتُ بالاعتناء جداً بإظهار مسائل الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة مِن مسائل الإيمان، وأنه قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، وأنه يزيد وينقص، وكذلك الإيمان بوجود الله تعالى، والأدلة على ذلك، والإيمان بأسمائه وصفاته على الوجه اللائق به جل جلاله على طريقة السلف ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]، وكذلك الإيمان بألوهيته سبحانه وأنه المستحق للعبادة وهذا هو أصل الدين.

ويجد القارئ الكريم في هذا التفسير إن شاء الله ما يزيده إيمانـًا ويُقرِّبُه مِن الرحمن بأسلوبٍ رائعٍ ماتعٍ سهلٍ مُيَسَّرٍ، وكذلك في مباحث الإيمان عمومـًا مِن الإيمان بالملائكة

والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وكذلك يجد القارئُ اعتناءً واضحـًا في هذا التفسيرِ بالجوانب الإيمانية، وتزكيةِ النفسِ، وتعلُّقِ العبدِ بربه ومراقبته سبحانه، والتوكلِ عليه، وحسنِ الظن فيه، وغيرِ ذلك مما يعتني بطهارة النفس وتزكيتها، كيف لا وقد قال ربنا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والذكر هنا بمعنى التذكر والاعتبار والاتعاظ وأيضـًا بمعنى الشرف.

وكذلك يجد القارئ الكريم في هذا التفسير المبارك تنزيلاً مستفاداً مِن آياتِ الذكر الحكيم على واقع الحياة في معاملاته مع الآخرين وفي أخلاقه وعبادته.

وكذلك اعتنيت بإظهار المستفاد من الآيات الكريمات في أبواب الفقه مع عدم الإسهاب المُمِلِّ ولا الاختصار المُخِلِّ، وكذلك بحمد الله بأسلوبٍ سهلٍ مُيَسَّرٍ لا يجد أحدٌ صعوبةً في الحصول على الفائدة على اختلاف ثقافات الناس، والحمد لله أولاً وآخراً.

ومما يظهر في هذا الكتاب المبارك جليـًا: أنني اعتنيت بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم في محلِّه، إذا جاء الحديث عن آيات التقوى، أو المراقبة، أو الصدق، أو الصبر، أو كظم الغيظ، والعفو، والإحسان، والنفقة، وما شابه ذلك، أركز على هذا الموضوع ليستفيد القارئ، فيكون زاداً بإذن الله تعالى في هذا الباب لعموم المسلمين وللخطباء والوعاظ.

مع الاعتناء بالأحاديث النبوية ولا أذكر إلا حديثـًا صحيحـًا إلا في النذر اليسير من باب التنبيه على ضعفه.

ولا أذكر من الإسرائيليات إلا ما صح منها ولا أذكر الضعيف منها إلا من باب

التنبيه على ضعفه.

وكذلك اعتنيت بدرء التعارض الذي قد يظهر لبعض الناس بين بعض آيات كتاب الله الكريم وأظهرت أقوال الأئمة في تجلية هذا التعارض.

وقد أسميته **(نور البيان في تفسير آي القرآن)** وأسأل الله أن يجعله حجةً لكاتبه وقارئه بمنه وفضله

المنهج الذي اعتمدته في العزو والتخريج والحكم على الأحاديث:

أولاً: أقوم بعزو التفسير في الأصل إلى مصادره ومراجعه الأصلية إن وُجد، وربما أزيدُ في الحاشية بعض التتمات أو التنبيهات المهمة من كلام المفسرين الذي لا يتسع المقام لذكرها في الأصل.

ثانياً: أقوم بتخريج الأحاديث والأقوال والآثار من مصادرها الأصلية إن وجدت مع التوسع في التخريج قدر الحاجة.

ثالثاً: إن كان الحديث في الصحيحين أقتصر على العزو لهما.

رابعاً: لوكان في أحد الصحيحين أذكره وأعزو إلى مصدرين مثلاً معه.

خامساً: لو كان في غير الصحيحين أتوسع في التخريج قدر المستطاع، وأُصَدِّرُ الحكم أولاً.

سادساً: أقوم بالحكم على الأحاديث بالصحة أو الضعف، ملتزمًا تصحيح أو تضعيف الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ غالباً.

تنبيهٌ: الحكم الذي أصدره حكم الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ وليس حكمي، فإن خالف الشيخُ الألباني الأئمةَ المتقدمين مخالفةً واضحةً آخذ بقول الأئمة، وإلا فألتزم حكم الألباني

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلا إذا لم أجد حكماً للألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ونظرتُ أحكام الأئمة إن وُجد كالحافظ ابن حجر أو الإمام الذهبي رحمهما الله ونحوهما، فإن لم أجد نظرتُ كلام أهل العلم المعاصرين مِن المحدثين، كالشيخ الأرناؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو الشيخ مصطفى العدوي أو الشيخ الحويني حفظهما الله، ونحوهم، فإن لم أجد من تكلم فيه نظرتُ في كتب العلل فإن لم أجد مَن أَعَلَّهُ أو طعن في سنده اكتفيتُ بالتخريج.

الكتب التي أعتمد عليها في اختيارات أوجه التفسير:

الحقيقة أنني أطالع كثيراً مِن كتب التفسير، ولكن هناك كتبٌ تلازمني دائمًا، منها: تفسير ابن جرير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، وأضواء البيان للشنقيطي، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي رحمهم الله، مع الاستفادة كثيراً مِن كتب المعاصرين مثل تفسير أحمد المراغي وابن عثيمين رحمهما الله، والشيخ مصطفى العدوي حفظه الله.

سبب تأليف الكتاب:

أما عن سبب تأليف هذا السفر المبارك: فهذا الكتاب في الحقيقة دروسٌ ألقيتها في مسجدي وبحمد الله أتم الله عليَّ ختم كتابه تفسيراً ومدارسةً في مسجدي مرةً وأنا الآن في المرة الثانية فأشار عليَّ بعضُ إخواني الأحبة ممن لا أَرُدُّ نصحَهم في أن أجمع ذلك في كتاب ينفع الله به المسلمين.

فاستخرتُ الله كثيراً خاصةً وأنا أعلم في نفسي أن هذا الباب العظيم أكبر مني- ولكن حسبي أن الله يعلم مني حسن القصد واتباع الهدي المبارك -هدي القرآن والسنة ما استطعت- ثم استشرتُ كثيراً مِن مشايخي وإخواني وأحبابي فما كان منهم إلا أن

شجعوني.

وبتوفيق الله أولاً وآخراً أقام إخواني الأعزاء فضيلة الشيخ محمد النشار وفضيلة الشيخ عبد الله الزغبي وفضيلة الشيخ محمد سلامة بتكوين فريق عملٍ تحت إشرافهم، وقاموا بجهدٍ مباركٍ مشكورٍ في تفريغ التفسير وضبطِه، وتخريج أحاديثه وتحقيقها على الطريقة المرضية، حتى خرج هذا السفر في أبهى حلةٍ يمكن أن يخرج عليها، فجزاهم الله جميعـًا عني خير الجزاء وأعظمه وأكرمه.

فما كان مِن توفيقٍ فمِن الله وحده وهو المشكور، وما كان مِن خطأٍ أو زللٍ فمِن نفسي ومن الشيطان، وجزى الله من أسدى إليَّ نصيحةً لله تعالى وستر عيبـًا، ووالله إن هذا الباب من أبواب العلم بابٌ عظيمٌ ولست له بأهل وأنَّى لمثلي أن يكون أهلا لذلك؟ ولكن حسبي قول القائل:

أسير خلف ركاب النُّجب ذا عرجٍ **** مؤملاً كشف ما لاقيتُ مِن عِوَجٍ

فإن لحقتُ بهم مِن بعد ما سبقوا **** فكم لربِّ الورى في ذاك مِن فَرَجِ

وإن بقيتُ بظهر الأرض منقطعـًا **** فما على أعرجٍ في ذاك من حرجِ

ونحمد الله رب العالمين

كتبه

أبو أسامة متولي بن عبد الخالق

منتصف ليل ٨ ربيع الأول ١٤٤١ هـ

٥ نوفمبر ٢٠١٩ م

﴿سُورَةُ المُلْكِ﴾

سورة الملك سورة مكيةٌ في قول جميع أهل العلم [1]، وآيها ثلاثون، نزلت بعد سورة الطور.

أسماؤها: تُسمى هذه السورة العظيمة بالواقية، والمنجية [2]

مناسبتها لما قبلها:

لما ضرب الله عزَّ وجلَّ في سورة التحريم مثلاً للكفار بتينك المرأتين اللتين قُدِّر لهما الشقاء، وهما امرأة نوحٍ، وامرأة لوطٍ؛ وإن كانتا تحت عبدين صالحين، وأنهما لم يغنيا عنهما من الله شيئًا، وأنهما كانتا من الكافرين.

ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم، وقد كتب لهما السعادة، وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ وأن الله تعالى جعل آسية من أهل الجنة؛ وإن كان جُلُّ من حولها من أهل الكفر، وكتب الله لها النجاة، وأعزَّها الله بالإسلام، وجعلها من أهل الجنة.

افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه عزَّ وجلَّ وقهره وتصرفه فى ملكه على ما سبق به قضاؤه، فافتتحها بهذه الآيات العظيمة، تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وهو

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في "الدر المنثور" (١٤/ ٥٩٩): "أخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي، عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: نزلت بمكة سورة «تبارك» الملك"، وينظر "المحرر الوجيز "لابن عطية (٥/ ٣٣٧) و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٠٨)

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٠٨)، وينظر "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي (٢/ ٣٦٥)، و"التحرير والتنوير" لابن عاشور (٢٩/ ٥).

الفعال سبحانه جلَّ جلاله لما يريد(١).

فضل سورة الملك:

جاء في فضل هذه السورة أحاديثُ كثيرةٌ، هناك أحاديثُ منها ضعيفةٌ، وهناك عددٌ من الأحاديث صححها عددٌ من أهل العلم، ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو داود والترمذي وحسنه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "إن سورةً في القرآن ثلاثون آيةً شفعت لرجلٍ حتى غُفر له، وهي: تبارك الذي بيده الملك"(٢)، وهذا الحديث حسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ(٣).

وأيضًا هناك حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا:" مَاتَ رَجُلٌ فَجَاءَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَعَدُوا عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، قَدْ كَانَ يَقْرَأُ لِي سُورَةَ الْمُلْكِ، فَجَلَسُوا عِنْدَ رِجْلَيْهِ فَقَالَ: لَا سَبِيلَ لَكُمْ إِنَّهُ كَانَ يَقُومُ عَلَيْنَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ، فَجَلَسُوا عِنْدَ بَطْنِهِ، فَقَالَ: لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ إِنَّهُ أَوْعَى فِيَّ سُورَةَ الْمُلْكِ، فَسُمِّيَتِ الْمَانِعَةَ ".(٤)

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ٣) وينظر "البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٢٩١).

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٧٩٧٥)، وأبو داود في "سننه" (١٤٠٠)، والترمذي في "سننه" (٢٨٩١) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في "سننه" (٣٧٨٦)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١١٥٤٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٨٧).

(٣) ينظر "صحيح الترغيب والترهيب" للألباني (١٤٧٤).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٦٠٢٥)، وابن الضريس في "فضائل القرآن" (٢٣٢)، والفريابي في فضائل القرآن (٢٩)، والطبراني في "المعجم الكبير"(٨٦٥١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢٢٧٩).

وقد ثبت- أيضـًا-من كلام ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" المانعة تمنع من عذاب القبر"[١]، قال أهل العلم وهذا له حكم الرفع، لأن هذا لا يقال بالرأي".[٢]

وأيضـًا عَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "مَنْ قَرَأَ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كُلَّ لَيْلَةٍ مَنَعَهُ اللهُ بِهَا مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَكُنَّا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُسَمِّيهَا المَانِعَةَ، وَإِنَّهَا فِي كِتَابِ اللهِ سُورَةٌ مَنْ قَرَأَ بِهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطَابَ"[٣] رواه النسائي، وحسنه الألباني[٤].

وهناك بعض الأحاديث فيها ضعفٌ، مثل حديث جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ الم تَنْزِيلُ، وَتَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ»[٥] "صححه العلامة الألباني[٦]،

---

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٣٨٣٩)، أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ٢٤٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٨٦٥١)، والبيهقي في "إثبات عذاب القبر " (١٤٩).

(٢) ينظر " موسوعة فضائل سور وآيات القرآن" لمحمد بن رزق بن طرهوني (٢/ ١٩٣).

(٣) **(حسن)** أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (١٠٤٧٩)، و"عمل اليوم والليلة"(٧١١)، والطبراني في "المعجم الكبير"(٦٢١٦).

(٤) ينظر "صحيح الترغيب والترهيب" (١٥٨٩).

(٥) **(صحيح)** أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (١٢٠٧)، وأحمد في "مسنده" (١٤٦٥٩)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (١٠٤٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٩٨١٦)، والترمذي في "سننه"(٣٤٠٤)، والدارمي في "مسنده "(٣٤٥٤)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٤٧٤)، والخرائطي في "مكارم الأخلاق" (٩٥١).

(٦) ينظر " السلسلة الصحيحة" للألباني (٥٨٥).

ولكن أكثر أهل العلم أعلُّوه، فأعلَّه أبو حاتم كما في العلل[١]، وكذلك أعله الدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.[٣]

والخلاصة: أنه مع هذه الأحاديث التي صحت عن النبي ﷺ، يستحب للمرء أن يكثر من قراءة هذه السورة، ولذلك ذكر المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث النبي ﷺ الذي رواه الترمذي وأبو داود، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ سُورَةً مِنَ القُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ»[٤] ، ثم قال: "كان قد لازم على قراءتها، فما زالت تسأل الله فيه حتى غُفر له، وهذا حثٌ لكل أحدٍ على مواظبة قراءتها لينال شفاعتها"[٥]، فيُرجى لصاحب هذه السورة، الذي يعتني بها اعتناءً زائداً عن سائر القرآن، أن تحصل له هذه الفضيلة العظيمة، فتشفع له هذه السورة عند الله، وتنجيه من عذاب القبر، وهذا فضلٌ عظيمٌ من الله تبارك وتعالى.

قال الله عز وجل:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا

---

(١) ينظر " العلل لابن أبي حاتم" (١٦٦٨).

(٢) ينظر "العلل الواردة في الأحاديث النبوية " للدار قطني (٣٢١٩).

(٣) ينظر " نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار " لابن حجر (٣/ ٢٦٥).

(٤) **(حسن)** وقد تقدم تخريجه.

(٥) ينظر "فيض القدير" للمناوي (٢/ ٤٥٣).

تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ۝٥﴾

يقول الله جلَّ جلاله في هذه السورة العظيمة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ يعني كَثُرَ بِرُّه، وكثر خيره، وتقدس الله جلَّ جلاله، سبحانه وبحمده، ﴿تَبَٰرَكَ﴾ البركة كلها من الله عزَّ وجلَّ، وكثرت بركته وعم خيره، وعمَّ بِرُّه الخلق جميعـًا.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ فيه ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: أن التبارُكَ تفاعُل من البركة، قاله ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو أبلغ من المبارك لاختصاص الله بالتبارك واشتراك المخلوقين في المبارك. (١)

الثاني: أي تبارك في الخلق بما جعل فيهم من البركة، قاله ابن عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثالث: معناه علا وارتفع، قاله يحيى بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ. (٢)

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ بيده ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما نافذٌ فيهما أمره وقضاؤه، فملك السماوات والأرض ومن فيهن بيده تبارك وتعالى، يُعطي ما يشاء لمن يشاء، ويمنع ما يشاء عمن يشاء، يُعزُّ من يشاء، ويُذلُّ من يشاء، كما قال مولانا جلَّ

---

(١) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٦/ ٦٩)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٦/ ٤٤٠).

(٢) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٤٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٥/ ٣٦٥).

جلاله: (١) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُمجِّد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾". (٢)

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله عزَّ وجلّ: الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ قال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يعني: السّلطان يعزّ ويذلّ. (٣)

وقفةٌ: إذا كان ربنا تعالى بيده الملك، ملك الدنيا والآخرة، فإذا أراد العبد شيئًا من الدنيا فينبغي عليه أن يسأل الله عزَّ وجلَّ، وإذا أراد شيئًا من الآخرة يسأل ربه تبارك وتعالى، وليعلم أن الملوك لا يملكون شيئًا من الدنيا، فملكهم ملكٌ قاصرٌ، إنما ملَّكَهم الله تعالى شيئًا من هذه الدنيا؛ لينظر كيف يعملون، أي لينظر ماذا يعملون في الملك الذي ملكهم الله تبارك وتعالى إياه.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل شيءٍ، ونحن في

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١١٨).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٧٦).

(٣) ينظر "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٤/ ٣١٣)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٣/ ٣٧١).

هذه الأيام بحاجةٍ إلى أن نثق ونُوقن في كلام الله عزَّ وجلَّ.

وقفةٌ: يقول ربنا تعالى: ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ هذا الذلُّ الذي نراه لأهل الإسلام في زماننا هذا، واستئساد الكفرة على أمة محمدٍ ﷺ، وتطاول الفساق الفُجَّار من هذه الأمة على الأخيار، والأذى العظيم الذي يحل على الأمة في شتَّى بقاعها، فالله قادرٌ أن ينصر هذه الأمة، ويبدل الحال يقيناً وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فالله قادرٌ أن يقصم ظهور الجبابرة(١)، ويهلكهم، ويُولي على الأمة عبداً صالحاً لا شك، ولكن علينا أن نصلح من أنفسنا، ونتَّقِ الله في ديننا، وأن نعمل لهذا الدين كما يحب رب العالمين، فكَما تَكُونُوا يُوَلَّ عَلَيْكُمْ، وهذه كلمةٌ صحيحةٌ مائةً في المائة، فإذا كان الناس من أهل الصلاح والرشاد، يسر الله لهم أمثال أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي يقودونهم، وإذا كان الناسُ أمثالَنا، جاء الحكام من جنس الرعية بالتمام.

ولذلك ينبغي على العبد أن يكون على ثقةٍ في قول الله تعالى: ﴿**تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ وهذه تريح العبد جداً، إذا مرض أحد أحبابه، وطال الداء معه، وكثر البلاء -نسأل الله العافية والسلامة- فربنا قادرٌ أن يشفيه، فيقول له كن فيكون، فينبغي على العبد حينئذٍ أن يلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ، وأن يستغيث به، ويدعوه، فربنا قادرٌ أن يكشف البلاء، وقادرٌ أن يجلب كل خيرٍ، ويصرف كل سوءٍ وشرٍ، أَمْرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿**تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ ويستفاد من هذه الآية

---

(١) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٣٦٠).

تعظيم الله، وتبجيله جلَّ جلاله، فيُعَظِّمُ المرءُ منا ربَّه، ويُجِلُّه، فلا يجعل رب العالمين مثل ملكٍ من الملوك- حاشا لله-، بل ربنا أجل مَن يُعظَّم عزَّ وجلَّ، والواجب على العبد أن يمجده، وأن ينزهه عن كل نقصٍ وعيبٍ، وليحذر أن يكون في نفسه شكٌ أن الله على كل شيءٍ قديرٌ، فلا ينظر العبد إلى الأسباب المادية التي عند الكفرة، أو عند أوليائهم من المسلمين الفجرة، ويقول أنَّى يَنصر الله تعالى دينه، فما ينبغي هذا لمؤمنٍ، وربنا تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد: ٧]

فائدةٌ: قال الماتريدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمعتزلة يقولون بأن مِلكَ مُلْكِ الكفرة ليس له، وأنه لا يولي الملك للكافر، ويقولون في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، أن الذي آتاه الله الملك هو إبراهيم - عليه السلام - والهاء تنصرف إليه، لا إلى الذي حاجه، وإذا لم يجعلوا مِلْكَ مُلْكِ الكافر في يده، لم يصر ممتدحاً بما ذكرنا؛ لأنه يكون في يده بعض الملك لا كله، وقال في آية أخرى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] "(١)

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ ويدل ذلك على أن الموت مخلوقٌ، والحياة مخلوقةٌ، والله خلقهما جلَّ جلاله، والموت ليس عدمًا محضًا، بل الموت أمرٌ وجوديٌ أوجده الله سبحانه جلَّ جلاله، ولذلك قيل: المعنى خلقكم للموت والحياة،

---

(١) ينظر " تأويلات أهل السنة" للماتريدي (١٠/ ١٠١).

أي للدنيا والآخرة

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء: الموت ليس بعدمٍ محضٍ ولا فناءٍ صرفٍ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولةٌ بينهما، وتبدل حالٍ وانتقالٌ من دارٍ إلى دارٍ، والحياة عكس ذلك. وحُكي عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والكلبي ومقاتل: أن الموت والحياة جسمان، فجعل الموت في هيئة كبشٍ لا يمر بشيءٍ ولا يجد ريحه إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرسٍ أنثى بلقاء- وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها- خطوها مد البصر، فوق الحمار ودون البغل لا تمر بشيءٍ يجد ريحها إلا حيى، ولا تطأ على شيءٍ إلا حيى" (١)

وأيضـاً قدَّم رب العزة سبحانه جلَّ جلاله الموت على الحياة لعلةٍ، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قدَّم الموت على الحياة، لأنَّ أقوى النّاس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فقدّم لأنّه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم". (٢)

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وهذه كلمة عظيمة-: " أذلَّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياةٍ ودار فناءٍ، وجعل الآخرة دار جزاءٍ وبقاءٍ". (٣)

وقال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما قدم الموت لأنه أقرب إلى قهر الإنسان". (٤)

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٤٨).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٠)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/ ٥٧٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره"(٣٢١٥)، والطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١١٨).

(٤) ينظر " الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل" للخازن (٤/ ٣١٨).

وقفةٌ: هذه الدنيا دار عملٍ، والآخرة دار جزاءٍ ليس فيها عملٌ، فمن أراد السعادة في الآخرة فليعلم يقيناً أن هناك موتاً وحياةً، وأن الحياة الحقيقية هي الآخرة، كما قال تعالى: وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ يعني هي الحياة الحقة الكاملة، التي لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه؛ وسيحياها العبد لو أكرم بالجنة، نسأل الله سبحانه وتعالى من فضله.

ولذلك قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: "لولا ثلاثٌ ما طأطأ ابن آدم رأسه، الفقر، والمرض، والموت"[(١)] فلولا أنه يخاف الموت ما طأطأ رأسه، كذلك إن كان على صحةٍ دائمةٍ، ولا يمرض أبداً فإنه يتكبر ويتعالى، وفي أكثر الأحوال الغنى يُطغي صاحبه.

وأيضاً قال بعض أهل العلم، بأن الله قدَّم الموت على الحياة في قوله: ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ**﴾ لأن الموت أقدم من الحياة.

قال الخازن رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقيل قدَّمه لأنه أقدم؛ وذلك لأن الأشياء كانت في الابتداء في حكم الموتى كالتراب والنطفة والعلقة ونحو ذلك ثم طرأ عليها الحياة".[(٢)]

وهنا إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٨] أمواتاً يعني قبل أن تكونوا نطفةً، إشارة إلى النطفة ثم دبت فيها الروح بعد ذلك[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ٢٧٧).

(٢) ينظر " لباب التأويل في معاني التنزيل" للخازن (٤/ ٣١٨).

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٠)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٧٣).

يقول رب العزة سبحانه جلَّ جلاله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ ولذلك ذكر رب العزة سبحانه أن هناك ملكـًا موكلاً بالموت، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١] وقوله جلَّ جلاله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] قال أهل العلم: الله هو الذي يتوفى الأنفس، وهو الذي يقبضها، وهو الذي يقبض أرواح العباد في الحقيقة، وهؤلاء ما هم إلا رسلٌ، يفعلون أمر الله جلَّ جلاله لهم، سبحانه وبحمده.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتَّوفي تارةً يضاف إلى ملك الموت، كما قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وتارةً إلى الملائكة لأنهم يتولون ذلك، كما في هذه الآية وغيرها. وتارةً إلى الله وهو المتوفي على الحقيقة، كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية: ٢٦] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] فكل مأمورٍ من الملائكة فإنما يفعل ما أمر به."(١).

مسألةٌ: إن قال قائلٌ: أوليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت، فكيف قيل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، والرسل جمعٌ وملك

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٨/ ٤١٠)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٠/ ١٩٧).

الموت واحدٌ؟ أو ليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]؟

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل: جائزٌ أن يكون الله تعالى أعان ملك الموت بأعوانٍ من عنده، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت، فيكون التوفي مضافاً، وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت إلى ملك الموت، إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يضاف قتل من قتل أعوان السلطان وجلد من جلدوه بأمر السلطان إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه ولا وليه بيده."(١)

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فعنه جوابان:

أحدهما: أنه يجوز أن يريد بالرّسل ملك الموت وحده، وقد يقع الجمع على الواحد.

والثاني: أن أعوان مَلَك الموت يفعلون بأمره، فأضيف الكل إلى فعله. وقيل: تَوَفيّ أعوان ملك الموت بالنزع، وتوفِّي ملك الموت بأن يأمر الأرواح فتجيب، ويدعوها فتخرج، وتوفِّي الله تعالى بأن يخلق الموت في الميّت."(٢)

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال ابن عباسٍ وغير واحدٍ: لملك الموت أعوانٌ من الملائكة، يخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى

---

(١) ينظر " جامع البيان" للطبري (٩/ ٢٨٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٧/ ٢٠).

(٢) ينظر " زاد المسير" لابن الجوزي (٣/ ٥٥).

الحلقوم."[١]

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ ليبلوكم هنا أي ليختبركم أيكم أكثر ذكراً للموت، وأحسن استعداداً له، وأشد خوفـًا وحذراً منه، فرب العالمين خلق الموت والحياة، لينظر العباد ما هم عاملون، هناك إنسانٌ آمنٌ مطمئنٌ، ليس عنده همٌ، يسرق، يزني، لا يصلي، يعقُّ أبويه وهكذا ، لأنه ليس عنده خوفٌ ولا حذرٌ من الموت، بل الموت ليس في خاطره، فمثل هذا يزلزله الله زلزالاً عظيمـًا يوم يلقاه، وأما الآخر فيخاف ربه، وذِكْرُ الموت على باله، فيدفعه ذلك إلى حُسن العمل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾، وما قال مولانا ليبلوكم أيُّكم أكثر عملاً، بل قال أحسن عملاً[٢]، وحسن العمل أن يبتغي المرء بعمله وجه الله، وأن يكون على هدي رسول الله ﷺ ، هذا هو حسن العمل.

وقفةٌ: ينبغي على العبد أن يُكثر من ذكر الموت ليصل إلى حسن العمل، ومع ذلك ينبغي أن يكون ذكره للموت معتدلاً، لأني أعرف بعض الناس أكثر من ذكر الموت؛ حتى أفسد ذكر الموت عليه حياته، وهذا خطأٌ، فالمرء يُكثر من ذكر الموت فيدفعه ذلك إلى حسن العمل، وإلى الرجاء في الله، وإلى الخوف منه، فيطير بهذين الجناحين، يرجوا ربه ويخاف عقابه، كما رُوي عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ دخل على شابٍ وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟»، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله،

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٣/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٠٧٠٦) عن محمد بن عجلان قال: ولم يقل أكثر عملاً.

وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف»(١)،

فالأصل أن ذكر الموت يدفع العبد إلى العمل، وهو مع ذلك يدري أن حياته ستنتهي حتماً ولابد، وزيادةٌ على ذلك لا يدري متى تنتهي، هل بعد ساعةٍ؟، بعد عشر سنواتٍ؟، بعد يومٍ؟ فهو إذاً في مهلةٍ، فإذا كان العبد مكثراً لذكر الموت، ومستعداً للقاء الله، فهذا يدفعه إلى الإخلاص في كل قولٍ وعملٍ، وفي كل سرٍ وعلنٍ، ويدفعه ذلك إلى اقتفاء آثار النبي ﷺ، ويبجل ربه ويعظمه ويخافه، ولذلك قال النبي ﷺ "أكثروا من ذكر هاذم اللذات (٢)" وفي روايةٍ "هادم اللذات (٣)" ضبطت بالدال وبالذال، هادم وهاذم، فإنه يقطعها ويذهلها -نسأل الله العفو والعافية والسلامة والستر-، ولذلك أكثر الناس تقوىً لله، هو أكثرهم ذكراً للموت، واستعداداً للقاء ربه عزَّ وجل.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٩٨٣)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٨٣٤)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٦١)، وأحمد في "الزهد"(١٣٢)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦/ ٢٩٢)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب" (٣٣٨٣).

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (١٤٥)، وأحمد في "مسنده" (٧٩٢٥)، والنسائي في "المجتبى"(١٨٢٤) وابن ماجه في "سننه" (٤٢٥٨)، والترمذي في "سننه" (٣٣٣٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٩٢)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٣٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ به.

(٣) **(صحيح)** أخرجه ابن ماجه في "سننه"(٢٣٠٧)، وابن الأعرابي في "معجمه" (٣٧١)، والبيهقي في "الزهد الكبير" (٦٩٠)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٦٨٢).

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ إذن ليس القصد أن يعمل المرء وفقط، فلا يقبل الله عملاً إلا إذا كان هذا العمل خالصاً لله، وعلى هدي رسول الله ﷺ،

كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يقبل الله عملاً إلا إذا كان خالصاً صواباً، قالوا ما معنى خالصاً صواباً؟ قال إن يكون لله، وعلى سنة رسول الله ﷺ[(١)]"،

فلو أن إنساناً مخلصاً ولكنه يبتدع في الدين، فهذا لا يقبل الله منه، ولو أن إنساناً متبعاً لسنة الرسول ﷺ، معظمٌ له، ولكن ليس مخلصاً، فيعمل أعمالاً مما ورد عن الرسول ﷺ، ولكن ليس مخلصاً لله، فهذا يرد فيه قول النبي ﷺ:" قال الله وتعالى: " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[(٢)]، وقول النبي ﷺ " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، وهو الرياء". [(٣)]

فينبغي على العبد أن يُجمِّل نفسه ويزينها، ويُحسن إليها، وذلك يكون بالإخلاص في الأقوال والأعمال، والسر والعلن، وكذلك باتباع سنة النبي محمدٍ ﷺ.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ خلق الله

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٨/ ٩٥)، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٧٦)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٢/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٨٥)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٩٣٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

(٣) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده"(٢٣٦٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٤١٢)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٢) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

سبع سماواتٍ طباقـًا، يعني طبقة من فوقها طبقةٌ ومن فوقها طبقةٌ.

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وهل هن متواصلاتٌ بمعنى أنهن علوياتٌ بعضهم على بعض، أو متفاصلاتٌ بينهن خلاءٌ؟ فيه قولان، أصحهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره."(١)

بل بين كل سماءٍ وسماءٍ مساحاتٌ الله أعلم بها، سبحانه رب العالمين جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] ورغم ذلك ربنا على العرش استوى ولا يخفى عليه شيءٌ من أعمال عباده.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ ما ترى في خلق الرحمن من اختلافٍ، ولا تنافرٍ ولا نقصٍ ولا عيبٍ.

وقوله تعالى: من تفاوت فيه أربعة أوجهٍ:

أحدها: من اختلاَف، قاله قتادةرَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومنه قول الشاعر:

متفاوتات من الأعنة قطّبـًا ... حتى وفي عشية أثقالها.

الثاني: من عيبٍ، قاله السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثالث: من تفرقٍ، قاله ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الرابع: لا يفوِّت بعضه بعضـًا، قاله عطاء بن أبي مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ. قال الشاعر:

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٧٦).

فلستُ بمُدْركٍ ما فاتَ مِنِّي ... بِلَهْفَ وَلاَ بِليْتَ ولا لَو انِّي(١)

رب العالمين يقول: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ هل هناك تفاوتٌ في السماء؟، خلق الله جلَّ جلاله لنا هذه السماء، بلا عمدٍ ترونها، وتراها بينةً أمام عينيك، ولذلك رب العالمين أمرنا بالنظر إليها، فإن النظر إلى السماء عبادةٌ، قال جلَّ جلاله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] انظر إلى السماء وإحكامها، وما فيها من ملكٍ الله بها عليمٌ، فإذا نظرت إلى السماء بارتفاعها واتساعها ، وهي بلا عمدٍ ترونها، ربك لم يجعل لها أعمدةً، بل قال لها كوني فكانت، سبحانه جلَّ جلاله،

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاجٍ، ولا تناقضٍ، ولا تباينٍ- بل هي مستقيمةٌ مستويةٌ دالةٌ على خالقها- وإن اختلفت صوره وصفاته.

وقيل: المراد بذلك السماوات خاصةً، أي ما ترى في خلق السماوات من عيبٍ. وأصله من الفوت، وهو أن يفوت شيءٌ شيئًا فيقع الخلل لقلة استوائها، يدل عليه قول ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا : من تفرق.

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقال: تفوت الشيء أي فات. ثم أمر بأن ينظروا في خلقه ليعتبروا به فيتفكروا في قدرته: فقال: فارجع البصر هل ترى من فطور أي اردد طرفك

(١) ينظر " النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٥١)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٣٩).

إلى السماء."[١]

فرب العالمين يقول: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ والرحمن اسمٌ من أسماء الله، وصفةٌ جليلةٌ من صفاته جلَّ جلاله، وكل اسمٍ لله ذُكر في كتابه فهو اسمٌ من أسمائه، ويتحمل صفةً جليلةً من صفاته، فالرحمن متضمنٌ لصفة الرحمة، وهذا الاسم الجليل كان المشركون ينكرونه، وكانوا يقولون لا نعرف رحمن إلا رحمن اليمامة، عن عطاءرَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فأنزل الله عزَّ وجل: وإلهكم إلهٌ واحدٌ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم." [٢]وهو مسيلمة الكذاب.

وقال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشُهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب."[٣]

ولما جاء سهيل بن عمروٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يكتب كتاب الصلح بين قريشٍ وبين الرسول؛

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٤)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٣٨)، "غريب القرآن" لابن قتيبة (٤٧٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٥٣٠٥)، وينظر "جامع البيان" للطبري (١٧/ ٤٨٢) و"الدر المنثور" للسيوطي (١١/ ١٩٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (١٦/ ٥٥٩).

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١/ ١٢٦).

فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم»"[١]

والرحمن هذه الصفة الجليلة أثرها عامٌ تشمل المسلم والكافر، وأما الرحيم فكما قال أهل العلم فهذه صفةٌ لله وأثرها خاصٌ بأولياء الله في الآخرة[٢]، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وعندما نقرأ قول الله جلَّ جلاله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] يعني علا سبحانه جلَّ جلاله على خلقه وارتفع برحمته، فعمت رحمته كل شيءٍ، عمت رحمته المسلم والكافر، والبر والفاجر[٣]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٣١) وأحمد في "مسنده" (١٨٩١٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٨٧٢) من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ به.

(٢) ينظر "تفسير أسماء الله الحسنى" للزجاج (٢٨)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١/ ١٢٦)، و"جامع البيان" للطبري (١/ ١٢٦)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (١/ ٧٠).

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١/ ١٢٦).

(٤) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في "صحيحه"(٣١٩٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧٥١).

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ سبحانه أحكم الخلق رحمةً بالعباد، فقال جلَّ جلاله ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ فطورٌ يعني شقوقٌ، أو ثقوبٌ، هل ترى فيها انشقاقـًا أو خروقـًا.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال الله جلَّ جلاله ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ يعني انظر إلى السماء، ثم أعد النظر مرةً ثانيةً، وانظر إليها وتأمل فيها جيداً، هل ترى من شقٍ، أو من خرقٍ في السماء؟ هل هناك عيبٌ فيها؟ هل هناك خللٌ في صنع ربي جلَّ جلاله؛ الذي أتقن كل شيء خلقه، سبحانه وبحمده؟ أبداً.

قال السادة العلماء[(١)]: قال ربنا تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ لأن الإنسان أول ما ينظر إلى الشيء لا ينتبه إليه جيداً، فأمر الله تعالى العبد أن ينظر إلى السماء، ثم أن يعيد ويكرر النظر مرةً ثانيةً ويتأمل.

وبعض العلماء قالوا: انظر مرةً بعد مرةٍ، ومراتٍ ومراتٍ، لن تجد عيبـًا أبداً في خلق الله، بل كلما نظر العبد إلى السماء نظرة تأملٍ، فإن هذا يزيد في إيمانه، لأنه يرى شيئـًا عظيمـًا يبهر العقول، يدله على عظمة الخالق العظيم جلَّ جلاله، ويدله على وحدانيته سبحانه وبحمده، ولذلك الأعرابي الذي سئل عن دليلٍ عن وجود الله، فقال سبحان الله، هذه البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراجٍ،

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٦)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٩/ ٢٣٢)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/ ٥٧٧).

وأرضٌ ذات فجاجٍ، وبحارٌ ذات أمواجٍ، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير، تبارك الله رب العالمين. (١)

ولله در القائل:

فَوا عَجَباً كَيفَ يُعصى الإِلَهُ　　أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ　　تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ(٢)

وفي الصحيح عَنْ كُرَيْبٍ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ بَاتَ لَيْلَةً عِنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ خَالَتُهُ فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الوِسَادَةِ " وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَجَلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ العَشْرَ الآيَاتِ الخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي. " (٣)، صلوات ربي وسلامه عليه، وكان كثيراً ما ينظر إلى السماء.

﴿**ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ خاسئًا وهو

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (١/ ١٩٧).

(٢) ينظر " ديوان أبي العتاهية" (٤٦).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٨٣)، ومسلم في "صحيحه" (٧٦٣). من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به.

حسيرٌ أي كليلٌ متعبٌ(١)، قد أعياه أن يجد خللاً، في ملك الله تبارك وتعالى، خاسئًا أي مبعداً، وأيضـًا يرجع إليك البصر ذليلاً، لم ينل قصده، وهذا يقال عندما ينظر الإنسان ويتفحص جيداً؛ لعله يجد عيبـًا، لعله يجد خللاً فلا يجد، فيرجع خاسئـًا وهو حسيرٌ، أي كليلٌ أتعبه النظر، لعله يجد شيئـًا ولكنه لا يجد، وهو حسيرٌ أي متعبٌ، بلغ الغاية في التعب، ولم يجد ويُحصِّل بغيته.

قال رب العالمين سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ**﴾ السماء الدنيا التي هي قريبةٌ إلى أهل الأرض، وهي أول سماءٍ، ربنا تعالى يقول زينها بمصابيح(٢)،

﴿**وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ**﴾ ذكر الله تعالى فائدتين للنجوم في هذه الآية، زينةً للسماء، ورجومـًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها كما قال تعالى: (﴿**وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**١٦﴾ [النحل: ١٦]، وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ "خلق الله تعالى النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجومـًا للشياطين، وعلاماتٍ يهتدى بها في البر والبحر والأوقات. فمن تَأَوَّل فيها غير ذلك فقد تَكَلَّف ما لا علم له به، وتعدى وظلم"(٣)

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ١٢١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٦)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٢٩٣)، و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٧٠).

(٢) ينظر "الكشاف" للزمخشري (٤/ ٥٧٧)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٧٧)، و"تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي (٨٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" معلقا (٤/ ١٠٧)، والطبري في "جامع البيان" (١٤/ ١٣٩)،

فمن تعدى مثل المنجمين الذين يقولون، برج الميزان والعقرب، وستحدث لك سعادةٌ في الأسبوع الفلاني، أو ستصاب في عزيزٍ عندك، في اليوم الفلاني، كل هذا من الرجم بالغيب، وهو محرمٌ لا شك في ذلك، وقال محمد بن كعبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والله ما لأحدٍ من أهل الأرض في السماء نجمٌ، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلاً، ويتخذون النجوم علةً". (١)

فلذلك مولانا قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولكن جعل الله هذه النجوم زينةً للسماء، وجمالاً، ونورًا، وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زيَّن السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثيرٌ من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافةٌ، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها." (٢)

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي أن الله تعالى زينها بزينةٍ للكواكب، كما قال الله تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ۝٦﴾ [الصافات: ٦].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وهل الشياطين ترجم بالنجوم؟ لا وإنما بشهبٍ

=وابن أبي حاتم في "تفسيره"(١٦٥٣٦)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٤/ ١٢٢٦).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"(١٦٠٤٧)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٣/ ٢١٧)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٤/ ١٢٣٠).

(٢)ينظر "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي (٨٧٥).

تنفصل عن النجوم، تخرج شهبٌ من النجوم أو الكواكب ترمي هؤلاء الشياطين، الذين يسترقون السمع فتحرقهم، إما قبل أن يلقي الكلمة إلى الكاهن، وإما أن يكن بعد أن ألقاها." (١)

قال ربنا جلَّ جلاله وتباركت أسماءه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾

مسألةٌ: قال الله عن خلق الجن: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٧] وقال عن عذاب شياطينهم: وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وهو النار، لو قيل كيف يعذب الشيطان وهو مخلوقٌ من نار؟

نقول للمؤمن: لقد جاءك في أول السورة أن الله على كل شيءٍ قديرٌ، وقد آمنت بذلك، فلا اعتراض حينئذٍ على شيءٍ، فطالما أخبر الله بذلك فهو حق، وسيعذبهم بالنار عذاباً أليماً، جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه.

قال عز وجل:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

---

(١) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٥٣)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٢٩٤).

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هنيئًا لليهود، وهنيئًا للنصارى، وهنيئًا لملل الكفر؛ كفرهم الذي حادوا به عن طريق الحق؛ لأنهم ما انقادوا لسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ، وعظموا شريعته، وآمنوا به، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] يعني إلى كل أهل الدنيا، بل إلى الإنس والجن، عليه الصلاة وأتم السلام، فهذا الكافر ليهنأ بكفره ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ [الزمر: ٨]،

وقفةٌ: ينبغي على المؤمن ألا يكون عنده شكٌ- ولو قدر مثقال ذرةٍ -في أن اليهود والنصارى وغيرهم من ملل الكفر- لو مات الواحد منهم على كفره- فهو في النار، فأي يهوديٍ، وأي نصرانيٍ، وأي إنسانٍ يتدين بدينٍ غير دين الإسلام، ويموت عليه فهو حطبٌ لجهنم، كما ثبت عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌ، ولا نصرانيٌ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»(١)

فليحذر العبد أن يُلبس عليه أهل الضلال دينه، فهؤلاء الضُلَّال الذين يُروجون لمثل هذه الاعتقادات الضالة والأقوال الباطلة لا يتكلمون لله، بل يتكلمون لغير الله، فديننا واضحٌ والحمد لله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٥٣)، وأحمد في "مسنده"(٨٢٠٣)، والنسائي في "السنن الكبرى"(١١١٧٧).

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: ١-٦]

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ الكفار الذين ماتوا على غير دين الإسلام، كما قال الله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥] يخسر نفسه، ويخسر أهله، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ وفي قول تعالى بِرَبِّهِمْ إشارةٌ إلى عظيم كفرهم، فقد كفروا بالذي خلقهم، وكفروا بالذي رباهم، ووالى عليهم نعمه وآلائه، وإشارةٌ أيضاً إلى أنهم كفروا بمن يرزقهم، ويدبر أمورهم، وهذا معنى الرب، فالربُّ هو الخالق المالك المدبر، فهو الذي يشفي، ويفرج الكرب، ويجلب الخير سبحانه، فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ يعني أنهم كفروا، وكفرهم عظيمٌ، وهو الذنب الذي لا يغفره الله أبداً- الكفر بالله، والشرك به- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾ وما أدراك ما جهنم -نعوذ بالله منها-، عن عبد الله - يعني ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا» (١)

وصدق ربي عزَّ وجلَّ حيث قال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه "(٢٥٧٣)، والحاكم في "المستدرك" (٨٧٥٨).

نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨]

وقفةٌ: العبد المؤمن يعتقد أن هناك ناراً أعدها الله تعالى للعصاة؛ الذين عصوا أمره وخالفوا شريعته، ولذلك وجب عليه أن يعمل أعمالاً تنجيه من نار الله، فينقذ نفسه بهذه الأعمال من النار، فالرسول ﷺ نادى في قريشٍ فعمَّم وخصَّ، حتى نادى أحب الناس عنده، عمه العباس، وعمته صفية، وابنته فاطمة، وقال اعملوا، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عزَّ وجل: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾**﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش - أو كلمةٍ نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا» (١)،

فالواحد منا مطالبٌ شرعًا وعقلاً وعرفًا أن يُنقذ نفسه من النار، وقد أمرنا ربنا بهذا، حيث قال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾**﴾ [التحريم: ٦] -نسأل الله المدد والإعانة، ونسأل الله أن يَقِينَا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا-

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٧٥٣)، ومسلم في "صحيحه" (٢٠٦).

فهذه الحياة قصيرةٌ، وسريعـًا ما تمرُّ، ولكن الشيطان يغوي ابن آدم، فيجعله واقفًا مع حظوظ نفسه، ومع الشهوات حتى يكون معه في النار ، وذكر الله تعالى في كتابه وعد الشيطان بذلك، فقال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] فينبغي على العبد أن لا يتبع الشيطان، ولذلك وجب عليه أن يكون من الشاكرين، وأن يكون من الطائعين، الذين يُنجون أنفسهم وينقذونها من النار.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بئس المصير وشره مصيرهم، وشر المآب، وشر المرجع مرجعهم- نسأل الله العافية-، شر ما يصيرون إليه، هو الشر كله، عذابٌ دائمٌ أبد الآباد، حين ينادى "يا أهل النار خلودٌ بلا موتٍ" -نعوذ بالله ونسأل الله العافية والسلامة-(١).

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ إذا أُلقوا في النار سمعوا لها شهيقـًا، وهي زفرةٌ عظيمةٌ، وصوتٌ يرعبهم ويزلزلهم، زيادةً في عذابهم، وقيل: هو مثل شهيق البغل أو الحمار عندما يرى الطعام، وشتان شتان بين هذا وذاك، فالنار تزفر زفرةً عظيمةً، بسبب غضب الله عزَّ وجلَّ، وهذا زيادةٌ في عذاب الكافرين(٢)

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٤٤)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٥٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به.

(٢) ينظر "البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٢٩٤)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ١٩٩)،

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: "الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفر زفرةً لا يبقى أحد إلا خاف."[(١)]، وقال عطاء رحمه الله: "الشهيق من الكفار عند إلقائهم في النار."[(٢)]

وَهِيَ تَفُورُ تغلي غلياناً عظيماً، قال مجاهد رحمه الله: "تفور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير"[(٣)] -نعوذ بالله نسأل الله العافية ونسأل الله النجاة-، وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما "تغلي بهم غلي المرجل".[(٤)]

وهذا من شدة لهب النار، ومن شدة غضب الله عزَّ وجلَّ -نسأل الله العفو والعافية-.

﴿**إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ**﴾ نسأل الله النجاة، ﴿**تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ**﴾ تكاد ينفصل بعضها عن بعضٍ، من شدة غيظها عليهم، سبحان الله، النار تتغيظ على الكفار، وتشتد في عذابها عليهم، ﴿**تَكَادُ تَمَيَّزُ**﴾ تكاد تنفصل، وتكاد تتقطع

=و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٥٦)، و"جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١٢٣).

(١) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٥٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٩).

(٢) ينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٥)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٥٦).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ١٢٤)، وينظر " الدر المنثور"(١٤/ ٦١٠) و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٧٧).

(٤) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٥٦)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٩)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ١٠٠).

أيضـًا، فيتقطع بعضها عن بعضٍ، من شدة غيظها على أعداء الله.(١)

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ كلما أُلقي في النار فوجٌ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال النبي ﷺ " تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ: فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا "(٢)

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه سمع أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: قال رسول الله ﷺ " اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ "(٣)-نعوذ بالله من النار-.

يقول الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني يسألهم خازن النار، مالكٌ ومن معه، تبكيتـًا وتوبيخـًا، وأيضـًا ذلاً وإهانةً، وزيادةً في

(١) ينظر "جامع البيان" (٢٣/ ١٢٤)، والنكت والعيون" للماوردي (٦/ ٥٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١١٩)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٧٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨٥٠)، ومسلم في "صحيحه"(٢٨٤٦).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه "(٣٢٦٠)، ومسلم في "صحيحه"(٦١٧).

عذابهم، ألم يأتكم نذيرٌ يعلمكم عظمة الله تعالى ويخوفكم بأسه- إعلامٌ مع تخويفٍ- فيعلمكم الواجب عليكم ويخوفكم عذابه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقوله: ﴿**كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ**﴾ [الملك: ٨] يقول جلَّ ثناؤه: كلما ألقي في جهنم جماعة سألهم خزنتها ﴿**أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ**﴾ [الملك: ٨] يقول: سأل الفوج خزنة جهنم، فقالوا لهم: ألم يأتكم في الدنيا نذير ينذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟ فأجابهم المساكين فقالوا ﴿**قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ**﴾ [الملك: ٩] ينذرنا هذا ﴿**فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا**﴾ له: ﴿**مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ**﴾ [الملك: ٩] يقول: في ذهاب عن الحق بعيد."[1]

﴿**أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ**﴾ وهنا أهل العلم يقولون: بأن هذا من تمام عدل الله، أنه لا يُعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه[2]، ﴿**فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١**﴾ ولذلك مولانا قال في سورة الإسراء: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥**﴾ [الإسراء: ١٥] وأيضـاً قوله جلَّ جلاله: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ**

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١٢٥)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٢٠).

(٢) قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ١٨٧): "يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥**﴾ [الإسراء: ١٥]."

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ٧١﴾ [الزمر: ٧١] -اللهم أجرنا ولا تجعلنا منهم يا رب، واجعلنا من عبادك السعداء، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، واجعلنا من أهل الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ-.

قال ربنا تعالى: **﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾** كذبوا الرسل، وقالوا على الرسل أنتم أدعياء، افتريتم على الله الكذب، ما بعثكم الله إلينا،

وقالوا **﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾** قالوا للرسل أنتم في ضلالٍ، وليس ضلالاً فقط، بل كبيرٌ والعياذ بالله، ويدل هذا على عظيم افترائهم الكذب على أنبياء الله، وتطاولهم عليهم، وأنهم اتهموهم بالكذب والباطل.

قالوا: **﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾** يعني لو كانت لنا أسماعٌ نسمع بها الهدى، أو قلوبٌ نعقل بها، ما كنا في أصحاب النار، كانت لهم أسماعٌ؛ لكنهم لم يسمعوا بها، وكانت لهم قلوبٌ وعقولٌ؛ لكنهم والله لم يفقهوا بها، وهذا هو خذلان الله للعبد -والعياذ بالله-، أن يكون الإنسان من أقوى الناس، وقد صحح الله بدنه، وله سمعٌ وله بصرٌ، ولكنه لا يهتدي للهدى، فهذا هو المخذول، ولذلك ربنا تعالى قال عن مثل هؤلاء: **﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ١٧٩﴾** [الأعراف: ١٧٩]

وقفةٌ: ينبغي على العبد أن يستفيد من هذه النعم التي أنعم الله بها عليه، فيسمع ما

أمره الله به، فيستمع إلى القرآن، ويستمع للحديث، ويستمع للوعظ، ويستمع للعلماء، وينظر كذلك بعينيه إلى آيات الله في الكون، وينظر بها للقرآن، ويتدبر ويعقل عن الله أمره، فالكفار تندماً قالوا: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ**﴾ ندموا حيث لا ينفع الندم، واعترفوا حيث لا ينفع الاعتراف، ﴿**فَسُحْقًا**﴾أي بعداً، ﴿**لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾ بعداً لهم وقد عذبوا عذاباً أليماً(١)- نسأل الله العافية-.

قال عز وجل:

﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾**﴾

قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾، كما قال تعالى: ﴿**مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ**﴾ [ق: ٣٣]. أَيْ يَخَافُونَ اللهَ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ الَّذِي هُوَ بِالْغَيْبِ، وَهُوَ عَذَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لِذُنُوبِهِمْ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وهو الجنة.

قوله تعالى: بالغيب فيه ستة أوجهٍ:

أحدها: أن الغيب الله تعالى وملائكته، قاله أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: الجنة والنار، قاله السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) ينظر "روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٣٠٢)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٣٦٥).

الثالث: أنه القرآن، قاله زر بن حبيشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرابع: أنه الإسلام لأنه يغيب، قاله إسماعيل بن أبي خالدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الخامس: أنه القلب، قاله ابن بحرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

السادس: أنه الخلوة إذا خلا بنفسه فذكر ذنبه استغفر ربه، قاله يحيى بن سلامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. (١)

ثم قال تعالى: ﴿**وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**﴾ اللَّفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر، والمعنى إن أخفيتم كلامكم في أمر محمدٍ ﷺ أو جهرتم به فإنَّ الله عليمٌ بما في القلوب من الخير والشّرِّ. (٢)

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "أنها نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَنَالُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَيُخْبِرُهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ كَيْ لَا يَسْمَعَ رَبُّ مُحَمَّدٍ، فَنَزَلَتْ: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ."(٣)

﴿**وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ**﴾ يَعْنِي: أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقِيلَ فِي سَائِرِ الْأَقْوَالِ. أَوِ اجْهَرُوا بِهِ، أَعْلِنُوهُ. ﴿**إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣**﴾ ذَاتِ الصُّدُورِ

---

(١) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٥٤).

(٢) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٠)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٢٢)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٩/ ٢٤٣).

(٣) ينظر "أسباب النزول" للواحدي (٤٤٢)، و "التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٢٩)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ١٠١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٧٨).

مَا فِيهَا، كَمَا يُسَمَّى وَلَدُ الْمَرْأَةِ وَهُوَ جَنِينٌ" ذَا بَطْنِهَا".

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قال أهل التفسير: إن شئت جعلت من اسمًا للخالق جلَّ وعزَّ، ويكون المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه. وإن شئت جعلته اسمًا للمخلوق، والمعنى: ألا يعلم اللّه من خلق. ولا بدّ أن يكون الخالق عالمًا بما خلقه وما يخلقه.

قال ابن المُسيِّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بينما رجلٌ واقفٌ باللّيل في شجرٍ كثيرٍ وقد عصفت الرّيح فوقع في نفس الرّجل: أترى اللّه يعلم ما يسقط من هذا الورق؟ فنُودي من جانب الغيضة بصوتٍ عظيمٍ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾."[(١)]

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ امتنَّ الله على عباده، بأنه هو الذي جعل الأرض مذللةً، فذللها لنا، وجعلها ميسرةً، مبسوطةً، ممهدةً، وسخرها الله تعالى لنا لقضاء معايشنا، للبناء عليها، والحرث فيها، والتنقل في أرجائها، من أجل صلاح المعاش، وكذلك صلاح المعاد.[(٢)]

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ وأيضـًا بعض السادة

---

(١) أخرجه الثعلبي في " الكشف والبيان" (٢٧/ ١٠٦)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٢٢)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٩/ ٢٤٥)، و" السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" للخطيب الشربيني (٤/ ٣٤٣).

(٢) ينظر "بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٤٧٦)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٢٣).

العلماء من أهل التفسير قالوا: هذا وعيدٌ وتهديدٌ، وهو من سر اتصال الآية بما قبلها، قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى بين بالدلائل كونه عالمـًا بما يسرون وما يعلنون، ثم ذكر بعد هذه الآية على سبيل التهديد،

ونظيره من قال لعبده الذي أساء إلى مولاه في السر: يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك، كل هذا الخير الذي هيأته لك ولا تأمن تأديبي، فإني إن شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك ومركز سلامتك منشأً للآفات التي تتحير فيها ومنبعـًا للمحن التي تهلك بسببها، فكذا هاهنا،

كأنه تعالى قال: أيها الكفار اعلموا أني عالمٌ بسركم وجهركم، فكونوا خائفين مني محترزين من عقابي، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها، وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم، أنا الذي ذللتها إليكم وجعلتها سببـًا لنفعكم، فامشوا في مناكبها، فإنني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن، فهذا هو الوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها."[١]

فالله تعالى يقول كما في هذه الآية العظيمة: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا**﴾ ومناكبها يعني طرقاتها، وقيل مناكبها يعني أرجائها، وقيل أيضـًا مناكبها يعني جبالها[٢]، وكل هذا صحيحٌ، فمناكبها جوانبها، من ذلك جانبا الرَّجُلِ،

---

(١) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٦٠)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٩/ ٢٤٦).

(٢) ينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٥١)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٥٤)،

وأيضـًا جبالها، فعن قتادة، أن بشير بن كعبٍ، قرأ هذه الآية: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ فقال لجاريته: إن دريت ما مناكبها فأنت حرةٌ لوجه الله، قالت: فإن مناكبها جبالها، فسفع وجهه، ورغب في جاريته، فجعل يسأل عن ذلك؟ فمنهم من يأمره، ومنهم من ينهاه، حتى لقي أبا الدرداء، فذكر ذلك له فقال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الخير في طمأنينةٍ، وإن الشر في ريبةٍ فنزل ذلك»[(١)]،

والظاهر من السياق: أنه قال لها ذلك تعجيزاً لها ظنـًا منه أنها لا تدري، فقالت: مناكبها جبالها، فاستفتى فأفتوه بإعتاقها وأن الشر في الريبة فأعتقها.

الله تعالى يقول: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ وهذا من منَّة الله وفضله على خلقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨] ليس أحدٌ يَرزق من الخلق، فالله وحده هو الذي يرزق العباد كلهم، والله سبحانه جلَّ جلاله وحده هو الذي عليه رزق خلقه كلهم، من أول خلقهم إلى قيام الساعة، ولذلك سبحانه جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، وتعالت صفاته، قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: ٢٦] هذا ملك الله، وهؤلاء عباده، يعطي من شاء ما شاء، ويُضيِّق على من شاء ما يشاء، يعطي من شاء ما يحب، ويمنع

=و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٢١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه"(١٦١٦٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٨٩٣٢)، والطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ١٢٨).

عن من يشاء ما يحب-سبحانه وبحمده-، فربنا العظيم الملك ملكه، فلا يدخل قلب العبد شيءٌ من الاعتراض على قسمة الله لعباده، وليحذر أن يدب الحسد في قلبه، فإن الحاسد معترضٌ على قسمة الله جلَّ جلاله،

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ سبحانه جلَّ جلاله، الذي قال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ١٩﴾ [الشورى: ١٩] يرزق من يشاء، رزق مريم وهي في أضعف حالاتها، ورغم ذلك قال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] وهل هذه المرأة الضعيفة التي ضرتها الولادة وأضعفتها تستطيع أن تهز وتؤثر في جزع النخلة؟! لكنه تعالى قال لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ ما عليك إلا أن تأخذي بأدنى سببٍ، ونحن نأتيك بالأرزاق، وقبل ذلك كان يأتيها رزقها وهي في بيت المقدس غدوةً وعشيـًا، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧] -نسأل الله أن يرزقنا وإياكم بغير حساب-،

وقفةٌ: أرزاقنا في الحقيقة ليست في الأرض، أرزاقنا في السماء وتنزل إلى الأرض، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢]، جعل الله أسبابـًا لسعة الأرزاق ولضيق الأرزاق، فالبارُّ الواصل للرحم المطيع لربه المتقي رزقه واسعٌ، والعاصي العاق لوالديه قاطع الرحم رزقه ضيقٌ،

فلذلك رب العالمين يقول: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ وهذا ظاهرٌ في التهديد في هذه الآية العظيمة، يعني امشوا في مناكبها أي امشوا في الأرض كما

تشاؤون، وكما تفعلون، اذهبوا وارجعوا واضربوا في نواحيها، واضربوا في طرقاتها، واضربوا في أرجائها، وكلوا من رزقه، ثم إليه سترجعون فيحاسبكم بأعمالكم، ويوفيكم إياها، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله عزَّ وجلَّ ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه(١)".

قال عز وجل:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذا أيضـاً تهديدٌ ووعيدٌ.(٢)

مسألةٌ: صفة العلو:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله الجليل جلَّ جلاله، وتباركت أسماؤه، هو الذي في السماء على العرش استوى، وهذه الآية استدل بها السادة العلماء على علوِّ الله

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٥٧٧)، والبغوي في "شرح السنة" (١٢٩١) من حديث أبي ذرٍ رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (٧٨٨).

عزَّ وجلَّ، وعلوُّ الله تبارك وتعالى تنوعت الدلالة عليه، فالله تعالى ليس كالخلق، ربنا جلَّ جلاله عالٍ على خلقه، له العلوُّ المطلق وهو علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر[(١)]، فالقهر كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨]، والقدر أي أن قَدْرَه سبحانه جلَّ جلاله عالٍ، وهو عالٍ على عباده في السماء حقيقةً ، كما في حديث المعراج، قال ابن شهابٍ: فأخبرني ابن حزمٍ، أن ابن عباسٍ، وأبا حبة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كانا يقولان: قال النبي ﷺ: « ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلاَمِ»، قال ابن حزمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وأنس بن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: قال النبي ﷺ: " فَفَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لاَ يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي، حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ؟ ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ"[(٢)]،

---

(١) ينظر "مدارج السالكين" لابن القيم (١/ ٥٥)، و"حاشية كتاب التوحيد" لابن قاسم (٣٢).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٣٤٩)، ومسلم في "صحيحه"(١٦٢).

قال ابن تيميةرَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة: مملوءٌ بما هو إما نصٌ وإما ظاهرٌ في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى، وهو فوق كل شيءٍ، وهو على كل شيءٍ، وإنه فوق العرش، وأنه فوق السماء، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]."(١)

قال ابن القيمرَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قال قائلٌ: أتقولون إنه في كل مكانٍ، قيل: معاذ الله، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر في كتابه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]."(٢)

دلالات صفة العلو في القرآن:

وتنوعت دلالة القرآن الكريم على علو ربنا تعالى، أحيانـًا يدلل على علو الله كما يقول: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، وأيضـًا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥] سبحانه جلَّ جلاله، وكذلك ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] سبحانه وبحمده، وكذلك يدلل عليه بعروج أو صعود بعض الأشياء

(١) ينظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (٥/ ١٢).

(٢) ينظر "الصواعق المرسلة" لابن القيم (٣/ ١٢٥٢).

إليه، ونزول بعض الأشياء إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] -نسأل الله أن يجعلنا من أصحاب القول الطيب والعمل الصالح-، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وأيضًا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وأيضًا آيات التنزيل ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] والنزول يكون من علوٍ، وآيات العروج ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

دلالات صفة العلو في السنة:

وقول النبي ﷺ في الصحيحين «أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً» (١)،

وحديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، وقال فيه: " وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»". (٢)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٤٣٥١)، ومسلم في "صحيحه"(١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه به.

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٣٧)، وأبو داود في "سننه"(٩٣٠)، والنسائي في "المجتبى"

وقفةٌ: هذه الجارية أعلم من كثيرٍ من المثقفين؛ الذين يزعمون أن الله في كل الوجود، يقولون الله موجودٌ في كل الوجود، وهذه لفظةٌ خاطئةٌ جداً، لأنك لو قلت الله موجودٌ في كل الوجود، فسيُقال لك - أعزَّك الله وتبارك الله رب العالمين- هل ربك موجودٌ في الزبالة؟ هل ربك موجودٌ في أماكن قضاء الحاجات؟ والإجابة لا، فإن الله أحاط بكل شيءٍ علمـاً، وهو في السماء على العرش استوى، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال عباده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤] سبحانه وبحمده، ولذلك قال النبي ﷺ لها أين الله؟ قالت في السماء، قال لها من أنا؟ قالت أنت رسول الله، قال اعتقها فإنها مؤمنة، ﷺ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَصْعَدُ إِلَى اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ» (١)، هذه رواية في صحيح الإمام البخاري، وروايةٌ أخرى صحيحةٌ ثابتةٌ "وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ"(٢)، يعني مهما تصدق العبد من كسبٍ خبيثٍ لا يصعد إلى الله، ولا يقبله الله، سبحانه وبحمده.

=(١٢١٨) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه به.

(١) أخرجها البخاري في "صحيحه"(٧٤٣٠)، وابن ماجه في "سننه"(١٨٤٢)، وأحمد في "مسنده" (٨٣٨١).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به.

ومن الأدلة الكثيرة أيضـًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسول الله ﷺ: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ "(١)

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ".(٢)

وأدلةٌ كثيرةٌ جداً تدل على أن الله في السماء تبارك الله ذو الجلال والإكرام، فينبغي على العبد أن يعظم ربه سبحانه، وأن يعلم أنه على العرش استوى، ولا يخفى عليه شيءٌ من أقوال العباد ولا أفعالهم ولا ما تكنه صدورهم، ولذلك قال: ﴿وَأَسِرُّواْ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠١٥)، والترمذي في "سننه"(٢٩٨٩)، وأحمد في "مسنده" (٨٣٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٧٩)، وابن ماجه في "سننه"(١٩٥)، وأحمد في "مسنده" (١٩٥٣٠).

قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يا معشر المشركين، يا من كفرتم بالرحمن عزَّ وجلَّ، أأخذتم أمانـًا من الله جلَّ جلاله الذي في السماء، أن يخسف بكم الأرض التي ذللها لكم وتمشون وتجيئون عليها، وأنتم تكفرون به سبحانه وبحمده، والخسف يجعل هذه الأرض تغور بهم -نسأل الله العافية-، كما خسف الله تعالى الأرض بقارون، قال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: ٨١] -نعوذ بالله، نسأل الله العافية والسلامة-، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب وتتحرك.[١]

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ الحاصب حجارةٌ صغيرةٌ كثيرةٌ[٢]، يرسل عليكم حاصبـًا كما أرسلها على قوم لوطٍ -نسأل الله العفو والعافية-، ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ ستعلمون كيف إنذاري لكم،

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كذبت أممٌ قبلهم، قوم فرعون، وقوم ثمود، وقوم عادٍ، وغيرهم، وأهلكهم الجبار جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ كيف كان إنكاري عليهم، وكيف حل بلائي بهم، وكيف كان

---

(١) ينظر "البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٢٩٦)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٦٢)، و"لسان العرب" لابن منظور (٥/ ١٨٦)،

(٢) ينظر "غريب القرآن" لابن قتيبة (٣٣٨)، و "الكشف والبيان" للثعلبي (١٦/ ٣٩٠)، و"فتح القدير" للشوكاني (٣/ ٣٤٩)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٥/ ١٠٧)

انتقامي منهم.[١]

قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وهذا فيه لفتٌ للنظر، فينبغي على العبد أن يستفيد من الكون حوله، في الدلالة على الله رب العالمين،

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وهذا عتابٌ وحثٌ على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تَصُفُّ فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحةً في الجو، مترددةً فيه بحسب إرادتها وحاجتها." [٢]

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي تصفُّ أجنحتها، وتطير في الهواء، ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ يقبضن الأجنحة للنزول إلى الأرض[٣]، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ ما يمسكهن في الجو إلا الله الرحمن سبحانه، ودل اسم الرحمن على أن الله تعالى عمَّ العباد برحمته، ولذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] يعني استوى جلَّ جلاله على العرش استواءً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وعمت رحمته الكون كله، الإنس والجن، مسلمهم وكافرهم، سبحانه وبحمده

صفة الاستواء:

قال ابن كثيررَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤]

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٢٧)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٣١٣)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٣٦٨).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي (٨٧٧).

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٨٠)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٧٩).

فللناس في هذا المقام مقالاتٌ كثيرةُ جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفيٌ عن الله، فإن الله لا يُشبهه شيءٌ من خلقه، و ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١] بل الأمر كما قال الأئمة -منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري -: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر". وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهٌ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى "(١)

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿**ٱسْتَوَىٰ**﴾ **تبارك** وتعالى ﴿**عَلَى ٱلْعَرْشِ**﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية."(٢)

﴿**إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ**﴾ بصيرٌ جلَّ جلاله بكل شيءٍ، فكل شيءٍ يؤتيه ويعطيه الذي يناسبه، يعطي الطير وهي خلقٌ ضعيفٌ قوةً لتطير في الهواء، فلا يمكن للإنسان أن

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٣/ ٤٢٦).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (٢٩١).

يطير مثلها، ويعطي كل كائنٍ مخلوقٍ ما يناسبه، سبحانه جلَّ جلاله بصيرٌ بهم.

قال عز وجل:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى
غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن
يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى
ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾
قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿**أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ**﴾ ءآلهتكم، أوثانكم، أصنامكم، التي تعبدونها من دون الله، أتظنونها تنصركم، أهي تنصركم على أعدائكم؟ أم من هذا الذي ينصركم من دون الرحمن؟ لا أحد ينصركم، أي لا ناصر لكم، وهو استفهام إنكارٍ، والمعنى: لا ناصر لكم من دون الرحمن، ﴿**إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ**﴾ فبعد ما أيقنوا وتأكدوا أن هناك أدلةً بينةً على وحدانية ربهم، وعظمته، وأنه الإله المعبود بحقٍ، المستحق للعبادة وحده، ومع ذلك استمروا في كفرهم، فالله تعالى قال: ﴿**إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ**﴾ غرهم الشيطان -نعوذ بالله تعالى- وغرتهم الأماني.

﴿**أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ**﴾ أي من ذا

الذي يرزقكم أيضـاً من دون الله، لا أحد يرزقكم إلا الله عزَّ وجلَّ، ورغم أنهم يوقنون بذلك ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩] ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فهم يوقنون بربوبية الله، ولكنهم كانوا يشركون معه في الإلهية،

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣] يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك: من نزل من السماء ماء، وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ١٦٤] يقول: فأحيا بالماء الذي نزل من السماء الأرض، وإحياؤها: إنباته النبات فيها ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] من بعد جدوبها وقحوطها، وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [العنكبوت: ٦١] يقول: ليقولن: الذي فعل ذلك الله الذي له عبادة كل شيء، وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ﴾ [النمل: ٥٩] يقول: وإذا قالوا ذلك، فقل الحمد لله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] يقول: بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون ما لهم فيه النفع من أمر دينهم، وما فيه الضر، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله، ينالون بها عند الله زلفة وقربة، ولا يعلمون أنهم بذلك هالكون مستوجبون الخلود في النار."(١)

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (١٨/ ٤٣٩)، و "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٦/ ٢٠٢).

فلذلك قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟﴾ لجوا أي استمروا، ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي في تعالٍ وظلمٍ ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي إدبارٌ، وبُعدٌ عن هدي الله عزَّ وجل- والعياذ بالله-[١]، وهذا من تمام شقاوة العبد، أن يرى الهدى ويعلم الحق، ورغم ذلك يتمادى في عتوه ونفوره، ويتعالى عن قبول الحق، ويشرد عن الهدى.

ثم يأتي هذا المثل العظيم، مثلٌ يضربه الله تعالى للمهتدي والضال، للمسلم والكافر، للمتقي والفاجر، ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هل يستوي هذان الرجلان، هل يستوي رجلٌ منكبٌ على وجهه يعني منهمكًا فيما حرم الله تعالى عليه، لا ينزوي عن شيءٍ مما حرمه الله، كمن يمشي وقد طأطأ رأسه، ويمشي لا يُبصر أمامه، ولا يُبصر عن يمينه، ولا يُبصر عن يساره، أهذا يستوي مع رجلٍ يمشي مرتفع القامة، ينظر طريقه وينظر يمينه وشماله، يعلم أين يضع قدمه، فهذا هو العبد التقي الذي يراقب ربه ويتقيه، ويعلم مواطن محبته فيأتيها، ويعلم المواطن التي يكرهها رب العالمين فيجتنبها، هذا الذي يمشي سويًا على كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، معظمًا للقرآن، ومعظمًا للسنة، يبصر طريقه، ويعلم أين يضع قدمه، فلا يضعها إلا فيما أحل الله له، ويجتنب ما حرم الله عليه، هذا رجلٌ صالحٌ يعلم كيف يسلك، ولا يسلك إلا ما أحب الله، والطريق الذي يقربه إلى الله جلَّ جلاله، هل يستوي مع من كان مكبًا على وجهه، منغمسًا فيما حرم الله عليه، أعمى لا

---

(١) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٦٤)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/ ٥٨١).

يبصر طريقـًا، هذا الحال في الدنيا هو نفس الحال في الآخرة تمامـًا بتمامٍ، الذي يمشي سويـًا في الدنيا، ويمشي على صراط الله المستقيم، كذلك يحشر يوم القيامة مرفوع الرأس، إلى جنات النعيم- اللهم اجعلنا منهم-، والذي يمشي مكبـًا على وجهه، منهمكـًا فيما حرم ربه عليه -عافانا الله والمسلمين-، قال الله عنه يوم القيامة: ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾**﴾ [الإسراء: ٩٧] وفي الصحيحين عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ "[(١)].

﴿**أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ**﴾ وصدق الله، حيث قال: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾**﴾ [الأنعام: ٥٠] إنسانٌ يمشي فيما حرم الله عليه، فيأكل ربـًا، ويقع في الزنا، ويشرك مع الرحمن، ويوالي أعداء الدين، هل هذا يستوي مع الرجل الذي هو حريصٌ على الحلال، يأكل الحلال، ولا يقع فيما حرم الله عليه، ويؤدي فرائض ربه، ويجتنب ما حرم الله عليه، أبداً لا يستويان ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ**﴾ [الرعد: ١٦] سبحان الله رب العالمين، لا يستوي هذا مع ذاك، ﴿**أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.[(٢)]

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٧٦٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٠٦).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٨١).

ذكرهم الله بالأمم السابقة، فلم يعتبروا؛ ثم ذكرهم بالآيات في الكون حولهم، ومن ذلك النظر والتدبر في أمر الطير فوقهم في السماء، فيرون آيات الله في الكون، وهي تدلل لهم على قدرة القدير جلَّ جلاله، وتدلل لهم على عظمة الله الذي ينبغي أن يعظم ويجل سبحانه، فإذا بهم لم يعتبروا؛ ثم سألهم هل لكم جندٌ ينصركم من دون الله عزَّ وجل؟، ليس لهم، فهل لكم رازقٌ غير الله؟، ليس لهم رازقٌ غير الله،

ثم تنتقل الآيات للحديث عن النفس، حتى تعتبر، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ**﴾ يعني هو الذي خلقكم، والله تعالى يخاطبنا -أيضًا- بالتفكر في النفس، كما قال تعالى: ﴿**وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] ولو تفكر العبد في نفسه لانبهر، ولانشغل بشكر نعمة الله تعالى، والقيام بحقها، ﴿**قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ**﴾ تسمعون به أمر الله تعالى، وما يقربكم إليه ﴿**وَٱلْأَبْصَٰرَ**﴾ تبصرون الطرقات التي توصلكم إليه ﴿**وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ**﴾ التي تعي أمر الله جلَّ جلاله.

مسألةٌ: لماذا نصَّ على هذه الثلاث -سبحانه وبحمده- من بين سائر أعضاء البدن؟

قال أهل العلم: لأن هذه أشرف أعضاء بني آدم، السمع والبصر والفؤاد، وبها تتم الحجة على العبد، فالعبد يسمع بها كلام الله، ويبصر بها أوامر الله، ويعقل ويعي، فلذلك ذكر الله تعالى ونصَّ على هذه الثلاث، من بين سائر أعضاء بني آدم،

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار، وتقريره أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر

والقلب؛ فالأذن محل القوة السامعة، والعين محل القوة الباصرة، والقلب محل الحياة والعقل والعلم.

فلو زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء اختل أمر الإنسان وبطلت مصالحه في الدنيا وفي الدين. ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الآفات والمخافات ليس إلا الله. وإذا كان الأمر كذلك، كان المنعم بهذه النعم العالية والخيرات الرفيعة هو الله سبحانه وتعالى فوجب أن يُقال المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقةٌ باطلةٌ فاسدةٌ."(١)

قال أبو حفص الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المرادُ من هذا الكلام الدِّلالةُ على وُجُودِ الصانع الحكيم المُخْتَار؛ لأن أشْرَفَ أعضَاءِ الإنْسَانِ هو السَّمْعُ والبصر والقَلْبُ، والأذن محل القوة السّامعة، والعَيْنُ مَحَلُّ القوة البَاصِرَةِ، والقَلْبُ مَحَلُّ الحياة والعِلْمِ والعَقْلِ، فلوْ زالَتْ هذهِ الصِّفَات عن هذه الأعضاء اخْتَلَّ أمْرُ الإنسان، وبَطَلَتْ مَصَالِحُهُ في الدنيا والدِّين." (٢)

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وكأن الله تعالى يقول لكم: انتفعوا بهذه الجوارح واستخدموها في طاعتي، اسمعوا أمري واسمعوا ما يُقرِّبكم مني، وأبصروا كل ما يقربكم إليَّ، اقرؤا القرآن، وأبصروا الطرق إلى فعل الخيرات،

(١) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (١٢/ ١٨٧).

(٢) ينظر "اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (٨/ ١٥٣).

كذلك عليكم أن تجعلوا قلوبكم أوعيةً لكلام الله، وكلام رسوله ﷺ، فتنتفعون بهذه الجوارح، ولكن ربنا تعالى ختم الآية بقوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يعني قليلٌ من عباد الله الشاكرين، كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣] وأيضاً هذه الآية تدل على أنه قليلٌ شكركم.

وقفةٌ: نحن فعلاً مقصرون في الشكر فالعبد يسأل نفسه، كم مرةٍ في اليوم يحمد الله؟، كم مرةٍ يسبح الله وبحمده؟ كم مرةٍ يشكر ربه على آلائه؟، لعل اليوم يمر، والأيام تمر، وأسابيعٌ، وشهورٌ، ولعل الواحد منا ما قال مائة مرةٍ أو ألف مرةٍ الحمد لله، وما شابه ذلك.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي أن الشاكر منكم قليلٌ، وأيضاً قليلٌ شكركم- نسأل الله العفو والعافية-.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بثَّكم في الأرض[1]، فجعل هؤلاء يسكنون ها هنا، وهؤلاء يسكنون هناك، وهكذا بثكم ربكم تعالى على حسب ما اقتضته حكمته، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إليه تجمعون بعد انقضاء الآجال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعني أن الكفار ورغم وضوح الدلالات فهي ليست دلالةً واحدةً، بل أدلةٌ عظيمةٌ على وحدانية رب الأرض والسماوات، ورغم ذلك ينكرون يوم القيامة وينكرون لقاء الله، ويكذبون بالبعث بعد

---

(١) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٣)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٢٩٨)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٨٢).

الموت، ويقولون متى هو، متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، متى يوم القيامة، حكى الله قولهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وفي سورة الأنبياء نفس الآية هذه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٨-٤٠] نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

وقال ربنا تعالى أيضـًا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] أسأل الله أن يجيرنا من العذاب، ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أيُّ قلوبٍ هذه القلوب؟!، فالإنسان العاقل يقول يا رب إن كان هذا هو الحق أو الخير اهدني إليه، وهؤلاء يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ علم الساعة عند الله، لا يعلمها لا رسولٌ ولا ملكٌ مقربٌ، ولا وليٌ من أولياء الله، ولا إنسٌ، ولا جنٌ، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على الإنذار، أنذركم إنذار موضحٍ للطريق، مبينٍ للحلال والحرام.[1]

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ يحكي الله عن هؤلاء الكفار الذين كفروا بالله تعالى لما حل بهم العذاب في الآخرة، كما قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ

(١) ينظر "بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٤٧٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٣١).

﴿زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبـًا؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤٨﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تستعجلون"(١)

يعني كل ما هو آتٍ قريب، فالدنيا ستمضي سريعـًا، وصدق رب العالمين حيث قال: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥] هذه الدنيا كلها بتمامها ساعةٌ، فلذلك ربنا تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ﴾ كلمة زلفةً يعني قريبـًا، كما قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾ [الشعراء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤﴾ [الشعراء: ٦٤] قربنا فرعون وجنوده من البحر،

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ﴾ يعني قريبـًا منهم ووقع عليهم، وحل بهم بلاء الله عزَّ وجلَّ وانتقامه، ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حصل الذل والسوء والصغار واسودت، ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تدَّعون هو قولهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥﴾ تدَّعون يعني تدْعون، وتدَّعون يعني

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٨٢).

تطلبون، وتدَّعون يعني تسألون، وتدَّعون يعني تدَّعون الافتراءات الكاذبة والأباطيل، على رسول الله محمد ﷺ وعلى هديه.(١)

قال عز وجل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ وذلك لأن المشركين كانوا يدعون على رسول الله ﷺ بالهلاك، وقالوا شاعرٌ نتربص به ريب المنون، يعني يتمنون هلاكه،(٢)

فرسول الله ﷺ قال لهم يا قوم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ إن أماتني ربي، وحدث ذلك، وأمات من معي من المؤمنين، أو رحمنا وأصابنا برحمته فأكرمنا، وفزنا بالجنة ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن

---

(١) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٦٦)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٣)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٣١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٤/ ٣٣١)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٠١).

(٢) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٦٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٣٢)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (١٩/ ٢٥٨).

يجيركم وأنتم قد كفرتم بالله، وعصيتم أمري وأمر الله تعالى، وما أطعتم الشيطان وبقيتم على كفركم، فمن يجيركم من العذاب، وأنتم قد استحققتم عذاب الله عزَّ وجلَّ، ﴿**فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ يعني لا ينفعكم هلاكي، ولا تستفيدون منه شيئـًا، إنما تستفيدون إذا تبتم إلى الله وأبتم ورجعتم إليه.(١)

﴿**قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ**﴾ يخبر رب العزة جلَّ جلاله عن نبيه ﷺ، وعمن آمن معه، أنهم قالوا آمنا بالرحمن، قل هو الرحمن يرحمنا سبحانه جلَّ جلاله، في الدنيا والآخرة، آمنا به، وهذه تقتضي تحقيق الإيمان في الباطن، وتقتضي أعمال القلب أيضـًا، وأعمال الجوارح، فهذا هو الإيمان، تحقيق الإيمان في القلب، وتحقيق أعمال القلوب من الخوف والرجاء والمحبة، وكذلك الأعمال الظاهرة من صلاةٍ وزكاةٍ وتشهدٍ، وغير ذلك من أعمال الإيمان، وكما مرَّ معنا قبل ذلك أن الإيمان يدخل فيه الفعل والترك، فعل المأمور وترك المحظور، ويدخل في ذلك اعتقاد القلب وعمل القلب، وقول اللسان وعمل اللسان، وعمل الجوارح، وكذلك الترك، فترك الحرام من الإيمان،

فالله تعالى يقول: ﴿**قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ**﴾ ولما كان تحقيق أصل الإيمان وزيادة الإيمان لا يكون ذلك إلا بالتوكل على الرحمن، قال: ﴿**وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا**﴾ لا يكون ذلك إلا بالتوكل عليه، ورأس الإيمان التوكل على الله تعالى، قال: ﴿**وَعَلَيْهِ**

(١) ينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٨٠)، و" تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (٨٧٨).

﴿تَوَكَّلْنَا﴾ ولذلك ربنا تعالى حصر وقصر التوكل عليه، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] عليه وحده،

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فستعلمون يوم القيامة من هو في ضلالٍ وتيهٍ، وضلالٌ يعني تيهٌ وبعدٌ عن الحق، وهذا الضلال مبينٌ، أي بيِّنٌ ظاهرٌ.

وختم الله تعالى هذه السورة الجليلة بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غار ماؤُكم، ولم يبق منه قطرةٌ، أرأيتم إن غار ماؤكم، وأصبح غوراً[١] ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ فمن يأتيكم بماءٍ عذبٍ، وأيضـًا معينٌ يعني تراه العيون، [٢]

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ لا إله إلا الله، هو الذي يأتينا بالماء المعين، وكذلك هو الذي قال ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠] لله الحمد والمنة أن أنزل هذا القرآن الكريم، وجعله هدىً للمؤمنين، وجعله نجاةً لعباده الصالحين، وجعله روحـًا، وصدق الله حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] فالسعيد الذي يفتح له

---

(١) ينظر "مقاييس اللغة" لابن فارس (٤/ ٤٠١)، و"تاج العروس" للزبيدي (١٣/ ٢٧١)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٦٢).

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١٣٨)، و "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٤).

رب العالمين باب عملٍ بهذا القرآن، فيتعلم آيةً، ويعمل بها، ويدعو إليها، فهذا أبرك ما يكون في هذه الحياة الدنيا.

وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة الملك بفضل الله ومنته.

******

﴿ سُورَةُ القَلَمِ ﴾

هذه السورة العظيمة ثنتان وخمسون آيةً.

وهي سورةٌ مكيةٌ خالصةٌ في قول عددٍ من أهل العلم، كالحافظ ابن كثيرٍ وابن عطية وغيرهما، حيث قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهي مكيةٌ، ولا خلاف فيها بين أحدٍ من أهل التأويل". (١)

وقال عددٌ آخر من أهل العلم: بأن بعض آياتها مدنيةٌ، وهي الآياتُ من الآية السابعة عشر إلى الآية الثالثة والثلاثين، وكذلك من الآية الثامنة والأربعين إلى الآية الخمسين. (٢)

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هي مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابرٍ، وقال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: "من أولها إلى قوله سبحانه ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾ مكيٌ، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ مدنيٌّ، ومن بعد ذلك إلى قوله ﴿يَكْتُبُونَ﴾ مكيٌ، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مدنيٌّ، وباقي السورة مكية." (٣)

---

(١) أورده ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥/ ٣٤٥)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٣٥). وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الدر المنثور " (١٤/ ٦١٥): "وأخرج النحاس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة {ن والقلم} بمكة." أهـ

(٢) أورده المراغي في " تفسيره " (٢٩/ ٢٦).

(٣) ذكره الماوردي في "النكت والعيون" (٦/ ٥٩)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي

ترتيب نزولها: ذكر بعض أهل العلم أنها متقدمةٌ في النزول جداً، فقالوا: نزلت بعد سورة العلق مباشرةً، فأول ما نزل من القرآن العلق، ثم أنزل الله تعالى بعدها سورة القلم(١)، وقال البعض: هي رابع سورةٍ نزلت، فأول ما نزل العلق، وبعدها المدثر، وبعدها المزمل، وبعدها هذه السورة سورة القلم.(٢)

وعلى أيِّ حالٍ فآيات السورة العظيمة توضح وتبين أنها فعلاً نزلت قديمـًا، بينما يستشعر القارئ من بعض الآيات أنها لم تنزل في الأيام الأولى- والله أعلم-، وخاصةً أيام الدعوة السرية؛ لأن الآيات فيها أمرٌ للرسول ﷺ بالاشتداد على الكافرين، وعدم طاعتهم، وعدم مداهنتهم.

ويتبين من ذلك أنها نزلت في أوائل ما نزل؛ لكنها -والله أعلم- لم تنزل في أول أيام البعثة، ولعلها كذلك نزلت بعد أيام الدعوة السرية؛ لما جُهر بالدعوة.

مناسبتها لما قبلها:

١ - ذكر تعالى في آخر (الملك) تهديد المشركين بتغوير الأرض، وذكر هنا ما

=(٢١/ ١٣٥).

(١) ذكره المراغي في " تفسيره " (٢٩/ ٢٦).

(٢) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور " (١٤/ ٦١٥) أَخْرَج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء وكان أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم (المزمل) ثم المدثر"، وأخرج النحاس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ بمكة

هو كالدليل على ذلك؛ وهو ثمر البستان الذي طاف عليه طائفٌ فأهلكه، وأهلك أهله؛ وهم نائمون.

فالله تعالى في سورة الملك قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ ثم ذكر مثالاً على ذلك في هذه السورة ألا وهو تغوير الجنان وكيف أذهب الله تعالى بهما.

٢ - وذكر أيضاً فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأنه لو شاء لخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصباً، وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله، وكان المشركون ينسبونه فى ذلك مرةً إلى الشعر، وأخرى إلى السحر، وثالثةً إلى الجنون- فبرَّأه الله في هذه السورة مما نسبوه إليه، وأعظم أجره على صبره على أذاهم، وأثنى على خلقه.(١)

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿نٓ﴾ حرفٌ من الأحرف المقطعة؛

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ٢٦).

افتتح الله تعالى به هذه السورة.

الأحرف المقطعة في أوائل السور:

وقد افتتح الله تعالى تسعـًا وعشرين سورةً بالأحرف المقطعة تبدأ بالبقرة وتنتهي بهذه السورة، فمنها ما افتتح على حرفٍ كـ (ن، ق، ص) ومنها ما افتتح على حرفين كـ (حم، يس) ومنها على ثلاثة أحرفٍ كـ (الم، الر)، ومنها على أربعٍ كـ(المر)، ومنها على خمسٍ كـ(كهيعص).

فهذه الأحرف اختلف أهل العلم في معناها على أقوالٍ:

١ – منهم من قال: هي أسماءٌ من أسماء الله عزَّ وجل. [(١)]

٢ – ومنهم من قال: هي أسماءٌ للسور. [(٢)]

٣ – ومنهم من قال: هذه الأحرف استُعملت للتنبيه. [(٣)]

٤ – وأصح قولٍ– و الله أعلم– أن هذه الأحرف المقطعة افتتح الله تعالى بها هذه السور لحكمةٍ عظيمةٍ، وهي التحدي، و كأن الله تبارك و تعالى يخاطب المشركين الذين كذبوا القرآن الكريم، و قالوا بأنه من عند رسول الله، و أنه تقوَّلَه، وأنه أساطير

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٤٤) عن ابن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (١/ ٢٠٦) عن عبد الله بن وهبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: سألت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن قول الله: "**﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابَ﴾** و**﴿الم تَنْزِيلُ﴾** و**﴿المر تِلْكَ﴾** فقال: قال أبي: "إنما هي أسماء السور."

(٣) ينظر " تفسير المراغي " (١/ ٣٩).

الأولين، فالله تعالى يقول لهم: هذا القرآن العظيم مُكَوَّنٌ من (ن و ق و ص و حم و المص و كهيعص) و هذه أحرف اللغة العربية التي وصلتم في الفصاحة و البلاغة فيها إلى الذروة ؛ فأتوا بمثل هذا القرآن وستعجزون، أو أتوا بعشر سورٍ من مثله وستعجزون، أو أتوا بسورةٍ واحدةٍ مثل هذا القرآن الكريم وستعجزون.

والخلاصة: أن الله تعالى أعلم بمراد ومعنى هذه الأحرف؛ ولكن المقصد من إيرادها أن الله تعالى يتحدى بها العرب الفصحاء البلغاء الذين وصلوا في الفصاحة والبلاغة إلى أعلى ما يمكن أن يصل إليه بشرٌ؛ ورغم ذلك يُكذِّبون بالقرآن، فينسبونه إلى السحر، وإلى الكهانة، وإلى الشعر، وقد علموا أن رسول الله ﷺ ما كان يكتب، ولا كان ينظم شعراً، فهذا أبلغ في التحدي.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقال قطرب والفراء وغيرهما: هي إشارةٌ إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلفٌ من حروفٍ هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم."[١]

قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ الواو هنا واو القسم؛ يقسم الله تعالى بالقلم[٢]، وقد ورد في المراد من القلم أقوالٌ منها:

١ - أن القلم هنا هو المذكور في حديثِ عبادةَ بنِ الصامتِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: " أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: القدر

(١) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (١/ ٢٣٨)

(٢) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٨٧)

قال: فكتب ما يكون وما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة".[١]

٢ – أن القلم هنا اسمُ جنسٍ أُريد به جميعُ الأقلام؛ فبعض السادة العلماء قال: افتتح الله تعالى هذه السورة بالقَسَمِ بالقلمِ ليدلل على أن هذا القلم هو الذي تحدُثُ به المعارفُ والعلومُ، وفيه حثٌّ على العلم، وعلى أن هذه الأمة ترفع الجهل عن نفسها وتتعلم؛ فترتفع وتزدهر في أمور دينها ودنياها.[٢]

أول ما خلق الله:

في الحديث "أول شيءٍ خلقه الله القلم" -والحديث صحيحٌ بمجموع طرقه- وقد تنازع بعض أهل العلم في أول شيءٍ خلقه الله تعالى؛ فمنهم من قال: القلم هو أول ما خلقه الله عزَّ وجل، واستدلوا بهذا الحديث "أول ما خلق الله القلم قال اكتب" وفي روايةٍ "إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب، فقال يا رب وما اكتب قال اكتب القدر قال فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وبما هو كائن إلى الأبد".[٣]

ومجمل أقوال أهل العلم في هذه المسألة ثلاثة:

١ – منهم من قال: القلم، كما ذكرت.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٧٠٠)، والترمذي في " سننه " (٣٣١٩)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٧٠٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٣٣).

(٢) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٤٨) للشيخ مصطفى العدوي، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٦٩)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٣٣٢).

(٣) **(صحيح)** تقدم تخريجه.

٢ – ومنهم من قال: العرش.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:"فهذا القلم خلقه لِما أمره بالتقدير المكتوب قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةً، وكان مخلوقاً قبل خلق السماوات والأرض، وهو أول ما خلق من هذا العالم، وخَلَقَه بعد العرش كما دلت عليه النصوص، وهو قول جمهور السلف، كما ذكرت أقوال السلف في غير هذا الموضع".(١)

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في " النونية" :

والناس مختلفون في القلم الذي *** كُتِبَ القضاء به من الديَّانِ

هل كان قبل العرش أو هو بعده *** قولان عند أبي العلا الهمذاني

والحق أن العرش قبل لأنه *** عند الكتابة كان ذا أركانِ(٢)

٣ – ومنهم من قال: الماء؛ لأنه جاء في روايةٍ في صحيح مسلمٍ عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: " كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أَن يَخلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرشُهُ عَلَى المَاءِ"(٣)، واستنبط بعض أهل العلم أن الله تعالى خلق الماء أولاً على ظاهر الحديث.

---

(١) ينظر" مجموع الفتاوى " لابن تيمية (١٨/ ٢١٣).

(٢) ينظر " شرح القصيدة النونية" للهراس (١/ ١٧٨).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٥٣)، واللفظ له والترمذي في " سننه " (٢١٥٦)، وأحمد في " مسنده " (٦٥٧٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٦١٣٨).

قال البدر العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَفِي قَوْله: وَكَانَ عَرْشه على المَاء، دلَالَة على أَن المَاء وَالْعرش كَانَا مبدأ هَذَا الْعَالم لكَوْنهم خُلقا قبل خلق السَّمَوَات وَالْأَرْض وَلم يكن تَحت الْعَرْش إِذْ ذَاك إلاَّ المَاء. فَإِن قلت: إِذا كَانَ الْعَرْش وَالْمَاء مخلوقين أَولاً فَأَيُّهمَا سَابقٌ فِي الْخلق؟ قلت: المَاء."[(١)]

الراجح: أن الله تعالى خلق العرش أولاً -والله أعلم-، وربُّنا تعالى غنيٌ عن العرش، وغنيٌ عن الملك كلِّه بتمامه سبحانه وبحمده.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: " وحكى أبو العلاء الهمدانيُّ: أنّ للعلماء قولين في أيِّهما خُلق أوّلًا العرش أو القلم، قال: والأكثر على سبق خلق العرش، واختار ابن جريرٍ ومن تبعه الثّاني... ثم قال: فيجمع بينه وبين ما قبله بأنّ أوَّليّة القلم بالنِّسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنِّسبة إلى ما منه صدر من الكتابة أي أنَّه قيل له اكتب أوَّل ما خلق".[(٢)]

قَسَمُ اللهِ بخلقه:

أقسم الله تعالى بالقلم، وربنا تعالى يقسم بما شاء من خلقه، فأقسم الله بالقلم، وأقسم بالشمس، وأقسم بالليل، وأقسم بالطور، وأقسم بحياة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**۝﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بغير ذلك

---

(١) ينظر " عمدة القاري في شرح صحيح البخاري " (١٥/ ١٠٩).

(٢) ينظر " فتح الباري " لابن حجر (٦/ ٢٨٩)، و" شرح العقيدة الطحاوية " لابن أبي العز (٢/ ٣٤٥).

أما المكلفون فيحرم عليهم أن يقسموا بغير الله جلَّ جلاله، والواجب عليهم أن يحلفوا بالله عزَّ وجلَّ لما ورد عن عبد الله - يعني ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ" [(١)]، وما ورد أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ». [(٢)]

و عَنْ قُتَيْلَةَ بِنْتِ صَيْفِيٍّ الْجُهَنِيَّةِ قَالَتْ: أَتَى حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَمَا ذَاكَ؟» ، قَالَ: تَقُولُونَ إِذَا حَلَفْتُمْ وَالْكَعْبَةِ، قَالَتْ: فَأَمْهَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ: " إِنَّهُ قَدْ قَالَ: فَمَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلِفْ بِرَبِّ الْكَعْبَةِ "، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، نِعْمَ الْقَوْمُ أَنْتُمْ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ نِدًّا، قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَمَا ذَاكَ؟» ، قَالَ: تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، قَالَ: فَأَمْهَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ قَالَ، فَمَنْ قَالَ مَا شَاءَ اللهُ فَلْيَفْصِلْ بَيْنَهُمَا ثُمَّ شِئْتَ». [(٣)]

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٦٧٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٤٦).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٣٢٥١)، والترمذي في " سننه" (١٥٣٥)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٣٥٨)، والحاكم في" المستدرك "(٧٨١٤)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٤٥).

(٣) **(صحيح)** أخرجه النسائي في " الصغرى " (٣٧٧٣)، وفي " الكبرى " (١٠٧٥٦)، وأحمد في " مسنده " (٢٧٠٩٣)، والحاكم في " المستدرك " (٧٨١٥)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٣٦).

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: " يُقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنسٍ شاملٌ للأقلام، التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على براءة نبيه محمدٍ ﷺ، مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون فنفى عنه الجنون بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث من عليه بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿**وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا**﴾ أي: عظيمًا، كما يفيده التنكير، ﴿**غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾ أي: غير مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة". أهـ(١)

تنبيهٌ هامٌ:

هناك أنشودةٌ مشتهرةٌ على ألسنة الأطفال تُذيعها قناة طيور الجنة، ومطلعها:

نونٌ نونٌ قلمٌ من وحي القرآن.........نونٌ نونٌ يكتب لي شعراً موزون

شعرٌ ينبض بالإيمان

وما جاء في الأنشودة المشار إليها من قولهم (نون قلم من وحي) غير صحيح، فلم يقل أحدٌ إن (نون) هي القلم، بل الآية عطفتهما عطف مغايرة (ن والقلم) فنون غير القلم.

وقولهم (... من وحي القرآن) باطلٌ، بل كذبٌ وعدوانٌ؛ فإن هذا القلم الذي

---

(١) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (ص: ٨٧٨).

يتغنون به ليس من وحي القرآن، بل الذي من وحي القرآن هو سورة القلم، على ما أنزلها الله جلَّ جلاله، وأما أن يقول القائل كلاماً من عنده، ثم يزعم أن ذلك من وحي القرآن، فهذا من أعظم الباطل والعدوان، والكذب على كتاب الله جلَّ جلاله.

ثم إن القلم الذي هو من وحي القرآن لا يكتب شعراً موزوناً، بل وحي القرآن شيءٌ، والشعر شيءٌ آخر، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ**﴾ [يس: ٦٩]؛ فنزَّه الله تعالى نبيه عن قول الشعر، ونزَّه كتابه وكلامه عن أن يكون شعراً، وإنما هو قرآنٌ مبينٌ.

والواجب على كل قائلٍ، من شاعرٍ وغيره، أن يتخير لنفسه من الكلام الحسن ما فيه متسعٌ لقوله، دون أن يُوقع نفسه في حرجٍ شرعيٍّ، أو يتكلف سجع الكهان، أو يقع في محاكاة القرآن، ونحو ذلك من الأخطاء.

والواجب الحذر من هذه الأنشودة ونحوها، ومناصحة من يتغنى بها، أو يستمع إليها.[(١)]

قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ يُحتمل أن المعنى: والذي يكتبون[(٢)]، ويُحتَملُ أيضاً: والذين يكتبون، فعلى المعنى الأول يكون فيه قسمٌ بالكتابة التي يكتبونها، وعلى المعنى الثاني يكون فيه قسمٌ بالكاتِبين الذين يكتبون.

---

(١) يُراجع: موقع الإسلام سؤال وجواب.

(٢) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٤٨) وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وقتادة ومجاهد. وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٨٧).

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ وذلك لأنهم نسبوا الجنون للنبي ﷺ؛ فقالوا عنه مجنونٌ، فالله تعالى يبرؤه من هذه التهمة أعظمَ البراءة؛ إذ كيف يكون مجنونـًا وما خُلِقت الأقلامُ في هذه الأمة إلا لكتابة ما ينزل على رسول الله محمد ﷺ؟!(١) فرب العالمين جلَّ جلاله شرفه وجعله سيد العلماء وسيد المُعَلِّمين ﷺ.

وكيف يُنسب إلى الجنون، والجنونُ لا يجتمع مع العلم؟!

وهذا فيه إشارةٌ إلى أن العلم ينفي الجنون، فالإنسان العالم لا يكون مجنونـًا؛ ولذلك كان سيد ولد آدم ﷺ هو أعلم خلق الله جميعـًا على وجه العموم، وأعلم خلق الله تعالى بالله على وجه الخصوص،

ولذلك برَّأه الله تعالى من الجنون فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ أي ما أنت بما أنزل الله عليك وأنعم به عليك -وهو القرآن والخلق الحسن وهذا الدين الكريم- بمجنونٍ أبداً ﷺ؛ بل أنت أكمل الخلق عقلاً، وأكملهم إيمانـًا، وأعلاهم شأنـًا، ولذلك رب العزة سبحانه جلَّ جلاله ينفي عنه هذا الذي اتهمه المشركون ووسموه به، فقالوا عنه أنه مجنونٌ ﷺ.

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾

﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ يعني غير مقطوعٍ، وغير منقوصٍ(٢) أيضـًا؛ أي أنه صلوات الله

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١٤٩)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٤٠).

(٢) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٤٩) وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٦).

وسلامه عليه له أجرٌ عظيمٌ كبيرٌ غير مقطوعٍ.

وذلك لكمال دعوته، ولكمال شفقته بأمته ﷺ؛ فكان كما وصفه الله: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] فقد بذل حياته كلَّها ليُدخل الناسَ كلَّهم في دين الله عزَّ وجلَّ، وكاد يَقْتُلُ نفسَه حزناً وغماً عندما رأى إعراض الناس عن هذا الهدي القويم؛ حتى قال الله تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣] وقال تعالى: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا**﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]

فلذلك ربنا تعالى يقول له: ﴿**وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾ فهو أجرٌ عظيمٌ بل أكبرُ الأجورِ كلِّها، و أعظمُ الثوابِ كلِّه في الخلق كافةً هو ثواب سيدنا محمد ﷺ، حتى قال ﷺ فيما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة"[1]، فأعلى درجات الجنان هي للنبي العدنان ﷺ.

وأيضاً من معاني قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾ أي أجرٌ مستمرٌ

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٣٨٤)، وأبو داود في "سننه" (٥٢٣)، والترمذي في "سننه" (٣٦١٤)، والنسائي في " سننه " (٦٧٨).

إلى يوم القيامة، فما من عبدٍ من العباد إلا و أجره ينقطع بموته، و بعض الناس قد يجري أجره له بعد موته سنةً، و بعضهم قد يجري له عشرَ سنواتٍ، و بعضهم قد يتصل أجره مائةَ عامٍ؛ ثم بعد ذلك يفنى على قدر عمله، فينقطع عمله بعد ذلك، أو ينقطع الأثر، ولكنَّ رسولَ الله محمداً ﷺ ؛ لأنه هو الذي دعى إلى الهدى؛ فكلُّ الأمة بتمامها في ميزان حسناته، و عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا "(١)، وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» (٢) فكل ما تقوم به هذه الأمة بتمامها إلى يوم القيامة هي في ميزان النبي الكريم ﷺ.

ثم يؤكد رب العالمين على تزكيته ﷺ، وأنه ليس كما وصفه المجرمون الكافرون بأنه مجنونٌ؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٦٧٤)، أبو داود في "سننه"(٤٦٠٩)، والترمذي في "سننه"(٢٦٧٤)، وابن ماجه في "سننه"(٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٩٣)، وأبو داود في " سننه " (٥١٢٩)، والترمذي في " سننه " (٢٦٧١)، وأحمد في " مسنده " (١٧٠٨٤)، وابن حبان في " صحيحه " (٢٨٩).

ﷺ؟ فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»(١)

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية: " ومعنى هذا أنّه، عليه السّلام، صار امتثال القرآن، أمرًا ونهيًا، سجيّةً له، وخلقًا تطبّعه، وترك طبعه الجبلّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله اللّه عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشّجاعة، والصّفح والحلم، وكلّ خلقٍ جميلٍ."(٢)، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خدمتُ رسولَ اللهِ ﷺ عَشْرُ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي: "أُفٍّ" قَطُّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَهُ؟ وَكَانَ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا وَلَا مَسِسْتُ خَزًّا وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَق رَسُولِ اللهِ ﷺ" (٣)

وقفةٌ: قول الله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ نحن مطالبون أن نقتدي بهذه الآية، وأن نتأدب بآدابها وأن نمتثلها، فلنا في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ،

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٥٣٠٢)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٤٨١١) وأصله أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٤٦)، وأبو داود في " سننه " (١٣٤٢)، والنسائي في " سننه " (١٦٠١) عن سعد بن هشام بن عامرٍ، قال: أتيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، قالت: " كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ١٧٩)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٣٧٤)، و"تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٢٤٧).

(٣) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٠٣٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣٠٩).

وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ» (١)،

يدلنا قول رسول الله ﷺ (المُؤْمِنِ) على أن الكافر لو تَخَلَّقَ بأخلاق الكرام كلِّهم ما نفعه ذلك لأن النبي ﷺ خصَّ ذلك بالمؤمن.

وعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه، قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» ".(٢)

فقوله ﷺ "الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ"، ومعنى البر: هو كلمةٌ تجمع خصال الخير كله، وحسن الخلق يفتح للعبد أبوابَ الخيرِ كلِّها، ولذلك جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ".(٣)

وما أكثر المِراء بالباطل في أمتنا في زمننا هذا، إلا من رحم الله وعصم؛ فينبغي

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٧٩٩)، والترمذي في " سننه " (٢٠٠٢)، وأحمد في "مسنده" (٢٧٥١٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٨٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٥٣)، والترمذي في " سننه" (٢٣٨٩)، وأحمد في " مسنده " (١٧٦٣١).

(٣) **(حسن)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٨٠٠)، والطبراني في " الكبير" (٧٤٨٨)، وفي "الأوسط" (٤٦٩٣)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٧٣).

على العبد أن يُحَسِّنَ خلقَه؛ فيكرمه ربُّ العالمين جلَّ جلاله ببيتٍ في أعلى الجنان بسبب حسن الخلق،

وأيضـًا في سنن الترمذي عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ".(١)

وهذا الحديثُ منهجُ حياةٍ؛ لو أن العبد منا عظَّم كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، واقتفى الأثر، واجتهد في الاتباع؛ لسَعِدَ سعادةً ليس مثلها سعادةٌ،

"وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا"، فمهما كان العبدُ تقيـًا قد تذلُّ قدمُه، وقد يُقَصِّر في واجبٍ عليه، أو قد ينتهك بعض الحرام؛ إما بشهوةٍ تغلبه، أو شيطانٍ يؤزُّه؛ فإذا به يُتبع الحسنةَ السيئةَ، فإذا عصى ربَّه يتبعها بالحسنة تمحو هذه السيئة، فإن السيِّئ لا يُمحى إلا بالحسن؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ**﴾ [هود: ١١٤].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الفَمُ وَالفَرْجُ"(٢)

وقفةٌ: علينا بتقوى الله، وعلينا أن نكون على أحسن الأخلاق، وأن نكون هينين

(١) **(حسن لغيره)** أخرجه الترمذي في " سننه " (١٩٨٧)، وأحمد في " مسنده " (٢١٣٥٤)، والدارمي في " سننه " (٢٨٣٣)، وحسنه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣/ ١٢).

(٢) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٠٠٤)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٤٦)، وأحمد في "مسنده " (٧٩٠٧)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٧٧).

لينين مع إخواننا، فالمؤمن ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، وهو عند خصومته الشديدة مع إخوانه يلِين لهم، ويعاملهم بأحسن الأخلاق.

ولذلك في صحيح ابن حبان عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِخُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ"(١)

فإذا تدبَّرَ العبدُ هذا الحديث العظيم في نفسه ومن حوله يجد عجبـًا؛ وأنا أعرف عدداً كثيراً من الناس منَّ الله عليهم بحسن الخلق؛ ثم رفعهم تعالى بين الناس بحسن الخلق، ولم يكن عندهم شيءٌ يُرفعون به، إنما ببركة حسن خلقهم، وقد رأينا كثيراً منهم- فليس واحداً ولا اثنين ولا ثلاثةً - رفعهم الله جلَّ جلاله في الدنيا.

و رأيت بعض الناس -اللهم اغفر و ارحم و تجاوز عما تعلم- عنده سلاطة لسانٍ، وعنده جرأةٌ على إخوانه، وهو في خصومته شديدٌ على المسلمين؛ فلم يرفعه الله تعالى مثلهم، و لا يقاربهم و لا يدانيهم، وهذا قول النبي ﷺ " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِخُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ" فلو أن الإنسان منا منَّ الله عليه ؛ فصام يوم اثنين ؛فإنه يشعر بقربٍ من الله، ولو أن الله منَّ عليه و صام يوم الخميس معه أيضـًا في أسبوعٍ واحدٍ فإنه يشعر أن الله وفَّقَه، فما بالنا بقول الرسول ﷺ "الصائم" يعني كل يومٍ "القائم" يعني كل ليلةٍ، فهو كل الليل يقوم، و كل النهار يصوم.

المؤمن حسن الأخلاق يدرك بفضل الله تعالى هذه المنزلة العالية، فليحذر

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٧٩٨)، وأحمد في " مسنده " (٢٤٣٥٥)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٨٠)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٢٦٤٣).

المؤمن سوء الخلق، وليسمع لقول النبي ﷺ الميمون المبارك و الحديث في السنن ،عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنكمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «المُتَكَبِّرُونَ"(١)

فقول النبي ﷺ "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ" والله إن لم يكن في حسن الخلق إلا هذه المزيَّة العظيمة، وهذا الشرف العالي، أن نكون من أحب خلق الله إلى سيد الأولين والأخرين؛ لكفى بها فضيلةٌ.

ومعنى أن يكون العبد من أحب الناس إلى الرسول ﷺ هو أن يكون من أحب الناس إلى الله؛ والله يحببه إلى عباده " إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنكُمْ أَخْلَاقًا".

وقفةٌ: ما يضر العبد أن يتخلق بالخلق الحسن؟ لكن النفس لها حظٌ؛ كيف يرسل لي فلانٌ رسالةً لا تعجبني؟؛ سأرسل له عشر رسائل، كيف يقابلني فيكلمني كلمةً لا تعجبني؟؛ لابد أن أردَّ عليه الكلمة عشراً، وليس هذا بخلقٍ، فأين قول الله تعالى: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ**﴾ [الشورى: ٤٠] ؟، أين مكارم الأخلاق؟، أين "أن تحسن لمن أساء إليك"؟، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٠١٨)، والخرائطي في " مساوئ الأخلاق " (٥٩)، و" مكارم الأخلاق " (٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٧٩١).

رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»[١] ،فأين نحن من قول النبي ﷺ ؟

طبيعة البشر تحب من يحسن إليهم، وتحب الذين يصلونهم، وتحب الذين يسألون عنهم، لكن هؤلاء أناسٌ لئامٌ، والمتدبر يعلم أن هذا كان يحدث في الصدر الأول، في الزمان الشريف، في أفضل القرون، فما بالنا بزماننا، ففي زماننا قد يوفق الله العبد للإحسان إلى أناسٍ سنينًا طويلةً؛ ثم إذا أكرمهم الله تعالى فأول ما يقطعون؛ قطعوا الذي أحسن إليهم زمانًا -والعياذ بالله-، فيكون هو أول من يحسدونه، وأول من يتطاولون عليه؛ لأنهم ليس عندهم إيمانٌ إلا من رحم الله عزَّ وجل.

فكلما كان العبد حسن الأخلاق كلما كانت منزلته عاليةً في الجنة قريبةً من رسول الله ﷺ.

وكلما كان العبد حسنًا كان هناك من هو أحسن منه، وأعلى خلقًا، وحينئذٍ ينبغي عليه أن يجتهد أن يكون من أحسن الناس أخلاقًا حتى يدرك هذه المنزلة العالية، وهي قول النبي ﷺ "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا".

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٥٨)، وأحمد في " مسنده " (٧٩٩٢)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٥٠).

نماذج من حُسْنِ خُلُقه ﷺ:

ومن حُسنِ خلقه ﷺ عفوُه عند المقدرة:

وعن هذا حدِّث ولا حرج، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".(١)

فها هو رسول الله ﷺ يذهب إلى الطائف ويعرض عليهم الإسلام، فآذوه أشدَّ الإيذاء، ونالوا منه أعظمَ مما نالت منه قريشٌ، ومع ذلك عفا عنهم ورجا لهم الخير والهداية.

فانظر إلى همة رسول الله ﷺ وبُعدِ نظره؛ فكأنه يقول: إذا كان هؤلاء الناس آذوني، وكذبوني، واتهموني بالكذب، واتهموني بالجنون، وغير ذلك، فأرجوا أن يُخرج الله من ذرياتهم من يؤمن.

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٣١)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٩٥).

وهكذا المؤمن ينظر إلى الأمام، وإلى بعيدٍ، فإن كان هذا الإنسان يؤذيني فما يدريني لعله يخرج من أبنائه من يكون أحبَّ الناس إلي وأكون أنا أحبَّ الناس إليه، وهو الذي يتولى الدفاع عني.

فمن الذي تولى الدفاع عن النبي ﷺ بعد ذلك؟ إنهم أبناء هؤلاء؛ عكرمةُ بن أبي جهلٍ صار من سادات أولياء الله[١]، وصفوانُ بن أمية [٢]، وكذلك أبو سفيان بن حربٍ[٣]، وكَثُرَ من قدَّر الله تعالى ودخل في دين الله عزَّ وجلَّ، ودافعوا عن دين الله تبارك وتعالى.

فحُسن خلقه ﷺ لو ظلَّ العبد يتحدث عنه ليلاً نهاراً لا ينقطع، ولا يَمل العبد من الحديث عن أخلاقه الكريمة ﷺ، كما روى مسلمٌ في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أنها قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا» [٤]

---

(١) ينظر " تاريخ الإسلام " للذهبي (٢/ ٥٨): "كان من رؤوس الجاهلية كأبيه، ثُمَّ أسلم وحسن إسلامه قَالَ الشافعي: كان عكرمة محمود البلاء في الإسلام. وَقَالَ أَبُو إسحاق السبيعي: نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالًا شديدًا وقُتِل، فوجدوا به بضعًا وسبعين مَا بين ضربةٍ ورميةٍ وطعنة."

(٢) ينظر "سير أعلام النبلاء " للذهبي (٢/ ٥٦٢-٥٦٧) ترجمة، صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ الجُمَحِيُّ.

(٣) ينظر "سير أعلام النبلاء " للذهبي (٢/ ١٠٢) ترجمة، أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بنُ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ.

(٤) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦١٢٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣٢٧).

وقد روي عنه ﷺ أنه ما جاء إليه إنسانٌ يسأله شيئًا عن الإسلام إلا أعطاه إياه.(١)

ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنةٌ، نتأسى بأخلاقه مع الكبار والصغار، والرجال والنساء، حتى مع مخالفيه.

أخلاقه ﷺ مع مخالفيه:

هذا النبي ﷺ يأتيه أعرابيٌّ وقد نام وعلَّق سيفَه بشجرةٍ وتفرق أصحابه عنه، وقد كانوا في غزاةٍ راجعين متعبين وقت القيلولة، فناموا ونام الرسول ﷺ وسيفه معلق بالشجرة، فيأتي أعرابيٌّ مشركٌ فيرى هذه الفرصة السانحة عظيمةً جداً، فيأخذ السيف ويجعله صلتًا على رسول الله ﷺ، ويستفق الرسولُ ﷺ والسيف على رقبته، ويقول الأعرابيُّ: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: الله، ـ وفي روايةٍ أنه كررها ثلاثًا ـ لأنه واثقٌ بربِّه لا يهاب أحداً، وكان أشجع الناس عليه الصلاة والسلام، فسقط السيف من يد الأعرابي، فأمسكه الحبيب ﷺ قال: وأنت من يمنعك مني؟ قال: يا محمد كن خير آخذٍ، ـ يعني كن أنت أحسن مني ـ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأُطلِقُ سراحَك، قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فعفى عنه

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٠٨٦)، وأحمد في "مسنده"(١٢٧٩٠)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٢٣٧٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٥٠٢)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ.

ﷺ، وكانت النتيجة أن رجع هذا الرجل إلى قومه، وقال: يا قوم والله جئتُكم من عند خير الناس.

وقد روى ذلك البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأحمد في مسنده، وغيرهم، وثَمَّ تفاصيلٌ في اختلاف الروايات، وما ذكرناه مجموع ما ذُكر.(١)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لاَ وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ وَاللهِ، لاَ يَأْتِيكُمْ

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٩١٠)، ومسلم في "صحيحه" (٨٤٣).

مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ.(١)

فتدبر في كلام ثمامة تجده كلام رجلٍ عاقلٍ، حيث قال: " إن تقتل تقتل ذا دمٍ، وإن تنعم تنعم على شاكرٍ، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعطَ منه ما شئت". يعني: يقول يا محمد إذا قتلتني ما ظلمتني فقد قتلتُ بعضـًا من أصحابك قبل ذلك، أو إن قتلتني فخلفي رجالٌ يأخذون بثأري، هذا وذاك(٢)، وإن كنت ستعفو عني فأنعمت على بهذه النعمة فلن أنساها لك أبداً، وهو مشركٌ، وقد صح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَشْكُرُ اللهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ "(٣)، وإذا كنت تريد المال سأعطيك منه ما تشاء فأنا ذو مالٍ كثيرٍ وسأعطيك ما تشاء من المال وتطلق سراحي، كرر ذلك ثلاثة أيامٍ، وفي اليوم الثالث أطلقوا صراح ثمامة لماذا؟ رجى رسول الله ﷺ أنه إذا عفا عنه أن يدخله الله في الإسلام؛ فهذا عند رسول الله ﷺ خيرٌ من الدنيا وما فيها؛ فلما عفا عنه فعلاً، وقع هذا العفوُ موقعَه من قلب ثمامة، فذهب إلى طائفة النخل، واغتسل، ورجع فوقف مع الرسول ﷺ وأعلن إسلامه.

وإذا به هو الذي يبدأ بالدفاع عن رسول الله ﷺ ويشتد على المشركين، فذهب

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٣٧٢)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٦٤).

(٢) ذكرهما النووي في "شرح صحيح مسلم" (١٢/ ٨٨).

(٣) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٢١)، وأبو داود في " سننه " (٤٨١١)، والترمذي في " سننه " (١٩٥٤)، وأحمد في " مسنده " (١٩٥٤)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٣٠٢٥).

إلى المشركين وهو يلبي بالتوحيد، قالوا: ما هذا يا ثمامة أصبوت؟ قال: لا ولكني آمنت بالله واتبعت محمداً ﷺ، ولا والله ما يأتيكم من اليمامة حبةُ حنطةٍ- وكانت الميرة كلها تأتيهم من اليمامة - حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

ضرب عليهم حصاراً بنفسه لأنهم أعداء الرسول ﷺ، فقال: والله لا يصل إليهم ميرةً من عندنا؛ حتى كادوا يموتون جوعـًا؛ فأرسلوا إلى الرسول ﷺ -وهم أعداءٌ له يستغيثون به- أن مُر ثمامة يجعل الميرة تأتينا، فقال النبي ﷺ: يا ثمامة خلِّ الميرة تأتيهم.

و في صحيح مسلمٍ أنه ﷺ أعطى صفوان بن أميه يوم حنينٍ وادياً مليئـًا بالنعم ، عن ابن شهابٍ، قال: «غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ، فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ، فَنَصَرَ اللهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ وَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً» قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: «وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ».[١]

من أخلاقه ﷺ مع الصغار:

يمرُّ ﷺ على الصبيان الصغار وهم يلعبون ويسلم عليهم، فعن سيَّار، قال: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ ثَابِتٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٣١٣)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٣١٨٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٢٣).

مَعَ أَنَسٍ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ أَنَسٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ «فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ» "(١)

بل عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - قَالَ: أَحْسِبُهُ - فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، فَرُبَّمَا حَضَرَ الصَّلاَةَ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا، فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ وَيُنْضَحُ، ثُمَّ يَقُومُ وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّي بِنَا"(٢)، فكان ﷺ يداعب الطفل الصغير، ويكنيه، ويمزح معه، ويواسيه.

من أخلاقه ﷺ في بيته:

لم يكن النبي ﷺ فظـًا، ولا غليظـًا، ليس مثل الملوك ولا الرؤساء ولا الجبابرة، وإنما كان كما روي عَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ".(٣)

كان النبي ﷺ في بيته في مهنة أهله، فما من مانعٍ أبداً يمنعه من أن يساعد أهله في

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٢٤٧)، ومسلم في "صحيحه" (٢١٦٨)، واللفظ له.

(٢)**(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٢٠٣)، ومسلم في " صحيحه" (٢١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٧٦)، والترمذي في "سننه" (٢٤٨٩)، وأحمد في "مسنده" (٢٤٢٢٦).

شيءٍ، وكان ﷺ يرى من أزواجه أموراً لو رآها غيره من زوجته لحدثت مشكلاتٌ عظيمةٌ، ومن ذلك:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «غَارَتْ أُمُّكُمْ"[(١)]

ماذا فعل النبي ﷺ؟ هذه زوجته وهذه زوجته، ما اشتدَّ، ولا عنَّف، ولا لام، بل قال:" غارت أمُّكم" فقط.

أخلاقه ﷺ مع خادمه:

أما أخلاقه الكريمة ﷺ مع خادمه فحدِّث عنها ولا حرج، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: " خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟ ""[(٢)]، ما يفعل هذا إلا نبيٌّ كريمٌ بل هو سيد الأنبياء ﷺ.

حسن الخلق بابٌ عظيمٌ من أبواب الجنة فالواجب على المؤمن أن يغتنم هذا الباب، وأن لا ينسى مدح ربنا تبارك وتعالى لنبيه ﷺ بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ**

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه" (٥٢٢٥)، وأبو داود في " سننه " (٣٥٦٧)، والنسائي في " سننه " (٣٩٥٥)، وابن ماجه في " سننه " (٢٣٣٤).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٠٣٨)، ومسلم في " صحيحه" (٢٣٠٩).

عَظِيمٍ﴾، و لا ينسى قول النبي ﷺ «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(١) -نسأل الله الكريم رب العرش الكريم أن يجعلنا من أحسن الناس أخلاقـًا، و أن يرزقنا مكارم الأخلاق و محاسنها، و أن يهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدنا لأحسنها إلا هو، و يصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا هو- .

وقد قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع -كلمةً جميلةً- : "﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عاليًا به، مستعليًا بخلقك الذي من الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين، عائشة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -لمن سألها عنه، فقالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرآن"(٢)، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨] وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثَّات على الخلق العظيم، فكان له منها أكملُها وأجلُّها، وهو في كل خصلةٍ منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لينـًا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يردُّه خائبًا، وإذا أراد أصحابُه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذورٌ، وإن عزم على أمرٍ لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان

---

(١) **(حسن لغيره)** تقدم تخريجه

(٢) **(صحيح)** تقدم تخريجه

يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتمّ عشرةٍ وأحسنَها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنونٌ مفتونٌ قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ۝٦﴾ وقد تبيَّن أنه أهدى الناس، وأكملُهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس، وشرُّ الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي."[(١)]

قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ اختلف أهل التفسير في تأويل ذلك على أقوال:

١ - يعني ستعلم يا محمد، وسيعلم أعداؤك من المجنون، ومن أولى بالجنون أنت أم هم؟ بل هم لا شك[(٢)]، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ۝٢٦﴾ [القمر: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ۝٢٤﴾ [سبأ: ٢٤][(٣)]

---

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي ص (٨٧٨).

(٢) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٥٢) وأخرجه عن مجاهد والضحاك. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٦٢)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٧٣).

(٣) أورده ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ١٩٠) وينظر "النكت والعيون" للماوردي

٢ – ومن المعاني أيضـًا، ستعلم يا محمد، وسيعلم أعداؤك من المفتون الذي صُرف عن الحق واتبع الهوى ولم يتبع الهدى أنت أم هم؟

٣ – وكذلك من المعاني، ستعلم يا محمد أييكم الذي هو أولى بالشيطان، فالمفتون هو الشيطان(١) لأنه مفتونٌ دينه نسأل الله العافية والسلامة

قال الله تعالى: ﴿**بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ**﴾ أنت أم هم وبعض أهل العلم قالوا بأن الباء في قوله تعالى: "بأييكم" زائدةٌ، يعني ستعلم وسيعلمون أيكم المفتون،

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " ﴿**بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ**﴾ الباء زائدةٌ، أي فستبصر ويبصرون أيّكم المفتون. أي الّذي فتن بالجنون، كقوله تعالى: ﴿**تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ**﴾ و ﴿**يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ**﴾ وهذا قول قتادة وأبي عبيدٍ والأخفش "(٢)

٤ – وبعضهم قال إن الباء بمعنى في، يعني في أي الفريقين، أفي فريقك المفتون؟ أم عندهم هم؟، قال الفراء: " بأيّكم: فِي أيّكم أي: فِي أيِّ الفريقين المجنون " (٣)

ولا شك أن المفتون الضال التائه الذي لازمه الشيطان، والذي صرف عن

=(٦/ ٦٢).

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٥٤) عن قتادة. وينظر " معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٩١).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٤٤).

(٣) ذكره الفراء في " معاني القرآن " (٣/ ١٧٣)، وينظر" الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٤٥).

الحق؛ هم المشركون الذين اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون وبالكذب وبالكهانة وبالسحر، وهو من كل ذلك براءٌ، بل هو أكمل الناس خُلقـًا، وأعلى الناس إيمانـًا، وأحسنهم ﷺ في كل مكارم الأخلاق، بل له في كل مكارم الأخلاق أعلاها وأجلها عليه الصلاة وأتم السلام.

وقفةٌ: من كان على الحق يقتفي أثر سيد و لد آدم عليه الصلاة و السلام، ويسير على هديه؛ فليعلم يقينـًا أنه عندما يسير على طريق الحق فإن له أعداءً، و سيتهمونه بالباطل، و يفترون عليه الكذب، و يرمونه بالتهم جزافـًا، وهو منها بريءٌ، و هم أولى بهذه التهم، فينبغي عليه أن يصبر على ذلك، وينبغي عليه أن يعلم أن الله سيريه في أعداءه آية تدل أنه على الحق، و أنه سبحانه جلَّ جلاله سيأخذ حقه من أعداءه الذين يتطاولون على شريعته و على دينه، لذلك قال الله لنبيه ﷺ : ﴿**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ۝٦**﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ أي أن الله تبارك و تعالى يعلم بعلمه الواسع المحيط بكل شيءٍ أنك يا محمد على الحق، و على الهدى المستقيم، و أن أعداءك على الباطل، و أنهم ليسوا على شيءٍ، بل هم على هوىً؛ و ليسوا على هدىً، فلذلك قال الله تعالى: ﴿**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ۝٦**﴾ و اطمئن إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وأعلم بمن حاد عن طريقه و تاه في ظلمات الغي، -و العياذ بالله- و في ظلمات الجهل يَعْمَه في عماه، وربك أعلم كذلك بالمهتدين الذين يستمسكون بالهدى و بالحق المبين.

وقفةٌ: في هذه الآيات، وكذلك مع قوله تعالى -الذي سيأتي معنا- "﴿**وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ٩**﴾ فيه دليلٌ على أن المرء ينبغي أن يثبت على دين الله مع كثرة الفتن، و كثرة الشدائد، و كثرة المفترين الكذب على أهل الإيمان، ومع كونهم يتطاولون عليهم بالتهم الباطلة أحيانـًا- كما نسمع - فيتهمونهم بالتطرف، و بالإرهاب، و بالتزمت أحيانـًا، و بالتخلف أحيانـًا، و بالرجعية أحيانـًا أخرى، و غير ذلك، و لا لشيءٍ إلا لأنهم مسلمون مستمسكون بهدي الله و هدي رسوله ﷺ؛ فلذاك قال الله تعالى:"﴿**فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ**﴾ [الزخرف: ٤٣] و قال جلَّ جلاله: " ﴿**وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ**﴾ [هود: ١١٣] و كان النبي ﷺ يسأل ربه الثبات دائمـًا أبداً ويوصي بذلك، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ الأَنْصَارِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا شَدَّادُ بْنَ أَوْسٍ إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزْ هَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ الْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ..."(١)، وهو سيدُ ولد آدم، وسيد المهتدين، و رغم ذلك يقول يا رب ثبتني، و كان أكثر دعاءه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، كما ورد عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ " قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الطبراني في " المعجم الكبير " (١١٧٢)، وفي " الدعاء " (٦٣٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٣٢٢٨).

وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ"(١) ، و كان إذا اجتهد في الدعاء، أو اجتهد في اليمين يقول: لا و مقلب القلوب، كما ورد عن عبد الله – يعني ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كَثِيرًا مِمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ: «لاَ وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ"(٢) ، و كان يقول يا مُصرِّف القلوب صَرِّف قلبي على طاعتك ﷺ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»(٣)

لذلك ينبغي علينا أن نقتفي أثر الرسول ﷺ، ونستفيد من هديه المبارك، ونثبت على هذا الهدي العظيم، ونستمسك به ونعتصم، فالله تعالى ناصر أولياءه، ومعلي عباده الصالحين.

قال عز وجل:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٥٢٢)، وأحمد في " مسنده " (٢٦٥٧٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٠٩١).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه" (٦٦٢٨)، وأبو داود في " سننه " (٣٢٦٣)، والترمذي في " سننه" (١٥٤٠)، والنسائي في " سننه " (٣٧٦١).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٥٤)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٧٦٩٢)، وأحمد في "مسنده" (٦٥٦٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٩٠٢).

كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ۝١٦﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ۝٨﴾ الذين يكذبونك، ويكذبون بشريعتك، ويفترون الكذب عليك، و لا يطيعونك، و لذلك هذا فيه ذمُّ الكذب، و أعظم الإثم افتراء الكذب على الله، كما قال تعالى: "﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣] ، وعن عبد الله-ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» (١)-نعوذ بالله جلَّ جلاله-،

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا - أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ - حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ "(٢) وفي رواية " إِذَا اؤْتُمِنَ

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٠٩٤)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٠٧).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٤٥٩)، ومسلم في " صحيحه " (٥٨).

خَانَ"[1]

وقفةٌ: كلنا مطالبون بهذه الأحاديث، وينبغي على الواحد منا أن يتفقد نفسه؛ إذا كانت فيه خصلةٌ من هذه الخصال فليتركها فوراً، ويستغفر الله، ويتوب إليه، ويجدد عهده مع الله عزَّ وجل، وربنا يقبل توبة التائبين؛ فلا يرد عبداً دعاه، ولا تائباً أتاه.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟» قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ"[2]، وهذا يدلنا على الاعتناء بتربية أبنائنا على الصدق، و أن يصدق الوالد مع أبنائه، وتصدق الأم كذلك مع أبنائها و بناتها، كل واحدٍ منا يصدق مع أولاده؛ لأن الوالدة أو الوالد عندما يكذب أمام الولد، تنقص مكانته أمام ولده، ويعلم أنه ليس بصادقٍ، خاصةً إذا اتصل -مثلاً- على الوالد أحدٌ في الهاتف ثم يقول الوالد للولد: رد عليه و قل له أبي غير موجودٍ، أو يضرب جرس الباب إنسانٌ فيقول الوالد للولد : قل له الوالد خارج البيت، فهذا كذبٌ لا يجوز، فلذلك عبد الله بن عامر يقول أمي دعتني تعالى أعطك، فرسول الله ﷺ قال: ماذا أردتي أن تعطيه، قالت: أعطيه تمراً، قال: لو لم تعطيه شيئاً لكتبت عليك كذبةً"

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤)، ومسلم في " صحيحه " (٥٨).

(٢) **(حسن)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٩٩١)، وأحمد في "مسنده" (١٥٧٠٢)، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة " (٧٤٨).

وإن من أعظم الكذب؛ الكذب على سيد الأولين والأخرين، وما أكثره في زماننا، وقد روي عن نبينا ﷺ، كما في الصحيحين عَنِ المُغِيرَةِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقُولُ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" (١)، وعَنْ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ "(٢)

والآن الفضائيات مليئةٌ بذلك، وتأتي رسائل على الجوال كلها كذبٌ على رسول الله ﷺ، أحاديثٌ مكذوبةٌ، وأحاديثٌ موضوعةٌ، وأحاديثٌ ليست بصحيحةٍ، و لذلك أحيانـًا تأتي رسائل غير مُتَحَقَقٍ من صحة الأحاديث فيها، و صاحبها يقول: أقسم عليك بالله لا تغلق الجوال قبل أن ترسل هذه الرسائل؛ لكن إذا تأكدت أن هذه الرسائل فيها مخالفةٌ للشرع لا ترسلها أبداً ؛حتى إذا أقسم عليك ألف يمينٍ، فلا يجوز لك أن ترسلها أصلاً، قال تعالى: "و تعاونوا على البر و التقوى و لا تعاونوا على الإثم و العدوان" ، وعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ لِلزُّبَيْرِ: إِنِّي لاَ أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا يُحَدِّثُ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ؟ قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"(٣)؛ فلذلك يخاف أن يحدث.

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٢٩١)، ومسلم في " صحيحه" (٤).

(٢) **(صحيح)** أخرجه مسلم في " مقدمة صحيحه " (١/ ٨)، وابن ماجه في "سننه" (٤١)، وأحمد في " مسنده " (١٨١٨٤)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٦١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه"(١٠٧)، وأبو داود في"سننه" (٣٦٥١)، والنسائي في "الكبرى"

بعض الصحابة رضي الله عنهم وَعَوا أحاديث الرسول، وضبطوها، وحدثوا بها نقلاً للأمة، وبعضهم تورع أن يحدث؛ فهو يحفظ ولكنه يخاف من مثل هذا الحديث؛ فكان رضي الله عنه وعددٌ كبير من إخوانه الصحابة لا يحدثون عن رسول الله ﷺ خشية أن يَهِمُوا فيقولوا قولاً لم يقله ﷺ

وهذا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، كما في الصحيحين أنه قال: لَوْلَا أَنِّي أَخْشَى أَنْ أُخْطِئَ لَحَدَّثْتُكُمْ بِأَشْيَاءَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ - أَوْ قَالَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ - وَذَاكَ أَنِّي سَمِعْتُهُ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " (١)

وهذا عبد الرحمن بن أبي ليلى يحدث عن زيد بن أرقم، قال: كنا إذا جئناه قلنا: حدثنا عن رسول الله ﷺ قال: «إنا قد كبرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديدٌ" (٢)،

سبحان الله فهؤلاء صاحبوا النبي ﷺ في السفر والحضر، وسمعوه يتكلم، وحفظوا كلامه، لكن الواحد منهم يخاف أن ينقل قولاً لم يقله النبي ﷺ فيتبوأ مقعده في النار- وحاشاهم- فما بالنا بقول الجهلاء الذين لا يعرفون شيئًا من الدين، ثم

=(٥٨٨١)، وابن ماجه في " سننه " (٣٦).

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (١٠٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢)، والدرامي في " سننه " (٢٤١)، واللفظ له.

(٢) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده " (١٩٣٠٤)، وابن ماجه في "سننه " (٢٥)، والطبراني في "المعجم الكبير " (٤٩٧٨)، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، وصححه "الأرناؤوط" (١٩٣٠٤).

يخرجون في الفضائيات، وعلى وسائل الأعلام وينشرون الكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ،

ومن عظيم إثم الكاذب هذا الحديث الذي أخبر به رسول الله ﷺ، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاَةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا....... وفيه فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» قُلْنَا: لاَ، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ» قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: " إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ... ثم قال: أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالكَذْبَةِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ" [(١)]،

أَعْظِم منها رسالةً من جوالٍ يوصلها للعالم كله، رسالةً واحدةً فقط، و يضغط على زرٍ فتنتشر، رسالةً فيها غيبةٌ، فيها نميمةٌ، فيها افتراء كذبٍ على إنسانٍ، و لا يدري أنها ستبلغ الآفاق- و العياذ بالله-، ولذلك قال الحبيب ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٣٨٦)، والنسائي في "الكبرى" (٧٦١١)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٥٥)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٠٩٤)، والطبراني في " المعجم الكبير " (٦٩٩٠).

كَانَ مَازِحًا»[١]، و ما أكثر المازحين -و لا حول و لا قوة إلا بالله- وربما كان الواحد منهم يكذب على شعبٍ كاملٍ بكلمةٍ و يقول نحن نُضحك الناس، ونتسلى بوقتنا، وهذه مصيبةٌ، و آفةٌ عظيمة، و عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ" [٢]

فهذه آفاتٌ من آفات اللسان، والسلامة لا يعدلها شيءٌ، ولذلك رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[٣] ، وما أضر الكذب في البيع والشراء ولذلك رُوي -أيضـًا- عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «الحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ[٤]" الحلف منفقةٌ للسلعة؛ فيجعل الناس يصدقون البائع ويشترونها، ولكن هذا البائع إن كان كاذبـًا لا يجد بركةً في بيعه وشرائه

ومن عظيم الإثم أن يحلف المرء كاذبـًا ليأخذ حق غيره، -والعياذ بالله- "من

(١) **(حسن)** وتقدم تخريجه.

(٢) **(حسن)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٩٩٠)، والنسائي في " الكبرى " (١١٦٥٥)، وأحمد في "مسنده " (٢٠٠٤٦)، وحسنه الألباني في " صحيح الجامع " (٧١٣٦).

(٣) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٦٠١٨)، ومسلم في " صحيحه" (٤٧).

(٤) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٢٠٨٧)، ومسلم في " صحيحه" (١٦٠٦).

حلف على يمينٍ كاذبـاً ليقتطع بها حق امرأٍ بغير حقٍ لقى الله وهو عليه غضبانٌ"(١)

وختامـاً في هذه المسألة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: " ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ "(٢)، وسبب التشديد على هؤلاء الثلاثة في الحديث؛ أن هؤلاء الثلاثة سبب المعصية عندهم منتفي؛ ورغم ذلك نفوسهم دنيئةٌ؛ فيقعوا فيما حرم الله عليهم بلا دافع،" شيخٌ زانٍ" ما الذي يدفع الشيخ الكبير العجوز الذي كبر في السن أن يقع في الفاحشة؟! إلا أن نفسه تأوي إلى هذا الشر، "وملكٌ كذابٌ" ما الذي يدفع الملك أو الحاكم أو الرئيس إلى أن يكذب؟! لماذا يكذب على شعبه وهو ملكٌ لا يسائله أحدٌ؟! فإذا كان الملك كذابـاً فلا ينظر الله إليه ولا يكلمه ولا يزكيه يوم القيامة، وهكذا... نسأل الله العافية والسلامة يا رب العالمين

يقول سبحانه جلَّ جلاله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ ودُّوا لو تلين في أمر دينهم فيلينوا معك في أمر دينك، وودُّوا لو أنك تَغُضَّ الطرف عن معايب دينهم، ولا تسب آلهتهم؛ فكذلك يسكتون عن دينك؛ وهذه المداهنة محرمةٌ في دين الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ ودوا لو أنك تلين لهم في القول وترضى عن بعض دينهم فيرضون كذلك هم عن دينك، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَوْلُهُ: ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٦٧٦)، ومسلم في " صحيحه" (١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه" (١٠٧)، والنسائي في " المجتبى" (٢٥٧٥)، وفي " الكبرى " (٢٣٦٧).

﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ يَقُولُ: لَوْ تُرَخِّصُ لَهُمْ فَيُرَخِّصُونَ "[١]، وعن مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قَالَ: لَوْ تَرْكَنُ إِلَى آلِهَتِهِمْ، وَتَتْرُكُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ فِيمَا يَسْأَلُونَكَ" [٢]

حكم المداهنة في الدين:

و المداهنة في الدين محرمةٌ خاصةً ممن يشار إليهم بالبنان من السادة العلماء الذين يتبعهم الناس، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتنة العظيمة- فتنة خلق القرآن- كان الأمير يأمر بجلده، و يعذبه، و يقول يا أحمد أطعني و أعطيك ما تشاء، و هو يقول : ءاتوني بآيةٍ من كتاب الله، أو حديثٍ من أحاديث رسول الله ﷺ أقول به [٣]، و ثبت، و ما داهن في دين الله أبداً؛ فرفعه الله تعالى، و أخرجه من المحنة إماماً لأهل السنة قاطبةً إلى يوم القيامة، لذلك لا يذكره أحدٌ الآن إلا ويقول: الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وما ذلك إلا لأنه ثبت على الحق، و ما داهن في دينه، و ما رضي أبداً بالسكوت عن هذه البدعة العظيمة؛ ألا و هي خلق القرآن، و ما رضي أن يُقرَّها، وحاشاه أن يتكلم بكلامٍ فيه رضىً عن هذه البدعة المنكرة التي أنكرها السلف الصالح

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٥٦)، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٩٠)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٥٧)، وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (٤١/ ٦٢٤)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٣٥).

(٣) ينظر " سير أعلام النبلاء" للذهبي (١١/ ٢٣٦) وما بعدها.

رضوان الله عليهم، و هي محرمةٌ و لا شك.

والمداهنة في الدين بأن يرضى الإنسان عن دين الكفار و يتغاضى عنه، و يكون في دينه ميوعةٌ كحال كثيرٍ من أهل زماننا؛ حيث نجدهم في أعياد الكفار كأنها أعياد المسلمين، و لعلهم يحتفلون بها أشد من أعياد المسلمين، وربما نجد مسلماً من المسلمين ينام في عيد الفطر؛ و لا يصلي صلاة العيد، و كذاك في عيد الأضحى لعله ينام؛ و لا يصلي صلاة العيد، لكننا نجده في أعياد المشركين- كعيد الكريسماس مثلاً - يتبادل مع المشركين من النصارى التهاني و الهدايا و يهنؤهم بأعيادهم، وكيف لمؤمنٍ أن يهنئهم بأعيادهم وهم يقولون في أعيادهم: الله ثالث ثلاثةٍ؟! وهم يقولون بأن المسيح ابن الله؟! وحاشا لله، فالله ليس له ولدٌ، وليست له صاحبةٌ، ولم يكن له كفواً أحدٌ تبارك الله رب العالمين، كذلك نجدهم -مثلاً- في أعياد شم النسيم وغيرها يحتفلون وكأنها أعيادٌ مقدسةٌ في دين الله،

والمسلم لا يداهن في دين الله عزَّ وجل، فهو ليس بفظٍ ولا غليظٍ، لكنه مستمسكٌ بدين الله عزَّ وجل، ويتبرأ من أديان المشركين، ويعتز بإسلامه ودينه.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ**﴾ حلَّاف أي كثير الحلف بغير حقٍ، و بغير صدقٍ[1]، وللحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ كلمةٌ جميلةٌ حيث قال:" ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ**

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ١٥٧): "ولا تطع يا محمد كل ذي إكثار للحلف بالباطل." وينظر "التفسير الكبير " للرازي (٣٠/ ٧٤)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٧).

﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقتٍ في غير محلها "(١) ، ولذلك قال الله لنا: "﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] أي عظِّموا ربكم، فلا يحلف الإنسان على كل صغيرٍ وكبيرٍ، فيجوز للإنسان أن يحلف بدون أن يُستحلف، و أقسم الرسول في غير موطنٍ بدون أن يُستحلف، وذلك للأمر العظيم الذي يقسم عليه ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "(٢) ، إلى غير ذلك من أحاديث ثبتت عنه صلوات الله و سلامه عليه؛ أنه أقسم و هو الصادق المصدوق من غير أن يستحلفه أحدٌ، و لكن لا يكون المرء دائمـًا أبداً جاعلاً ربه عرضةً لأيمانه؛ فيحلف باستمرارٍ في الصغير و في الكبير، أما إذا كان الأمر ذو بالٍ فلا مانع أن يقسم المرء عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ هذا الحلاف الذي يحلف بالصدق والكذب، ويحلف على أيمانٍ كاذبةٍ ليقتطع بها أموال الناس، ويحلف كذبـًا

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ١٩٠).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٧٥)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٨٨).

وزوراً وبهتاناً؛ الله تعالى يقول، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ۝١٠﴾ أي حلَّافٍ كاذبٍ في حلفه

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ (مَّهِينٍ) صح عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: هو الكاذب (١)

وكلمة " مَّهِينٍ " حملها الإمام الكبير إمام أهل التفسير ابن جرير الطبري على الكذاب فقال رحمه الله: "غير أنّ بعضهم وجّه معنى المهين إلى الكذّاب، وأحسبه فعل ذلك لأنّه رأى أنّه إذا وصف بالمهانة فإنّما وصف بها لمهانة نفسه كانت عليه، وكذلك صفة الكذوب، إنّما يكذب لمهانة نفسه عليه"(٢)

فكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: إن الكذاب مهينٌ ضعيفٌ فلا تطع هذا الكذاب. وقد مرَّ معنا حرمة الكذب، والكذَّاب ينقص من إيمانه على قدر كذبه.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ أي لا تطع كثير الحلف، فإنه لا يكون كذاباً إلا وهو مهينٌ، أي خسيس النفس (٣) -والعياذ بالله- ناقص الحكمة، ليس له رغبةٌ في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة، ولذلك يحلف على الكذب ويكثر منها؛ بل هو حلافٌ مهينٌ كما قال تعالى.

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٥٨)، وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٧)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٣١).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ١٥٧).

(٣) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (٨٧٩).

ثم وصفه الله تعالى بشرِّ الأوصاف، فقال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١﴾ هماز قالوا يعني طعَّانٌ مغتابٌ للناس يأكل لحومهم (١)، فيقع بالغيبة في أعراض المسلمين،

وقفةٌ: و الغيبة من كبائر الذنوب؛ و لذلك حرمها ربنا تعالى، و حرمها رسولنا ﷺ فقال الله تعالى: " ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢] و الغيبة هذه -أعوذ بالله -كأنها فاكهة المجالس، فما يجلس قومٌ مجلساً إلا ويكثرون فيه من الغيبة- إلا من رحم الله-، ويكثرون فيه من الكذب على عباد الله، و لذلك مولانا يقول: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ ويقول: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦] و يقول أيضاً: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨] و قد ذكر النبي ﷺ معيار الغيبة، وهذا المعيار غير واضحٍ عند كثيرٍ من الناس، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»"(٢)

لماذا يقع المؤمن في الغيبة؟! وليس مبرِراً أن يقول: ما أقوله حقاً فيه، فإن كان

---

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٥٩). وأخرجه عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقتادة. وينظر "معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٠٥)، و" التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨٩)، وأبو داود في " سننه " (٤٨٧٤)، والترمذي في " سننه " (١٩٣٤)، والنسائي في " الكبرى " (١١٤٥٤)، وأحمد في " مسنده " (٧١٤٦).

فيه فينبغي عليه أن يُقدِّم له النصيحة، أمَّا أن يذهب ليعيِّره، أو ينقل عنه ويتكلم عليه في المجالس؛ فلا شك أن هذا حرامٌ، ولذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، يقول: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١)، بل قال ﷺ فيما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ"(٢).

كلمةً يسيرةً سهلةً على لسانه؛ لكن لها خطرٌ عظيمٌ عند الله تعالى، تكب صاحبها في النار على وجهه، كما قال النبي ﷺ: "وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(٣)

والسعيد الذي يقيه الله شرَّ لسانه، وشرَّ فرجه، كما قال ﷺ: «مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٤)، -اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين-.

ختامًا قول الله تعالى: ﴿**هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ**﴾ أي يمشي بين الناس بالنميمة؛ فهو

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (١٠)، ومسلم في " صحيحه" (٤٠).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٦٤٧٨)، ومسلم في " صحيحه" (٢٩٨٨).

(٣) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٦١٦)، والنسائي في " الكبرى " (١١٣٣٠)، وابن ماجه في " سننه " (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل" (٤١٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٧٤)، والترمذي في " سننه" (٢٤٠٨)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٨٢٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٧٠١).

مشاءٌ بحديث الناس بعضهم في بعضٍ، ينقل حديث بعضهم إلى بعضٍ[(١)]، فهو الذي يسمعك تتكلم بكلامٍ في حق فلانٍ، ثم يذهب لفلانٍ هذا لينقل كلامك له؛ ليس من باب النصيحة، ولكن من باب الإفساد بين الناس.

والنميمة أيضـًا من كبائر الذنوب، كما أن الغيبة والكذب من كبائر الذنوب، وقد رُوي في خطورة النميمة عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ المَدِينَةِ، أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ثُمَّ قَالَ: «بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ».[(٢)]

وقفةٌ: ينبغي على العبد أن يعلم أنه من نمَّ لك نمَّ عليك، فمن أتاك ينمُّ لك يجب عليك أولاً أن تنصحه وتزجره، يا أخي اتق الله، يا أخي لا نريد أن نخوض في أعراض المسلمين؛ فلا يحل لنا أن نتكلم في عرض أحدٍ، مستحضراً حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيَامَةِ" والحديث رواه الترمذي وقال حديث حسن[(٣)]،

---

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٥٩)، وينظر "التفسير الكبير " للرازي (٣٠/ ٧٤)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٥٠).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٢١٦)، ومسلم في " صحيحه" (٢٩٢).

(٣) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (١٩٣١)، وأحمد في "مسنده" (٢٧٥٣٦)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٦٢٦٢).

و لما كان النبي ﷺ في غزوة تبوكٍ؛ وتبوك هذه تبعد مئات الكيلو مترات بينها و بين المدينة، ففي الصحيحين قال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه: "وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ" (١)،

وعن مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه ، أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي، وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتِ الأَمْطَارُ سَالَ الوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ، وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ» قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ البَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ» قَالَ: فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، قَالَ وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ، قَالَ: فَآبَ فِي البَيْتِ، رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لاَ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لاَ تَقُلْ ذَلِكَ، أَلاَ تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ " قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّا نَرَى

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٤١٨)، ومسلم في " صحيحه" (٢٧٦٩).

وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى المُنَافِقِينَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ(١)

والنميمة محرمةٌ، فعن حذيفة رضي الله عنه، أنه بلغه أن رجلاً يَنمُّ الحديث فقال حذيفة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ».(٢) ،وفي روايةٍ «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ» (٣)، وكذلك عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: إن محمداً ﷺ قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» (٤)، والعَضْهُ أشد الكذب وأعظم البهتان.

قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي يمنع الناس أن يسلكوا سبيل الخير، و هكذا كان المشركون يصنعون؛ فيمنعون الناس الذين يريدون الإسلام أن يسلكوا سبيل الله، و أن يدخلوا في دين رسول الله ﷺ، فالآية على هذا الوجه خاصةٌ بمشركي قريشٍ، و كذلك الآية عامةٌ لعموم الناس، فالمقصود من قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي إنسانٍ يمنع الخير، وهذا مذمومٌ، أن يرى إنسانٌ باباً من أبواب الخير؛ مثل إنسانٍ يحسن إلى

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٢٥)، ومسلم في " صحيحه" (٣٣).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٦٠٥٦)، ومسلم في " صحيحه" (١٠٥).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٦٠٥٦)، ومسلم في " صحيحه" (١٠٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه، به.

(٤) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٠٦)، وأحمد في " مسنده " (٤١٦٠)، والدرامي في " سننه " (٢٧٥٧).

فقيرٍ، فيقول له يا أخي أنت أولى بمالك؛ فأولادك أولى به، لماذا يمنع المسلم هذا الخير؟!؛ وقد طابت نفس الرجل به، وهو ينفق على بعض الأيتام، و بعض الفقراء، فالأولى إن لم يُعنْهُ فلا يمنعه، فإن لم يكن يطعم هو، ولا يحضُّ على طعام المسكين، فلا أقل من أن يسكت ولا يمنع الخير الذي يجري على عباد الله يتقربون به إلى الله.

وهذا الذي يمنع الخير، وقد جمع بين شر الأوصاف فهو ﴿**مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ**﴾ لا يصل برَّه، ولا إحسانه للغير، ولا يرضى لغيره أن يحسن إلى الآخرين، ثم هو "معتد أثيم" معتدٍ: يتعدى الحلال ويقع في الحرام، أثيمٍ: كثير الإثم، وكثير المخالفة لأمر الله جلَّ جلاله[1]،

﴿**مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾ منَّاعٌ لما يلزمه القيام به من النفقات الواجبة، والكفارات، والزكوات، فهذا مناعٌ للخير، متعدي لأوامر الله ونواهيه، كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله.

﴿**عُتُلٍّ**﴾ والعتلِّ هو الفظُّ الغليظ الصحيح البدن القوي؛ ولكنه مع أن الله صحح بدنه؛ فجعله صحيح الخلقة، شديد القوة، مقبلاً على نعمته من الأكل والشرب والجماع، لكنه جمع مع ذلك الفظاظة والغلظة والقسوة، وغير ذلك من هذه الصفات المذمومة،

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَالْعُتُلُّ: الجافي الشّديد في كفره، وكلُّ شديدٍ قويٍّ فالعرب

---

(١) أورده ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ١٩٢)، والسعدي في "تيسير الكريم الرحمن" (٨٧٩).

تسمّيه عُتُلًّا، وأخرج عن عبيد بن عميرٍ، قال: الْعُتُلُّ: الأكول الشّروب القويّ الشّديد، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرةً، يدفع الملك من أولئك سبعين ألفًا دفعةً في جهنّم"[١]

وهناك حديثٌ ثابتٌ صحيحٌ في الصحيحين في تفسير العتل؛ عن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الخُزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ"[٢] ؛ فالجواظ أيضـًا الجموع المنوع؛ فهو فظٌ غليظٌ يجمع المال، ويمنع حق الله فيه، وكذلك هو الأكول الشروب؛ الذي همه الدنيا وفقط، فالعتل هو ذلك الفظ الغليظ، وهو الجافي الشديد على عباد الله، والمعنى لا تطعه.

﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ وللفظ زنيم عدة معاني محتملة ومنها:

١ – زنيم يعني دعي [٣]،

٢ – ويعني أيضـًا ليس بذي نسبٍ؛

٣ – زنيم -أيضـًا- هو المعروف والمشهور بالشر بين الناس؛ مثل الشاة التي لها

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١٦١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٩٢)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٠٤).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩١٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٥٣).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٦٥) عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٩٣)، و"الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٦٢٧).

زنمةٌ؛ وهي التي قطعت أذنها، ولم ينفصل الجزء المقطوع بل ما زال معلقاً [١]، كذلك هذا الكافر الزنيم مشهورٌ بالشر معروفٌ به كذلك

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " والأقوال في هذا كثيرةٌ، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو: المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دَعِيًّا وله زنا، فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث: "لا يدخل الجنة ولد زنا" [٢] وفي الحديث الآخر: "ولد الزنا شر الثلاثة إذا عمل بعمل

---

(١) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٦٥) عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر "البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٠٤)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٩٣).

(٢) أخرجه النسائي في " السنن الكبرى " (٤٨٩٦)، وأحمد في " مسنده " (٦٨٩٢) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا ولد زنا. ، وقال الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢/ ٢٨٠) ويبدو من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته " المنار "، أنه جنح إلى هذا التفسير، لأن مؤداه إلى أن الحديث ليس على عمومه، فقد ذكر حديث " لا يدخل الجنة ولد زنا "، وحكى قول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه معارض لآية **﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾**فقال: " قلت: ليس معارضا لها إن صح، فإنه لم يحرم الجنة بفعل والديه، بل إن النطفة الخبيثة لا يتخلق منها طيب في الغالب، ولا يدخل الجنة إلا نفس طيبة، فإن كانت في هذا الجنس طيبة دخلت الجنة، وكان الحديث من العام المخصوص.

وقد ورد في ذمه " أنه شر الثلاثة "، **وهو حديث حسن،** ومعناه صحيح بهذا الاعتبار، فإن شر الأبوين عارض وهذا نطفته خبيثة وشره من أصله وشر الأبوين من فعلهما.

أبويه" [(١)"(٢)]، والمعنى أنه قام بالفاحشة، وأما ولد الزنا لو كان صالحـاً فلا شك أنه يدخل الجنة ولا إثم له بالنسبة لإثم أبويه ولا إثم له في ذلك.

فالزنيم الذي ليس له أصلٌ، ولا مادةٌ ينتج منها الخير؛ بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاحٌ؛ له زنمةٌ أي علامةٌ في الشر يعرف بها.

فقول الله تعالى: ﴿**عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ**﴾ أي غليظٌ شرس الخلق -والعياذ بالله- قاسي غير منقادٍ للخير أما زنيم أي دعي ليس له أصلٌ، ولا مادةٌ ينتج منها الخير؛ فأصله سيءٌ.

قال الله تعالى: ﴿**أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ**﴾ يعني قال هذا وافترى على الله الكذب، وأن الله تعالى أنعم عليه بالبنين؛ أيتكبر على الله بماله وحسبه ونسبه؟!، كما قال جلَّ جلاله: "﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ⑭ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮**﴾ [المدثر: ١١-١٥]

ثم زاد الله في وصفه فقال: ﴿**إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ فبسبب عنده لم يَرَ النور الواضح في آيات الله؛ الذي لا يرده مبصر القلب، وزاد في طغيانه فاتَّهم هذا النور بأنه من أباطيل وخرافات وتراهات الأولين من الأمم السابقة.

وحاصل ذلك أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلافٍ كذابٍ خسيس النفس

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٤٧٨٤)، وابن الأعرابي في "معجمه "(٧٧)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٩٩٩٣)، وينظر" تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ١٩).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٨/ ١٩٤)

سيء الأخلاق؛ خصوصـاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق وعلى الحق، والاحتقار للناس بالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي،

فلذلك الله جلَّ جلاله يقول متوعداً هذا الكافر: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ يعني سنبين أمره بيانـاً واضحـاً حتى يعرف ولا يخفى على الناس، والخرطوم هنا الأنف.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وقال بعضهم: معنى ذلك: سنسمه سمة أهل النّار: أي سنسوّد وجهه. وقال: إنّ الخرطوم وإن كان خصّ بالسّمة، فإنّه في مذهب الوجه، لأنّ بعض الوجه يؤدّي عن بعضٍ، والعرب تقول: واللّه لأسِمنَّك وسمًا لا يفارقك، يريدون الأنف"[١] ، ثم قال رحمه الله: "وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك عندي قول من قال: معنى ذلك: سنبين أمره بيانـاً واضحـاً حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمة على الخرطوم. وقال قتادة: معنى ذلك: شين لا يفارقه آخر ما عليه"[٢] أي سنجعل له سمة شينٍ وعيبٍ لا يفارقه آخر ما عليه.

وأيضـاً ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أي سنسمه في النار -نسأل الله العافية والسلامة ونعوذ بالله جلَّ جلاله من الخذلان ونسأل الله العافية والسلامة-.

مسألة: وسم البهائم:

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُستحبُّ أن يسم الغنم في آذانها والإبل والبقر في أصول أفخاذها لأنّه موضعٌ صلبٌ فيقلّ الألم فيه ويخفّ شعره فيظهر الوسم.

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١٧٠)، و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٧٤).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ١٧٠).

وفائدة الوسم تمييز الحيوان بعضه من بعضٍ." أهـ[١]

وأما وسم الحيوان في الوجه فمحرمٌ، روى مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ ضَرْبِ الْوَجْهِ، وَعَنْ وَسْمِ الْوَجْهِ».[٢]

وَفِي لَفْظٍ: «مُرَّ عَلَيْهِ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ».[٣]

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ وَسْمِ الْحَيَوَانِ فِي وَجْهِهِ[٤]، وإن كان في غير الوجه فجائزٌ.

وقد سئل سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

لدي إبلٌ كثيرةٌ تَفَضَّلَ الله بها عليَّ، وهذه الإبل موروثةٌ من أجدادنا وآباء أجدادنا، ومن عادات البادية أن يسِمُوا حلالهم بوسمٍ مُميز، يعرف كلٌ حلاله، وكان وسم إبلي على الخد من الناقة، وقد سمعت من بعض طلبة العلم أن الوسم على الوجه حرام، كيف أتصرف؟ جزاكم الله خيراً، علماً بأنه يتعذر وضعه في مكان آخر.

---

(١) ينظر "شرح النووي على مسلم" (١٤/ ٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢١١٦)، والترمذي في "سننه" (١٧١٠)، وأحمد في " مسنده" (١٥٠٤٦)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٢٥٥١).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢١١٧)، وأبو داود في "سننه" (٢٥٦٤)، وأحمد في "مسنده" (١٤١٦٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٦٢٨).

(٤) ينظر " نيل الأوطار " للشوكاني (٨/ ٩٩).

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوسم على الوجه لا يجوز، فالرسول ﷺ نهى عن ذلك ولعن من فعله، فلا يجوز الوسم في الوجه لا في الإبل ولا في البقر ولا في الغنم ولا في بني آدم، لا يجوز ولو أنه من أرضكم ومن عادتكم، يجب أن تغير العادة تبعاً للرسول ﷺ وطاعته.

وليس لكم أن تخالفوا السنة من أجل عادة الآباء والأجداد، ففي إمكانكم أن تضعوا الوسم في الرقبة أو في الأذن أو في الفخذ وتعلنوا هذا في الصحف وفي الإذاعة وبين الناس أنكم غيرتم وسمكم، وأن وسمكم الأول كان كذا فغيرتموه طاعة لله ولرسوله ﷺ، ويشيع بين الناس ويعرف بين الناس، ولا في هذا محذور كما يذيع الناس عن حاجاتهم التي يريدونها.

فالحاصل أن هذا ليس بعذرٍ، ولا يجوز لكم الوسم في الوجه ولو كان عادةً قديمةً، وعليكم أن تُغيِّروا هذه العادة وتعلنوها للناس من طريق الإذاعة أو من طريق الصحافة أو غير ذلك." أهـ(١)

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأمّا الوسم في الوجه فمنهيٌّ عنه بالإجماع للحديث ولما ذكرناه فأمّا الآدميّ فوسمه حرامٌ لكرامته ولأنّه لا حاجة إليه ولا يجوز تعذيبه. وأمّا غير الآدميّ فقال جماعةٌ من أصحابنا: يكره. وقال البغويّ من أصحابنا: لا يجوز، فأشار إلى تحريمه وهو الأظهر لأنّ النّبيّ - ﷺ- لعن فاعله، واللّعن يقتضي التّحريم."(٢)

---

(١) من فتاوى " نور على الدرب " **http://www.binbaz.org.sa/mat/٩٥٧٧**

(٢) ينظر " شرح النووي على مسلم " (١٤/ ٩٧).

وضابط الوجه كما قال أهل اللغة: " والوَجْهُ مستقبَلُ كُلِّ شَيءٍ ".[(١)]

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء وله طول وعرض، فحده في الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين، ومن الأذن إلى الأذن في العرض". أهـ[(٢)]

فهذا حد الوجه في الإنسان، وأما سائر المخلوقات فوجهُ كلِّ دابةٍ هو ما تحصل به المواجهة ويشمل أعضاء معروفةً كالعينين والأنف وما علا العينين حتى يشرع في الرأس، وما بين الأذنين.

وأما الوسم في غير الوجه؛ فقد نص الفقهاء على أنه يجوز الوسم في الأذن ويجوز في غير الأذن من بدن البهيمة.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما وسم غير الوجه من غير الآدمي فجائزٌ بلا خلافٍ عندنا "أهـ[(٣)]

وقد ورد في السنة ما يدل على أن الرسول ﷺ وَسَمَ الدابة في أذنها، فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِرْبَدًا وَهُوَ يَسِمُ غَنَمًا، قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ فِى آذَانِهَا". رواه

---

(١) ينظر "المحيط في اللغة" للصاحب بن عباد (١ / ٣١٤)، و "كتاب العين" للخليل بن أحمد (٤/ ٦٦).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٧/ ٣٢٧)

(٣) ينظر " شرح النووي على مسلم " (١٤/ ٩٧).

مسلم.(١)

وقفةٌ: هذه الآيات تحذر العبد من المداهنة في دين الله، وتحذره من الكذب، وتحذره من طاعة أعداء الله تعالى الذين لا يعملون بشريعته بل يقعون فيما حرم الله تعالى عليهم، وتأمره بالثبات على دين الله؛ على المنهج الحق الذي ارتضاه الله تعالى لرسوله ﷺ.

وجملة ذلك يبينه العلامة السعدي - رحمه الله- حيث يقول: "يقول الله تعالى، لنبيه ﷺ: ﴿**فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ**٨﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يُطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مُقْدِمٌ على ما يضره، وهذا عامٌ في كل مكذبٍ، وفي كل طاعةٍ ناشئةٍ عن التكذيب، وإن كان السياق في شيءٍ خاصٍ، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ، أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿**وَدُّواْ**﴾ أي: المشركون ﴿**لَوْ تُدْهِنُ**﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿**فَيُدْهِنُونَ**﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره، بنقض ما يضاده، وعيب ما يناقضه"(٢)

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في بعض المشركين كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله تعالى: ﴿**أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ**﴾ ولكن المراد بها العموم بلا شكٍ- فنسأل الله

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٥٤٢)، ومسلم في " صحيحه "(٢١١٩).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (٨٧٩).

الكريم رب العرش الكريم أن يرزقنا الاستفادة من كتابه ومن سنة النبي ﷺ-. [(١)]

قال عز وجل:

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا
يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾
فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ
يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾
فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم بعد هذه الآيات يضرب الله تعالى لنا مثلاً؛ فيه عبرةٌ و عظةٌ، فقال تعالى: **﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾** و" **بَلَوْنَـٰهُمْ**" أي اختبرناهم، والمعنى: إنَّا بلونا هؤلاء المكذبين من أهل مكة؛ فأمددناهم بأموالٍ و بنين و أعطيناهم ما يشاءون "**كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ**" كما بلونا قبلهم أصحاب الجنة، "**أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ**" أي أصحاب البستان العظيم، وهي حديقةٌ عظيمةٌ ذات ثمارٍ هائلةٍ؛ وقد ذكرها الله تعالى؛ لأنها كانت قريبةً منهم، و لأنهم كانوا يعرفونها، فقد كان مشركوا مكة يعلمون أصل حكايتها، فلما

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (٨٧٩).

كان عندهم علمٌ بها ذَكَّرهم ربنا بها ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾

بعض السادة العلماء ذكر أنها كانت في اليمن، وكانت قريبةً من صنعاء؛ على موضع فرسخين من صنعاء، ومقدار فرسخين يعني قريبةٌ جداً،

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنّا بلوناهم يريد أهل مكّة. والابتلاء الاختبار. والمعنى أعطيناهم أموالًا ليشكروا لا ليبطروا، فلمّا بطروا وعادوا محمّدًا ﷺ ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أهل الجنّة المعروف خبرها عندهم. وذلك أنّها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء- ويقال بفرسخين- وكانت لرجلٍ يؤدّي حقّ اللّه تعالى منها، فلمّا مات صارت إلى ولده، فمنعوا النّاس خيرها وبخلوا بحقّ اللّه فيها، فأهلكها اللّه من حيث لم يمكنهم دفع ما حلّ بها"(١)،

﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أقسموا يعني قالوا: والله، "**لَيَصْرِمُنَّهَا**" يعني ليقطعُنَّ ثمارها قبل وقت الصباح(٢) ، فأول ما يأتي وقت الصباح يكونون قد انتهوا من قطعها وحصادها؛ حرمانـًا للفقراء والمساكين؛ حتى لا يعطونهم شيئـًا منها.

و ذكر عددٌ من أهل التفسير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي قَوْلِهِ عزَّ وَجَلَّ: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ" قَالَ: كَانَ بُسْتَانٌ بِالْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ الضِّرْوَانُ دُونَ صَنْعَاءَ بِفَرْسَخَيْنِ، يَطَؤُهُ أَهْلُ الطَّرِيقِ، كَانَ غَرَسَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، وَكَانَ لِرَجُلٍ فَمَاتَ فَوَرِثَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٦٠).

(٢) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ١٦٣) وينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٧٧).

لَهُ، وَكَانَ يَكُونُ لِلْمَسَاكِينِ إِذَا صَرَمُوا نَخْلَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ تَعَدَّاهُ الْمِنْجَلُ فَلَمْ يَجُزَّهُ وَإِذَا طَرَحَ مِنْ فَوْقِ النَّخْلِ إِلَى الْبِسَاطِ فَكُلُّ شَيْءٍ يَسْقُطُ عَلَى الْبِسَاطِ فَهُوَ أَيْضًا لِلْمَسَاكِينِ، وَإِذَا حَصَدُوا زَرْعَهُمْ فَكُلُّ شَيْءٍ تَعَدَّاهُ الْمِنْجَلُ فَهُوَ لِلْمَسَاكِينِ وَإِذَا دَاسُوهُ كَانَ لَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ يَنْتَثِرُ أَيْضًا فَلَمَّا مَاتَ الْأَبُ وَوَرِثَهُ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَةُ عَنْ أَبِيهِمْ فَقَالُوا: وَاللهِ إِنَّ الْمَالَ لَقَلِيلٌ، وَإِنَّ الْعِيَّالَ لَكَثِيرٌ وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ يُفْعَلُ إِذْ كَانَ الْمَالُ كَثِيرًا وَالْعِيَالُ قَلِيلًا فَأَمَّا إِذَا قَلَّ الْمَالُ وَكَثُرَ الْعِيَالُ فَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ هَذَا فَتَحَالَفُوا بَيْنَهُمْ يَوْمًا لَيَغْدُوُنَّ غَدْوَةً قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ فَلَيَصْرِمُنَّ نَخْلَهُمْ وَلَمْ يَسْتَثْنُوا يَقُولُ: لَمْ يَقُولُوا إِنْ شَاءَ اللهُ فَغَدَا الْقَوْمُ بِسُدْفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى جَنَّتِهِمْ لِيَصْرِمُوهَا قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ الْمَسَاكِينُ، فَرَأَوْهَا مُسَوَّدَةً وَقَدْ طَافَ عَلَيْهَا مِنَ اللَّيْلِ طَائِفٌ مِنَ الْعَذَابِ فَأَحْرَقَهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (١)

فانظر إلى هذه العبرة وهذه العظة؛ فقد صور مولانا عزَّ وجلَّ ذلك المشهد وكأنك تراه بالعين تاماً

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ﴾ أي أقسموا بالله ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ وليجذنَّها ﴿مُصْبِحِينَ﴾، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني ما قالوا إن شاء الله(٢)

---

(١) أورده البغوي في "معالم التنزيل " (٨/ ١٩٤)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٦٢).

(٢) أورده البغوي في "معالم التنزيل" (٨/ ١٩٥)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٦٣).

ولذلك ينبغي على العبد إذا أقسم يميناً أن يُعوِّد نفسه على الاستثناء؛ فإنه إذا استثنى فلن تلزمه كفارةٌ لو خالف يمينه،

ومعنى الاستثناء: أن تقول والله لأذهبن إلى مكان كذا إن شاء الله، والله لأفعلن هذا الشيء إن شاء الله، والله يا أم فلان لا تذهبي إلى مكان كذا إن شاء الله- مثلاً - فإذا قلت إن شاء الله وقدر الله وحصل حنثٌ في اليمين؛ فليس عليك كفارةٌ

ولذلك أهل العلم قالوا: ينبغي أن يكون هناك نيةٌ، ويشترط أن يكون الاستثناء متابعـاً للكلام، فلا يكون هناك فاصلٌ بين الكلام؛

و لذلك في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: " قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُلُّهُنَّ، يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ ""[1]، و هو قوله تعالى: "﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴿٣٤﴾**﴾ [ص: ٣٤]

بعض أهل العلم قال تفسير الآية هو قصة الحديث، وبعضهم ذكر قصةً أخرى وهي أن الشيطان جلس على كرسي سليمان لما ذهب إلى حاجته، وقال ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "حكى النَّقَّاش في تفسيره أن الشقَّ المذكور هو الجسد الذي ألقي على كرسيه، وقد تقدم قول غير واحدٍ من المفسرين أن المراد بالجسد المذكور شيطانٌ؛

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨١٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٥٤).

وهو المعتمد، والنَّقَّاش صاحب مناكيرٍ "[١]،

والمقصود أن هذا الحديث ثابتٌ في الصحيح وفي روايةٍ أن النبي ﷺ قال: "لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ"[٢]، يعني لو قال إن شاء الله كان سيدرك الحاجة التي كان يريدها، و هذا الحديث لعله يفهم منه أن النية وقت قول الكلام ليست شرطـًا، وأن الاستثناء يكون مع الكلام أو بعده و لا يكون بين الاستثناء والكلام فاصلٌ كبيرٌ؛ لأن سليمان عليه السلام قال؛ ثم قال الملك قل إن شاء الله؛ فهذا فاصلٌ و لكنه فاصلٌ يسيرٌ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وقد استدلّ بهذا الحديث من قال الاستثناء إذا عقب اليمين ولو تخلّل بينهما شيءٌ يسيرٌ لا يضرُّ فإنَّ الحديث دلَّ على أنَّ سليمان لو قال إن شاء اللّه عقب قول الملك له قل إن شاء اللّه لأفاد مع التّخلُّل بين كلاميه بمقدار كلام الملك" [٣]

كما أن الصلاة إذا حدث فيها سهوٌ؛ وظن الإمام أن ليس فيها سهوٌ، ثم قال له المصلون أنت سهوت فأنكر ذلك؛ فأكدوا له سهوه، بأن قالوا: سهوت في الركعة الفلانية، أو تركت التشهد مثلاً، أو تركت ركعةً؛ فكل هذا الكلام يعتبر فاصلاً يسيراً؛

---

(١) ذكره ابن حجر في " فتح الباري " (٦/ ٤٦١).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٦٥٤)، والنسائي في "المجتبى" (٣٨٥٦)، وأحمد في "مسنده" (٧٧١٥).

(٣) ذكره ابن حجر في " فتح الباري" (٦/ ٤٦٢).

كما حدث مع النبي ﷺ في حديث ذي اليدين[(١)]؛ فقام النبي ﷺ وأتم الصلاة ولم يبدأها من جديدٍ؛ وإنما سجد للسهو.

المقصود من قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أن الاستثناء هنا كما ذكر عددٌ كثيرٌ من أهل العلم أنه قولهم: إن شاء الله[(٢)]، والبعض قالوا استثناؤهم أن يسبحوا الله تعالى، والاستثناء إذا كان على معنى التسبيح؛ وهو تنزيه الله على ألا يكون شيءٌ إلا بمشيئته؛ وهو معنى المشيئة ولا يستثنون [(٣)]

قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي أن الله أرسل عليها بلاءً وعذابـًا،

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ اختلف أهل العلم في معنى الصريم على أقوالٍ:

١ – منهم من قال الصريم مثل الليل الأسود البهيم[(٤)]، والمعنى أرسل الله عليها

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٨٢)، ومسلم في "صحيحه" (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٨٢) وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٩٠)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٣٥).

(٣) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٦٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٦٣).

(٤) أورده الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٧٤) وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٤٩)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ١٩٥).

بلاءً؛ فأحرقت تماماً وكانوا قد ظنوا أن الثمار في أيديهم، وأنهم قادرون على أن يمنعوا الفقراء من أن يأخذوا منها شيئًا، وعزموا على ذلك، وهموا به، فأرسل الله تعالى في الليل طائفًا على هذه الحديقة وأحرقها تمامًا، وذهب بثمارها، فأصبحت بلا ثمرةٍ فيها،

٢ – ومنهم من قال ﴿**فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ**﴾ معناها كالثمار المقطوعة، فقُطعت ثمارها كلها، ولم يبقَ فيها لا شجرةٌ ولا شيءٌ [١]، وصارت محروقةً كالليل سوداء مظلمةً

وقفةٌ: إذا نوى العبد الخير ، وعزم عليه ، فسيكافئه الله بالخير، و الآخر –عافانا الله– إذا نوى الشر و عزم عليه فهذا العزم يؤاخذ العبد به؛ فهناك خاطرٌ يمر على النفس؛ فهذا الخاطر لا يُكتب لا في الخير و لا في الشر، وهناك حديث نفسٍ، وقد قال النبي ﷺ عنه: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ" [٢]، و أما العزم الذي يصاحبه عقد القلب على الشيء و الهم به؛ فلا شك أن هذا العقد يُكتب للعبد في الحسنات إن كان خيراً، و يُكتب عليه في السيئات إن كان شراً [٣]؛

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قلت: في هذه الآية دليلٌ على أن العزم مما يُؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى:

---

(١) أورده الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٧٤) وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٨/ ١٩٥).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٢٦٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٢٧).

(٣) ينظر " فتح الباري " لابن حجر (١١/ ٣٢٨).

(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ) قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: (إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ)" (١)

ولذلك ربنا تعالى قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ﴾ [الفتح: ١٨] فرب العالمين علم ما في قلوب الصحابة الكرام الذين يبايعون رسول الله ﷺ تحت الشجرة؛ علم ما في قلوبهم من حبٍ لدينه، ونصرتهم له، وبذلهم الغالي والنفيس من أجل إعلاء كلمة الله؛

فقال الله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ جعلهم مطمئنين رغم أنهم قلةٌ، وصدوا عن البيت والكعبة المشرفة التي شرفها الله تعالى، و هم مصممون؛ فمهما كلفهم الأمر لن يُدخِلوا المسلمين مكة ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾ و لما أسر رسول الله ﷺ سبعين من المشركين في غزوة بدرٍ قال الله تعالى للنبي ﷺ في شأن الأسرى : " يا أيها النبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠] من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم" و قيل أن هذه الآية نزلت في العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ ؛ و ذلك أنه لما أُسر مع من أُسر أمر النبي ﷺ الأسارى أن يفدوا أنفسهم؛

فعن ابْنِ إِسْحَاقَ: بَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ، فَفَدَى كُلُّ

(١) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ١٦٤).

قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا. وَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (اللهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللهُ يَجْزِيكَ بِذَلِكَ فَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَكَانَ عَلَيْنَا فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخَوَيْكَ نَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرٍو أَخَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ (. وَقَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ:) فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتَ لَهَا إِنْ أُصِبْتُ فِي سَفَرِي هَذَا فَهَذَا الْمَالُ لِبَنِي الْفَضْلِ وَعَبْدِ اللهِ وَقُثَمٍ (؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَا ذَاكَ شي أَعْطَانَا اللهُ مِنْكَ). فَفَدَى نَفْسَهُ وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ:" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى " الْآيَةَ"(١)

ورغم أنه ﷺ قال قبل المعركة: " إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ نَاسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا "(٢)

---

(١) أخرجه البيهقي في " دلائل النبوة " (٣/ ١٤٣)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٨٠).

(٢) أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٤٩٨٨)، والبيهقي في " دلائل النبوة " (٣/ ١٤٠)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٣٤٧) عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما، به.

و هذا حديثٌ ما أعظمه!، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رِجَالاً مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلاَ سَلَكْتُمْ طَرِيقًا، إِلاَّ شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ.(١) و في روايةٍ "إلا وهُم معنا فيه حبسهم العذر"(٢)، وفي روايةٍ "حبسهم المرض "(٣)عليهم رضوان الله تعالى؛ يعني وهم بالمدينة؛ و رسول الله ﷺ و صحابته الكرام بتبوك؛ وبينهما مئات الكيلو مترات؛ ومع ذلك يقول النبي ﷺ لمن معه ما سرتم مسيراً، و لا قطعتم وادياً؛ إلا و هم هناك في المدينة يأخذوا الأجر مثلكم حبسهم العذر.

وقفةٌ: لذلك إذا كان الإنسان منا تعود الخير؛ وحال بينه وبين ذلك الخير مرضٌ أو سفرٌ؛ يُكتب له ما كان يعمل وهو صحيحٌ مقيمٌ بحول الله رب العالمين؛ كما روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا "(٤)، وهذا من فضل الله تعالى وكرمه على عباده.

كذلك أيضـاً مما يدل على المؤاخذة بالنية، وأن النية الصالحة لها أثرٌ صالحٌ في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٢٧٦٥)، وأحمد في "مسنده" (١٤٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٣٩)، وأبو داود في " سننه " (٢٥٠٨)، وابن ماجه في " سننه " (٢٧٦٤)، وأحمد في " مسنده " (١٢٠٠٩).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١٩١١)، وأحمد في "مسنده" (١٤٦٧٥)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٧١٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٩٩٦)، وأبو داود في "سننه" (٣٠٩١)، وأحمد في "مسنده" (١٩٦٧٩).

العمل الصالح، وكذلك أثرٌ سيءٌ في عمل السوء، ومما يدل على أثرها على العمل الصالح، عن أنس بن مالكٍ، قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟» قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا، بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ." (١)

و في المقابل قول الله تعالى: "﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥] و من يرد في الحرم -شرفه الله تعالى و حفظه و صانه- بإلحادٍ بظلمٍ نذقه من عذابٍ أليمٍ، أراد فقط يعني نوى و عزم و لمَّا يفعل بعد؛ فالله تعالى قال: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، و أيضـًا حتى نحذر هذه الطرق- طرق أهل الفساد -قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩] مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]" فالعبد إذا ظن ظنـًا و لكنه ظنٌ محرمٌ؛ فهذا إثمٌ،

إذا ظن العبد في مسلمٍ شراً، فيظن فيمن ظاهره السلامة الشرَّ؛ فهذا الظن إثمٌ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وأيضـًا قال جلَّ جلاله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] فربنا يؤاخذنا بكسب القلب، ويكرمنا به في الحسنات والأجور، وكذلك إذا كسب القلب شراً، وعزم عليه يُؤاخذ به.

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٦٨٨)، ومسلم في " صحيحه" (٢٦٣٩).

وأيضـًا عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ"[١]، فلذلك النية لها أثرٌ عظيم،

مع قول الحبيب ﷺ: " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا "

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ "

وَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللهَ» "[٢] وهذا فضل الله سبحانه جلَّ جلاله

المقصود أن ينتبه العبد أن رب العالمين يؤاخذ العبد بما ينوي ويعزم ويعقد

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٨٨).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (٧٥٠١) ومسلم في " صحيحه" (١٢٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

القلب عليه، فالله تعالى يثيبه إن كان خيراً، ويكتب الله آثاماً إن كان هذا العزم شراً، نسأل الله العفو والعافية.

قال رب العالمين جلَّ جلاله في شأن أصحاب الجنة: ﴿**فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ۝٢٠ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ**﴾ في أول وقت الصباح[١] ، تَنَادَوا: يا فلان هلم، ويا فلان هيا؛ حتى ننزل إلى البستان ﴿**فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ**﴾ اذهبوا إلى زرعكم ﴿**إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ**﴾ إن كنتم قاطعين الثمار،

ثم قال الله تعالى واصفاً حالهم ﴿**فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ**﴾ رغم أنهم تنادوا في أول الصباح يعني قبل أن ينتشر الصباح؛ لكن كان حرصهم على حرمان الفقراء أشد، ﴿**فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ**﴾ أي يُكلِّم بعضُهم بعضاً سراً حتى لا يسمع أحدٌ [٢]فيخبر الفقراء أن هؤلاء ذاهبون إلى حديقتهم فيأتي إليهم ليأخذ شيئاً منها ﴿**فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ**﴾ أي احذروا؛ ولا تجعلوا مسكيناً يدخل عليكم في الحديقة أبداً، وعزموا على ذلك، سبحان الله العظيم لماذا يمنع العبد خيراً ساقه الله على يديه؟!

وقفةٌ: إذا تفضل الله الكريم وفتح للعبد باب خيرٍ وإن كان يسيراً فلا يقطعه أبداً؛ لعله يُكرم بهذا الخير، ولذلك عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ له كلمة عظيمة ألا وهي قوله الكريم: "من

---

(١) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ١٩٦)

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٧٥)، وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٥٠).

بورك له في شيء فليلزمه" (١)،

وقفةٌ: لو أن إنسانـًا اعتاد أن يتصدق في كل يوم بمالٍ يسيرٍ على عاملٍ بسيطٍ، أو على مسكينٍ، أو على فقيرٍ، أو كل شهرٍ مثلاً يرسل مائة ريالٍ، أو مائتين، أو أقل، أو أكثر لبعض الفقراء والأمر ميسرٌ من الله على هذا؛ فلا يأتي فيقطع ذلك متكاسلاً بأي حجةٍ، بل ينبغي على العبد أن يستمر على الخير ولا يقطعه كما روي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ"(٢)، فلا يقطع العبد مثل هذا البر ويقيس على هذا أعمال الخير كلها من صلاةٍ، وصيامٍ، وتعلم علمٍ؛ منَّ الله على العبد وأكرمه؛ فكل يومٍ يتعلم شيئـًا من هذا العلم، ويجلس مجلسـًا مباركـًا من مجالس العلم؛ فينبغي عليه أن يجتهد ألا يقطعه أبداً؛ لأنه يُكرم بمثل هذا الخير لا شك.

أما هؤلاء ﴿**فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ**﴾ يُكلِّم بعضُهم بعضـًا سراً ﴿**أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ**﴾ ومنع المساكين مع القسوة عليهم، و عدم الرفق بهم سببٌ لحلول البلاء، و العذاب على العباد؛ و لذلك ما قست أمةٌ، و لا قست دولةٌ، و لا قست جماعةٌ، و لا قست عائلةٌ على ضعيفٍ، أو فقيرٍ، أو مسكينٍ إلا و الله تعالى بدَّل النعم التي بين أيديهم ولابد، و ما رحمت أمةٌ، وما رحمت دولةٌ، وما رحمت

(١) نسبه لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ابن رجب في " لطائف المعارف " (٧٥)، ونسبه لبعض السلف، ابن تيمية في " مجموع الفتاوى " (١٥/ ١٢٣).

(٢) **(متفق عليه)** ؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٦٥)، ومسلم في " صحيحه " (٧٨٣).

جماعةٌ، وما رحمت عائلةٌ الضعيف الذي فيهم إلا و الله تعالى يكرمهم، و يصب عليهم الخير صبـًا، ولا ننسى قول النبي ﷺ لسعدٍ الذي رواه البخاري في صحيحه، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: رَأَى سَعْدٌ رضي الله عنه، أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ "[١] يعني إنما نرزق بسبب الضعيف الذي نراه لا يعمل، و لا يستطيع العمل، فلعلنا ننصر و يرفع الله عنا ظلم الظلمة بسبب إحساننا لبعض الأيتام، أو بعض الفقراء، أو بعض الأرامل، أو بعض الناس، قد يُقدِّر رب العالمين ضعيفـًا في أسرة عبدٍ وفي عائلته؛ كأن يكون مريضـًا أو غير ذلك؛ فإن هذا يرزق به هذا العبد بإذن الله، وييسر الله تعالى له رزقه، و يبارك له فيه بسبب هذا الضعيف.

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يهمسون ويتخافتون؛ و يقولون ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ والمسكين هو من أسكنته الحاجة، وأسكنه الفقر؛ فلم يهش، و لم يبش مثل سائر الناس؛ فإذا به ساكنٌ لا يهش و لا يتحرك من شدة الحاجة و الفقر- نسأل الله العظيم أن يواسي المسلمين أجمعين، ويقضي حاجاتهم-، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٩٦)، واحمد في " مسنده " (١٤٩٣)، والطبراني في " الأوسط " (٢٢٤٩).

غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ"[١] فهذا هو المسكين المستحق للصدقة.

قال الله تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ غدو انطلقوا، وقد جاء في معنى حردٍ عدة أوجهٍ منها:

١ - (على حردٍ) يعني على غيظٍ وحنقٍ،[٢]

٢ - (على حردٍ) على جدٍ[٣] ،

٣ - (على حردٍ) على تصميمٍ وقصد منع الفقراء أن يدخلوا هذه الحديقة[٤]، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " مأخوذٌ من حاردت السنة فليس فيها مطرٌ، وحاردت الناقة فليس لها لبنٌ، قاله أبو عبيدة وابن قتيبة. "[٥]

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ يعني ظنوا أنهم قادرين على قطعها، وجَنْي ثمارها،

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (١٤٧٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٣٩).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٧٨) عن سفيان. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٦٩)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٣٨).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٧٦) عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد والحسن وقتادة وابن زيدٍ. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٦٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٦٦).

(٤) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ١٦٦) عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيره.

(٥) ذكره ابن الجوزي في " زاد المسير " (٨/ ٣٣٧) وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٦٦)

وكذلك يمنعون الفقراء الحق الذي كانوا يأخذونه من هذه الحديقة.

﴿**فَلَمَّا رَأَوْهَا**﴾ قد كانوا غافلين قبل ذلك عن أن الله تعالى بالمرصاد ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ**﴾ وصلوا إليها فوجدوها على الحال التي وصفها الله تعالى "كالصريم" فأصبحت بعد الثمار الزاهرة، و الخير العظيم الذي كان في هذه الحديقة ؛ تراباً ورماداً، وصارت سوداء مظلمةً لا شيء فيها؛ فإذا بهم لما رأوها محرقةً، و ليس فيها شيءٌ و لا ثمارٌ، و قد تركوها بالليل مليئةً بالثمار اليانعة؛ إذا بهم يقولون ﴿**إِنَّا لَضَآلُّونَ**﴾ ضللنا طريقنا عن المكان المراد؛ فهذه ليست حديقتنا، وهذا ليس مكاننا، ثم لما أفاقوا و رجعت لهم عقولهم تأكدوا أنها هي قالوا ﴿**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُون**﴾ يعني نحن حُرمنا هذا الخير الذي كان عندنا بسبب عزمنا على منع المساكين أن يأخذوا شيئـًا منها

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " يقول تعالى ذكره: فلما صار هؤلاء القوم إلى جنتهم، ورأوها محترقـًا حرثها، أنكروها وشكوا فيها، هل هي جنتهم أم لا؟ فقال بعضهم لأصحابه ظنـًا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم، وأن التي رأوا غيرها: إنا أيها القوم لضالون طريق جنتنا، فقال من علم أنها جنتهم، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن أيها القوم محرومون، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها."(١)

قال الله تعالى: ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ**﴾ أوسطهم هنا يعني

---

(١) " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ١٧٩).

أعدلهم وخيرهم [١]كما قال الله تعالى: "﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وسطًا يعني عدلاً خياراً قال خيرهم، وأعدلهم، وأوسطهم، وأقربهم إلى الحق ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ألا تسبحون الله، وتنزهونه على النقائص والعيوب، فتقولون سبحان الله، وتقولون إن شاء الله لما قلتم لنصرمنها مصبحين[٢]

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلةٌ، فلولا استثنيتم فقلتم: {إِنْ شَاءَ اللَّهُ} وجعلتم مشيئتكم تابعةً لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى" [٣]

قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ عندها ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ قال السادة العلماء من أهل التفسير نَزَّهوا الله تعالى واعترفوا بذنبهم، فقالوا: إنا كنا ظالمين في منع الفقراء حقهم فلذلك حل البلاء علينا، وحُرمنا خير هذه الحديقة العظيمة التي كان فيها خيرٌ عظيمٌ لنا ولغيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ثم ربما يدل هذا- والله

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٨٠) عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وسعيد وقتادة والضحاك. وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٩٩)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٩٦).

(٢) الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٨٢)، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٩٦)، و"الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٦٤٠).

(٣) أورده السعدي في " تيسير الكريم الرحمن " (٨٨٠)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن" القرطبي (٢١/ ١٦٩).

أعلم -على توبتهم؛

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قول أهل الجنّة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ لا أدري إيمانًا كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة، فيوقف في كونهم مؤمنين"(١) يعني أنه مثل قول المشركين إذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون إلا الله، وقال عبد الرزاق قال معمر: "سُئِلَ قتادة عن أصحاب الجنة، أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار، قال: لقد كلفتني تعباً"(٢)

وقال بعض أهل العلم: ظاهر القرآن أنهم قد تابوا، ولذلك قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضـًا: فقالوا ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعد ما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يُرفع، ولكن لعل تسبيحَهم هذا، وإقرارَهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبةً، ولهذا ندموا ندامةً عظيمةً. ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ فيما أجْرَوه وفعلوه،"(٣)

وشاهد ذلك أنهم قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ فكأنهم رغبوا إلى الله تعالى أن يبدلهم جنةً مكان هذه الجنة؛ والظاهر -والله أعلم- أن الله أبدلهم جنةً مكان جنتهم؛

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٧٠)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (١٩/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في " تفسيره" (٢/ ٣٠٩)، و" ينظر الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ١٧٠).

(٣) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (٨٨٠)، و "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٨٠).

لأن العبد إذا دعا ربه، وألحَّ عليه، ورغب فيما عنده أعطاه الله سُؤله سبحان الكريم جلَّ جلاله، وهذه آيةٌ عظيمةٌ، وهذه قصةٌ فيها عبرةٌ وعظةٌ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يعني كل أخٍ يلوم أخاه؛ فيلقي باللوم عليه: أنت الذي قلت لي نمنع المساكين، والآخر يقول أنت الذي قلت لي كذا، والثالث وهكذا،

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ندموا حيث ينفع الندم؛ حين ذهبت الثمار، حيث أذهبها الله سبحانه عقوبةً وردعًا، ولكن الندم توبةٌ، كما ورد في الحديث، عَنْ حُمَيْد الطَّوِيلَ، يَقُولُ: قُلْتُ لأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: النَّدَمُ تَوْبَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ."(١)

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ طاغين أي تجاوزنا الحد المأذون لنا فيه، ووقعنا فيما حرَّم الله علينا؛ فكأنهم قالوا: يا ويلنا إنا كنا مبعدين: مخالفين أمر الله في تركنا الاستثناء والتسبيح(٢)، فالطاغي هو الذي يتجاوز الحلال، ويقع فيما حرَّم الله عليه.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ بعض أهل التفسير قالوا إن يبدلنا خيراً منها في الآخرة، وبعضهم كالعلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ فهم رَجَوا الله أن يُبدِلَهم خيرًا منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن حبان في " صحيحه " (٥٦٢)، والحاكم في "المستدرك" (٧٦١٤)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣١٤٦)

(٢) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٨٣) و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٧٠).

الله، ويُلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها لأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤله "[1]

ثم يقول تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ**﴾ كذلك العذاب أي كذلك عذابنا يحل على أهل الكفر، والعناد، والمخالفة للرسل؛ فنستدرجهم، ونعطيهم الأموال، ونعطيهم متاع الحياة الدنيا؛ ليس لكرامتهم علينا؛ ولكن لعله استدراجٌ منا لهم؛ كما قال رب العزة: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦**﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢**﴾ [هود: ١٠٢] "[2]-نسأل الله العافية والسلامة- فالله عزَّ وجلَّ يعطيه المال، ويعطيه المنصب، ويعطيه المُلْكَ حتى إذا ظن أنه في أعلى ما يكون من أُبَّهة الدنيا أخذه الله جلَّ جلاله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ

﴿**كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ**﴾ وهكذا أيضـًا أصحاب الجنة أثمرت جنتهم، وبلغت الثمار الغاية، وظنوا أنها في أيديهم، وظنوا أنهم قادرون على أن يمنعوا الفقراء أن يأخذوا شيئـًا منها؛ إذا بالله جلَّ جلاله يبيدها تمامـًا، فلم يستفيدوا بثمرةٍ واحدةٍ من هذه الجنة العظيمة التي جعلها الله مثلاً يُضرب إلى يوم القيامة،

---

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (٨٨٠).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٦٨٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٥٨٣).

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾ وقد ذكر عددٌ كبيرٌ من أهل العلم أن هذه القصة كانت في اليمن، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء-ويقال بفرسخين "(١)

وأيضـًا قصة سبأ ليست ببعيدةٍ، فقد كانت في اليمن كذلك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ [سبأ: ١٥] حتى نستفيد أن النعم تدوم بالشكر، وطاعة المولى، وأن عدم شكر النعمة سببٌ في زوالها بأسرع ما يمكن- نسأل الله العافية والسلامة-.

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ وحينما يقول رب العالمين: (ءَايَةٞۖ) فهي إذاً آيةٌ باهرةٌ تدل على وحدانية الله و قدرته و عظمته ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ١٥﴾ [سبأ: ١٥] ماذا فعلوا ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ عن الله، قال الله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ١٦﴾ [سبأ: ١٦] فلذلك ما أبرك شكر العبد، وما أبرك أن يكون عبداً مطيعـًا لربه، وما أبرك أن يُحسن إلى الفقراء و المساكين، و الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث "ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ" (٢)

---

(١) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ١٦٠)

(٢) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٣٨٠)، وأحمد في " مسنده " (٦٥٤١)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤٨٢).

وكذلك في حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ، إِذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ، أَقْبَلَ عَلَى جُلَسَائِهِ فَقَالَ: «اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ»(١)،

وكما روي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ" (٢)

فلا يظن العبد أبداً أن الصدقة التي يخرجها تُنقص ماله، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ، قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(٣)، فهذه الصدقة تدفع عن العبد سوءً الله به عليمٌ، و تجلب له خيراً هو لا يعلمه، و لذلك هناك حديثٌ- و إن كان فيه ضعفٌ- عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ " حديثٌ فيه ضعفٌ (٤)، لكن لا شك أن معناه صحيحٌ مائةً في المائة، و هو ظاهر هذه الآيات العظيمة، فهذه

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٣٢)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٢٧).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٩٤١)، والترمذي في " سننه " (١٩٢٤)، وأحمد في " مسنده " (٦٤٩٤)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨٨)، والترمذي في " سننه " (٢٠٢٩)، وأحمد في " مسنده " (٧٢٠٦).

(٤) **(ضعيف)** أخرجه ابن ماجه في " سننه " (٤٠٢٢)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١١٧٧٥)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٠١٦)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٣٨٦)، وضعفه الألباني في " ضعيف الترغيب والترهيب " (١٤٧٨).

الجنة كانت رزقـاً هُيِّأ لأصحابها، و هم قادرون على أن يجنوها بإذن الله، و قادرون أن يستفيدوا منها و يُفيدوا غيرهم ؛ ولكن لما عزموا على الذنب، و عقدوا قلوبهم على المعصية؛ إذا بالله تعالى يحرمهم من هذا الرزق الذي كان قد هُيِّأ لهم.

قال مولانا تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾ للكافرين المشركين لأعداء الله ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ما عذاب الله عزَّ وجلَّ وما أعد الله تعالى انتقامـاً من أعدائه

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كفعلنا بجنّة أصحاب الجنّة، إذ أصبحت كالصّريم بالّذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسدة، فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا في عاجل الدّنيا، ولعذاب الآخرة أكبر يعني عقوبة الآخرة بمن عصى ربّه وكفر به، أكبر يوم القيامة من عقوبة الدّنيا وعذابها وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أنّ عقوبة اللّه لأهل الشّرك به أكبر من عقوبته لهم في الدّنيا، لارتدعوا وتابوا وأنابوا، ولكنّهم بذلك جهّالٌ لا يعلمون"(١)

قال عز وجل:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ١٨٣).

سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وهكذا القرآن الكريم من أسماءه مثاني؛ أي أنه إذا ذكر حال الكفار يذكر حال الأخيار، وإذا ذكر مآل الكافرين يذكر مآل المؤمنين.

فقال تعالى مبشراً وميسراً: ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ**﴾ المتقون الذين اتقوا الشرك بالله، واتقوا الحرام، وأدوا الفرائض؛ فهؤلاء الكرام لهم جنات النعيم؛ فيها ما لذَّ وطاب، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، جنات النعيم لأبدانهم ولقلوبهم ولأرواحهم، جناتٌ خالدين فيها أبد الآباد

ثم يقول الله في ختام هذه الآيات: ﴿**أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ**﴾ فهل لو ساوى تعالى بينهما أيكون عدلاً منه؟ حاشا لله ليس بعدلٍ؛ فتمام عدل الله ألا يسوي الفاسق مع المؤمن التقي، و لا يسوي المسلم مع الكافر، و لا يسوي المطيع مع العاصي، و لا يسوي المجتهد في طاعة الله مع الكسول أبداً، هذه سنةٌ أجراها الله تعالى ﴿**أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ**﴾ كما قال الله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾**﴾ [الجاثية: ٢١] و قوله تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾**﴾ [ص: ٢٨] أفيظن مؤمنٌ هذا في الله عزَّ و جل؟!، فالمؤمن يخاف الله، و يتقيه، و يحسن إلى جاره، و يحسن إلى زملائه، و يعامل الناس بالأمانة، و يقوم بالحق الذي عليه؛ أيستوي هو مع

المفسد في أرض الله؟! هذا لا يمكن أبداً، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي أيجعل الله عزَّ وجلَّ المتقي كالفاجر؛ الذي لا ينزوي عن حرامٍ؛ فينتهك الزنا، ويشرب الخمر، ويقتل النفس بغير حقٍ؟؛ هذا لا يمكن أبدا"؛

و لذلك ربنا تعالى يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا حكم جَوْرٍ، و لا يليق بالله العظيم، فقد جرت سنة الله أنه لا يُسوِّي الصالح بالطالح، و لا المفسد بالمصلح، و لا المطيع بالعاصي، و لا المسلم بالمجرم أبداً- حاشا لله-، فمن ظن في الله ذلك فقد ظن ظن السوء، و حكمة الله تقتضي ألا يستوي الأبرار مع الفجار ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية: ٢١] ساء الظن هذا الظن الذي يظنه الكفار في الله عزَّ و جل؛ و ذلك لأن المشركين قالوا إن كان أصحاب محمدٍ- هؤلاء الضعفاء- لهم الجنة في الآخرة ؛وكانت هناك جنةٌ فنحن أولى بها منهم، ظنوا أن الآخرة مقياسها كمقياس الدنيا؛ من كان أعلى نَسَباً، و أعلى مالاً، أو غير ذلك فهو أحق بالجنة، وهذا محالٌ وسوء ظنٍ بالله تعالى.

الله تعالى أعدَّ الجنة لأوليائه المؤمنين به المطيعين له ولرسله ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أيُّ حكمٍ هذا الحكم؟ حكم جورٍ وظلمٍ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ يعني ألكم كتابٌ جاء من عند الله تعالى درستم فيه أن المجرم يستوي مع المسلم، وأنكم يا معشر المشركين تستوون

مع المؤمنين؟ هل نزل عليكم كتابٌ من السماء يقول بهذا؟! أبداً لم يكن ذلك بل هو افتراءٌ منهم على الله جلَّ جلاله

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وكان صناديد قريشٍ يرون وفور حظّهم من الدّنيا وقلّة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد اللّه المؤمنين قالوا: إن صحَّ أنَّا نُبعث كما يزعم محمّدٌ ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلّا مثل ما هي في الدّنيا، وإلّا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا" (١)

وأيضـًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ يعني أأُنزِل عليكم كتابٌ، وتختارون ما تشاءون، وتجعلون لكم الجنة، وتجعلون النار لأصحاب محمدٍ ﷺ.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يعني أم لكم أيمان عهودٍ من الله جلَّ جلاله أقسم الله لكم بها أنكم من أهل الجنة؟! لم يكن ثم شيءٌ من ذلك أبداً

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بالغةٌ إلى يوم القيامة؛ يعني هل أخذتم عهداً من الله وأقسم الله تعالى لكم بأيمانٍ تصل إلى يوم القيامة أن لكم نجاةٌ من النار، وأنكم من أهل الجنة؟! لم يكن شيءٌ من هذا أبداً.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ فتحكمون ما تشاءون (٢)

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن "للقرطبي (٢١/ ١٧٢).

(٢) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ١٧٣) وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (١٩٨/٨).

قال الله تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ الزعيم هو الضمين، أو الضامن، أو الكفيل، من يضمن لهم هذا؟! ومن الكفيل الذي يتكفل لهم بذلك؟! ومن الضامن لهم؟! فليأتوا به ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أيهم زعيمٌ بهذا، وأيهم ضنينٌ بذلك[١]

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ شركاءٌ يعطونهم ما أرادوا، أم لهم شركاءٌ في مُلك الله تعالى؛ يقضون ما شاءوا لهم من الجنان والنعيم.[٢]

ثم أخبر الله تعالى عن شدةٍ عظيمةٍ، وكربةٍ هائلةٍ تنتاب هؤلاء المجرمين الكافرين؛ فقال جلَّ جلاله: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يوم يكشف عن ساقٍ يعني عن أمرٍ مهولٍ، وشدةٍ عظيمةٍ، وذلك يوم القيامة،

صفة الساق لله تعالى:

وقد جاءت رواياتٌ كثيرةٌ ثابتةٌ صحيحةٌ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أنه قال في ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال الأمر الشديد، و قد روى ذلك الطبري في أكثر من روايةٍ، و قال أيضـاً هو يوم حربٍ و شدةٍ[٣] ، و في بعض الروايات عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال عن

---

(١) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٨٥) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وقتادة وينظر "معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٧٧)، و"العين" للخليل بن أحمد (١/ ٣٦٥)، ومقاييس اللغة" لا بن فارس (٣/ ١٠).

(٢) أورده الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٨٦).

(٣) ذكره الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٨٦) عن جماعة من الصحابة والتابعين من أهل

أمرٍ عظيمٍ[١] و عن غير ابن عباسٍ رضي الله عنهما أيضـاً كقتادة رحمه الله قال: عن أمرٍ فظيعٍ جليلٍ[٢]، و كذلك روايةٌ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال يوم القيامة و الساعة لشدتها [٣]؛ وإن صحَّ ذلك؛ لكنه أبداً لا يمنع من إجراء الآية على ظاهرها؛ و أن الله تعالى جلَّ جلاله يكشف عن ساقه التي ليس كمثلها ساقٌ، و هي صفةٌ جليلةٌ لله رب العالمين، و ذلك ثابتٌ في الحديث المتفق عليه، و الحديث مطولٌ في الصحيح، و له روايةٌ مختصرةٌ؛ أما الرواية المختصرة عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا" [٤]-نسأل الله العافية و السلامة-.

وهذا الحديث في روايته المطولة عبرةٌ وعظةٌ نسوقها للفائدة؛ في الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ

=التأويل: يبدو عن أمر شديد، وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٨٧) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٧٠)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٤١).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٨٨)، وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (٦٤٦/١٤).

(٣) **(صحيح)** أخرجه الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٨٨) وينظر تصحيح هذه الآثار للشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ص (٨٣).

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٩١٩).

بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ

تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا"[١]نسأل الله العافية والسلامة

ولابن القيم كلامٌ جميلٌ في ذلك حيث قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، فهذا صريحٌ في أن الله يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة، وأن الكفار يُحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف، بما لا يطاق حينئذٍ حساً عقوبةً لهم، لأنهم كلفوا به في الدنيا وهم يطيقونه؛ فلما امتنعوا منه وهو مقدورٌ لهم كُلِفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرةً عليهم وعقوبةً لهم"[٢]

نثبت هذه الصفة الجميلة لله وهي صفة الساق، ولكن لا نحرِّفها، ولا نشبهها، فلا نقول كساق المخلوق وأيضاً لا نؤولها؛ فنصرفها عن ظاهرها فنقول الأمر الشديد وفقط، وإن كان ثبت عن بعض السلف كما ذكرت عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ومجاهدٍ رَحِمَهُ اللهُ[٣]، أنهما قالا الأمر الشديد، أو الأمر العظيم، أو يوم القيامة، أو أنه ساعةٌ شديدةٌ من ساعات يوم القيامة، ولكن لا شك أن صفة الساق لله جلَّ جلاله ثابتةٌ، وهذه مما يمتاز به أهل السنة.[٤]

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٤٣٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٨٣).

(٢) ينظر "طريق الهجرتين " لابن القيم (٤٠١).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٨٨) وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٦٤٥)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ١٩٩).

(٤) قال الشيخ عبد الرحمن المحمود في " موقف ابن تيمية من الأشاعرة" (٣/ ١١٦١) ولذلك

فقد ثبت أيضـًا عن النبي ﷺ أنه قال في مسألة هل هناك سجودٌ في يوم القيامة فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، فَيَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ،"(١) وهو حديثٌ ثابتٌ في الصحيح، و هو حديث أنس بن مالكٍ، و هذه الرواية في صحيح البخاري.

فالله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يوم تحدث هذه الأهوال العظيمة والكربات الشدائد

قال الله تعالى: "﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يدعون إلى السجود فلا يستطيعون السجود، ويصير ظهرهم طبقـًا واحداً؛ فلا يمكن لهم أن يسجدوا أبداً، ويكون ذلك عقوبةً لهم في أرض المحشر أمام العباد.

قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ خاشعةً أي ذليلةً حقيرةً من شدة الغضب من رب العالمين عليهم، ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ بعد أن كانوا أعزَّةً في الدنيا تغشاهم وترهقهم ذلةٌ

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ والدعوة هاهنا هي دعوة

=لما ثبتت صفة "الساق" في الحديث أثبتها أهل السنة، وإن كانوا مختلفين حول دلالة الآية عليها، وهذا هو الذي يوضح الفرق بين منهج السلف، ومنهج المبتدعة من أهل الكلام.

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٤٤٠) ومسلم في "صحيحه" (١٩٣).

المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ" ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ قَالَ: يَسْمَعُ الْمُنَادِيَ إِلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ فَلَا يُجِيبُهُ."(١)

فكلنا يسمع الدعوة للصلاة؛ فمن أجاب الدعوة، ولَبَّى النداء، وسجد لله طوعـاً واختياراً في الدنيا يُكرم يوم القيامة، ويَسجد بين يدي مولاه جلَّ جلاله، ويُكرمه الله بجناتٍ ونعيمٍ، ومن أَبَى، ولم يُطع، ولم يُجب الداعي في الدنيا طوعـاً واختياراً بإرادته يوم القيامة يُحال بينه وبين السجود، وترهقهم ذلةٌ، وتراهم أحقر ما يكونون- نسأل الله السلامة والعافية-.

قال عز وجل:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ربنا تعالى يقول: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ﴾ و لله المثل الأعلى؛

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ١٩٦)، وينظر "حلية الأولياء" لأبي نعيم (٤/ ٢٨٦)، و"شعب الإيمان" للبيهقي (٢٦٥٥).

عندما يقول قويٌ من أهل الدنيا: دع لي فلانـًا ؛ أنا أفعل لك فيه ما تشاء، فهذا أقوى الأقوياء؛ بل القوي المتين جلَّ جلاله يقول: يا محمد ذرني و المكذبين، أي اترك هؤلاء المكذبين لي؛ سأكفيك إياهم، و سأنتقم لك منهم ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ و الحديث هو القرآن الكريم كتاب الله عزَّ و جل، رُوي عن السدي[(١)]، فالله تعالى يتوعد هؤلاء، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] وحيدا و جعلت له مالا ممدودا" وهو الوليد بن المغيرة.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يعني سيمهلهم الله تعالى، وسيمدهم بالمال، والبنين، ويعطيهم من متاع الدنيا ما يشاءون؛ كلما ازدادوا تكذيبـًا سيمدهم بما يشاءون من أموالٍ، وما يشاءون من مناصب، وما يشاءون من صحةٍ وعافيةٍ وأمنٍ وأمانٍ؛ لا لكرامتهم على الله بل يستدرجهم إليه سبحانه؛ ثم إذا أخذهم يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ [(٢)]

و نحن نرى أن الله تعالى يملي للكفرة و الفجرة؛ حتى إذا رأوا أن الدنيا في أيديهم، و أنهم قادرون عليها أخذهم بغتةً، وقد حكى الله تعالى عن فرعون وأن إغراقه كان بعد ظنه التمكن من موسى عليه السلام ومن معه، فقال تعالى: "﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] و فرعون في أثرهم

---

(١) الماوردي في "النكت والعيون" (٦/ ٧٢)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٨٠).

(٢) ينظر " جامع البيان" للطبري (٢٣/ ١٩٨)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٠٠).

يريد أن يدركهم بقوةٍ و جدٍ و نشاطٍ و همةٍ، و أوشك أن يلحق بموسى؛ إذا بالله تعالى يفتح البحر و يغرقه هو و جنوده أجمعين أغرقهم في أَوْجِ قوتهم ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٦]

وكذلك قارون لما خرج على قومه في زينته "﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القصص: ٧٩] فبينما هو في أوج قوته، وأوج أبهته، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾ [القصص: ٨١] نسأل الله العافية ونعوذ بالله من الخذلان.

كذلك صاحب الجنتين؛ أنفق على جنتيه نفقةً هائلةً؛ حتى دخل وأعجبته جنتُه، وأعجبه كثرةُ ثمارها التي تبهر العقول؛ فما أسند ذلك إلى الله المنعم؛ ولكنه قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥﴾ [الكهف: ٣٥] فأذهب الله تعالى بها بالتمام والكمال؛ ولذلك في الحديث الثابت الصحيح "أن الله يملي للظالم؛ فإذا أخذه لم يُفلته" (١)

و كذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: ١٠٢] و كذلك قول مولانا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] و قول مولانا في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤] -

---

(١) **(صحيح)** وتقدم تخريجه.

سبحان الله- نَسُوا ما ذكروا به من القرآن، و انصرفوا عن الهدي المستقيم؛ قال تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حتى لا يغتر العبد بما عند الكفرة أعداء الإسلام؛ كحال كثيرٍ من المغرورين المفتونين -إلا من رحم الله- ينظر و يقول: و الله هم على خيرٍ، وهم أفضل من المسلمين، كيف يا أخي؟ والمسلم الواحد خيرٌ من كل ملل الأرض من دون المسلمين، مسلمٌ عاصي مرتكبٌ للكبائر خيرٌ من ملئ الأرض من غير المسلمين؛ لأنه في النهاية مآله جناتٍ ونَهَرٍ، فكيف يسوي المسلم بالكافر؟!؛ فلذلك ربنا تعالى قال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴿٤٤﴾﴾ يعني آيسون قد انقطع رجاءهم،

فربنا تعالى في هذه الآية الكريمة يقول: "﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ دعه لي، دعني وهؤلاء المكذبين، اتركهم لي سأوفيهم حسابهم على أكمل ما يكون، وسأنتقم منهم انتقاماً عظيماً؛ الذين يكذبون بالقرآن الكريم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴿٤٤﴾﴾.

ثم قال الله تعالى مبيناً ذلك في الآية التالية: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ يملي لهم: يعطيهم ما يشاءون، ويمدهم مداً من متاع الدنيا ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ إن كيد الله تعالى وأخذه عظيمٌ للكافرين، قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ يقول تعالى ذكره: وأُنسئ في آجالهم ملاوةً من الزمان، وذلك برهةً من الدهر على كفرهم وتمردهم على

الله لتتكامل حجج الله عليهم."[١]

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يعني يا محمد هل تطلب منهم أجراً فلذلك هم لا يجيبوك ولا يطيعوك لأنهم مغرمون؟، أي عليهم دَينٌ ثقيلٌ بسبب هذا الذي تطالبهم به؟! بل إنما تدعوهم إلى الله خالصًا، لا تريد شيئًا، لا تريد منهم جزاءً ولا شكوراً،

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: " يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّدٍ ﷺ: أتسأل يا محمّد هؤلاء المشركين باللّه على ما أتيتهم به من النّصيحة، ودعوتهم إليه من الحقّ، ثوابًا وجزاءً. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يعني من غرم ذلك الأجر مثقلون، قد أثقلهم القيام بأدائه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنّبوا لمعظم ما أصابهنّ من ثقل الغرم الّذي سألتهم على ذلك الدّخول في الّذي دعوتهم إليه من الدّين"[٢]

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ولفظة الغيب تحتمل أكثر من معنىً، ومن ذلك:

١ - يحتمل أن يكون المعنى أم عندهم علم ما غاب عنهم فهم يكتبون [٣]،

٢ - الغيب هو اللوح محفوظ، قاله ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، والمراد ما كُتب في اللوح المحفوظ، والمعنى: هل عندهم اللوح المحفوظ فكتبوا فيه أنهم من أهل

---

(١) الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ١٩٨) وينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٣٨٦).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ١٩٩).

(٣) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢٣/ ١٨١).

الجنة، وأن لهم النعيم المقيم؟!،

فهؤلاء ليس عندهم اللوح المحفوظ، وليس عندهم علم ما غاب عنهم؛ بل كل ذلك إلى الله، كما قال تعالى: ﴿**أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥**﴾ [النجم: ٣٥] تبارك الله رب العالمين

ثم قال جلَّ جلاله بعد ذلك: ﴿**فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ**﴾ اصبر يا محمد لحكم الله تعالى الذي قضاه الله عليك؛ من أمره ببلاغ الرسالة، وما يحدث لك من تبليغك إياهم، وتبليغك للناس الرسالة التي أمرك الله تعالى بها،

﴿**فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ**﴾ ليس النهى من الله تعالى لنبينا ﷺ -كما هو ظاهر الآية- في قوله: ﴿**وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ**﴾ أن لا يكون مثله في دعائه إذ نادى و هو مكظومٌ، لا؛ إنما المقصود أن الله تعالى نهى نبينا محمداً ﷺ عن أن يكون مثل نبي الله يونس عليه السلام في السبب الذي استوجب له؛ و دعا هذه الدعوة بسببه؛ ألا و هو أنه ذهب مغاضبـًا -أي ذهب غضبانـًا-[(١)] ، وقد بعثه الله تعالى على بلدةٍ يُقال لها نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله سبحانه جلَّ جلاله، وحذرهم من عاقبة كفرهم الذي هم عليه، و لكنهم لم يؤمنوا فغضب عليهم، فلما غضب عليهم خرج من عندهم غضبانـًا، و تركهم من دون إذنٍ من الله، و ذلك لقوله تعالى: " ﴿**وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ**﴾ [الأنبياء: ٨٧] فظنَّ أن لن نُضيق عليه، وخرج بدون إذنٍ من الله

---

(١)ذكره الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ١٩٩). وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ١١٢).

أن يخرج، و لأنه نبيٌ كريمٌ فلما خرج من بينهم خاف أهل القرية، و جمعوا أنفسهم، و تابوا إلى الله تعالى، و جمعوا الرجال و النساء و الكبار و الصغار و البهائم و فرقوا بين الأم و ولدها، و جعلوا يجأرون إلى الله تعالى و يبكون، و تابوا إلى الله توبةً نصوحـًا، وصدقوا، كما قال الله: "﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴿٩٨﴾**﴾ [يونس: ٩٨] و إلا هنا بمعنى لكن، فخرج يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من عندهم، و هو لا يعلم أنهم آمنوا، فقد خرج و تركهم كفاراً وقت خروجه عنهم؛ و إذا به يركب سفينةً كي يسافر ويبتعد عنهم، و إذا بهذه السفينة يُقدر الله تعالى الأمواج العاتية، ولا بد أن يتخفف أهلها من حملهم الأشياء التي كانت عليها؛ حتى وصلوا أنه لا بد أن يُلْقُوا أحداً منهم في اليم؛ فأجروا قرعةً فوقعت القرعة على يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، كما قال تعالى: ﴿**فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴿١٤١﴾**﴾ [الصافات: ١٤١] يعني فضرب القرعة فوقعت القرعة عليه، وأنه هو الذي يُلقى، فأهل السفينة استعظموا ذلك إذ كيف يُلقون هذا الرجل الصالح؛ فقرروا أن يعيدوا القرعة؛ فأعادوها ثلاثـًا و في كل مرةٍ تقع عليه، و إذا في المرة الثالثة لما وقعت القرعة عليه، و أُلقي في اليم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويُقدر الله سبحانه جلَّ جلاله بلطفه و كرمه -وهكذا عندما تشتد الأمور؛ فإذا كان العبد مطيعـًا لمولاه، و قصده حسنٌ فإن الله يلطف به لطفـًا عظيمـًا لا تدركه عقول البشر - حوتـًا يأتي من أعماق البحار، يأتي خصيصـًا يلتقم نبي الله يونس، قال تعالى: "﴿**فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ**﴾ [الصافات: ١٤٢] و الحوت لم يكسر له عظمـًا، و لم يخدش له لحمـًا؛ لأنه ليس له رزقـًا ، قال تعالى:

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وهو غضبانٌ،

وربنا تعالى في هذه الآية يقول: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مكظوم أي ممتلئٌ هماً وغماً؛ لأن المكظوم هو الذي امتلأ غيظاً وغضباً، أو غماً وهماً- سبحان الله العظيم- فمولانا يصور لنا أن نبي الله يونس لما التقمه الحوت كان مليئاً بالهم والغم، وسبب ذلك أن قومه يكفرون بالله العظيم؛ الذي كل شيءٍ في الكون يدل على وحدانيته- على أنبياء الله جميعا الصلاة والسلام-.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لكن نُبِذَ بالعراء، و اجتباه الله تعالى، و جعله من الصالحين، وتاب الله تعالى عليه، و الله تعالى وصفه في سورة الأنبياء بقوله : ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ نادى هذه الدعوة وهذا النداء العظيم و هو في أعماق البحار، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧] ظلماتٌ وليست ظلمةً واحدةً؛ ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر، و ظلمة الليل، و ظلمة السحاب، ظلماتٌ شديدةٌ، وفي بعض الآثار أن الملائكة سمعته فقالوا: يا رب صوت من هذا؟ قال: هذا صوت عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لا يزال يُرفع إليك منه عملٌ صالحٌ، قال: نعم[1] ،

وقال بعض السلف: التقمه الحوت غدوةً أي في الصباح وقذفه عشيةً، وبعضهم

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٥/ ٣٦٨).

قالوا: مكث في بطن الحوت ثلاثة أيامٍ، وقال بعضهم سبعة أيامٍ، روي عن عطاء[١]، وبعضهم قال أربعين، روي عن سعيد بن أبي الحسن[٢]، والله أعلم بمدة مُكثه؛ فلم يثبت عن الرسول ﷺ شيءٌ في الصحيح مثل هذا [٣]

قال الله تعالى: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي أن الله تعالى تاب عليه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وجعله من الأنبياء الكرام [٤]، ورده الله تعالى إليهم، قال الله تعالى: "﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ أو هنا بمعنى بل، يعني بل يزيدون عن مائة ألفٍ " فَـَٔامَنُواْ " يعني آمنت كل القرية، وهي قرية نينوى ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]

وقفةٌ: هذه الدعوة هي دعوة المكروب، وهي دعوة المهموم، وهي دعوة العبد الذي أصابه ضرٌ و عجز عنه؛ يتمثل بها بين يدي ربه، فبينه و بين الله يقول: يا رب لا آله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، و يكثر منها، و يُلحُّ على الله، ثبت في سنن الترمذي و غيره عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " دَعْوَةُ ذِي

---

(١) أورده البغوي في " معالم التنزيل " (٥/ ٣٥١).

(٢) ذكره ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٥/ ٣٦٨) وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ٦٣١).

(٣) ينظر تفصيل هذه القصة في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ (٩٠-٩٧) للشيخ مصطفى العدوي.

(٤) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٠١).

النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ" (١)

وقبل أن ننتقل من قصة نبي الله يونس عليه السلام فهناك حديثٌ ثابتٌ صحيحٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ "(٢)، وفي روايةٍ في صحيح البخاري عن ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى "(٣)

فهذا الحديث له أكثر من تأويلٍ عند أهل العلم، ومن ذلك:

* إما أن يكون بعض الجهلاء مجتهدٌ في العبادة؛ ثم يسمع عن نبي الله يونس عليه السلام أنه ذهب مغاضبـاً، وبدون إذنٍ من الله؛ فيقلل من مكانة نبي الله يونس عليه السلام؛ فيرى نفسه مجتهداً في العبادة، ويظن أنه خيرٌ من هذا النبي الكريم؛ وهذا سَفَهٌ.

* و المعنى الأخر أنا في قول النبي صلى الله عليه وسلم" لا ينبغي لأحدٍ أن يقول أنا خير من يونس بن متى" تعود على النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى لا يقول أحدٌ أن نبي الله محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل من يونس بن متى عليه السلام، وهذا التأويل إما أن يكون قاله الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلمه الله أنه سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم لأن الله أخبره و أوحى إليه و أعلمه أنه عليه الصلاة و

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه " (٣٥٠٥)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٤١٧)، وأحمد في "مسنده" (١٤٦٢)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (١٦٤٤).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤١٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٦٣٠).

السلام سيد ولد آدم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ"(١)، أو يكون ﷺ قد قالها تواضعـًا،

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء هذه الأحاديث تحتمل وجهين؛ أحدهما أنّه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنّه أفضل من يونس؛ فلمّا علم ذلك قال أنا سيّد ولد آدم ولم يقل هنا إنّ يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم، والثّاني أنّه ﷺ قال هذا زجرًا عن أن يتخيّل أحدٌ من الجاهلين شيئًا من حطّ مرتبة يونس ﷺ من أجل ما في القرآن العزيز من قصّته، قال العلماء وما جرى ليونس ﷺ لم يحطّه من النّبوّة مثقال ذرّةٍ" (٢)

قصةٌ واقعيةٌ:

هذا الدعاء فرصةٌ هائلةٌ لمن عنده كرباتٌ أو همومٌ أو مصائبٌ ومحنٌ أو ضيقٌ؛ فعليه بهذه الدعوة العظيمة، وأذكر تقريبـًا من خمس سنواتٍ كانت عندي محاضرةٌ في مسجدٍ، وكان عنوان المحاضرة دعوات المكروب، فذكرت هذه الدعوة وأن العبد إذا لازمها وأكثر منها يفرج الله عنه؛ وذكرت معها حديث أسماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٣١٤٨)، وابن ماجه في " سننه " (٤٣٠٨)، وأحمد في " مسنده " (١٠٩٨٧)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع " (١٤٦٨).

(٢) أورده النووي في " شرح صحيح مسلم " (١٥/ ١٣٢).

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ - أَوْ فِي الْكَرْبِ -؟ أَللهُ أَللهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" (١)، ومع الحديث الذي ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ» (٢)؛

ثم جاءني أخٌ كريمٌ بعد المحاضرة ؛ و قال يا شيخ هذا الحديث الذي ذكرته لي معه قصةٌ؛ قال لي أنا سجنت في أمريكا ظلماً و عدواناً مدةً طويلةً من الزمن -قرابة خمس إلى عشر سنوات على ما أذكر- قال و ليس لي أي تهمةٌ ؛ و إذا بي يُلهمني الله عزَّ و جلَّ هذه الدعوة؛ فأدعوا بها ليل نهارٍ ، يقول و الله لم تكن على بالي ألهمني الله هذه الدعوة ؛ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وكنت أصلي الصلوات الخمس، وأقول أذكار الصلاة، وأقول أذكار الصباح و المساء، و ليلي نهاري أقول هذه الدعوة لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ثم قال و الله أحدثك و أنا صادقٌ؛ نمت فرأيت كأن الله جلَّ جلاله يخاطبني و يقول عبدي أتظن أني أخلقك و أنساك -و الله هكذا و أنا أحسبه أخٌ صادقٌ- قال و قصصت هذه الرؤية على أخوةٍ معي؛ و هم عندهم علمٌ بعلم الرؤيا، فقال لي أحدهم أبشر سيأتيك الفرج قريباً، قلت

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٥٢٥)، والنسائي في " الكبرى " (١٠٤٠٨)، وابن ماجه في " سننه " (٣٨٨٢)، وأحمد في " مسنده " (٢٧٠٨٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٧٥٥)، من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رضي الله عنها، به.

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٤٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٣٠).

من أين ليس عندي محامي ولا شيءٌ ؟ ، قال و الله ما هي إلا مدةٌ يسيرةٌ و جاء أمر بالإفراج عني؛ فلما أُفرج عني أكرمني الله تعالى، و أعطاني الأمير خمسمائة ألف ريالٍ، و لم أكن من أبناء البلدة، فأعطاني الأمير جوازاً باسم البلدة، و كنت في عملي موظفاً صغيراً؛ فرجعت لعملي وأنا مدير القسم الذي أنا فيه.

فالمقصود أن هذه دعوةٌ من دعوات المكروب؛ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وينبغي على العبد أن يُكثر منها، وأن يكون على يقينٍ أن الله سيفرج عنه، وسيكرمه بفضله وكرمه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿**وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ**﴾ ولأهل العلم أقوالٌ في ﴿**لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ**﴾

١ – منهم من قال ﴿**لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ**﴾ أي ينظروا إليك نظر حسدٍ؛ لِمَا أنعم الله عليك به من النبوة،

٢ – وبعض أهل العلم قالوا ﴿**لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ**﴾ ينظرون إليك نظراً يكاد يَكسرك، ويَقسمك من شدة عداوتهم عند تلاوتك للقرآن الكريم،

﴿**وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ**﴾ يعني من شدة تحديقهم، ونظرهم إلى الرسول ﷺ حسداً يكادون يزلقونه [(١)] أي يقسمونه بهذا النظر، والله تعالى يثبت في هذه الآية العين وأثرها على الإنسان، ولذلك عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن النبي

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٠٢) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٨٥)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٧٤).

ﷺ قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ» (١) - نسأل الله أن يحمينا، ويحفظ أولادنا، وأهلينا، وأموالنا، ويحفظنا جميعًا يا رب من كل سوءٍ ومكروهٍ،

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: " يقول جلَّ ثناؤه: وإن يكاد الذين كفروا يا محمد ينفذونك بأبصارهم من شدة عداوتهم لك ويزيلونك فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظًا عليك. وقد قيل: إنه عني بذلك: وإن يكاد الذين كفروا مما عانوك بأبصارهم ليرمون بك يا محمد، ويصرعونك، كما تقول العرب: كاد فلانٌ يصرعني بشدة نظره إليَّ. قالوا: وإنما كانت قريش عانوا رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين، فنظروا إليه ليعينوه، وقالوا: ما رأينا رجلاً مثله، أو إنه لمجنون، فقال الله لنبيه عند ذلك: ﴿**وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ**﴾ "

ومن أثر العين ما ورد عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ أَبَا أُمَامَةَ، يَقُولُ: اغْتَسَلَ أَبِي سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ بِالْخَرَّارِ، فَنَزَعَ جُبَّةً كَانَتْ عَلَيْهِ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ يَنْظُرُ، قَالَ: وَكَانَ سَهْلٌ رَجُلًا أَبْيَضَ حَسَنَ الْجِلْدِ، قَالَ: فَقَالَ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، وَلَا جِلْدَ عَذْرَاءَ فَوعِكَ سَهْلٌ مَكَانَهُ، فَاشْتَدَّ وَعَكُهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ سَهْلًا وُعِكَ، وَأَنَّهُ غَيْرُ رَائِحٍ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ سَهْلٌ الَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢١٨٨)، والترمذي في " سننه " (٢٠٦٢)، والنسائي في " الكبرى " (٧٥٧٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٦١٠٧).

أَخَاهُ؟ أَلَا بَرَّكْتَ إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأْ لَهُ»، فَتَوَضَّأَ لَهُ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ "(١)

فربنا تعالى يقول ختاماً في هذه السورة العظيمة: ﴿**وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ**﴾ لا ليس بمجنونٍ، والله برَّأه في أول السورة، و برَّأه في آخرها؛ أما في أولها فقد مر معنا قوله جلَّ جلاله ﴿**مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢**﴾ ثم قال بعدها: ﴿**وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣**﴾ ثم قال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤**﴾ و المجنون لا يمكن أن يُحِّصل شيئًا من هذا أبداً، فلا يجتمع العلم بالله مع الجنون أبداً، و يدل على أن العلم بالله و القرآن الكريم ينافي الجنون أبداً، أن صاحب العلم والقرآن لا يصاب بالجنون بفضل الله تعالى، وأما ختام السورة فربنا يقول عن المشركين أنهم لما سمعوا الذكر يقولون عنه ﷺ إنه لمجنون

ثم قال الله تعالى مبرأً له: ﴿**وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ**﴾ ذكرٌ يعني تذكرةٌ للعالمين، ولكن لمن شاء منكم أن يستقيم، ويسلك سبيل المهتدين.

وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبه أجمعين

تم الانتهاء من تفسير سورة القلم بفضل الله ومنته

*****

---

(١) **(صحيح)** أخرجه مالك في " الموطأ " (٢/ ٩٣٨)، وابن ماجه في " سننه " (٣٥٠٩)، والنسائي في " الكبرى " (٧٥٧٠)، وابن حبان في " صحيحه " (٦١٠٥)، والحاكم في " المستدرك " (٥٧٤١)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٥٧٢).

﴿سُورَةُ الحَاقَّةِ﴾

هذه السورة العظيمة سورةٌ مكيةٌ بالإجماع(١)، وآياتها ثنتان وخمسون آيةً، نزلت بعد سورة الملك(٢)، وهي سورةٌ عظيمةٌ تُذَكِّرُنا بيوم القيامة

مناسبتها لما قبلها:

١- أنه وقع في سورة القلم ذِكرُ يوم القيامة مجملاً، وهنا فصَّل نبأه، وذكر شأنه العظيم، وجاء ذِكرُ يوم القيامة في سورة (الحاقة) بالتفصيل وما يكون فيه من أهوالٍ وشدائد

٢ - أنه ذَكَر فيما قبلها من كذَّب بالقرآن وما توعده الله تعالى به من العذاب، وهنا ذَكَر أحوال أممٍ كذَّبوا الرسل، وما جرى عليهم من الهلاك والعذاب والدمار، ليزدجر المكذبون المعاصرون له عليه الصلاة والسلام.(٣)

هذه السورة العظيمة يقول الله تعالى فيها:

﴿ٱلْحَاۤقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاۤقَّةُ ۝٢ وَمَاۤ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاۤقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ

---

(١) قال السيوطيرَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور " (١٤/ ٦٥٨): "أَخْرَج ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباسٍرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا"، ينظر ابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥/ ٣٥٦).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ٤٩).

(٣) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ٤٩).

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾

وهذه السورة افتتحها الله تعالى بتأويل يوم القيامة ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ تأويلٌ وإخبارٌ عن أمرٍ عظيمٍ فظيعٍ هناك

وقد ورد حديثٌ ضعيفٌ عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قال: خَرَجْتُ أَتَعَرَّضُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَقُمْتُ خَلْفَهُ، فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْحَاقَّةِ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ، قَالَ: فَقُلْتُ: هَذَا وَاللهِ شَاعِرٌ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَقَرَأَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ قَالَ: قُلْتُ: كَاهِنٌ، قَالَ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ: فَوَقَعَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِي كُلَّ مَوْقِعٍ.[1] وهو حديثٌ ضعيفٌ

وهذه السورة العظيمة افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وهو يوم القيامة،

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٠٧)، والحديث ضعيف لانقطاعه، فإن شريح بن عبيد لم يُدرك عمر. ينظر " السلسلة الضعيفة " للألباني (١٤/ ٧٤).

سرُّ تسمية القيامة بالحاقة:

١ - يوم القيامة سُمِّي حاقةً؛ لأنها حقٌ واجبٌ[(١)]، فتحقق يوم القيامة حقًا لا ريب فيه ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩] فسمي حاقةً لأنها آتيةٌ من غير شكٍ ولا ريبٍ.[(٢)]

٢ - كذلك سُميت القيامةُ حاقةً لأنها أحقت لأهل الإيمان النعيمَ _ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم _ وأحقت كذلك لأهل العذاب الخلودَ في عذاب الله - عزَّ وجلَّ، فيتحقق لكل إنسانٍ جزاؤه يوم القيامة.[(٣)]

٣ - وأيضًا سميت حاقةً لأن كلَّ إنسانٍ حقيقٌ بالجزاء لعمله.[(٤)]

٤ - وأيضًا يقولون يوم الحاقة هو يوم الحق، رُوي عن الكسائي.[(٥)]

يقول تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ عظَّمها الله تعالى وفخَّمها، وعظَّم من شأنها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ أي وما أعلمك ما شأنُها، وما عِظَمُ ما يحدث

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٠٥) وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٨٨)، و" معالم التنزيل " للبغوي (٨/ ٢٠٤).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٨٨).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٨٨)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢١٣)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٩٠).

(٤) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٠٦)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٨٨)، و" معالم التنزيل " للبغوي (٨/ ٢٠٦).

(٥) البغوي في " معالم التنزيل " (٨/ ٢٠٤)

فيها من أهوالٍ وشدائد وكرباتٍ.[١]

قال يحيى بن سلامٍ رَحِمَهُ اللهُ: " بلغني أن كل شيءٍ في القرآن الكريم (وما أدراك) فقد أدراه إياه وعَلَّمَه، وكل شيءٍ قال له (وما يدريك) فهو مما لم يُعلمه إياه " [٢]

وأيضـًا قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: " كلُّ شيءٍ في القرآن الكريم (وما أدراك) فإنه أَخبر به – بالفتح – أو أُخبر به – بالضم – وكلُّ شيءٍ قال فيه (وما يدريك) فإنه لم يخبر به " [٣]

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴿٤﴾﴾ ثمودُ قومُ نبيِّ الله صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومساكنُهم في الحِجْرِ، وقد مرَّ عليهم النبي ﷺ لما ذهب إلى تبوك، قَالَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، قَالَ: مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْحِجْرِ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» [٤]

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٠٧)، و" معالم التنزيل " للبغوي (٨/ ٢٠٦)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٨٩).

(٢) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٧٦)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٨٩).

(٣) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٠٦)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٨٩).

(٤) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٣٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٩٨٠)، واللفظ له من طريق ابن شهاب، وهو يذكر الحجر، مساكن ثمود.

وهذا يدلنا على خطأ أناسٍ كثيرين يذهبون إلى الأماكن التي عُذِّبَ فيها أقوامٌ للسياحة وللفسحة وللنظر، وليس للاعتبار والاتعاظ، أما إذا ذهب إنسانٌ للاعتبار والاتعاظ فهذا خيرٌ، أما أن يذهب وهو آمنٌ مطمئنٌ، ويلتقط الصور وغير ذلك فلا شك أن هذا خطأٌ.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ﴾ وعادٌ هي قبيلة نبي الله هودٍ عليه السلام، وكانوا يسكنون بالأحقاف في اليمن[١] ، ونص الله تعالى على هذين القبيلتين؛ لأنهما طاغيتان، والعرب كانت تسمع بهم، وتعرف بأحوالهم، وكان عندهم علمٌ بهما.

قال الثعالبي رحمه الله: "وخص عاداً وثمود بالذكر لوقوف قريشٍ على بلادها في اليمن وفي الحجر في طريق الشام." [٢]

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ۝٤﴾ والقارعة هي يوم القيامة، سمي يوم القيامة أيضـًا بعدة أسماء منها: القارعة، والحاقة، والطامة، والصاخة، وغير ذلك من أسماءٍ جاءت في كتاب الله تعالى.

سبب تسميتها بالقارعة:

سُمي يوم القيامة بالقارعة لأنها تقرع قلوب العباد بأهوالها وشدائدها، فتخلع قلوبهم وتقرعها بالقوارع العظيمة التي ليس مثلها قوارعٌ، وكذلك تقرع الأجرام

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٠)، و"النكت والعيون" للماوردي (٥/ ٢٨٢)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ١٠١).

(٢) ينظر " الجواهر الحسان " للثعالبي (٥/ ١٢٩)، و" زاد المسير " لابن الجوزي (٧/ ٢٤٧).

الأرضية والسماوية؛ فتجعل السماء بعد ما كانت محبكةً غايةً في الإتقان؛ فتصير مهلهلةً تتفت، وتقرع النجوم فتتساقط، وكذلك تقرع الأرض والجبال؛ فتتفتت الجبال وتندك الأرض والجبال (١)_ نسأل الله الغفران والسلامة والعافية _

ومن أسماء ذلك اليوم العظيم: (يوم الحاقة) أي أنه يوم الحق، فهو يومٌ يحق فيه الحق، فلابد أن يرجع الحق لأهله ولو طال الزمان، لذلك قال النبي ﷺ «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» (٢)

ولذلك لما صعد الحبيب ﷺ قبل موته بأيامٍ المنبرَ فقال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» (٣) - نسأل الله العافية والسلامة- ، ولذلك هذا اليوم العظيم يوم الحاقة هو يوم القارعة لأنها تقرع الناس بما لا طاقة لهم بها ، فلا طاقة لهم بهذه الأهوال.

وقفةٌ: وربنا لا يذكر هذه الآيات حتى يسمعها الإنسان وينتهي الأمر إلى هذا

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٠٥-٢٠٧)، وأخرجه عن قتادة، وابن عباسٍ رضي الله عنهما، وعكرمة، والضحاك، وابن زيدٍ.

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨٢)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢٠)، وأحمد في " مسنده " (٧٢٠٤)، من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، به.

(٣) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٤٤٩)، والترمذي في " سننه " (٢٤١٩)، وأحمد في " مسنده " (٩٦١٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، به.

الحد، بل يُذكرنا ربنا بهذه الأهوال والشدائد لنستعد لهذا اليوم، وخير الناس من جعل يوم القيامة نُصب عينيه، وتذكرَ دائمًا الموتَ، وتذكرَ دائمًا أنه سيلقى الله وحده ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ١١١﴾ [طه: ١١١]

وخير الناس من يجعل لقاء الله تعالى دائمًا أبداً نُصب عينيه، فيتخفف من هذه الدنيا وأثقالها وأوزانها، ويثقل ميزانه بما استطاع من خيرٍ وبرٍ وإحسانٍ، فربنا يُذكرنا بهذا اليوم وأهواله الشديدة العظيمة؛ حتى نستعد له بالإيمان والعمل الصالح، ونسارع في الطاعات ما استطعنا ﴿ٱلْحَآقَّةُ ١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ٢﴾ فليحذر العبد أن يأتي في هذا اليوم مفلسًا.

إن النبي ﷺ قال لأصحابه يومًا: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[(١)]

لما سألهم النبي ﷺ: "أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع " وهذا في عرف الناس مفلسٌ، ليس عنده متاعٌ، وليس عنده مالٌ، ليس عنده أرضٌ، ليس عنده بيتٌ، ليس عنده سيارةٌ ملكًا له، هؤلاء الأصناف الذين يسمونهم

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨١)، والترمذي في " سننه " (٢٤١٨)، وأحمد في " مسنده " (٨٠٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

الناس مفلسين، فبيَّن لهم الحبيب ﷺ معنى الإفلاس الذي يقصد، وهو إفلاس العبد من الحسنات يوم القيامة من اقتصاص الناس حقوقهم منه؛ هذا هو الإفلاس العظيم فليحذر العبد أن يأتي يوم القيامة مفلسـًا، بل الواجب على العبد أن يأتي يوم القيامة وميزانُه ثقيلٌ بالبركات والخيرات ما استطاع، فينبغي على العبد أن يسارع في الخير، وأن يثقل ميزانه حتى يكون من الآمنين في هذا اليوم العصيب.

قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ**﴾ أي أنهم أهلكوا بالصيحة التي طغت وجاوزت حدود الصيحة، صيحةٌ عظيمةٌ خلعتهم، وقلعت قلوبهم، وأماتتهم جميعـًا ـ نسأل الله العافية والسلامة[١] ـ.

ومن معانيها أيضـًا الطاغية بذنوبها التي طغت بسببها فهي حينئذٍ اسمٌ للذنوب، كما قال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ**﴾ [الشمس: ١١] أي بسبب طغيانها.[٢]

وقفةٌ: فليحذر العبد ذنوبه؛ فإن أعظم ما يخافه العبد على نفسه هو عصيانه لربه، و تقصيره في واجبٍ عليه، و انتهاكه لما حرَّم الله عزَّ وجلَّ عليه، ولذلك من جميل

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٠٨) وأخرجه عن قتادة، وينظر و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٥٦)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٢٧٧)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٠).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٠٧) وأخرجه عن مجاهد وابن زيدٍ، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٠)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٧٦)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٥٧).

توفيق الله لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه:" كتب إلى سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنهما - ومن معه من الأجناد: أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حالٍ؛ فإن تقوى الله أفضل العُدَّة على العدوِّ، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوِّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوِّهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوِّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوةٌ؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدَّتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا."[١]

لذلك أولئك الصحب الكرام رضي الله عنهم، سخَّر الله لهم البحار، كما سخَّر لهم الأرض، وسخَّر لهم السماء، ففي فتح المدائن يمشون على وجه الماء بخيولهم، - ألافـًا مؤلفةً-

ينام سعد بن أبي وقاصٍ أميرُ الجيش مهمومـًا، وقد أخرج الفرسُ مراكبَ وذهبوا إلى الناحية الأخرى، والمسلمون ليس عندهم مراكب، ويمكن للفرس أن يناوشوا المسلمين في أيِّ وقتٍ، فيعبرون مرةً ثانيةً ويأتون ليقاتلوا المسلمين، فنام مهمومـًا فرأى رؤيا خيرٍ؛ رأى أنه هو وإخوانُه الصحابةُ يمشون على وجه الماء، فقال أيها الناس: إني رأيت فيما يرى النائم أمراً، وعزمت عليه فأروني رأيكم، وقَصَّ عليهم الرؤيا، وقال: إن هؤلاء عندهم مراكب يستطيعون أن يناوشوكم في أيِّ وقتٍ شاؤا،

(١) ذكره ابن عبد ربه في " العقد الفريد " (١/ ١١٧) بلا سندٍ.

وأنتم ليس عندكم مراكب، قالوا عزم الله لك أيها الأمير على الرشد، فوالله ما تَخَلَّفَ واحدٌ، ولا غرق واحدٌ ـ إنما هو الاعتماد والثقة على ربِّ العالمين جلَّ جلاله، لذلك لما سلَّمهم الله من ذنوبهم، وكفاهم شرَّ الذنوب، فأطاعوا مولاهم جلَّ جلاله سخَّر لهم البحار ـ فسلمان رضى الله تعالى عنه يُساير سعداً ويقول : ذلل الله لهم البحار كما ذلل الله لهم الأرض، وسعد يقسم يقول : والله لينصرنَّ الله وليه وليهزمنَّ الله عدوه ما لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات. [١]

على هذا المعنى كان قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ معناه ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ فسبب هلاكهم الذنوبُ، والكفرُ، والعتوُّ على رسول الله صالحٍ، وتكذيبهم به ـ عليه الصلاة وأتم السلام.

وهناك قولٌ ثالثٌ في هذه الآية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي الطاغية الذي عقر الناقة.

وقفةٌ: رجلٌ واحدٌ، وأُهلكت أمةٌ كاملةٌ بسببه، لأنهم كلهم كانوا راضين بهذا الجُرم ـ نعوذ بالله من الخذلان ـ

فإياك أن ترضى بظلمٍ أبداً، وأقل ما في الأمر أن تكره ولا توافق بقلبك، كما في حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: " مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ

---

(١) ينظر " البداية والنهاية " لابن كثير (١٠/ ١٠-١٢).

الْإِيمَانِ»". (١)

فلا يرضى المؤمن أبداً بهذا الذي يراه في بلاد الإسلام، وغيرها؛ من انتهاك للأعراض، وانتهاك للأموال، وسلبٍ للممتلكات، لا يرضى به أبداً، وينبغي عليه أن يحذَر الإعلامَ الساحرَ؛ الذي يُزَيِّنُ للناس الحرام ويجعله حلالاً، بل يجعله واجباً- نعوذ بالله- ويبَغِضُ لهم الحق فيكرِّهه لهم ويجعله باطلاً- نسأل الله العفو والعافية-

وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ**﴾ أي بسبب الطاغية الذي عقر الناقة وهذا قاله ابن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (٢)

وقد ذكر الله تعالى قوم ثمودٍ على لسان نبيهم صالحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿**وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ**﴾ [الشعراء: ١٤٩] وصلوا إلى أنهم ينحتون الصخرة فيجعلونها بيوتاً وقصوراً، يجلسون فيها ﴿**وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ**﴾ [الفجر: ٩] جابوا يعني نحتوا.

﴿**وَأَمَّا عَادٌ**﴾ وهم قوم هودٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي أيضاً قبيلةٌ من الجبابرة الكبار العتاة.

ربنا عزَّ وجلَّ قص قصتهم في غير ما سورةٍ ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت: ١٥]

وقفةٌ: الآن أمريكا وروسيا يقولون هذا، ليس في بالهم أبداً أن الله تعالى أقوى

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٤٩)، وأبو داود في " سننه " (١١٤٠)، والترمذي في " سننه " (٢١٧٢)، والنسائي في " سننه " (٥٠٠٨)، وابن ماجه في " سننه " (١٢٧٥).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٤/ ٤٤٧).

منهم، ولا يخطر هذا على بالهم، ويحذو حذوَهم بعضُ الجبابرة ممن ينتسبون إلى الإسلام- والعياذ بالله-، يظن أنه يمكن أن يفعل ما يشاء.

لذلك رب العزة سبحانه جلَّ جلاله قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ۝١٥﴾ [فصلت: ١٥] يعني الذي دفعهم إلى هذا التكبر والتجبر جحودٌ بالآيات، وكفرٌ بالله عزَّ وجل.

فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ ريحٍ صرصرٍ أي شديدة الهبوب جداً، وشديدة العصوف، فهي ريحٌ عاصفٌ، عاتيةٌ شديدة الصوت المرعب، قال الله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ۝٦﴾ عتت عن كل ريحٍ قبل ذلك، حتى قال بعض أهل العلم من أهل التفسير بأن الله جلَّ جلاله " ما أرسل ريحـًا إلا بتقديرٍ وبمقدارٍ، إلا في يوم عادٍ، ونوحٍ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عن ابن عبّاسٍ، قال: ما أرسل اللّه من ريحٍ قطّ إلّا بمكيالٍ ولا أنزل قطرةً قطّ إلّا بمثقالٍ، إلّا يوم نوحٍ ويوم عادٍ، فإنّ الماء يوم نوحٍ طغى على خزّانه، فلم يكن لهم عليه سبيلٌ، ثمّ قرأ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ۝١١﴾ [الحاقة: ١١] وإنّ الرّيح عتت على خزّانها ـ أي يوم عادٍ ـ فلم يكن لهم عليها سبيلٌ، ثمّ قرأ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ۝٦﴾" (١)

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢١/ ٢١٠)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦/ ٦٥)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٤٩٤)، والحاكم في "المستدرك" (٣٦٩٩).

أَيَّامٍ حُسُومًاۖ﴾

وقفةٌ: الإنسان عندما يكون في بلادٍ باردةٍ بها ريحٌ تستمر ساعةً أو ساعتين؛ وهو في البيت يسمع أصوات الريح يشعر برعبٍ، فما بالنا بهذه الريح التي قال الله عنها: ﴿**بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾ ليست كأيِّ إعصارٍ نسمع به في الدنيا، لأن هذه الريح أرسلها الله تعالى غضبـًا على هؤلاء القوم الذين خالفوا نبيهم، وتكبروا وتجبروا، وهذه الريح اسمها ـ الدبور ـ في الصحيحين عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، أنه قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» (١)،

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ لطيفةً جميلةً، تعقيبـًا على هذا الحديث فقال: "قوله بالصّبا بفتح المهملة بعدها موحّدةٌ مقصورةٌ يقال لها القبول بفتح القاف لأنّها تقابل باب الكعبة إذ مهبّها من مشرق الشّمس وضدّها الدّبور وهي الّتي أهلكت بها قوم عادٍ ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل القبول وكون الدّبّور أهلكت أهل الإدبار وأنّ الدّبّور أشدّ من الصّبا لما سنذكره في قصّة عادٍ أنّها لم يخرج منها إلّا قدرٌ يسيرٌ ومع ذلك استأصلتهم قال اللّه تعالى فهل ترى لهم من باقية ولمّا علم اللّه رأفة نبيّه ﷺ بقومه رجاء أن يسلموا سلّط عليهم الصّبا فكانت سبب رحيلهم عن المسلمين لما أصابهم بسببها من الشّدّة ومع ذلك فلم تهلك منهم أحدًا ولم تستأصلهم ومن الرّياح أيضًا الجنوب والشّمال فهذه الأربع تهبّ من الجهات الأربع وأيّ ريحٍ هبّت من بين جهتين منها يقال لها النّكباء بفتح النّون وسكون الكاف بعدها موحّدةٌ

---

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٠٣٥)، ومسلم في " صحيحه " (٩٠٠).

ومدٌّ."(١)

حتى نعرف أن الأسماء لها دلالاتٌ، فالريح القَبول نَصرت أهلَ القبول، فنَصرت النبيَّ ﷺ ونَصرت إخوانَه الكرام في يوم الأحزاب، والريح الدَّبور أهلكت أهل الإدبار، فأهلكت عاداً الذين أدبروا وتولوا ﴿**فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً**﴾ [الحاقة: ١٠]

قال تعالى: ﴿**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا**﴾ حسومًا أي متتابعات، فسخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ، من أول ما جاءت هذه الريح استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ كاملاتٍ متتابعةٍ، ما هدأت ولا ثانيةً ولا طرفة عينٍ ـ نعوذ بالله(٢) ـ

وقال أهل العلم: الحُسُوم وهو من قولهم حَسم الداء يعني كَيِّه مرةً بعد مرةٍ، أو حَسم الدابة يكويها مرةً بعد مرةٍ،

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحسوم: التِّباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عنْ آخره، قيل فِيهِ: حسوم، وإنما أُخذ- والله أعلم- من حسم الداء إِذَا كُوي صاحبهُ لأنَّه يكوى

---

(١) أورده ابن حجر في " فتح الباري " (٢/ ٥٢١).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢١١) وأخرجه عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وسفيان، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٢)، و"إعراب القرآن" للنحاس (٥/ ١٥)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ١٢٧).

بمكواةٍ، ثُمَّ يتابع ذَلِكَ عَلَيْهِ.[١]

وأيضـًا ﴿حُسُومًاۖ﴾ يعني قطعـًا واستئصالاً، والمعنى أنها قطعتهم واستأصلتهم؛ فلم تُبقِ منهم أحداً[٢] ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ كما قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ [الأحقاف: ٢٥] لم يبق منهم إنسٌ؛ لا رجالٌ ولا نساءٌ ولا صغارٌ ولا كبارٌ، وهذا لا شك أنه لعلم الله السابق، كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ٢٧﴾ [نوح: ٢٧] ـ والعياذ بالله تعالى ـ فأهلكهم الله جميعـًا.

وقفةٌ: قال الله سبحانه جلَّ جلاله ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ ولذلك عندما نرى الآيات لا نكون في مأمنٍ، فبعض الناس يرى الصواعق أمراً عاديـًا، ويسمع بالزلازل، فيقول هزةٌ أرضيةٌ، والأرض والسماء لا تملكان شيئـًا من ملك الله عزَّ وجلَّ، ويرى الريح العاصف تأتي ولا يذكر شيئـًا، ويرى البراكين ، وغير ذلك من الآيات، فينبغي على العبد أن يسند هذه الآيات إلى رب العالمين لأنه هو الفاعل الحقيقي في هذا الكون، لا فاعل غيرُه، لا مردَّ لأمره، ولا معقِّب لحكمه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢]

لذلك ورد في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: وَكَانَ النَّبِيِّ ﷺ إذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ

---

(١) ينظر " معاني القرآن " للفراء (٣/ ١٨٠).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢١٣) وأخرجه عن ابن زيد، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٢)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٤٧).

يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةُ، فَقَالَ: " يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا "(١) ، يعني ريحٌ جاءت بالخير ستمطر بالخير والماء على وادينا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥] ، لذلك عندما تأتي ريحٌ ينبغي على العبد أن يستعذ بالله تعالى ويذكر الدعاء " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً "(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ﴾ [الأعراف: ٥٧] وأما الريح ففي الغالب لا تُذكر إلا في العذاب.

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: ٦]: ريحٌ شديدة الهبوب، ذات صوتٍ مرعبٍ، عاتيةٌ عتت عن كل ريحٍ أتت قبلها وبعدها ـ نسأل الله العفو والعافية والسلامة الدائمة في الدنيا والآخرة ـ

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨٢٩)، ومسلم في " صحيحه " (٨٩٩).

(٢) **(ضعيف جداً)** أخرجه الشافعي في " مسنده " (٥٣٧)، وأبو يعلى في مسنده " (٢٤٥٦)، والطبراني في " الدعاء " (٩٧٧)، والبيهقي في " معرفة السنن والآثار " (٧٢٤٦)، وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (٥٦٠٠). عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا هَبَّتْ رِيحٌ قَطُّ إِلَّا جَثَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً، وَلَا تَجْعَلْهَا عَذَابًا، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا، وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا».

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الرِّيَاحِ فَهِيَ رَحْمَةٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الرِّيحِ فَهُوَ عَذَابٌ».(١)

وأيضًا قال الليث: (الحسوم): الشؤم(٢) ، فيكون معنى ﴿**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا**﴾ أي: شؤمًا عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿**فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ**﴾ [فصلت: ١٦] عليهم.

مسألة الطيرة:

ليس النَّحس في الأيام، فبعض الناس يتشائمون من بعض الأيام؛ وهذا خطأٌ مخالفٌ للعقيدة، كما قال الرسول ﷺ " الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ."(٣)، وإنما ينبغي على العبد أن يعلم أن الأيام والأزمان والأشخاص وغير ذلك ليس فيها شؤمٌ.

إشكالٌ والجوابُ عليه:

قول النبي ﷺ في حديث الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ذَكَرُوا الشُّؤْمَ عِنْدَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في " تفسيره " (١٤٧٥).

(٢) أورده الأزهري في " تهذيب اللغة " (٤/ ٢٠٠) وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٢)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣١٤).

(٣) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٩٠٩)، وأبو داود في " سننه " (٣٩١٠)، وابن ماجه في " سننه " (٣٥٣٨)، وأحمد في " مسنده " (٣٦٨٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤٢٩). عن عبد الله - يعني ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ، وَالمَرْأَةِ، وَالفَرَسِ»(١)، فهذا الشؤم معناه أنه يكون ملازمًا لصاحبه بسبب بعض عمله، وكما قال تعالى: (﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ [يس: ١٨] أي تشاءمنا بكم(٢) ، فالمتكبرون المترفون تشاءموا بأهل الإيمان، فقال الله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: ١٩] أي أن هذا التشاؤم الذي حلَّ عليكم هو معكم ملازمٌ لكم بسبب أعمالكم(٣) ـ نسأل الله العفو والعافية ـ

فقول النبي ﷺ " إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ، وَالمَرْأَةِ، وَالفَرَسِ" معناه – والله أعلم– كما قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد في مسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَأَرْبَعٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ: الْجَارُ السُّوءُ، وَالْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ الضِّيقُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ"(٤) فإذا كان البيت ضيقًا على الإنسان لا يستطيع أن يتحرك فيه، ولا يستطيع أن يجلس فيه، ولو جلس يجلس متعبًا، أو ليس فيه

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠٩٤)، ومسلم في " صحيحه " (٢٢٢٥).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (١٩/ ٤١٦).

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٤٢٦/١٧)، و"النكت والعيون" للماوردي (١٢/٥).

(٤) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٥٣٧٢)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٥٤٢)، وأبو داود في " مسنده " (٢٠٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٨٢).

مقومات الاستقرار؛ فهذا البيت يكون العبد غير مرتاحٍ فيه؛ لأنه يجلب له التعب المستمر، وكذلك الأمر في الزوجة؛ إن كانت غير مطيعةٍ، وغير صالحةٍ؛ فلا شك أنها تجلب الشر على زوجها، وكذلك في الدابة لو كانت غير يسيرةٍ، وغير سهلةٍ، وغير وطيئةٍ، فتتعثر باستمرارٍ، فلا شك أن هذه تُعَطِّلُ صاحبها كثيراً.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: " وقال آخرون شؤم الدّار ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرّضها للرّيب، وشؤم الفرس ألا يُغزى عليها، وقيل حِرَانُها وغلاء ثمنها، وشُؤم الخادم سُوء خُلُقه وقلّةُ تعهُّده لما فُوِّض إليه". اهـ[(١)]

فقوله تعالى: ﴿حُسُومًا﴾ يعني شؤماً عليهم؛ وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم العظام التي وقعوا فيها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ ترى القوم فيها أي في هذه الأيام الثمانية والليالي السبعة؛ ترى القوم فيها تنزعهم الريح صرعاً، أي هلكى جميعاً ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ - نعوذ بالله -

وقفةٌ: هذا حتى يحذر المرء ولا يغتر بما أنعم الله به عليه، فهؤلاء المعذبون أنعم الله سبحانه جلَّ جلاله عليهم بالقوة، والعافية، والصحة في البدن، ومتعهم بقوةٍ عظيمةٍ؛ فما استخدموا هذه القوة في طاعة مولاهم، ولكنهم تكبَّروا وتجبَّروا على أهل الأرض،

---

(١) ينظر " شرح النووي على مسلم " (١٤/ ٢٢١).

وعتوا عتواً كبيراً؛ فلذلك كانت النتيجة أن الله تعالى أهلكهم جميعـًا، وجعلهم عبرةً ومثلاً لكل من جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ هلكى جميعـًا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ يعني مقطوعةٌ رؤوسها، وملقاةٌ ممدةٌ على الأرض، ومن طولهم العظيم شبههم الله عزَّ وجلَّ بأعجاز النخل.

وأيضـًا في قوله تعالى: (خَاوِيَةٍ) يعني أن الريح- عافانا الله والمسلمين - تدخل في أجوافهم، وتُخرج ما فيها، وتُقطِّع رقابهم؛ فيصيرون كأعجاز النخل الخاوية التي لا شيء فيها [(١)]. نعوذ بالله من الخذلان ونعوذ بالله من غضبه وعقابه وشر عباده.

قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ هل ترى لهم من طائفةٍ باقيةٍ؟ أو من نفس واحدةٍ باقيةٍ؟ وما هو ذاك إلا بشؤم الذنوب والمعاصي، فخراب العالم بسبب الذنوب والمعاصي، ولذلك هذه الفواحش والمنكرات التي تعمُّ العالم وتنتشر فيه هي نذيرُ شؤمٍ على الأمم يدمر الله الأمم بسبب هذا.

أهلك الله تعالى قوم صالحٍ بصيحةٍ واحدةٍ، وأهلك الله قوم هودٍ بريحٍ أرسلها الله تعالى عليهم، وأهلك الله قوم فرعون بأن أهلكه الله تعالى وجنده جميعـًا في لحظةٍ واحدةٍ، فأغرقهم في الماء، سبحان رب العالمين الذي لا يعجزه شيءٌ، ولذلك ربُّ

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢١٥)، وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٦٦٣)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٤)، وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٤٧).

العزة يقول: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ۝٨﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: " ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ۝٨﴾؟ أي: هل تحس منهم من أحدٍ من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفـًا." (١)

ثم يذكر تعالى أمةً من أعتى الأمم، فيقول: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ۝٩﴾ وفرعون هو الطاغية الذي حكم مصر، وهذا من أعتى الحكام الذين جاءوا على مدار التاريخ؛ كان يقتل الرجال، ويستحي النساء، ويفعل ما يفعل من عذابٍ وبلاءٍ على بني إسرائيل، ورغم ذلك مَنَّ الله- سبحانه جلَّ جلاله- على بني إسرائيل؛ فأنجاهم منه، ولكنه ما شكروا ربهم، وما حمدوه على هذه النعمة، وذكرهم الله في غير ما آيةٍ، في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ۝٤٧﴾ [البقرة: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠] لكنهم لم يوفوا بعهد الله أبداً

قال الله عن فرعون: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ ومَن قبله، أي ومن قبله من الأمم مثل عادٍ وثمود وغيرهم، (٢)

وأيضا في قراءةٍ صحيحةٍ (وَمَنْ قِبَلَهُ) يعني ومن معه من جنوده الطغاة

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٠٩).

(٢) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢١٥)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٩٥).

المتجبرين، قال الطبري: "وَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْبَصْرَةِ وَالْكِسَائِيُّ: (وَمَنْ قِبَلَهُ) بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ، بِمَعْنَى: وَجَاءَ مَعَ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ مِصْرَ مِنَ الْقِبْطِ. وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ صَحِيحَتَا الْمَعْنَى، فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ."(١)

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهي قرى قوم لوطٍ عليه السلام، قيل لها مؤتفكاتٌ لأنها انقلبت رأساً على عقبٍ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] المؤتفكة يعني المنقلبة (٢).

أمر الله تعالي مَلَكـاً كبيراً- قيل هو جبريل عليه السلام - فحمل هذه المدائن على طرف جناحه ورفعها؛ حتى سُمع صياحُ الديكة، ونباح الكلاب عند أهل السماء، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً فأماتهم جميعـاً، وقَلَب مدائنهم رأسـاً على عقبٍ(٣)؛ بسبب كفرهم، كما قال الله تعالى: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي الفعلة الخاطئة بالنسبة لقوم لوطٍ،(٤) وهي أنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين.

---

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢١٦)، ابن كثير في" تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٠٩)، والقرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ١٩٥).

(٢) ينظر" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٦)، و"التفسير الكبير" للرازي (٢٩/ ٢٢).

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (١٢/ ٥١٥)

(٤) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢١٧)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ١٩٦)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢١٥).

وقفةٌ: الآن العالم الغربي الكافر يقول عن هذه الفِعْلَة أنها حلالٌ مباحٌ لا مشكلة فيها، ثم تسرب هذا -نسأل الله العفو والعافية- إلى بلاد المسلمين، وهذا من أقبح وأرذل المعاصي، ولذلك يُذكر في عقوبة الفاعل أن يُقذف من شاهقٍ حتى يموت، وقد وردت عدة أحاديث تشدد في شأن هذه الفعلة تكلم في ضعفها بعض أهل العلم منها، حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (١) وذلك من شدة وعظم جرم هذه الفعلة الشنيعة، ولعظيم أثرها السيئ على الفرد و المجتمع -نسأل الله العافية والسلامة-،

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ فرعون الذي قال ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤] وقال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي أن كل أمةٍ من هؤلاء عصوا رسول الله الذي أرسله الله تعالى إليهم، فأما فرعون ومن معه فكذبوا نبي الله موسى وأخاه هارون، وأما قوم لوطٍ فكذبوا نبيَّ الله لوطًا عليه السلام، وأيضًا ثمود كذبوا نبيهم صالحًا، وأما عادٌ فكذبوا نبي الله هوداً، فكانت العاقبة ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ رابية أي زائدةٌ شديدةٌ أليمةٌ عاتيةٌ عظيمةٌ، ومنه الربا أي الزيادة، أخذةً زائدةً على عذاب الأمم الكافرة قبلهم؛ لأنهم

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٤٦٢)، والترمذي في " سننه " (١٤٥٦)، وابن ماجه في " سننه " (٢٥٦١)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٢٣٥٠).

طَغَوا وبَغَوا -نسأل الله العافية والسلامة- [(١)]

ثم يذكرنا الله تعالى بقوله ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴿١١﴾﴾ لما طغى الماء يوم طوفان نوحٍ حملناكم يعني حملنا أجدادكم؛ فكلُّ أهل الأرض من بعد نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هم من ذريته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن أبناء المسلمين الذين كانوا مع نوح قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴿١١﴾﴾ أي في السفينة الجارية؛ التي جرت على الماء،

وقفةٌ: في قوله تعالى: ﴿حَمَلْنَـٰكُمْ﴾ هذه نعمةٌ يُذَكِّرُنا الله بها، فيمتن الله علينا أن النعمة على أبينا وعلى أجدادنا هي نعمةٌ علينا من الله لنا، ينبغي أن نشكر الله عليها، ولذلك في قول الله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [الأحقاف: ١٥] انظر إلى قلب المسلم الطيب ماذا يفعل؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف: ١٥] هذه رسالةٌ عظيمةٌ ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، وقال السعدي وغيره من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الذنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿١٥﴾﴾ [(٢)]، يعني أنه لم يكن

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢١٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ١٣٤)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٣٩٣).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي (٧٨١).

صالحـًا قبل هذا؛ فكان غافلاً تائهـًا في أودية الدنيا، وإذا به لما بلغ أشده، وبلغ أربعين سنةً، حصل له الكمال في عقله، والكمال في أخلاقه، فتاب وأناب إلى الله عزَّ وجلَّ، وإذا به يذكر فضل الله ومعروفة وإحسانه عليه وعلى آباءه؛ فيقول يا رب لك الحمد أوزعني يا رب ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥]، قال الله عن هؤلاء الكرام: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يغفر الله الذنوب، ويقبل حسنات العبد، بل ويجازيه بأحسن ما عمل ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦] اللهم اجعلنا منهم يا حي يا قيوم ،

قال رب العزة سبحانه جلَّ جلاله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عظةً وعبرةً، تتذكرون بها وتتعظون.

وفي عود الضمير في قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أقوالٌ منها:

القول الأول: قالوا الهاء هنا تعود على السفينة التي حمل فيها نوحٌ، فقد بقيت السفينة حتى رآها أوائل هذه الأمة، وبعض الناس في زماننا يقولون مازالت السفينة موجودةً على الجودي، ورآها بعض الناس- والله أعلم إن كان صحيحـًا-، لكن رآها أوائل هذه الأمة. (١)

---

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٢١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٥٨)، و "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ١٣٧).

القول الثاني: وهو القول الذي رجحه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، حيث قال: "﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي نجعل جنس السفينة ـ فنحن نرى الآن سفناً كثيرةً تمشي في الماء، فإذا رأينا سفينةً تذكرنا سفينة نوحٍ، فتكون لنا عبرةً وعظةً، ولا يكونن المرء في غفلةٍ، فيرى الأشياء أمامه ولا تُذكِّره بالله، فرؤية السفينة تذكر بالسفينة التي جرت على الماء."(١)

ومما يذكر في أمر غرق نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ طغى الماء يعني جاوز الحد، فوصل إلى حدٍ لا يمكن التعامل معه، فزاد على الوجود(٢)، ولكن أرسله الله تعالى بطغيانٍ عظيمٍ على قوم نوحٍ فأهلكم، ذكر أهل السير عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَوْ رَحِمَ اللهُ أَحَدًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " كَانَ نُوحٌ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ حَتَّى كَانَ آخِرُ زَمَانِهِ غَرَسَ شَجَرَةً، فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ، ثُمَّ قَطَعَهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَعْمَلُ سَفِينَةً، وَيَمُرُّونَ فَيَسْأَلُونَهُ، فَيَقُولُ: أَعْمَلُهَا سَفِينَةً، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ فَكَيْفَ تَجْرِي؟ فَيَقُولُ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا وَفَارَ التَّنُّورُ وَكَثُرَ الْمَاءُ فِي السِّكَكِ خَشِيَتْ أُمُّ صَبِيٍّ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا،

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢١٠)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٥٨)، و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٨١).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢١٠) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ١٩٧).

فَخَرَجَتْ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ؛ فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَيْ الْجَبَلِ؛ فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ؛ فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهَا رَفَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْهَا حَتَّى ذَهَبَ بِهَا الْمَاءُ، فَلَوْ رَحِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ" (١)

المراد أن قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ⑪﴾ أي في السفينة الجارية مع نبي الله نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي نجعل سفينة نوحٍ لما رأيتموها يا أوائل هذه الأمة تذكرةً وعظةً، وكذلك لنجعل السفينة التي هي جنس سفينة نوحٍ تذكرةً وعظةً، فعندما ترون السفن تتذكرون.

القول الثالث: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي آلام قوم نوحٍ، لما كذبوا رسولهم وقد مكث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامـاً، دعاهم إلى الله، وتفنن في الدعوة إليه، فدعاهم سراً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، وفي نواديهم، وفي بيوتهم، ولكنهم ﴿ٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ⑦﴾[نوح: ٧] فأهلكهم الله تعالى، وأغرقهم بالطوفان.(٢)

قال جلَّ جلاله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ⑫﴾ ما هي الأذن الواعية؟ صحَّ عن بعض سلفنا الصالح أنه قال : الأذن الواعية هي التي تعقل عن الله

---

(١) **(ضعيف)** أخرج الطبري في " جامع البيان " (١٢/ ٣٩٣)، والحاكم في " المستدرك (٤٠١٠)، وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (٥٩٨٥).

(٢) ينظر " تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٢٥٩)

أمره وتنتفع بكتابه[١]، تسمع القرآن؛ فتستفيد وتنتفع، وتمتثل كلام الله، وتمتثل أمره، وتجتنب نواهيه، حينما تسمع آياتٍ تُذَكِّرُها بالجنة؛ ترغب في الجنة، وتعمل أعمال أهلها ، وإذا سمعت آياتٍ تذكرها بالنار؛ تخاف من النار، وتترك الأعمال التي توصل العبد إليها ، وإذا سمعت آياتٍ في صفات الله تزداد إيمانـاً بمعرفة الله بأسمائه وصفاته، وهكذا، فالأذن الواعية هي التي تسعى للانتفاع بالقرآن الكريم فينفعها الله جلَّ جلاله بها، نسأل الله الكريم أن يجعلنا ممن يعقلون عن الله مراده وعن رسول الله ﷺ، ويجعلنا من أصحاب الآذان الواعية.

وهناك أحاديث ضعيفةٌ في هذه الآية، فعن مَكْحُول، قال: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ: «سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ» قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَمَا سَمِعْتُ شَيْئًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَسِيتُهُ"[٢]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٢٢١)، وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وقتادة، والضحاك، وابن زيدٍ. وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٠٩)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٨٠).

(٢) **(ضعيف)** أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٢٢٢)، وضعفه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ص (١٢٥).

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ۝١٣﴾ النفخ في الصور من الأمور التي يجب على العبد أن يؤمن بها من أمور القيامة، فربنا تعالى ذكر النفخ في الصور في القرآن الكريم في غير ما آيةٍ من كتابه، وكذلك جاء في سنة رسول الله ﷺ

البيان الشافي الكافي في مسألة النفخ في الصور:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ۝٢٠﴾ [ق: ٢٠] ، وقال جلَّ جلاله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا۝٩٩﴾ [الكهف: ٩٩] ، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا۝١٨﴾ [النبأ: ١٨] أي جماعاتٍ جماعاتٍ(١)، كل طائفةٍ بعضها مع بعضٍ؛ أهل الصلاح مع أهل الصلاح، وأهل الطلاح- عافانا الله- سويًا ، وقوله جلَّ جلاله: (﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ۝١٠١﴾ [المؤمنون: ١٠١] لا أنساب تنفع إنما ينفع العمل الصالح ، وقوله تعالى: (﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ۝١٠﴾ [المدثر: ٨-١٠] يسيرٌ على أهل الإيمان ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ ودلَّ مفهوم المخالفة أنه يسيرٌ على أهل الإيمان ـ أسأل الله أن يجعلنا منهم يا كريم ـ .

وفي صحيح الإمام مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَثَوْبُهُمَا بَيْنَهُمَا لَا يَطْوِيَانِهِ وَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ لَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلُوطُ حَوْضَهُ لَا يَسْقِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ

---

(١) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٤/ ١٩)، وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (١/ ٤٨٩)، و"مقاييس اللغة" لابن فارس (٤/ ٤٥٨).

وَرَفَعَ لُقْمَتَهُ إِلَى فِيهِ لَا يَطْعَمُهَا» (١)"، يعني لا يسقي إبله في هذا الحوض الذي ...،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿**لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا**﴾ [الأنعام: ١٥٨] وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ، وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا"(٢)

وفي سنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد، وهو حديثٌ صحيحٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: " قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا" (٣)،

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٥٤)، وأحمد في "مسنده" (٨٨٢٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٨٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٥٠٦)، والطبراني في "مسند الشاميين" (٣٢٣٧).

(٣) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٣١)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١١١٩٢)، وأحمد في " مسنده " (٣٠٠٨)، وابن حبان في " صحيحه " (١٧٥٤)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٠٧٩).

مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».[١] ولكن لا يعلم مدى عِظَم هذا الصور إلا الله تعالى.

وعن أبي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ أَنْتَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[٢]."

أما وقت النفخ في الصور؛ فينفخ فيه في يوم الجمعة:

عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ - يَقُولُونَ: بَلِيتَ -؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»[٣]

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٣٠)، وأحمد في " مسنده " (٦٨٠٥)، والحاكم في " المستدرك " (٨٦٨٠)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٠٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٧٠)، وأبو داود في " سننه " (٧٦٧)، والترمذي في " سننه " (٣٤٢٠)، والنسائي في " الصغرى " (١٦٢٥)، وفي " الكبرى " (١٣٢٤)، وابن ماجه في " سننه " (١٣٥٧).

(٣) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (١٠٤٧)، والنسائي في "الصغرى" (١٣٧٤)، وفي "الكبرى" (١٦٧٨)، وابن ماجه في "سننه" (١٠٨٥)،وصححه الألباني في"إرواء الغليل" (٤).

وقفةٌ: هذه كرباتٌ شدادٌ، وأمورٌ عظامٌ، يخوفنا الله تعالى إياها، ويذكرنا بها حتى نستعد، ونعمل أعمالاً صالحةً، ونكون في مأمنٍ في هذا اليوم العصيب،

وللعبد أن يتأمل هذه الكربات الشداد التي تحدث في يوم الجمعة؛ الذي فيه النفخة، وفيه الصعقة، يقول النبي ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ،» ثم يأمر الرسول ﷺ أمته بقوله «فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» "[١] ولا شك في أن كثرة الصلاة والسلام على سيد الأنام في يوم الجمعة سببٌ لتفريج هذا الكرب عن العبد، ويجعل هذا اليوم عليه يسيراً.

ففي حديث أبي بن كعبٍ رضي الله عنه قالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ اذْكُرُوا اللهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ»، قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ، قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ:

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٠٤٧) ، والنسائي في " المجتبى " (١٣٧٤) ، وابن ماجه في " سننه " (١٠٨٥) ، وأحمد في " مسنده " (١٦١٦٢) ، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٦٩٦) ، من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، به.

«إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»[١]

وروى الإمام مالك والإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا»[٢]"

وقفةٌ: قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله: "وَفِي هذا الْحديث دليلٌ على أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ لا يعلمون مِنْ معنى السَّاعَةِ مَا يَعْرِفُ غيرُهم مِنَ الدواب" [٣]، فالبهائم العجماوات مشفقةٌ ومصغيةٌ وعلى وجلٍّ من قيام الساعة في يوم الجمعة، فهي تعرف أن الساعة ستقوم في يوم الجمعة.

عدد النفخات في الصور:

قد ورد في القرآن الكريم ذِكرُ نفختين، وعلى هذا ذهب عددٌ من أهل العلم إلى أنها نفختان، وبعضهم ذهب إلى أنها ثلاث نفخات،

---

(١) **(حسن)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٥٧)، وأحمد في " مسنده " (٢١٢٤٢)، والحاكم في " المستدرك " (٣٥٧٨)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٥٤).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٠٤٦)، وأحمد في " مسنده " (١٠٣٠٣)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٣٣٣٤).

(٣) ينظر " التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد" (٢٢/ ٤٢).

القول الأول: من قال: أن النفخ في الصور نفختان، قالوا جاء في القرآن الكريم نفخةٌ تعقب الأخرى ﴿**يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧**﴾ [النازعات: ٦-٧] وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية"(١) ، وقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهما النفختان الأولى والثانية."(٢)

القول الثاني: أن النفخ في الصور ثلاث نفخاتٍ ، فالنفخة الأولى ذكرها الله تعالى فقال: ﴿**وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨**﴾ [الزمر: ٦٨] فيُنظر لنفخة الصعق ونفخة البعث على أنهما نفختان ، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعددٌ من أهل العلم كابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرهما إلى هذا القول، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والقرآن قد أخبر بثلاث نفخاتٍ: نفخة الفزع ذكرها في سورة النمل في قوله: ﴿**وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ**﴾ [النمل: ٨٧]. ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨**﴾ [الزمر: ٦٨] "(٣)،

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و اختلف في عدد النفخات، فقيل ثلاثٌ؛ نفخة الفزع، لقوله تعالى: ﴿**وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ**

---

(١) ينظر "صحيح البخاري" (٨/ ١٠٨).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣١٣)، و"الدر المنثور" للسيوطي (١٥/ ٢٢٢).

(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في " مجموع الفتاوى " (١٦/ ٣٥).

وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴿٨٧﴾ [النمل: ٨٧] ونفخة الصعق، ونفخة البعث، لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨] ، و قيل: هما نفختان، ونفخة الفزع هي نفخة الصعق، لأن الأمرين لازمان لها، أي: فَزِعوا فزعـاً ماتوا منه، و السُنّة الثابتة على ما تقدم من حديث أبي هريرة وحديث عبد اللّه بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما، يدل على أنهما نفختان لا ثلاث، وهو الصحيح إن شاء اللّه تعالى."(١)

الترجيح: الأرجح أنهما نفختان، ففي قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴿٤٩﴾ [يس: ٤٩] يعني مختلفون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴿٥٠﴾ [يس: ٥٠] ثم قال تعالى بعدها: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴿٥١﴾ [يس: ٥١].

وأيضـاً دلت السنة على أنهما نفختان، جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ» قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢)

---

(١) ينظر " التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" للقرطبي (١/ ٢١٢)، وقال ابن حجر في " فتح الباري" (١١/ ٣٦٩):"ويمكن الجمع بأن الزلزلة تنشأ عن نفخة الصعق."

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨١٤)، ومسلم في " صحيحه " (٢٩٥٥).

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، وفيه « ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ »[1]، والله أعلم.

والمقصود من تذكير مولانا من هذا اليوم العصيب أن العبد يستعد لهذا اليوم ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: ٥١]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾ ليست ثانيةً، وليست ثالثةً، وإنما نفخةٌ واحدةٌ،

قال الله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ نفخةٌ واحدةٌ لا تكرار فيها، ويدل هذا على عظم الأمر، وعلى أن الله تعالى أمره نافذٌ، وأنه لا معقِّب لحكمه سبحانه جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته، وأن الأمر جللٌ ، ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ رُجتا رجةً واحدةً وهذه الدكة تُفتت الجبالَ الصمَّ الرواسي، فتصير هباءً منثوراً ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨] سبحانه جلَّ جلاله.

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ يعني وقعت القيامة، فهي الواقعة الحاقة، والواقعة التي لا مرية فيها ولا شكٌ.

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٤٠).

قال الله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦﴾ السماء في غايةٍ من الإحكام، قال الله عنها: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧]

وأيضـًا هل ترى من فروج فيها أبداً؟ ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ٤﴾ [الملك: ٣-٤] فالسماء أحكمها الله تعالى، لكن من شدة الأهوال والكربات والشدائد العظام التي تعم الكون كله في الواقعة أو الطامة والحاقة والقارعة؛ تبتلي العباد، وتبتلي الأجرام كلها، فالسماوات تتفطر، وتصير كالمهل أي كأنها ضعيفةٌ جداً بعد أن كانت قويةً جداً.

قوله جلَّ جلاله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي ضعيفةٌ مهلهلةٌ[1] من شدة الكربات وما أصابها، وكذلك الكواكب تنفطر وتزال، والأرض تُدك وتُبدَّل غير الأرض، فالله المستعان ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ

قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ وهناك أقوالٌ في المقصود بقول الله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ منها:

١ – قال بعض أهل العلم: (أرجائها) يعني أطرافها[2]

٢ – وبعضهم قال: (أرجائها) يعني أرجاء السماء لمَّا هُلهلت، وصارت ضعيفةً

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٢٤) وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما. وينظر "البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣١٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٢٦) عن مجاهد وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٦٦٨).

وتشققت، فالأماكن التي لم تتشقق تقف عليها الملائكة.(١)

٣ – وبعضهم قال: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ يعني أرجاء الدنيا يردون من يفكر أن يريد الهرب، وطبعًا ليس هناك هربٌ، قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣]

قال سعيد بن جبيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى والملك على حافات الدنيا، أي ينزلون إلى الأرض ويحرسون أطرافها."(٢)

٤ – وبعض أهل العلم قال: بأنهم على أرجاءها؛ ينتظرون أمر الله لهم في إكرام أهل الجنة بالتحية، والإكرام لهم بدخول الجنان، وسوق أهل النيران إلى الجحيم والعذاب وفي الأغلال- نسأل الله العافية والسلامة يا رب العالمين-(٣)،

قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ ـ أي فوق رؤوس العباد عرش الله العظيم؛ وهو أكبر المخلوقات كلها، فعرش الله عزَّ وجلَّ

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٢٢٥) وأخرجه عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد، وقتادة، وغيرهم. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٨١).

(٢) وينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٨١)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٠١).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٠١) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٨١).

أكبر من السماوات السبع، والأرضين السبع، وأكبر من الكرسي- سبحانك ربي ما أعظمك.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ١٧﴾ ويحمله ثمانيةٌ، وفي تفسيرها أقوال:

١ – ذكر بعض أهل العلم أنهم ثمانية ملائكةٍ [(١)]

٢ – وبعضهم قالوا: ثمانية صفوفٍ من الملائكة[(٢)]

٣ – وبعضهم قال: ثمانية آلافٍ من الملائكة – والله أعلم-

نُقل عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: "لا أدري ثمانية أشخاصٍ، أو ثمانية آلافٍ، أو ثمانية صفوفٍ، أو ثمانية آلاف صفٍ"[(٣)]

لكن كما قال الله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ١٧﴾ وبعض أهل العلم قال: يحمله الآن أربعةٌ، ثم إذا جاء يوم القيامة انضم إليهم أربعةٌ أخر، فصاروا ثمانيةً[(٤)]

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢١٢)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٣٨٨).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٢٧)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢١٠) و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٥٠).

(٣) ذكره الرازي في " التفسير الكبير " (٣٠/ ٩٦)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٠٢).

(٤) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٢٨)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٥٠).

وقد ورد حديثٌ يبين عِظَمَ الملائكة حملة العرش؛ والحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»(١)

وقفةٌ: الله أكبر وتبارك الله العظيم، هذا مَلَكٌ مخلوقٌ من خلق الله العظيم؛ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه ... هذه المسافة التي عندنا أكبر من خمس سنتيمترات قليلاً، هي عند هذا الملك مسيرة سبعمائة عامٍ، وهذا ملكٌ واحدٌ من حملة العرش، فكيف بربنا القوي العظيم جلَّ جلاله الذي ليس كمثله شيءٌ؟ حقيقٌ بالعبد أن يعظم ربه، وأن يهابه، وأن يخافه، وأن يتقيه في السر والعلن؛ يسلم وينجو ويكون من أسعد عباد الله.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨**﴾ ينبغي على العبد أن يذكر هذه الآية جيداً؛ فكم من معصيةٍ فعلناها وأسررناها، لا يعلم بها الناس والله الكريم يزيننا أمام عباده؛ هذا الذي أخفاه ابن آدم يكون علانيةً؛ لأن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ١٩**﴾ [غافر: ١٩] ما يدور في بال العبد ولا يتحدث به؛ يعلمه الكريم جلَّ جلاله الذي أحاط بكل شيءٍ علماً.

﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨**﴾ لا فعلَ يخفى، ولا قولَ يخفى، ولا سرَّ يخفى، ولا شيء ﴿**لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨**﴾ السر عند الله علانيةٌ، والغيب

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٧٢٧)، والطبراني في " الأوسط " (١٧٠٩)، وأبو الشيخ في " العظمة " (٤٧٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٥١).

عنده شهادةٌ.

وقفةٌ: إذا كان المرء منا يستحيي من الناس أن يروه على معصيةٍ؛ ألا يستحي من رب الناس عزَّ وجلَّ الجليل العظيم، ولذلك من ضمن وصايا الرسول ﷺ، ما رواه أحمد في الزهد عَنْ أَبِي الْجَذِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ ﵁ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَوْصِنِي قَالَ: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ، كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ»(١) ، لو تخيل الإنسان منَّا أن في عائلته، أو في قبيلته، رجلٌ معظمٌ يحترمه ويوقره ويجله ويهابه ويستحيه، فلو أنه معه ليلاً نهاراً أيعصيه ؟! أيقع فيما يقبحه أمامه؟! ولله المثل الأعلى، فينبغي على العبد أن يُعظم ربه أشد من تعظيمه للرجل الصالح من قومه، بل أشد من تعظيمه لكل معظمٍ.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴿١٨﴾﴾ قال القرطبي ﵀-قولاً جميلاً-: " وَلَيْسَ ذَلِكَ عَرْضًا يَعْلَمُ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِ، بَلْ مَعْنَاهُ الْحِسَابُ وَتَقْرِيرُ الْأَعْمَالِ عَلَيْهِمْ لِلْمُجَازَاةِ "(٢) العرض هنا معناه إقرار العبد بأعماله حين تعرض عليه، ليس العرض ليعلم الله ما لم يكن عالمـًا به- حاشا لله- بل ربنا يعلم

---

(١) (حسن) أخرجه أحمد في " الزهد " (٢٤٨)، وأبو نعيم في " معرفة الصحابة " (٣٢٦١)، والطبراني في " المعجم الكير " (٥٥٣٩)، وابن أبي الدنيا ي " مكارم الأخلاق " (٩١)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٧٤١).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٠٤)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٩/ ٣٣٠).

ما كان وما سيكون،

بل كتب الله تعالى ما هو كائنٌ في الكون قبل أن يخلق الدنيا بخمسين ألف سنة، والحديث صحيح في الإمام مسلم -رحمه الله- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: " كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ "(١)،

وكذلك عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"(٢)، فكل واحدٍ مِنَّا كُتب مقعده -نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة الذين كتبوا من أهلها بلا حسابٍ ولا عذابٍ-

قال عز وجل:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٥٣)، والترمذي في " سننه " (٢١٥٦)، وأحمد في " مسنده " (٦٥٧٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٦١٣٨).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٧٠٠)، والترمذي في " سننه " (٣٣١٩)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٧٠٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٣٣).

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ هاؤم ، قال الكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " أنها كلمةٌ وضعت لإجابة الداعي عند النشاط والفرح، رُوي أن أعرابيًا نادى رسول الله ﷺ بصوت عالٍ فأجابه هاؤم بطول صوته "(١) ، وهذا الحديث ثابتٌ صحيحٌ ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ الْمُرَادِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فقَالَ: يَا مُحَمَّدُ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ، فَإِنَّكَ قَدْ نُهِيت عَنْ هَذَا، قَالَ: لَا وَاللهِ حَتَّى أَسْمَعَهُ، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ: «هَاؤُمُ»، فقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا أَحَبَّ قَوْمًا، وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟، قَالَ: «ذَلِكَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»" (٢)

قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ هؤلاء السعداء أهل السعادة، وأهل الإيمان، وأهل الاستجابة لله ولرسوله، أهل التعظيم لشرع ربهم، أهل الخوف من الله عزَّ وجلَّ ـ اللهم اجعلنا منهم يا كريم ـ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧﴾ [المعارج: ٢٧] كانوا على وَجَلٍ، ويؤدون الفرائض، ويتركون الحرام، هؤلاء أهل الطاعة، أهل تعظيم الكتاب والسنة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ على رؤوس الأشهاد عندما يكرمه الله تعالى ويعطيه كتابه بيمينه، فإذا أخذ الكتاب بيمينه فهذا يعني أنه من السعداء؛ فينادي

---

(١) أورده الماوردي في "النكت والعيون " (٦/ ٨٣) عن الكسائي. وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٠٦).

(٢) **(حسن)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٥٣٥)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٨٠)، واللفظ له وحسنه الألباني في " صحيح سنن الترمذي " (٣٥٣٥).

بأعلى صوته أمام رؤوس الأشهاد ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ والحديث ثابتٌ في الصحيحين، عن صفوان بن محرزٍ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي، مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: ١٨] "(١)،

وروى الإمام مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: " إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا " فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ،(٢) هذا عبدٌ راجٍ عفو ربه، مذنبٌ له صغائرُ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٦٨٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٩٠)، والترمذي في " سننه " (٢٥٩٦)، وأحمد في " مسنده " (٢١٣٩٣).

وكبائرُ،

فمولانا قال: "اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا" فيقرروا على الصغائر وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه" قال فإذا قرره الله تعالى على صغار ذنوبه أقرَّ هذا العبد بها، يقول الله تعالى له: " إني سَترتُها عَلَيكَ فِي الدُّنيَا واليَومَ أَغفِرُهَا لَك "

بل في روايةٍ صحيحةٍ "سترت عليك في الدنيا واليوم أبدلتها إلى حسنات"[(١)] فعندها يقول العبد: "يا رب إن لي ذنوباً لا أراها هاهنا" ـ ذنوبي الكبار ليست موجودةً، لأن الكبار إذا تبدلت لحسناتٍ سيثقل الميزان -، " فضحك الحبيب ﷺ "

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ لأنه محيت سيئاته من كتابه، ولم يبق فيها إلا الخير والبركة؛ فهو عندها مطمئنٌ، ليس هناك أحدٌ يؤاخذه، وليس هناك شيءٌ إذا نظر في الكتاب يستحي منه، فإذا به يقول: (هاؤم) أقبلوا تعالوا هلموا إليَّ اقرأوا كتابي جميعاً- من تمام سعادته-،

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد قيل: إنّ المراد بذلك كلّ من كان متبوعًا في الخير والشّرّ. فإذا كان الرّجل رأسًا في الخير، يدعو إليه ويأمر به ويكثر تبعه عليه، دعي باسمه واسم أبيه فيتقدّم حتّى إذا دنا أخرج له كتابٌ أبيض بخطٍّ أبيض، في باطنه السّيّئات وفي ظاهره الحسنات فيبدأ بالسّيّئات فيقرأها فيشفق ويصفرّ وجهه ويتغيّر لونه فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه" هذه سيّئاتك وقد غفرت لك" فيفرح عند ذلك فرحًا شديدًا، ثمّ يقلّب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلّا فرحًا، حتّى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه" هذه

(١) ذكره القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٢٠٩).

حسناتك قد ضُوعفت لك" فيبيضّ وجهه ويؤتى بتاجٍ فيوضع على رأسه، ويُكسى حلّتين، ويُحلّى كلّ مفصلٍ منه ويطول ستّين ذراعًا وهي قامة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم وبشّرهم أنّ لكلّ إنسانٍ منهم مثل هذا. فإذا أدبر قال: هاؤم اقرءوا كتابيه إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه. قال اللّه تعالى: فهو في عيشةٍ راضيةٍ أي مرضيّةٍ قد رضيها في جنّةٍ عاليةٍ في السّماء قطوفها ثمارها وعناقيدها. دانيةٌ أدنيت منهم. فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: قد غمرتك كرامةٌ، من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلانٍ أبشّر كلّ رجلٍ منكم بمثل هذا. كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيّام الخالية أي قدّمتم في أيّام الدّنيا. وإذا كان الرّجل رأسًا في الشّرّ، يدعو إليه ويأمر به فيكثر تبعه عليه، نودي باسمه واسم أبيه فيتقدّم إلى حسابه، فيخرج له كتابٌ أسود بخطٍّ أسود في باطنه الحسنات وفي ظاهره السّيّئات، فيبدأ بالحسنات فيقرأها ويظنّ أنّه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه" هذه حسناتك وقد ردّت عليك" فيسودّ وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير، ثمّ يقلّب كتابه فيقرأ سيّئاته فلا يزداد إلّا حزنًا، ولا يزداد وجهه إلّا سوادًا، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه" هذه سيّئاتك وقد ضوعفت عليك" أي يضاعف عليه العذاب. ليس المعنى أنّه يزاد عليه ما لم يعمل- قال- فيعظم للنّار وتزرقّ عيناه ويسودّ وجهه، ويكسى سرابيل القطران ويقال له: انطلق إلى أصحابك وأخبرهم أنّ لكلّ إنسانٍ منهم مثل هذا، فينطلق وهو يقول: يا ليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. يا ليتها كانت القاضية يتمنّى الموت"[(١)]

(١) ينظر" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٠٨).

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ۝٢٠﴾ ظننت أي: أيقنت، والمعنى أني كنت موقناً بالحساب، والظن هنا بمعنى اليقين، فيقول إني كنت موقناً بالحساب، وموقناً بالجزاء، فلذلك أكرمني الله تعالى وأعطاني كتابي بيميني.(١)

وبعض أهل التفسير قال: المعنى أني ظننت أن الله سيحاسبني حساباً يسيراً، وقد فعل بي ما ظننت به (٢)، وهذا يؤيده قول النبي ﷺ، عن وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنَّ ظَنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنَّ ظَنَّ شَرًّا فَشَرٌّ» "(٣)، ونحن والله نظن في الكريم كما يسترنا في الدنيا؛ يغفر لنا يوم القيامة، ويكرمنا ويعطينا كتبنا جميعاً بأيماننا، ويرزقنا جنته بلا حسابٍ ولا عذابٍ.

هذا القول جميلٌ، ولكن الظاهر الذي ذكرته أولاً.

قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ۝٢١﴾ عيشةٌ راضيةٌ هنيةٌ، عيشةٌ يرضاها، وأيُّ رضا!، إنها الجنة التي يقول الله عنها، كما روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي سعيد

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٣٢) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وقتادة، وابن زيدٍ. وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢١٤)، و"الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٦٧٤).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٠٧) وينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٩٨).

(٣) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٦٠١٦)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٣٣)، والحاكم في " المستدرك " (٧٦٠٣)، الطبراني في " المعجم الأوسط " (٤٠١)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٦٦٣).

الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: " يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا " فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴿٤٣﴾**﴾ [الأعراف: ٤٣] "[١] ما أكرمها من جنةٍ، وما أعظمه من عطاءٍ، كرامةً من الله لعباده.

لذلك ربنا تعالى يقول: ﴿**فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴿٢٢﴾**﴾ الجنان كلها عاليةٌ فوق السماوات السبع ، كما قال الله تعالى: ﴿**عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴿١٥﴾**﴾ [النجم: ١٥] أي سدرة المنتهى عندها جنة المأوى؛ فوق السماوات السبع، فالجنة عاليةٌ وهناك جنانٌ أعلى من جنانٍ ، عن أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»[٢]

﴿**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴿٢٢﴾**﴾ جداً ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴿٢٣﴾**﴾ قطوفها: ثمارها، وواحدها قَطْفٌ سواءً كان عنباً أو غير ذلك؛ فدانيةٌ قريبةٌ منهم إن شاء تناولها بيده، وإن شاء تدلت إليه

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٣٧)، والترمذي في "سننه" (٣٢٤٦)، وأحمد في "مسنده" (٨٢٥٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٥٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٣١).

في فمه، وإن شاء أكلها جالسـًا، وإن شاء نائمـًا مضطجعـًا، أو على أيِّ حالٍ.

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴿٢٤﴾﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»(١)، ودخول الجنة أولاً وأخراً بفضل الله ورحمته، ثم الدرجات في الجنة على حسب الأعمال.(٢)

قال عز وجل:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴿٣٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾ ينادي بأعلى صوته ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ﴿٢٥﴾﴾ يتمنى أن لم يكن قد علم ما في هذا الكتاب، وصدق الله ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴿١٣﴾

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٦٧٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨١٦).

(٢) ينظر " فتح الباري " لابن حجر (١١/ ٢٩٥-٢٩٦).

ﱡﭐﱉﱊ ﱋﱌ ﱍﱎ ﱏﱐ ﱑﱒ ﱓﱔﱠ [الإسراء: ١٣-١٤]،

﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦﴾ يا ليتني لم آخذ كتابي، ولم أدر ما حسابي، ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧﴾ يا ليت الموتة التي مِتُّها كانت هي الموتة القاضية لي؛ فلا بعث، ولا حساب، ولا عذاب، ولا شيء بعد هذا الموت.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ كم من إنسانٍ عتيٍّ على ربه؛ أنعم الله عليه ويعصي ربه بهذا المال الذي أمده الله به، كم له من ملياراتٍ ينفقها في الصد عن سبيل الله، كم له من ملياراتٍ ينفقها في حرب المسلمين، وينفقها في أذية عباد الله المؤمنين، فإنه يوم القيامة إن لم يتب يُنادِي:

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: "﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ يَقُولُ: ذَهَبَتْ عَنِّي حُجَجِي، وَضَلَّتْ، فَلَا حُجَّةَ لِي أَحْتَجُّ بِهَا".(١)

وقال عددٌ من أهل العلم من السلف: عُنِيَ بِالسُّلْطَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْمُلْكُ(٢)، يعني سلطان الدنيا، سواءً كان ملكًا، أو كان أميراً، أو كان رئيسًا، أو كان

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٣٥) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. وينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٠١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢١٢)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٨٥).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٣٥) عن ابن زيد. وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢١٢)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٥٣)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٣١١).

مطاعـًا، أو كان يأمر وينهى؛ لكن ما أغنى عنه هذا السلطان؛ لأنه فعلاً مهما كان العبد ذا مالٍ، أو ذا سلطانٍ لا يغني ذلك عنه عند الرحمن شيئـًا.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ حينئذٍ يقول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠﴾ غلوه أي قيدوا يديه إلى عنقه ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١﴾ أي اقذفوه في نار جهنم يصلاها من جميع جهاته الست؛ من أمامٍ، ومن خلفٍ، ويمينـًا، وشمالاً، ومن فوقٍ، ومن أسفل -نعوذ بالله -

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾ سلسلةٌ الله أعلم بمقدارها؛ ﴿ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾، تخيل هذه السلسة الكبيرة العظيمة الضخمة، يأمر الله جلَّ جلاله ملائكته ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي أدخلوها فيه مثل السلك الذي يدخل في الخرزات ويكون منتظمـًا فيها، قال بعض السلف: تدخل هذه السلسة من فمه فتخرج من دبره ويقيد بها تقيداً - نعوذ بالله من الخزي والعار -

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ يقول: ثم اسلكوه في سلسلةٍ ذرعها سبعون ذراعـًا، بذراعٍ اللهُ أعلم بقدر طولها. وقيل: إنها تدخل في دبره، ثم تخرج من منخريه. وقال بعضهم: تدخل في فيه، وتخرج من دبره."(١)

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٣٧) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢١٠)، و"الدر المنثور" للسيوطي (١٤/ ٦٧٨).

وأخرج عبد الرزاق في " تفسيره " (٣/ ٣٤٣) وابن أبي الدنيا في "صفة النار" (٧٢) عن الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «بلغني أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه أو من رأسه».

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ۝٣٢﴾ فإذا سألت عن السبب؛ لماذا هذا العذاب؟ ولماذا هذا الخزي العظيم؟ أتاك الجواب: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ۝٣٣﴾ هذا أعظم سببٍ يوجب لكل عبدٍ العذاب الخالد، ما من عبدٍ يهوديٍ أو نصرانيٍ أو بوذيٍ أو أي إنسانٍ على ملةٍ غير الإسلام يموت عليها ولا يسلم إلا وهو حطبٌ لنار جهنم؛ قولاً واحداً ليس هناك قولٌ آخر ، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».(١)

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ۝٣٤﴾ وعدم إطعام المسكين ليس كفراً ولكنه زيادةٌ في عذابه؛ لذلك كلما كان العبدُ رقيقَ القلب رحيماً، كما روي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٥٣)، وأحمد في " مسنده " (٨٢٠٣)، وابن منده في "الإيمان" (٤٠١).

(٢) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٣٨٠)، وأحمد في " مسنده " (٦٥٤١)، والطبراني في "مسند الشاميين" (١٠٥٥)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٦٨٤٤)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤٨٢).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ﴾ أي: لا يُطعم هو، ولا يحضُّ غيره على الإطعام، والمسلم لا يحرم نفسه الخير، فكلما استطاع فعلَ الخير يفعل، فإن لم يستطع فعل الخير ورأى باباً من أبواب الخير يمكن أن يذكر إخوانه به، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»(١)،

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(٢)

قال الله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ حميمٌ يعني صاحبٌ صدوقٌ، و هو مأخوذٌ من الحميم الذي هو الماء الحار، والمعنى صاحبٌ يحترق قلبه من أجله، أما أهل الإيمان؛ فروى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِذَا خَلَّصَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ وَأَمِنُوا، فَمَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا، أَشَدَّ مُجَادَلَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ،

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٩٣)، وأبو داود في " سننه " (٥١٢٩)، والترمذي في " سننه " (٢٦٧١)، وأحمد في " مسنده " (١٧٠٨٤)، وابن حبان في " صحيحه " (٢٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٧٤)، وأبو داود في " سننه " (٤٦٠٩)، والترمذي في " سننه " (٢٦٧٤)، وابن ماجه في " سننه " (٢٠).

قَالَ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَحُجُّونَ مَعَنَا"(١)،

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟...فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ "(٢)، فالمؤمنون يشفع بعضهم لبعضٍ، وينتفع بعضهم ببعضٍ، أما أهل الكفر وأهل الفسق والفجور، فيقول عزَّ وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧]

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٦﴾ الغسلين- أجارنا الله - هو صديد أهل النار الذي يسيل من عرقهم، وفروجهم، ويسيل منهم بحرقهم في نار جهنم،

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "ولا له طعامٌ كما كان لا يحض في الدنيا على طعام المسكين، إلا طعامٌ من غسلين، وذلك ما يسيل من صديد أهل النار. "(٣)،

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٤٣٩)، والنسائي في "الصغرى" (٥٠١٠)، وابن ماجه في "سننه" (٦٠).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٤٣٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٨٣).

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٤٠)، وينظر "البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٢٠)، و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٨٣)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢١٨).

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«الغسلين» فيما قال اللغويون: ما يجري من الجراح إذا غسلت، وقال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هو صديد أهل النار.

وقال قتادة وابن زيد-رحمهما الله -: الغسلين والزقوم أخبث شيءٍ وأبشعه، وقال الضحاك والربيع-رحمهما الله -: هو شجرٌ يأكله أهل النار. "[١]- نسأل الله العافية والسلامة- ولهم طعامٌ آخر وهو الزقوم وغير ذلك.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ﴾ لا يأكل هذا الطعام ﴿إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾ إلا الكافرون الذين أخطأوا الخطأ الأكبر؛ وهو الكفر بالله العظيم، وعن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هم المشركون.[٢]

قال عز وجل:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٤٣﴾

---

(١) ينظر " المحرر الوجيز " (٥/ ٣٦١) لابن عطية، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢١٣)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢١١).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٤١)، "الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٣١٧)، والقرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢١٢) وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢١٣).

ثم ربنا تعالى يقسم فيقول: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ۝٣٩﴾ أي فلا أقسم بالذي تشاهدونه، والذي لا تشاهدونه.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ۝٤٠﴾ ينزه الله نبيه ﷺ عن التقول عليه بلا علمٍ، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ الأمر لا يحتاج إلى قسمٍ.

وبعض أهل العلم قالوا: **(لا)** زائدةٌ، يعني أقسم أيضـًا، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون [١]، أقسم بالذي تشاهدونه والذي لا تشاهدونه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذِكرُه: فلا، ما الأمر كما تقولون معشر أهل التكذيب بكتاب الله ورسله، أُقسِمُ بالأشياء كلها التي تبصرون منها، والتي لا تبصرون."[٢]

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ۝٤١﴾ نزَّهَهُ اللهُ عن الشعر، وما كان رسول الله ﷺ يستطيع أن ينظم شعراً ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ۝٤٢﴾ ونزَّهَهُ اللهُ عن الكهانة ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝٤٣﴾ القرآن الكريم نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله محمدٍ ﷺ.

قال عز وجل:

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢١٢) وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٥٤).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٤١).

ٱلْوَتِينَ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ تَكَلَّفَ وأتى بقولٍ من قِبَلِ نفسه.

قال الماتريدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾﴾ فهذا عطف على ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، وعليه وقوع القسم، وهو موضعه؛ فكأنه يقول: إن الذي تلقاه من عند رسولٍ كريمٍ، وما هو بقولٍ تلقاه من كاهن أو ساحر، ولا بقولٍ تقوله علينا، ولو تقول، لأخذنا منه باليمين."(١)

ثم قال الله تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴿٤٥﴾﴾ أي: لأخذنا منه بالقوة (٢)، وهذا لا يمنع أيضـًا من إثبات اليمين لله عزَّ وجلَّ فكلتا يديه يمينٌ، كما ثبت في الصحيح عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمُقْسِطُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الْمُقْسِطُونَ عَلَى أَهْلِيهِمْ، وَأَوْلَادَهُمْ، وَمَا وَلُّوا»(٣) ولكن المقصود هنا لو تقوَّل رسول الله ﷺ وادَّعى على الله كلامـًا لم يقله

---

(١) ينظر "تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة" (١٠/ ١٩٠)

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٤٣) وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٤١) وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢١٤)، و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٢٧)، والنسائي في " الصغرى " (٥٣٧٩)، وأحمد في "

ربُّنا تبارك وتعالى، ونسبه إليه- وحاشاه -

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ۝٤٦﴾ وهو عرقٌ في البدن إذا قطع يموت الإنسان ولا يحيى.[١]

قال الله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ۝٤٧﴾ لا أحد يستطيع أن يمنع عذاب الله عنه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فما منكم أيها الناس من أحدٍ عن محمدٍ لو تقول علينا بعض الأقاويل، فأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، حاجزين يحجزوننا عن عقوبته، وما نفعله به. [٢]

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ۝٤٨﴾ هذا القرآن العظيم تذكرة ينتفع بها من[٣] ؟ المتقون.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ۝٤٩﴾ يكذبون بالقرآن، ويكذبون بيوم الدين[٤]

=مسنده " (٦٤٩٢)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٤٨٤).

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٤٥) عن الضحاك، وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (١٤/ ٢٣١)، و"مقاييس اللغة" لابن فارس (٦/ ٨٤).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٤٥) وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٦٣).

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٤٦) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢١٦)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٠١).

(٤) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٤٦)، و "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ٨٧).

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ۝٥٠﴾ حسرةً عليهم لأنهم لم يتبعوه ولم يعظموه.[١]

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ۝٥١﴾ حق اليقين [٢]

ثم ختم الله هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ۝٥٢﴾ نَزِّه الله عن النقائص والعيوب

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: فصلِّ لربك، قاله ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الثاني: فنزِّهه بلسانك عن كل قبيحٍ."[٣]

سبحان ربي العظيم، وأسأل الله الكريم رب العرش الكريم أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يسترنا في الدنيا والآخرة، وأن يطيل أعمارنا، وأن يُحسن أعمالنا، اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، بعد طول عمرٍ وحسن عملٍ يا حي يا قيوم، اللهم ارزقنا وإخواننا الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبة أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة الحاقة بفضل الله ومنته.

****

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٤٦)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢١٩).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٤٧)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢١٩)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٠١).

(٣) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٨٨).

﴿سُورَةُ المَعَارِج﴾

سورة المعارج سورةٌ مكيةٌ بلا خلافٍ[١]، وآياتها أربعٌ وأربعون، نزلت بعد الحاقة.[٢]

مناسبتها لما قبلها:

ذكر بعض السادة العلماء من أهل التفسير: أنها مثل سورة الحاقة، فسورة الحاقة تكلمت عن يوم القيامة، وما يحدث فيه، وهذه السورة كالتتمة لها في وصف القيامة وعذاب النار.[٣]

هذه السورة العظيمة يقول الله عزَّ وجل فيها:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣
تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا
جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ
ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ
عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الدر المنثور "(١٤/ ٦٨٤) أَخْرَج ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥/ ٣٦٤)، والقرطبي في " الجامع لأحكام القرآن "(٢١/ ٢١٨).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ٦٥).

(٣) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ٦٥).

﴿جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ۝١٦ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ۝١٨﴾

يقول الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ۝٢﴾ الله تبارك وتعالى يخبر عن جهل الكفار المعاندين لرسول الله ﷺ واستعجالهم بالعذاب استهزاءً منهم، وتعنتـًا وتعجيزاً، فسألوا رسول الله ﷺ عن هذا العذاب(١)،

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ فِيهِ تضمينٌ دلَّ عليه حَرْفُ "الْبَاءِ"، كَأَنَّه مقدَّر: يَسْتَعْجِلُ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحج: ٤٧] أَيْ: وعذَابُه واقعٌ لا مَحالة."(٢)

وقال بعض السادة العلماء: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ الباء هنا معناها عن، يعني سأل سائلٌ عن عذابٍ واقعٍ، فعن تأتي مكان الباء. عَنْ قَتَادَةَ" قَوْلُهُ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قال: سأل عن عذابٍ واقعٍ، فقال الله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾" (٣)

وأيضـًا ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ۝١﴾ يعني طلب طالبٌ عذابـًا واقعـًا له لا

---

(١) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٤٨)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢١٨).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٢٠)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٠٧).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٤٩)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٢٠).

محالة، ولا راد له؛ لأنه من الله تعالى ذي المعارج جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، وهو يحل على الكافرين لا محالة،

وهناك قولٌ ذهب إليه بعض أهل العلم: وهو أن الكلام ليس على ظاهره، ولكنه على قراءةٍ أخرى، عدم همز سأل فتصير سال، وتكون الآية: سال سائلٌ بعذابٍ واقعٍ، وقالوا هذا السائل ليس المراد منه إنسانٌ جاء يسأل؛ وإنما هو سائلٌ يسيل يوم القيامة كالمهل وغير ذلك من العذاب الذي يكون للكافرين، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن هذا القول ضعيفٌ بعيد المراد.(١)

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اختلفت القرّاء في قراءة قوله: ﴿**سَأَلَ سَآئِلُۢ**﴾ فقرأته عامّة قرّاء الكوفة والبصرة: ﴿**سَأَلَ سَآئِلُۢ**﴾ بهمز ﴿**سَأَلَ سَآئِلُۢ**﴾ بمعنى سأل سائلٌ من الكفّار عن عذاب اللّه، بمن هو واقعٌ؛ وقرأ ذلك بعض قرّاء المدينة: «**سال سائلٌ**» فلم يهمز سأل، ووجّهه إلى أنّه فعل من السّيل. والّذي هو أولى القراءتين بالصّواب قراءةٌ من قرأه بالهمز لإجماع الحجّة من القرّاء على ذلك، وأنّ عامّة أهل التّأويل من السّلف بمعنى الهمز تأوّلوه." (٢)

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٢٤٩)، وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٠٣)، وقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٢٠) وقال ابن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره: ﴿**سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ**﴾ أي: واد في جهنم، يسيل يوم القيامة بالعذاب. وهذا القول ضعيف، بعيد عن المراد. والصحيح الأول لدلالة السياق عليه.

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٤٨)، وقال القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن "

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾ والسائل هم بعض الكفار[١] وهذا أرجح، أنهم سألوا الرسول ﷺ عن هذا العذاب، متى يكون هذا العذاب الذي تخوفنا منه يا محمد؟ فالله تبارك وتعالى قال: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾ يعني هذا العذاب واقعٌ لا محالة ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي هذا العذاب أعد للكافرين ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾ ليس هناك دافعٌ يدفع عذاب الله عن الكافرين[٢]،

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣﴾ أي أن هذا العذاب من الله جلَّ جلاله،

وقوله تعالى: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ فيه خمس تأويلاتٍ:

أحدها: ذي الدرجات، قاله ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

الثاني: ذي الفواضل والنعم، قاله قتادة رحمه الله.

الثالث: ذي العظمة والعلاء.

=(٢١/ ٢٢٠). ومن قرأ بغير همز فله وجهان: أحدهما: أنه لغة في السؤال وهي لغة قريش، تقول العرب: سال يسال، مثل نال ينال وخاف يخاف. والثاني أن يكون من السيلان، ويؤيده قراءة ابن عباسٍ رضي الله عنهما" سال سيل". قال عبد الرحمن بن زيد رحمه الله: سال واد من أودية جهنم يقال له: سائل وهو قول زيد بن ثابت. قال الثعلبي رحمه الله: والأول أحسن.

وقال البغوي رحمه الله في "معالم التنزيل" (٨/ ٢١٦) وقيل: هو من السيل، والسايل واد من أودية جهنم، يروى ذلك عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والأول أصح.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢١٨ ـ ٢٢٠) للقرطبي.

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٥٠)، و" النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٩٠)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٠٥).

الرابع: ذي الملائكة لأنهم كانوا يعرجون إليه، قاله قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الخامس: أنها معارج السماء، قاله مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.(١)

فالله جلَّ جلاله هو ذو المعارج، وذو الجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق(٢)، الذي تعرج الملائكة والروح إليه،

﴿**تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ بعض السادة العلماء قال المراد بالروح هنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويكون هذا من باب عطف الخاص على العام، فالملائكة عامٌ، وعطف جبريل عليها وهو خاصٌ منها، ولكنه - سبحانه جلَّ جلاله- عطفه وخصصه من سائر الملائكة لشرفه ولعلو منزلته. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والروح جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قاله ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. دليله قوله تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾**﴾ [الشعراء: ١٩٣]."(٣)

وبعض السادة العلماء عمم كلمة الروح؛ فقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قلت: ويُحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاصّ على العامّ. ويُحتمل أن يكون اسم جنسٍ لأرواح بني آدم، فإنّها إذا قُبضت يُصعد بها إلى السّماء، كما دلّ عليه حديث البراء." (٤)

---

(١) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٩٠)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٣٣٦).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٥٠)، و" تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (٨٨٥).

(٣) الطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٢٥١)، والقرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٢٣)

(٤) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٢١).

دلالة ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ۝٣ تَعْرُجُ﴾ على صفة العلو:

وهذا لا شك دليلٌ على علو الله، وأن الله عالٍ بذاته على خلقه سبحانه وبحمده، وهو مع علوه مستوٍ على عرشه، فجميع الأرواح تعرج إلى الله تعالى عند مفارقة الأبدان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قال شيخ الإسلام: "وهذا كتاب اللّه من أوّله إلى آخره وسنّة رسوله ﷺ وعامّة كلام الصّحابة والتّابعين وكلام سائر الأئمّة مملوءٌ بما هو نصٌّ أو ظاهرٌ في أنّ اللّه سبحانه وتعالى فوق كلّ شيءٍ، وأنّه فوق العرش فوق السّماوات مستوٍ على عرشه. مثل قوله تعالى . . . ﴿**ذِى ٱلْمَعَارِجِ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج: ٣-٤] " [(١)]،

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: " اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، "، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا

---

(١) ينظر" مجموع الفتاوى " لابن تيمية (٥/ ٣١١)، و" اجتماع الجيوش الإسلامية" لابن القيم (٢/ ٩٦).

النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ ". قَالَ: " فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ " قَالَ: " فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ". ... وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ ". قَالَ: " فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ "، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠] أَبْوَابُ

فَيَقُولُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: " اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ". ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]" (١)

فأرواح الكفار تعرج إلى الله، وأرواح المؤمنين كذلك، لكن أرواح الكفار إذا وصلت إلى السماء الدنيا لا يستفتح لها، كما قال تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وينادي منادٍ أن كذب هذا العبد، فأعيدوا روحه إلى الأرض فتطرح هذه الروح طرحًا، وتلا الرسول ﷺ في حديث البراء قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴿٣١﴾﴾ ، وأما أرواح المؤمنين -نسأل الله أن يجعلنا منهم يا رب العالمين-، فتعرج في الدرجات إلى السماء من سماءٍ إلى سماءٍ إلى سماءٍ حتى تصل إلى رب العالمين جلَّ جلاله.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: " ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنسٍ يشمل الأرواح كلها، برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عزَّ وجلَّ، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه،

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده" (١٨٥٣٤)، والحاكم في" المستدرك (١٠٨)، وصححه الألباني في" مشكاة المصابيح" (١٦٣٠).

وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام."(١)

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴿٤﴾﴾ قال أهل العلم ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ جملةٌ معترضةٌ، ثم ﴿فِى يَوْمٍ﴾ يعني هذا العذاب الذي أعده الله للكافرين، سيكون في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنةٍ،

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: " ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح وأنها تعرج في يومٍ بما يسَّر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنةٍ، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه، ما عمهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي."(٢)

يقول مولانا في هذه السورة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وفي سورة الحج يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧] وفي سورة السجدة قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥] وأرجح

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (ص ٨٨٥).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (ص ٨٨٥).

الأقوال وأصحها من مجمل الأقوال التي قيلت في هذه الآية:

القول الأول: أن هذه المسافة، هي المسافة ما بين أعلى الملك عند إلى أسفل سافلٍ في الأرض السابعة، هذه المسافة هي خمسون ألف سنة، ولكن الملائكة تقطع هذه المسافة بما أعطاها الله تعالى من قوةٍ في مدةٍ يسيرةٍ جداً، وهذه المدة لو قدر للآدميين أن يمضوها لقضوها في خمسين ألف سنة.

قال ابن كثيرٍ: وقوله: "﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ فيه أربعة أقوالٍ: **أحدهما:** أنّ المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السّافلين، وهو قرار الأرض السّابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنةٍ، هذا ارتفاع العرش عن المركز الّذي في وسط الأرض السّابعة. وذلك اتّساع العرش من قطرٍ إلى قطرٍ مسيرة خمسين ألف سنةٍ"[(١)]

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " كان مقدار صعودهم ذلك في يومٍ لغيرهم من الخلق خمسين ألف سنةٍ، وذلك أنها تصعد من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السماوات السبع"[(٢)]

وجمع القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين هذه الآية وبين قوله: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥**﴾ في سورة السجدة-، فقال: "﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السماوات خمسون

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٢١).

(٢) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٥١) وأخرجه عن مجاهد.

ألف سنةٍ. وقوله تعالى في (الم تنزيل): ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] يعني بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يومٍ واحدٍ فذلك مقدار ألف سنةٍ لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عامٍ."(١)

القول الثاني: أن هذا هو يوم القيامة، ومقداره خمسون ألف عامٍ، -نسأل الله اللطف والسلامة، وأن يجعله علينا يسيراً -.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وقيل: المراد يوم القيامة، أي مقدار الحكم فيه لو تولّاه مخلوقٌ خمسون ألف سنةٍ، قاله عكرمة أيضًا والكلبيّ ومحمّد بن كعبٍ. يقول سبحانه وتعالى وأنا أفرغ منه في ساعةٍ. وقال الحسن: هو يوم القيامة، ولكن يوم القيامة لا نفاد له فالمراد ذكر موقفهم للحساب فهو في خمسين ألف سنةٍ من سني الدّنيا، ثمّ حينئذٍ يستقرّ أهل الدّارين في الدّارين. وقال يمان: هو يوم القيامة، فيه خمسون موطنًا كلّ موطنٍ ألف سنةٍ. وقال ابن عبّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هو يوم القيامة، جعله اللّه على الكافرين مقدار خمسين ألف سنةٍ، ثمّ يدخلون النّار للاستقرار. قلت: وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء اللّهُ"(٢)

---

(١) ذكره القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٢٤).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٢٤)، و " تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٢٤)، والطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٥١) وأخرجه عن عكرمة، وقتادة، وابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والضحاك، وابن زيد.

القول الثالث: ما أخبر الله به عن اليوم في سورة السجدة، وكذلك اليوم الذي في سورة الحج؛ يخبر به تعالى عن يومٍ من أيام الدنيا، والمقصود أن تدبير الأمر بالنسبة لله عزَّ وجلَّ، هذا اليوم ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ويعرج، لو كان مقداره من أيام الدنيا لكان بمقدار ألف عامٍ، أما مقدار خمسين ألف عامٍ فهذا هو يوم القيامة، أما الألف عام فالمراد بها يوم التدبير من تدبير الله تعالى لملكه وما يكون فيه، ﴿**يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ۝٥**﴾ [السجدة: ٥] بمقدار أيامكم ألف سنةٍ، ولكن الملائكة تصعد إليه في مدةٍ يسيرةٍ، بما أعطاها الله من القوة واللطافة والسرعة، الله بها عليم.(١)

ومما يدل على أن المراد بخمسين ألف سنة في هذه الآية أنه يوم القيامة، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَالْإِبِلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٢٦)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢١٠)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١١٠)، و" التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (١٥٥).

حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ، وَلَا جَلْحَاءُ، وَلَا عَضْبَاءُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»"(١)

وقفةٌ: لو أن الإنسان العاصي أُعدَّ له هذا العذاب فقط لكان كافيـًا، ولكن هذا شيءٌ يسيرٌ من عذاب الله؛ أعده الله لبعض عباده -نسأل الله العافية والسلامة-.

فهذا اليوم يوم القيامة خمسون ألف سنةٍ، ولكنه بإذن الله يخفف على المؤمنين فيصير يسيراً، أيسر من هذا بكثيرٍ، وهو يطول على الكافرين، ويشدد عليهم فيصير عذابـًا أليمـًا.

وهناك حديثٌ ورد فيه التخفيف على المؤمن، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَوْمًا كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩٨٧)، وأبو داود في " سننه " (١٦٥٨).

عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا " هذا الحديث ضعفه العلامة الألباني، وكذلك العلامة شعيب الأرناؤوط، وضعفه الحافظ ابن كثير، ولكن حسنه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، فقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" ووقع في حديث أبي سعيدٍ عند أحمد أنه "يخفف الوقوف عن المؤمن حتى يكون كصلاةٍ مكتوبةٍ" وسنده حسنٌ"[(١)]،

وإن كان هذا الحديث تنازع الناس في صحته؛ فنرجو من الله الكريم أن يخفف عنا بمثل ذلك، (مثل صلاةٍ مكتوبةٍ)، يعني مثل وقتها أو قدرها، أو قدر أداها.

ثم من البشريات ما ساقه الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضـًا، قال: ولأبي يعلى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَيَهُونُ ذَلِكَ الْيَوْمُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَتَدَلِّي الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ» "[(٢)] وللطبراني عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " تَجْتَمِعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: أَيْنَ فُقَرَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمَسَاكِينُهَا؟ فَيَقُومُونَ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا عَمِلْتُمْ؟

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه أحمد في "مسنده" (١١٧١٧)، وأبو يعلى في "مسنده" (١٣٩٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٥٠٩٩)، والطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٥٣).

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٢٣): "ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به إلا أن دراجـًا وشيخه ضعيفان، والله أعلم."

وينظر " فتح الباري " للحافظ ابن حجر (١١/ ٤٤٨)، وضعفه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٥٦٤).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو يعلى في " مسنده " (٦٠٢٥)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٣٣٣)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب" (٣٥٨٩).

فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا ابْتُلِينَا فَصَبَرْنَا وَوَلَّيْتَ الْأُمُورَ وَالسُّلْطَانَ غَيْرَنَا فَيَقُولُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: صَدَقْتُمْ فَيَدْخُلُونَ قَبْلَ النَّاسِ وَتَبْقَى شِدَّةُ الْحِسَابِ عَلَى ذَوِي الْأَمْوَالِ وَالسُّلْطَانِ " قَالُوا: فَأَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «يُوضَعُ لَهُمْ كَرَاسِيُّ مِنْ نُورٍ مُظَلَّلٌ عَلَيْهِمُ الْغَمَامُ يَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمُ أَقْصَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ (١)"(٢)

قال ملا علي القاري رَحِمَهُ اللهُ في مرقاة المفاتيح: " والظّاهر أنّه يختلف باختلاف أحوال المؤمنين، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿**تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا۝٧**﴾، وبقوله: ﴿**فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ۝١٠**﴾ [المدثر: ٨-١٠] فمفهومه أنّه على المؤمنين يصير يسيرًا إمّا في الكمّيّة، وإمّا في الكيفيّة، وإمّا فيهما جميعًا، حتّى بالنّسبة إلى بعضهم يكون هو كساعةٍ، وهم من جعلوا الدّنيا ساعةً وكسبوا فيها طاعةً."(٣)، وهذا كلامٌ نفيسٌ،

وهنا فائدةٌ جليلةٌ، وحديثٌ ينبغي على العبد أن يعض عليه بالنواجذ- ونسأل الله

---

(١) **(حسن)** أخرجه أبو نعيم في " حلية الأولياء (٧/ ٢٠٦)، وابن أبي شيبة في " مصنفه " (٣٤٠٢٨)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٤١٩)، وحسنه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣٥٩٠).

(٢) قال الحافظ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ في"فتح الباري" (١١/ ٤٤٨) ولأبي يعلى عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ "كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب" وللطبراني من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا "ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمن من ساعة من نهار".

(٣) ينظر " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح " للقاري (٨/ ٣٥٣٤).

جلَّ جلاله أن يجعلنا من أيسر عباد الله يوم القيامة ويجعلنا من أهل الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ-، روى الحاكم في المستدرك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ»، وقال البيهقي في " شعب الإيمان " : وَرُوِّينَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنْ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ "، هذا الحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي وصححه العلامة الألباني رحمة الله عليه في صحيح الجامع.[1]

ولذلك رب العزة سبحانه لما قال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦] دل ذلك على أن هذا اليوم يسيرٌ على أهل الإيمان، وقد قال الله تعالى قبل ذلك: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤] فالمقيل هو القيلولة، والقيلولة تكون بعد الظهر، يعني أنه بكرم الكريم جلَّ جلاله ينتهي حساب أهل الإيمان، في نصف يومٍ- نسأل الله من فضله ونسأل الله أن يخفف عنا، ونسأل الله أن يرزقنا عافيته وستره-

وممن ذكر من السلف الصالح أن حساب أهل الإيمان ينقضي إلى نصف النهار، ابن عباسٍ وابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعكرمة وسعيد بن جبير-رحمهما الله-، ونقل ذلك عنهم الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسير سورة المؤمنون.

قال ابن كثيرٍ: "قال الضّحّاك: عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنّما هي ضحوةٌ، فيقيل

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الحاكم في " المستدرك " (٢٨٣)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (١/ ٥٥٥)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٤٥٦).

أولياء اللّه على الأسرّة مع الحور العين، ويقيل أعداء اللّه مع الشّياطين مقرّنين.

وقال سعيد بن جبيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يفرغ اللّه من الحساب نصف النّهار، فيقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النّار في النّار، قال اللّه تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقال عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّي لأعرف السّاعة الّتي يدخل فيها أهل الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار: هي السّاعة الّتي تكون في الدّنيا عند ارتفاع الضّحى الأكبر، إذا انقلب النّاس إلى أهليهم للقيلولة، فينصرف أهل النّار إلى النّار، وأمّا أهل الجنّة فينطلق بهم إلى الجنّة، فكانت قيلولتهم في الجنّة وأطعموا كبد حوتٍ، فأشبعهم ذلك كلّهم، وذلك قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقال سفيان، عن ميسرة، عن المنهال، عن أبي عبيدة، عن عبد اللّه بن مسعودٍ، أنّه قال: لا ينتصف النّهار حتّى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثمّ قرأ: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤] وقرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨﴾ [الصافات: ٦٨] "(١)

وقفةٌ: رب العزة سبحانه جلَّ جلاله يريد من عبده أن يستعد لهذا اليوم، يعني ليست العبرة أن يقرأ العبد هذه الآيات والأمر ينتهي، وإنما المراد عندما يعلم العبد أن هذا اليوم يطول على أعداء الله؛ فيكون كخمسين ألف سنةٍ، فيترسخ في نفسه أن هذا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (١٣١٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٥٠٧٩)، والحاكم في "المستدرك" (٣٥١٦)، وينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٦/ ١٠٤).

يومٌ شديدٌ عصيبٌ، تتلون فيه الشدائد وتزداد فيه الكربات،

وقد جاء في بعض الأقوال عن ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ قالوا هذا عمر الدنيا، بتمامها من أول خلقها إلى آخرها، خمسون ألف سنةٍ الله أعلم كم مرَّ منها، والله أعلم كم بقي منها، عَنْ عِكْرِمَةَ: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج: ٤] قَالَ: «الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لَا يَدْرِي أَحَدٌ مَا مَضَى؟ وَلَا كَمْ بَقِيَ؟ إِلَّا اللهُ» [1]

ولذلك رب العزة سبحانه جلَّ جلاله قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾ اصبر يا محمد على أذى هؤلاء الكفار، والصبر الجميل هو الذي ليس معه شكوى قط، يعني اصبر صبراً لا شكوى معه، فإنهم سيحل عليهم عذابٌ لا يعذبه أحدٌ من الخلق.

فلذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦﴾ يرون هذا اليوم بعيداً جداً، والله تعالى قال: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾ ونعلمه قريبًا، وكل آتٍ قريبٌ [2]، فهذا اليوم قريبٌ جداً، لذلك روي عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عن عبد الله - يعني ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» [3]، لأن العبد إذا مات

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٣٣٢١)، وينظر " النكت والعيون "للماوردي (٦/ ٩٠)، و " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٢٢).

(٢) ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم "(٨/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٨٨)، وأحمد في "مسنده" (٣٦٦٧)، وابن حبان في "صحيحه" (٦٦١).

قامت قيامته[١]، فإذا كان العبد صالحـًا، من أهل الإيمان؛ فمن أول سكرات الموت، وإذا خرجت الروح تنعم بإذن الله تبارك وتعالى، فبكرامة الله تعرج روح العبد وتصعد وترتقي إلى ما كان يحوم حوله وهو في الدنيا، فقلبُ المؤمن في الدنيا وروحه معلقةٌ بعرش الرحمن، فهكذا هذه الروح الطيبة عندما تخرج، فتأتي الملائكة إليها وتقول: يا أيتها الروح الطيبة التي كنتِ في الجسد الطيب، أُخرجي إلى رَوحٍ وريحانٍ، وربٍ راضٍ غير غضبان، فتخرج نشيطةً؛ وهذا هو قول الله تعالى في النازعات: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾ [النازعات: ٢] فهي ملائكةٌ تنشط العبد وتنشط روحه[٢]، وتخبره بما أعده الله له، فتخرج روحُه نشيطةً محبةً للقاء الله، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»،[٣]، فتصعد هذه الروح في درجات ومعارج السماء، إلى أن تصل إلى الله جلَّ جلاله، تبارك وتعالى، كما قال السعدي رحمه الله: "فتحيي ربها ويرضى ربها عنها ويقول أعيدوا روح عبدي إلى جسده إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارةً أخرى، وتكرم بكراماتٍ عظيمةٍ من الله تعالى، ويفرش له في القبر من الجنة، ويفتح له

---

(١) (ضعيف) أخرجه الديلمي في "الفردوس " (١١١٧)، وضعفه الألباني في" السلسلة الضعيفة "(١١٦٦).

(٢) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٤/ ٥٩).

(٣) (متفق عليه) أخرجه البخاري في" صحيحه " (٦٥٠٧)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٨٣).

باب إلى الجنة"[١]-اللهم اجعلنا من أهلها بلا حساب ولا عذاب-،

لذلك ينبغي على العبد أن يكون مستعداً لهذا اليوم ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا٧**﴾ هو قريبٌ أقرب إلى العبد من شراك نعله، فالله تعالى يذكر عبده بقربه ليستعد للقائه، ويكون دائمـاً على أهبة الاستعداد.

وقفةٌ: كثيرٌ منا -ولا حول ولا قوة إلا بالله- يأتيه الموت بغتةً، وهو ليس على استعدادٍ، ويُؤَمِّل في الحياة الدنيا، وعنده آمالٌ طويلةٌ، وهذه الآمال تصرفه عن العمل لله، وعن الاستعداد للقاء الله، وبعض سلفنا الصالح كان يجتهد في العبادة اجتهاداً حتى لو قيل له إن غداً يوم القيامة فلن يجد مزيداً من العمل، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ:" لَوْ قِيْلَ لِحَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ: إِنَّكَ تَمُوْتُ غَداً، مَا قَدِرَ أَنَّ يَزِيْدَ فِي العَمَلِ شَيْئاً. "[٢]، وذلك لأنهم علموا أن هذا اليوم آتٍ لا شك فيه، فمن الممكن أن يأتي الآن، فالله أعلم متى هو؟

قال الله تعالى لنا ﴿**وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا٧**﴾ ثم أخبرنا بعلاماتٍ تكون فيه، إذا حَدَثَتْ هذه العلامات جاء هذا اليوم العصيب.

﴿**يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ٨**﴾ يعني يغشاها من الكرب العظيم فتذوب السماء، كما يذوب الرصاص المذاب.

---

(١) تقدم تخريجه رقم (١٧).

(٢) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٧/ ٤٤٧).

وجاء أيضـًا في معناه: رديء الزيت، أو دردي الزيت[١]، وهو الذي يكون في قاع القِدْرِ عندما يغلى الزيت، وكذلك وَرَدَ أنه مثل النحاس المذاب.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ۝٨﴾ مهلهلةً بسبب ما غشيها من الكربات والأهوال في هذا اليوم العصيب.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ۝٨﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: كدرديّ الزيت قاله ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الثاني: كمذاب الرصاص والنحاس والفضة قاله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الثالث: كقيحٍ من دم قاله مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.[٢]

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر الأقوال في معنى المهل: " وهذه الأقوال وإن اختلفت بها ألفاظ قائليها، فمتقاربات المعنى، وذلك أنّ كلّ ما أذيب من رصاص أو ذهبٍ أو فضّةٍ فقد انتهى حرّه، وأنّ ما أوقدت عليه من ذلك النّار حتّى صار كدرديّ الزّيت، فقد انتهى أيضًا حرّه" [٣]

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٢٤): "قال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وغير واحد، كدردي الزيت."

(٢) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ٩٢)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٦٦)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٢٨).

(٣) ينظر "جامع البيان " للطبري (١٥/ ٢٥١)، و" الجامع لأحكام القرآن " (٢٣/ ٢٢٨) للقرطبي.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ والعهن هو الصوف الملون المصبوغ، ولا يقال للصوف عهنٌ إلا إذا كان مصبوغـًا، فتصير الجبال كالصوف تذروه الرياح، فتتفتت الجبال، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ : "وقيل: أول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً، ثم عهنـًا منفوشـًا، ثم هباءً منبثـًا."[(١)]، كما قال تعالى: (﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ١٤] وتُدكُّ وتصير ترابـًا، ثم تسير ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ الحميم القريب، فيدخل فيه الأخ، والأب، والابن، والزوجة، والزوج.

كل هؤلاء قال الله عنهم: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ﴾ فيرى الواحد أباه، ويرى الواحد ابنه، ويرى أمه، ويرى أخته، ولكن هو مشغولٌ بحاله[(٢)]، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٧] لا يسأله كيف حالك، ولا عن أمره، ولا كيف هو، ولا عن أي شيءٍ، ولعله كان في الدنيا يفني حياته من أجلهم- سبحان الله العظيم- وما ذاك إلا للكربات العظيمة التي تنتاب كلَّ أحدٍ.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ﴾ وفي بعض الآثار عن بعض سلفنا الصالح، أن البنت أو الأب أو الأم يرى قريبه وهذا القريب يختبئ منه لما له عليه من حقٍ، لأنه لو رآه لأخذ حقه،

---

(١) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢٣/ ٢٢٨).

(٢) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٥٧)، وابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٢٢٤)، وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥١/ ٣٦٦).

فيختفي عنه- والعياذ بالله- ويختبئ منه، قال القرطبي رحمه الله: " وفي بعض الأخبار: أنّ أهل القيامة يفرّون من المعارف مخافة المظالم."(١)،

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ المجرم هو الكافر الظالم المعتدي؛ الذي تجاوز الحد، وأجرم في حق نفسه، وفي حق عباد الله، يود لو يفتدي من هذا العذاب بأبنائه كلهم، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي وزوجته كذلك، ﴿وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾ أخوة الدم والنسب ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ عائلته التي تحميه وتشمله، يذكر الله تعالى أقرب أناسٍ على هذا العبد، فأعزَّ ما يملك الإنسان أبناؤه، وزوجته، وإخوانه، فكل هؤلاء مع قربهم منه يود هذا الذي عصى الله تعالى أن يُذهَب بهم إلى النار، ويذهب هو إلى الجنة.

قال الطبري رحمه الله: " يقول تعالى ذكره: يودّ الكافر يومئذٍ ويتمنّى أنّه يفتدي من عذاب اللّه إيّاه ذلك اليوم ببنيه وصاحبته، وهي زوجته، وأخيه وفصيلته، وهم عشيرته الّتي تؤويه، يعني الّتي تضمّه إلى رحله، وتنزل فيه امرأته، لقربةٍ ما بينها وبينه، وبمن في الأرض جميعًا من الخلق، ثمّ ينجيه ذلك من عذاب اللّه إيّاه ذلك اليوم. وبدأ جلّ ثناؤه بذكر البنين، ثمّ الصّاحبة، ثمّ الأخ، إعلامًا منه عباده أنّ الكافر من عظيم ما ينزل به يومئذٍ من البلاء يفتدي نفسه، لو وجد إلى ذلك سبيلًا بأحبّ النّاس إليه كان في الدّنيا، وأقربهم إليه نسبًا."(٢)

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٢٩).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٥٩)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٢٥)،

بل ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ فيتمنى ويود لو أن هؤلاء في قبضته ليفتدي بهم جميعـًا، وينجو هو من عذاب الله، ولكن هيهات، وقد قال الله عن هذا اليوم: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] إذن نَجِّ نفسك الآن بإيمانك وعملك الصالح، حتى ينجيك الله تبارك وتعالى من كرباتٍ شديدةٍ، ومن نارٍ تحل على الكافرين.

لذلك ربنا تعالى عقب على ذلك بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ (كَلَّآ) كلمة ردعٍ وزجرٍ، إنها لظى أي نارٌ تتلهب وتشتعل(١)

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ يعني تلفح الكافر لفحةً؛ فتشوي رأسه ووجهه وجلده، وتحرقه حرقـًا(٢) -والعياذ بالله-

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تدعو من أدبر عن العمل لله تعالى بجوارحه، وتولى بقلبه، فجمع بين شر الأوصاف، تكذيبٍ بالقلب وتكذيبٍ بالجوارح.

=و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٣٠).

(١) قال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللهُ في "العين" (٨/ ١٦٩) اللظى هو اللهب الخالص، ولظى من أسماء جهنم، وينظر "جامع البيان " (٢٣/ ٢٦٠)، للطبري، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٣١)، و"تهذيب اللغة" للأزهري (١٤/ ٢٨٤)، و"لسان العرب" لابن منظور (١٥/ ٢٤٨).

(٢) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٦١)، وتفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٢٥)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٣٤).

ولذلك النار تنادي يوم القيامة ـ كما في هذه الآية ـ تدعو أي تنادي بصوت مسموع، والنار تتكلم، كما صح في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ " تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ: فَإِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا".[١]

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " اشْتكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهْوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ "[٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالمُصَوِّرِينَ "[٣] -نسأل الله العافية-.

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٨٥٠)، ومسلم في "صحيحه " (٢٨٤٦).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه " (٣٢٦٠)، ومسلم في "صحيحه " (٦١٧).

(٣) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٥٧٤)، وأحمد في "مسنده " (٨٤٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٥١٢).

﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ جمع ماله فأوعاه، وعدَّده.

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " تدعو النّار إليها أبناءها الّذين خلقهم اللّه لها، وقدّر لهم أنّهم في الدّار الدّنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسانٍ طلق ذلق، ثمّ تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطّير الحبّ. وذلك أنّهم -كما قال اللّه، عزّ وجلّ- كانوا ممّن ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذّب بقلبه، وترك العمل بجوارحه ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ أي: جمع المال بعضه على بعضٍ فأوعاه، أي: أوكاه ومنع حقّ اللّه منه من الواجب عليه في النّفقات ومن إخراج الزّكاة." (١)

قال عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٢٥).

﴿مَنُوعًا﴾ هذا وصف الإنسان، وجلَّ أهل التفسير عمموا الإنسان في هذه الآية[(١)]، وبعضهم جعله عاماً أريد به الخصوص، فجعلوا الإنسان هاهنا بمعنى الكافر، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: " يقول تعالى ذكره: إنّ الإنسان الكافر خُلق هلوعًا، والهلع: شدّة الجزع مع شدّة الحرص والضّجر"، وقال أيضـًا: "يعني الكافر، عن الضّحّاك."

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ دلّ على أنّ ما قبله في الكفّار، فالإنسان اسم جنسٍ بدليل الاستثناء الّذي يعقبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: ٢-٣]"[(٢)]

ولكن جمهور أهل التفسير عمموا المراد بالإنسان فقالوا المراد به كل إنسانٍ، فهذه طبيعة الإنسان، فطره الله هكذا، قال الشيخ عطية سالم: ولفظ: (ٱلْإِنسَٰنَ) هنا مفردٌ، ولكن أريد به الجنس، أي: جنس الإنسان في الجملة ; بدليل استثناء المصلّين بعده في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٢-٣] ونظيره كثيرٌ."[(٣)]

وقفةٌ: أكثر الناس إلا من رحم الله جلَّ جلاله بهذه المثابة ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ

---

(١) ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٢٦).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٦٥) و (٢١/ ٢٣٦)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٣٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٦٨).

(٣) ينظر " تتمة أضواء البيان " لعطية سالم (٨/ ٢٦٨)، و "معاني القرآن وأعرابه" للزجاج (٥/ ٢٢٢)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٢٦).

﴿جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ عنده هلعٌ، والهلع شدة الجزع، وشدة البخل، وشدة الحرص، وأيضًا الضجر عند المصيبة[١]، فإذا مسه الشر يجزع ولا يصبر، وإذا مسه الخير لا يشكر، ولا يطيع ربه تعالى، ولا يشكره في النعم، ولا يصبر عند النقم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾ أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ أي: إذا حصلت له نعمةٌ من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها". أهـ[٢]

والهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، وكذلك قال قتادة ومجاهد وغيرهما، وقد هِلع (بالكسر) يهلع فهو هلع وهلوع، على التكثير، والمعنى أنه لا يصبر على خيرٍ ولا شرٍّ حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي، وقال عكرمة: هو الضجور. وقال الضحاك: هو الذي لا يشبع.

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الضر لم يصبر، قاله ثعلب.

---

(١) ينظر " جامع البيان " (٢٣/ ٢٦٥)، و " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٣٦)، و"تهذيب اللغة" للأزهري (١/ ١٠٣)، و"الصحاح" للجوهري (٣/ ١٣٠٨)، و"تاج العروس" للزبيدي" (٢٢/ ٤٠٥).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٢٦).

وقال ثعلب -أيضـًا- رَحِمَهُ اللَّهُ: قد فسر الله الهلوع، وهو الذي إذا ناله الشر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله الخير بخل به ومنعه الناس.(١)

ولذلك روى الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»(٢) جبنٌ خالعٌ، وشحٌ هالعٌ، يعني هذا العبد الذي إذا أنعم الله عليه لم يشكر، وإذا قدر الله عليه المصيبة لم يصبر، ويكون عنده هلعٌ، وشدة جزعٍ، وضجرٌ وخوفٌ من غدٍ، والله أعلم ما يكون.

وقفةٌ: ما جاء في الآية هو حال أكثر أهل زماننا، إلا من رحم الله، فالأكثر ليس عنده ثقةٌ أن الله جلَّ جلاله هو الرزاق، وأنه كذلك سبحانه ينصر أولياءه وعباده المؤمنين، ولا يسلمهم لأعدائهم، وأن غداً، وما بعد غدٍ، واليوم، وأمس، كله ملكٌ لله، فهم يجرون خلف الأسباب، ويسعون خلف ما يسمعونه في القنوات والإذاعات وغير ذلك، أما المؤمن فهو واثقٌ بربه، مطمئنٌ لقضائه، يعلم أن ما قدره الله كان، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولذلك فهو مستريحٌ جداً، لأنه يعلم أن قضاء الله نافذٌ، ومشيئته نافذةٌ، وأن الملك كل الملك، والخلق كل الخلق بيد الله عزَّ وجلَّ، فإذا علم

---

(١) يُنظر: " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٣٦)، و"تهذيب اللغة" للأزهري (١/ ١٠٣)، و"الصحاح" للجوهري (٣/ ١٣٠٨)، و"تاج العروس" للزبيدي" (٢٢/ ٤٠٥).

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٥١١)، وأحمد في "مسنده" (٨٠١٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٧١٤١)، وابن حبان في "صحيحه " (٢٦٢٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة" (٥٦٠).

العبد ذلك؛ فلماذا يهلع؟ ولماذا يجزع عند المصائب؟، ولماذا لا يشكر عند النعم، وعند الآلاء؟، فالواجب على العبد أن يكون شاكراً لآلاء ربه، وليكون صابراً محتسباً إذا قدر الله عليه بليةً، وهذان جناحان لا بد للعبد منهما، شكرٌ وصبرٌ، ولذلك قال النبي ﷺ: "الصَّبْرُ ضِيَاءٌ" (١)، وربنا تعالى يقول: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

فلذلك يجب علينا أن نزيح هذا الهلع، وهذا الخوف من غدٍ، وينبغي على العبد أن يقوم بما أمره الله، ويتق الله عزَّ وجلَّ، ويدع الأرزاق لربه، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ» (٢)،

هذا كلام الرسول ﷺ، فالرزق يطلب العبد كما يطلبه الأجل، أينما تكونوا

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢٣)، والترمذي في "سننه" (٣٥١٧)، والنسائي في " المجتبى " (٢٤٤٩)، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن ماجه في "سننه" (٢١٤٤)، وابن حبان في "صحيحه " (٣٢٣٩)، والحاكم في " المستدرك " (٢١٣٤)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٣٠٠).

يدرككم الموت، وأينما تكونوا أيضـًا يدرككم الرزق، والله لو أن العبد في أي مكانٍ وله رزقٌ، فلا بد أن يأخذه، لو اجتمع أهل السماء وأهل الأرض جميعـًا، على أن يمنعوه رزقـًا قدره الله لن يستطيعوا، فلذلك ينبغي على العبد أن يكون مطمئنـًا، وأهم شيءٍ أن يكون مطيعـًا لمولاه، وأن لا يهلع أبداً، بل يكون مطمئنـًا لأنه ترضي ربه في عمله ويتق الله فيه، ويقوم بما أوجبه الله عليه، ويسارع في مرضاته وطاعته، ويستخدم ما أنعم الله به عليه في شكره، وفي طاعته، وغير ذلك مما أمره الله تعالى، فمن حقق ذلك كان الخير كل الخير له إن شاء الله تعالى، لأنه إذا كان على ما يحبه الله، فالله تعالى سيجعل أموره كلها فوق ما يحب.

وقفةٌ: المسلمون وفيروس كورونا:

نحن في هذه الأيام نذكر المسلمين جميعـًا بهذا البلاء الذي حلَّ على جميع العالم ـ تقريبـًا ـ ألا وهو فيروس كورونا، ونحن في شهر رجبٍ لعام واحدٍ وأربعين وأربعمائةٍ وألفٍ (١٤٤١هـ)، الموافق لشهر مارس عام عشرين وألفين (٢٠٢٠ م)، لكن يعجب المرءُ من هذا الهلع الذي أصاب كثيراً من الخلق، وصحَّ فيهم قول النبي ﷺ «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»(١)، وإني أذكر إخواني بالواجب على العبد في مثل هذه المحن:

أولاً: أن يُصحح عقيدته، ويعلم يقينـًا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، قال تعالى **﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾**

---

(١) **(صحيح)** سبق قريبـًا.

[التوبة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: "يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللهِ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهِ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهِ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ".(١)

ثانياً: إذا علمنا أن كلَّ شيءٍ بتقدير الله تعالى، فالواجب على العبد أن يطمئن ويركن إلى ربه القدير الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وليحذر من الرعب والهلع فإن هذه الفيروسات لا تنتقل بذاتها ولا تقوى، إلا إذا شاء الله ذلك.

وتذكروا أيها المسلمون قول الله تعالى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١] وحاولوا أن تحققوا قوله ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾، فإن معناها:

ومن يُصدِّق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبةٌ إلا بإذن الله؛ بذلك يهد قلبه، أي يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٥١٦)، وأحمد في " مسنده " (٢٦٦٩)، وابن السني في " عمل اليوم والليلة " (٤٢٥)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح" (٥٣٠٢).

روى ابن جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: يعني يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وروى -أيضـًا- عن علقمة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيُسلِّم ذلك ويرضى."[1]

ثالثـًا: الواجب علينا أن نتوب إلى الله، وأن نرجع إليه، وأن نكثر من الاستغفار، وأداء الفرائض والمسارعة في النوافل، ورد المظالم إلى أهلها، وترك المحرمات، والضراعة إلى الله والثقة به أن يكشف الضر والسوء، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]

ولنحذر من هذا الهلع فإنه والله أشد على الإنسان من المرض نفسه.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ كان السادة الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خلاف هذه الصفة لذلك سادوا الدنيا، كانوا إذا قدر الله عليهم محنةً صبروا صَبْرَ الكرام، وإذا قدر الله عليهم نعمةً شكروا، ألم تَرَ حالهم في غزوة أحدٍ؛ لما قُتل منهم سبعون صحابيـًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وهم ساداتٌ من سادات الصحابة، منهم حمزة، ومصعب، وعمرو بن حرام، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وإذا بهم يصبرون لله تعالى ما جزعوا وما ضجروا، وفي صبيحة يوم أحدٍ يأمرهم الرسول أن

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ١١).

يخرجوا ويدركوا قريشًا، ويلحقوا بهم، وإذا بهم يستجيبون لله على صبرٍ جميلٍ،

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "لَمَّا انْصَرَفَ المُشْرِكُونَ عَن أُحُدٍ، وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ، قَالُوا: لا مُحَمدًا، قَتَلْتُمُوهُ، وَلا الكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ، وَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمُ، ارْجِعُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَنَدَبَ النَّاسَ، فَانْتَدَبُوا، حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الأَسْدِ، وَبِئْرَ أَبِي عِنَبَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] وَقَدْ كَانَ أَبو سُفيانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ، حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا، فَأَمَّا الجَبَانُ فَرَجَعَ، وَأَمَّا الشُّجَاعُ، فَأَخَذَ أُهْبَةَ القِتَالِ وَالتِّجَارَةِ، فأتوه فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا، وَتَسَوَّقُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤]."(١)،

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾ [آل عمران: ١٧٢] هكذا رضي الله عنهم، وإذا أنعم الله عليهم شكروا، وأنفقوا وأظهروا آلاء الله، وكانوا يرون آثار هذه النعم عليهم، إن الله يحب إذا أنعم بنعمة على عبده، أن يرى أثر نعمته عليه، كما ورد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»(٢)

وسيد الأولين والآخرين ضرب لنا أروع الأمثلة، في الصبر عند البلاء، والشكر

---

(١) أخرجه النسائي في " السنن الكبرى " (١١١٩٣)، والطبراني في " المعجم الكبير " (١١٦٣٢).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٨١٩)، وأحمد في "مسنده" (٦٧٠٨)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤٢٥١)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٤٣٥٠).

عند النعماء، حتى لا يكون العبد هلوعـًا، فهؤلاء هم أسوة المؤمن وقدوته، أسوته رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، ومن سلك سبيلهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، فرسول الله آذته قريشٌ أشد الإيذاء، فصبر ﷺ، وكذبوه أشد التكذيب، ووجد الإيذاء من عمه، ومن أقرب الناس إليه، ووجد التكذيب من أحب الناس عنده ﷺ ، ورغم ذلك يعلم أنه على الحق، وما كان عنده هلعٌ -حاشا وكلا-، بل كان عنده طمأنينةٌ بربه، ثقةٌ في الله أن الله ناصره، وأن الله سيعليه، ألم تر لما عقد صلح الحديبية ﷺ وكانت محنةً شديدةً على الصحابة، وكانت بنودها في الظاهر أنها جورٌ وحيفٌ على أهل الإسلام، ومن ذلك قولهم: من يأتيك يا محمد من المشركين ترده إلينا، ومن يأتينا من عندك لا نرده إليك، وأيضـًا لا بد أن ترجعوا الآن لا يمكن أن تدخلوا مكة، وذلك بعد أن ساقوا الهدي ووصلوا إلى الحديبية-قريبـًا من مكة- والمشركون صدوهم لا يمكن أن تدخلوا، وإذا بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوافقون على مضضٍ عظيمٍ، وعلى كرهٍ شديدٍ، فعن أبي وَائِلٍ، قَالَ: كُنَّا بِصِفِّينَ، فَقَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: «بَلَى». فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا»، فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ،

فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»"(١)

ولما أنعم الله تعالى عليهم وبسط لهم في الأرزاق، وفتحت خيبر، ووسع الله أرزاق المسلمين، إذا بالنبي ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويظهر النعم، ويشكر المنعم.

لذلك ينبغي على العبد أن يحذر الضجر عند المصيبة-نسأل الله العافية-، وأن يعلم أنَّ التوفيق بيد الله، عن النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الكِلابِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: اللهُمَّ مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دَيْنِكَ، وَالمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.(٢)، -نسأل الله أن يقيم قلوبنا على الحق، ويثبتنا عليه يا رب العالمين-.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا۝٢١﴾ إذا مسه الخير يمنع حق الله فيه، والخير هنا المراد به المال وهو يُعمَّم، فأي خيرٍ يمنع حق الله فيه، ولا يشكر نعمة ربه ويمنع حق الفقراء.

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٣١٨٢)، ومسلم في "صحيحه " (١٧٨٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه النسائي في " السنن الكبرى " (٧٨٨٩)، وابن ماجه في "سننه " (١٩٩)، وأحمد في "مسنده " (١٧٦٣٠)، وابن حبان في "صحيحه " (٤٧١٤)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٥٧٤٧).

قال ربنا تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ۝٢٣﴾ دائمون على صلاتهم مواظبون على آدائها، يؤدونها في أوقاتها بالتمام، استجابةً لقول مولاهم جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا۝١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣] لا يصلون على حسب أهوائهم ولا في الأوقات التي يريدون، إنما يصلون في الأوقات التي شرعها رب العالمين جلَّ جلاله،

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ۝٢٣﴾ أي أنهم يحافظون عليها في أوقاتها، ويحافظون على واجباتها، ويحافظون كذلك على أركانها، وشروطها، ومستحباتها، فتكون الصلاة لهم قرة عينٍ، وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1] ، وقرة العين: برودتها إذا رأت ما يسرها، كما قال الله تعالى حاكيـًا عن المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] يعني يا رب اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا صالحين كرام، إذا نظرنا إليهم تقر أعيننا بهم، فإذا نظرنا إلى أبناء الأخرين وزوجات الآخرين، لا نتمنى أن يكون أبناؤنا مثل أبناء الآخرين، بل أبناؤنا قرت أعيننا بهم، وبلغوا الغاية في الخير والبركة، لذلك كانت الصلاة قرة عين رسول الله ﷺ.

فائدةٌ: في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ۝٢٢﴾:

الصلاة من الأدوية العظيمة، والعلاجات النافعة جداً؛ لعلاج الهلع وترك

---

(١) **(صحيح)** أخرجه النسائي في " المجتبى " (٣٩٧٤) وأحمد في "مسنده " (١٤٠٣٧) والحاكم في " المستدرك " (٢٧١٣)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع " (٣١٢٤).

الضجر، وكذلك الخوف من غدٍ، كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ۝٢٣﴾ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى»(١)، عليه الصلاة وأتم السلام، وعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: قَالَ مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»(٢) ﷺ،

وقفةٌ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ شِمَالِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ»(٣)

فلو أننا تدبرنا وأيقنا قول النبي ﷺ، الذي جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ۝٢﴾ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝٣﴾ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ۝٤﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا

---

(١) **(حسن)** أخرجه أبو داود في "سننه " (١٣١٩)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٢٩٩)، وحسنه الألباني في " صحيح الجامع " (٤٧٠٣).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٩٨٥) وأحمد في " مسنده " (٢٣٠٨٨)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (١٢٥٣).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٠٥)، ومسلم في "صحيحه " (٥٥١).

قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ۝٥﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ۝٧﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ "[(١)]،

فإذا قرأ العبد القرآن أجابه الله في الفاتحة، ثم أيضـًا عندما يقول آمين يعرض لخيرٍ عظيمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[(٢)]، ثم يعظم ربه في الركوع، ثم يأتي إلى السجود؛ فيسأل الله ما شاء، ففي كل ركعةٍ يحوز العبد هذا الخير العظيم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[(٣)]

ولو أننا نصلي كما ينبغي واللهِ ما حملنا همـًا قط ، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: وَقَعَتِ فِي رِجْلِهِ الآكلَةُ ، فَقِيلَ لَهُ: أَلاَ نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا قَالَ: إِنْ شِئْتُمْ فَجَاءَ الطَّبِيبُ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٣٩٥)، والترمذي في "سننه " (٢٩٥٣)، والنسائي في " المجتبى " (٩٠٩)، وابن ماجه في " سننه " (٣٧٨٤).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٧٨٠)، ومسلم في "صحيحه " (٤١٠).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه " (٤٧٩)، وأبو داود في "سننه " (٨٧٦)، والنسائي في " المجتبى " (١٠٤٥)، وأحمد في "مسنده " (١٩٠٠).

فَقَالَ: أَسْقِيكَ شَرَابًا يَزُولُ منه عَقْلُكَ فَقَالَ: امْضِ لِشَأْنِكَ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ خَلْقًا شَرِبَ شَرَابًا يَزُولُ منه عَقْلُهُ حَتَّى لاَ يَعْرَفَ رَبَّهُ قَالَ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى وَنَحْنُ حَوْلَهُ فَمَا سَمِعْنَا حِسًّا فَلَمَّا قَطَعَهَا جَعَلَ يَقُولُ لَئِنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ وَلَئِنِ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتَ قَالَ: وَمَا تَرَكَ جُزْأَهُ بِالْقُرْآنِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ."(١)، وهذه قصةٌ ثابتةٌ عنه ، سبحان الله العظيم، كبَّر ودخل في الصلاة؛ فلما سلم قال أفرغتم؟ قالوا نعم، قد قطعوا رجله وما شعر بهم رضي الله عنه وأرضاه، كيف يصل المرء منا إلى هذه المرتبة، إلى هذه الدرجة من الخشوع لله رب العالمين.

وهذا هو معنىً من ضمن المعاني الصحيحة المعتبرة، في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ۝٢٣**﴾ بعض أهل العلم كابن كثيرٍ وغيره من أهل التفسير قالوا دائمون أي خاشعون، قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالدَّوَامِ هَاهُنَا السُّكُونُ وَالْخُشُوعُ، كَقَوْلِهِ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ۝٢**﴾ [المؤمنون: ١-٢] قَالَهُ عُتْبَةُ بْنُ عَامِرٍ. وَمِنْهُ الْمَاءُ الدَّائِمُ، أَيِ: السَّاكِنُ الرَّاكِدُ. وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته، لأنه لم يسكن فيها ولم يدم بل ينقرها نقر الغراب

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٣٣)، وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٢/ ١٧٩)، قال الشيخ أبو إسحاق الحويني -حفظه الله - في "سلسلة مدرسة الحياة" (الشريط الرابع/ الدقيقة ٥١:٣٨-٥٣:٠٠): [... بالسند الصحيح المتصل إلى عروة بن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -... وهذا خبرٌ صحيح متصل، لولا صحة الإسناد ما صَدَّقْتُه].

فلا يفلح في صلاته."[١]، لأن الدوام يطلق على السكون، لنهي النبي ﷺ عن أن يبول المرء في الماء الدائم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ»[٢]، وَقَالَ عُقْبَةُ ابن عَامِرٍ رضي الله عنه: "هُمُ الَّذِينَ إِذَا صَلَّوْا لَمْ يَلْتَفِتُوا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا. وَالدَّائِمُ السَّاكِنُ، وَمِنْهُ: نُهِيَ عَنِ الْبَوْلِ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ، أَيِ السَّاكِنِ."[٣]، فكذلك هؤلاء الكرام ساكنون في صلاتهم، إذا قاموا إلى الصلاة خشعوا فيها، قالوا وهذا يُستدل به على وجوب الطمأنينة في الصلاة.

وقفةٌ: أين نحن من هذا؟، الإنسان منا لو تحركت حوله ذبابةٌ في الصلاة فلابد أن يحرك يده لها مرةً أو مرتين أو ثلاثةً، كأنه ليس في الصلاة، وإن كان هذا لا يُبطل الصلاة لكن ربنا عظيم، فينبغي أن نعظمه في الصلاة بالخشوع له سبحانه، وعدم الالتفات عنه، حتى نستفيد من هذه الصلاة -نسأل الله الإعانة، ونسأل الله أن يشرح صدورنا-

﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ هؤلاء هم المُستَثنَون؛ فليس عندهم هلعٌ،

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٢٦)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٣٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٢٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٣٩)، ومسلم في "صحيحه " (٢٨٢).

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٣٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٢٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٦٨)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٢٢).

إذاً هذا وصفٌ عامٌ لبني آدم، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴿١٩﴾﴾ فعنده هلعٌ، وعنده ضجرٌ شديدٌ، وحرصٌ عظيمٌ، وبخلٌ شديدٌ، وعنده خوفٌ مما يكون في غدٍ، لكن ربنا تعالى استثنى هذه الطائفة الكريمة، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴿٢٣﴾﴾ وقوله (دَآئِمُونَ) فيه عدة معانٍ كلها ممكنة بلا تعارضٍ بينها، ومنها:

المعنى الأول: أي أنهم يحافظون عليها في أوقاتها، ويحافظون على شروطها، وواجباتها، ومستحباتها، وسننها(١)

المعنى الثاني: أيضـًا دائمون كما ذكرت أي ساكنون في الصلاة، خاشعون فيها، ولذلك عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ «يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ»(٢)، كيف يعيش الإنسان مع القرآن الكريم في صلاته؟، ويسمع لصدره أزيزٌ مثل غليان القدر الذي فيه ماءٌ على النار، عليه الصلاة وأتم السلام،

ولذلك كان سلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم، كان الواحد منهم إذا فرغ من الصلاة يقوم ليصلي النافلة وكأنه خشبةٌ قائمةٌ، وكأنه ساريةٌ من سواري المسجد، قَالَ ثَابِتٌ البُنَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "كُنْتُ أَمُرُّ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ خَلْفَ المَقَامِ يُصَلِّي، كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٢٢٦): "قاله ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسروق، وإبراهيم النخعي."

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٩٠٤)، وابن حبان في " صحيحه " (٢١٦)، والحاكم في " المستدرك " (٩٧١)، والحديث صححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (١٠٠٠).

مَنْصُوْبَةٌ لاَ تَتَحَرَّكُ."[١]، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وهذا معنىً صحيحٌ، فدائمون بمعنى ساكنون، أي خاشعون في صلاتهم.

المعنى الثالث: ﴿**ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴿٢٣﴾**﴾ أي يداومون على ما اعتادوا من الخير فيها، مثل قول عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟» فَقُلْتُ: امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ تُصَلِّي، قَالَ: «عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»[٢]، وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ، وَكَانَ إِذَا نَامَ مِنَ اللَّيْلِ، أَوْ مَرِضَ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً»[٣]"، يعني داوم عليه[٤]،

فقول الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴿٢٣﴾**﴾ أي أنهم يصلون الفرائض، ويحافظون عليها، وكذلك يداومون على أعمال الخير والبر، ويواظبون - أيضـًا - على صلاة النوافل التي يصلونها سواءً كانت قبل الصلاة أو بعد الصلاة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول: إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من

---

(١) ينظر "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٣/ ٣٦٩).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه (٦٤٦٢) ومسلم في "صحيحه" (٧٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٤٦)، وأحمد في " مسنده " (٢٤٧٧٧)، وابن خزيمة في " صحيحه " (١١٧٨).

(٤) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٢٦)، و"تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٢٦٩).

الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئًا، فإن أولئك غير داخلين في عداد من خُلِق هلوعًا، وهو مع ذلك بربه كافرٌ لا يصلي لله."[١]

وقفةٌ: مع قوله تعالى:﴿**إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ**﴾: في خضم هذه الحياة التي نحياها، وخضم هذه الفتن العظيمة، التي تزرع -والعياذ بالله -الهلع زرعًا في قلوبنا، إلا من رحم الله، وجب علينا والله أن نفزع إلى الله بالصلاة؛ فنناجيه ونثق فيه، ونستغيثه، ونستبصره، ونسترزقه، ونسأله أن يكشف السوء والشر، ونثق في وعده عزَّ وجلَّ، ﴿**وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾ [هود: ١١٤] ووعده تعالى ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ**﴾ [طه: ١٣٢] فإقامة الصلاة سببٌ عظيمٌ في فتح الأرزاق من عند الله تبارك وتعالى.

﴿**وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ**﴾ حقٌ معلومٌ أي الزكاة المفروضة ﴿**وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ**﴾ أي أن هؤلاء الكرام يخرجون حق الله تبارك وتعالى في أموالهم بالزكاة، وفي أموالهم كما قال تعالى: (﴿**وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ**﴾ [الذاريات: ١٩]

﴿**وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ**﴾ للسائل الذي يأتي ويسأل وهو مستحقٌ فتعطيه[٢]، ولا ترد سائلاً أبداً ما استطعت، والمحروم كما قال

---

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٦٧).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٦٩)، و"التفسير الكبير" للرازي (٢٨/ ١٧٧)،

النبي ﷺ والحديث في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ» قَالُوا، فَمَا الْمِسْكِينُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا»(١) هذا مسكينٌ، وهو إنسانٌ عفيفٌ فقيرٌ محتاجٌ، ولكنه رغم ذلك يتعفف أن يسأل الناس، فهذا المسكين هو المحروم.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ رحمه الله: "حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا قَالَ: "كُنَّا مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَجَاءَ كَلْبٌ فَانْتَزَعَ عُمَرُ كَتِفَ شَاةٍ فَرَمَى بِهَا إِلَيْهِ، وَقَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّهُ الْمَحْرُومُ."(٢) يعني هذا إن لم تعطيه فيكون محروماً من الطعام، فالمحروم هو الذي لا مال عنده، ولا سهم له من الفيء أو الغنيمة أو غير ذلك، عَنْ قَيْسِ بْنِ كُرْكُمٍ قَالَ:" سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ قَوْلِهِ: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ قَالَ: "السَّائِلُ: الَّذِي يَسْأَلُ، وَالْمَحْرُومُ: الْمُحَارَفُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ"(٣) وهو كذلك من ليس له وظيفةٌ، أو تجارةٌ تدر عليه رزقاً أو ربحاً أو دخلاً.

=و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ٤٨٢).

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤٧٦)، ومسلم في "صحيحه" (١٠٣٩).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٧/ ٤١٩).

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢١/ ٥١٣)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٣/ ٢٣٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٠/ ٤٣٩).

ويطلق المحروم أيضاً على الذي أصابت مالَه جائحةٌ(١)، فأفنت ماله، بقدر الله عزَّ وجلَّ، كأن يكون إنسانٌ عنده شركةٌ أو مؤسسةٌ أو مصنعٌ مثلاً، -وقدَّر الله- وشبَّ حريقٌ؛ فأحرق هذا المصنع -عافانا الله والمسلمين أجمعين يا رب العالمين-، فهذا محرومٌ يستحق الصدقة حتى يقيم سداداً من عيشٍ، فيقيم حياته، سبحان الله الكريم، هذا هدي الله وهدي رسوله ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " والصّواب من القول في ذلك عندي أنّه الّذي قد حرم الرّزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممّن حرمه اللّه ذلك، وقد يكون بسبب تعفّفه وتركه المسألة، ويكون بأنّه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا قول في ذلك أولى بالصّواب من أن تعمّ، كما قال جلّ ثناؤه" (٢)

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ وبعض أهل العلم قالوا: حقٌ معلومٌ غير الزكاة(٣)، يعني أنهم يخرجون الزكاة الواجبة؛ وهذا أمرٌ واجبٌ مفروغٌ منه، ورغم ذلك عندهم مالٌ سنويٌ أو مالٌ شهريٌ أو مالٌ أسبوعيٌ، -مثلاً على

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " جامع البيان " (٢١/ ٥١٧) (وقائل: هو الذي قد ذهب ثمره وزرعه) وأخرجه عن ابن زيدٍ وزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٧/ ٣٧٥)، و " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ٤٨٣).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢١/ ٥١٨).

(٣) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ٢٧٠) وقال آخرون: بل ذلك حق سوى الزكاة وأخرجه عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والشعبي، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٢)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٢٨).

حسب ما يسر الله له-، مالٌ معلومٌ يخرجه للفقراء، ويخرجه للمساكين، ويخرجه للأيتام، ولذوي القربى، ألزم نفسه به فصار حقًا معلومًا عنده.

وذلك كما في الحديث الثابت الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ(١)، فَإِذَا شَرْجَةٌ(٢) مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ - لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ - فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ "(٣)، فهذا الرجل يقسم الناتج ثلاثة أثلاثٍ، ويوزعه بهذه الصورة المباركة؛ فلذلك أكرمه الله تعالى بهذه الكرامة، التي هي آيةٌ ظاهرةٌ باهرةٌ أمام الناس.

---

(١) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ في " النهاية في غريب الحديث والأثر" (١/ ٣٦٥) وهي الأرض ذات الحجارة السود.

(٢) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ في " النهاية في غريب الحديث والأثر" (٢/ ٤٥٦) الشَّرْجَةُ: مَسِيل الْمَاءِ مِنَ الحَرَّة إِلَى السَّهل.

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٩٨٤)، وأحمد في "مسنده" (٧٩٤١)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٣٥٥).

وقفةٌ: إذا منَّ الله تعالى على العبد وأكرمه، وكان ذا سعةٍ، فإذا أخرج زكاة ماله، فلا أقل بعد ذلك من أن يتعاهد ذوي قرابته، ويتعاهد بعض المساكين، ويتعاهد بعض الفقراء والأصدقاء والأصحاب، حقٌ معلومٌ لهم ، على حسب ما يسر الله له كلَّ شهرٍ - مثلاً- ، أو كلَّ سنةٍ، على حسب إكرام الله تعالى له، فهذا سببٌ عظيمٌ في نماء ماله، وسببٌ عظيمٌ في حفظه وبركته، وفي دفع السوء والشر عنه، وأن يكون من هؤلاء الكرام، الذين لهم نصيبٌ في دعاء الصالحين، وهم نائمُون على فرشهم، فكم من إنسانٍ معه أسلحةٌ تدافع عنه وهو في غفلةٍ، ببركة إحسانه، يحسن ويقوم بشيءٍ من حقٍ معلومٍ لمن يستحق، وإذا بهؤلاء المساكين ما شاء الله في جوف الليل يدعون له، وفي سجودهم يدعون له، حتى بعد انتهاء العمر؛ فتوفاه الله عزَّ وجلَّ، يذكرونه بكل خيرٍ ويدعون له.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾ يوم الدين هو يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، يصدقون بهذا اليوم، لا يكذبون به؛ فليسوا كالكفرة؛ الذين يكذبون بيوم القيامة، بل هم يؤمنون به أعظم الإيمان، ويوقنون به أعظم اليقين، يعلمون أنه آتٍ لا ريب فيه، وأن الله يبعث من في القبور، وأن هناك حسابٌ وجزاءٌ، وأن هناك جنةٌ ونارٌ، وأن هناك نعيمٌ وعذابٌ، وأن هناك إكرامٌ لأولياء الله، وإهانةٌ لأعداء الله،

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾ وتصديقهم بيوم الدين يشمل كل ما يكون من بعد الموت، والتصديق بيوم الدين أيضـاً يدخل فيه أشراط الساعة، وأن يوقن العبد بها.

أثر الإيمان بيوم الدين على العبد:

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وسماه ربنا يوم الدين؛ لأن العباد يدانون فيه بأعمالهم، فلانٌ مدانٌ بعمله، وكل واحد منا مدانٌ بعمله، فسمي يوم الدين لأن الناس يدانون بأعمالهم، إن خيراً فالحمد لله، وإن شراً فلا يلومن إلا نفسه.

قال ابن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في قول الله: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴿٨٦﴾﴾ [الواقعة: ٨٦] قال: «كانوا يجحدون أن يدانوا بعد الموت» قال: " وهو مالك يوم الدين، يوم يدان الناس بأعمالهم قال: يدانون: يحاسبون."(١)

فإذا أيقن المرء بيوم الدين أصلح سره، وأصلح علانيته، وأصلح أقواله، وأصلح أعماله، واجتهد في طاعة الله، وجاهد نفسه في ترك الحرام.

وإذا أيقن المرء منا بيوم الدين، وعلم أن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، فلا يمكن أن يظلم، ولا يخون، ولا يكذب، ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يظلم عبداً من عباد الله، ولا يسفك دمًا حرامًا، ولا يشارك في ذلك، وإن غلبته نفسه، وأغواه الشيطان، وزلت قدمه، سرعان ما يرجع إلى ربه سريعًا، ويفيء.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴿٢٧﴾﴾ وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧] لو ترى هذا المنظر الفظيع، لو ترى هؤلاء الكفرة المجرمين، إذ وقفوا على النار وهم يعذبون فيها، وقد غمرتهم واصطلوا بنارها من جميع الجوانب، لرأيت منظراً تنخلع منه القلوب، منظراً يشيب

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٣٧٤).

لهوله الولدان، ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ**﴾ عندها يقولون: ﴿**يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ لأنهم لم يكونوا من عذاب ربهم مشفقين، وكذلك لم يصدقوا بيوم الدين، وأيضـًا قال ربنا تعالى بعدها بآيةٍ: ﴿**وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ**﴾ [الأنعام: ٢٨] والسبب الذي جعلهم لا يصدقون بيوم القيامة، ولا يشفقون من عذاب الله، ﴿**وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ٢٩**﴾ [الأنعام: ٢٩] -والعياذ بالله-، قال ربنا الجليل: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ عندما يوقفوا أمام الله، ﴿**قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ٣٠**﴾ [الأنعام: ٣٠] -نسأل الله النجاة ونعوذ بالله من الخذلان-.

وقفةٌ: فيا أيها السعيد، كن مؤمنـًا بيوم الدين، ولا يصح إيمان عبدٍ حتى يؤمن بيوم القيامة، وكن مشفقـًا من عذاب ربك، الذي قال الله عنه: (﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ٢٦**﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦] فالعبد يسمع عن ظَلَمَةِ الدنيا أنهم يُعذَّبون عذابـًا أليمـًا، وعذاب الله ليس كعذاب أحدٍ من الخلق، (**لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ**)، وفي قراءةٍ (**لَّا يُعَذَّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ**)(١)، يعني الكافر لا يعذب عذابه أحدٌ

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان "(٢٤/ ٣٩١): "أجمعت القراء قراء الأمصار في قراءة ذلك على كسر الذال من يعذب، والثاء من يوثق، خلا الكسائي، فإنه قرأ ذلك بفتح الذال والثاء، اعتلالا منه بخبر روي عن رسول الله ﷺ أنه قرأه كذلك، واهي الإسناد. ثم قال والصواب من القول في ذلك عندنا: ما عليه قراء الأمصار، وذلك كسر الذال والثاء، لإجماع الحجة من القراء عليه. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: فيومئذ لا يعذب بعذاب الله أحد في الدنيا، ولا يوثق

من الخلق، فإذا ما سمع العبد ذلك اطمئن قلبه، لأن الله لا يضيع مظلمته.

فيا أيها العبد السعيد، إيمانك بيوم القيامة، يدفعك أن تكون مشفقـًا من عذاب الله خائفـًا وَجِلاً، فبعض سلفنا الصالح توفوا عند سماعهم آيةً، هذه الآية التي ذكرتها ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧] لأنه عنده خوفٌ عظيمٌ ووجلٌ، وهو علي بن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ، سمع أباه الفضيل بن عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصلي، ويقرأ هذه الآية، قالوا: والله شهق شهقة ومات، مات خوفـًا من الله وإجلالاً له[1].

أما أهل زماننا- إلا من رحم الله- فيستهينون بالحرام، وكأن عذاب الله ليس على بالهم، وكأنهم غير مصدقين بيوم القيامة- نسأل الله العفو والعافية والسلامة-

لذلك يقول الله تعالى في وصف هؤلاء الكرام، الذين ليسوا بهلعين، وليس عندهم جزعٌ، ولا هلعٌ، ولا منعٌ لحق الله، ولا لآلائه، بل شاكرين صابرين، يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾ يعني لا

=كوثاقه يومئذ أحد في الدنيا وكذلك تأوله قارئو ذلك كذلك من أهل التأويل،" وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٨١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٤٢٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٢/ ٢٨٣).

(١) قال إبراهيم بن بشارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الآية التي مات فيها علي بن الفضيل في الأنعام: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾، مع هذا الموضع مات، وكنت فيمن صلى عليه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ." وينظر "سير أعلام النبلاء " للذهبي (٨/ ٤٤٦).

يأمن عذاب الله مؤمنٌ، فلا يأمنه إلا الكافر المكذب به، وإذا به عندما يعاين عذاب الله يندم أشد الندم- نسأل الله العافية والسلامة-، ويخسر أعظم الخسران.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ۝٣٠﴾ هذه الآية تدل على حرمة الزنا، وتدل على حرمة اللواط، وتدل على حرمة أن يأتي الرجل أهله في دبرها، وكذلك تدل على حرمة نكاح المتعة، وكذلك تدل على حرمة أن يجامع الرجل زوجته حال حيضها، فهذه محرماتٌ حرمها الله تعالى على العبد، ويحرم على الإنسان أن يستعمل فرجه في غير ما أمره الله تعالى فيه، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾[١]

تنبيهٌ: قبل أن نبدأ الكلام في هذه الآية؛ ينبغي أن نعلم أن أهل العلم أجمعوا أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ هم الرجال، وليس معنى ذلك أن النساء لا يحفظن فروجهن، بل هناك أدلةٌ أخرى غير هذه، ولقد نص غير واحدٍ من أهل العلم على الإجماع على أن المقصود بهذه الآية الرجال، ولو أن المرأة ملكت عبداً، يحرم عليها أن يطأها هذا العبد،

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قلت: وعلى هذا التّأويل في الآية فلا يحلّ لامرأةٍ أن يطأها من تملكه إجماعًا من العلماء، لأنّها غير داخلةٍ في الآية، ولكنّها لو أعتقته بعد ملكها له جاز له أن يتزوّجها كما يجوز لغيره عند الجمهور "[٢]،

---

(١) أورده السعدي في "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " (ص ٨٨٧)

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٥/ ١١).

فالرجل إذا ملك جاريةً يجوز له أن يطأها، أما المرأة إذا ملكت عبداً، يحرم عليها أن يطأها هذا العبد[(١)]

ولذلك روى معمرٌ عَنْ قَتَادَةَ: أَنَّ امْرَأَةً اتَّخَذَتْ مَمْلُوكَهَا وَقَالَتْ: تَأَوَّلْتُ كِتَابَ اللهِ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] قَالَ: " فَأُتِيَ بِهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: تَأَوَّلَتْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا. قَالَ: فَقَرَّبَ الْعَبْدَ وَجَزَّ رَأْسَهُ وَقَالَ: «أَنْتِ بَعْدَهُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» [(٢)]،

وأيضـًا عن أبي بكر بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ أنه سمع أباه يقول: حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته امرأة من العرب بغلام لها رومي فقال: إني استسريته فمنعني بنو عمي وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطأُها فأبى على بنو عمي فقال لها عمر: أتزوجت قبله قالت: نعم، قال: أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة."[(٣)]

الشاهد أن أهل العلم ذكروا أن هذه اللفظة كما قال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللهُ : " من غريب القرآن أنّ هؤلاء الآيات العشر هي عامّةٌ في الرّجال والنّساء، كسائر ألفاظ

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٥/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٨/ ١٤٤)، وقال عنه ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٥/ ٤٦٣) "هَذَا أَثَرٌ غَرِيبٌ مُنْقَطِعٌ".

(٣) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في " الدر المنثور " (١٠/ ٥٥١) وأخرجه عبد الرزاق. وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٥/ ١٤).

القرآن الّتي هي محتملةٌ لهم، فإنّها عامّةٌ فيهم، إلّا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ۝٥﴾ [المؤمنون: ٥] فإنّه خطابٌ للرّجال خاصّةً دون النّساء، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ ، ولا إباحة بين النّساء وبين ملك اليمين في الفرج؛ وإنّما عرف حفظ المرأة فرجها من أدلّةٍ أخر، كآيات الإحصان عمومًا وخصوصًا، وغير ذلك من الأدلّة."[1]

مسألة الزنا وشدة حرمته:

إن عدم امتثال كثيرٍ من الشباب كلام الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك هذه الآية العظيمة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ۝٣٠﴾ هو السبب في انتشار الزنا -نسأل الله العافية والسلامة-، وربنا تعالى عقب على جرم الزاني بعاقبةٍ وخيمةٍ، وعذابٍ أليمٍ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠] ومولانا جلَّ جلاله يقول: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢] فالزنا حرامٌ حرمه الله، وحرمه رسوله ﷺ، ولذلك في الصحيحين عن عبد الله - يعني ابن مسعودٍ- رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى

(١) ينظر " أحكام القرآن " لابن العربي (٣/ ٣١٤).

ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ "[١]، وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ في حديثه الطويل قال لما جاءه جبريل، وميكائيل وقالوا له انطلق، وهو حديث سَمُرَةَ بْنُ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ،.... وفيه: قَالَ: «فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا» قَالَ: " قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاَءِ؟ " قَالَ: " قَالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ " ....ثم قال : وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي) "[٢]، فهؤلاء هم الزناة والزواني، وعقوبتهم أن يأتيهم اللهب من أسفل منهم؛ لأن هذه الأعضاء هي التي استمتعوا بها بما حرم الله؛ فلذلك عاقبهم الله عزَّ وجلَّ بهذه العقوبة العظيمة، وفي الصحيح عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٨٧٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٠٤٧)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٧٨٠٩)، وأحمد في " مسنده " (٢٠٠٩٤).

فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ"[١] فبايع الصحابة الرسول ﷺ على عدم الزنا، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: لَا أَعْلَمُ بَعْدَ الْقَتْلِ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنَ الزِّنَا،"[٢]،

وقال المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ:" وَقد صَحَّ أَن مدمن الْخمر إِذا مَاتَ لَقِي الله كعابد وثن وَلَا شكّ أَن الزِّنَا أَشد وَأعظم عِنْد الله من شرب الْخمر وَالله أعلم"[٣] يعني مدمن خمر إذا أحلها استحلها يعني كعابد وثنٍ في الحرمة، ولا شك أن الزنا أشد من شرب الخمر، وأعظم من شرب الخمر، نسأل الله العفو والعافية.

مولانا عزَّ وجلَّ قال لنا: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ**﴾ [النور: ٣٠] سلامةً وعافيةً، فتسعة أعشار العافية في السلامة، وتسعة أعشار النجاة في أن يسلك العبد سبيل السلامة.

وقفةٌ: هذا الاختلاط المشين الذي يحدث بين المسلمين والمسلمات؛ وخاصةً بين الشباب والشابات، وما أقبحه في الجامعات في بلاد المسلمين، وغير المسلمين طبعـًا، فلا شك أن هذا مفسدةٌ عظيمةٌ، ويجر لفتنٍ الله بها عليم، ولذلك قال النبي ﷺ:

---

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٨)، واللفظ له ومسلم في "صحيحه " (١٧٠٩).

(٢) ذكره ابن القيم في " الداء والدواء " (ص ١١١).

(٣) ينظر " الترغيب والترهيب " للمنذري (٣/ ١٩٠). والحديث أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٥٦)، وفي اعتلال القلوب (١٦٤)، عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُقِيمُ عَلَى الزِّنَا كَعَابِدِ وَثَنٍ» وقال الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" (١٤٤١) ضعيف جدا.

"أَلاَ لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ "(١)

وما تقربت المرأة لربها بمثل قرارها في بيتها، فلا تخرج إلا للضرورة، قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]

فلذلك في هذه الآية العظيمة ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴿٣١﴾﴾ دلالةٌ على حرمة الزنا، لأن الزاني معتدٍ، اعتدى ولم يمتثل أمر الله ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ووقع فيما حرم الله عليه، وسماها الله تعالى فاحشةً، وصار عرف الفقهاء إذا أطلقوا لفظ الفاحشة فإنها تطلق على الزنا لاستقباحها، وعظم جرمها، وعظم آثارها على الفرد والمجتمع.

مسألة نكاح المتعة:

هذه الآية استدل بها السادة العلماء على تحريم نكاح المتعة، وهذا من ضمن الأدلة الكثيرة على تحريم نكاح المتعة، فقد أجمعت الأمة على تحريم نكاح المتعة.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده " (١١٤)، والنسائي في " المجتبى " (٩١٧٧)، وابن حبان في "صحيحه " (٦٧٢٨)، والحديث صححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤٣٠ و١١١٦) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَطَبَ بِالْجَابِيَةِ ، فَقَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَامِي فِيكُمْ، فَقَالَ: " اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْتَدِئُ بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا، وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ".

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وهذا يقتضي تحريم الزنى، وما قلناه من الاستنماء، ونكاح المتعة، لأنّ المتمتّع بها لا تجري مجرى الزّوجات، لا ترث ولا تورث، ولا يلحق به ولدها، ولا يخرج من نكاحها بطلاقٍ يستأنف لها، وإنّما يخرج بانقضاء المدّة الّتي عقدت عليها وصارت كالمستأجرة. ابن العربيّ: إن قلنا إنّ نكاح المتعة جائزٌ فهي زوجةٌ إلى أجلٍ ينطلق عليها اسم الزّوجيّة. وإن قلنا بالحقّ الّذي أجمعت عليه الأمّة من تحريم نكاح المتعة لما كانت زوجةً فلم تدخل في الآية." (١)

ولكن لا زالت طائفةُ الروافض الشيعة يقولون بحل نكاح المتعة، وهؤلاء يخالفون الإجماع، ويخرقون دينهم الذي يعتقدونه، فممن روى أحاديث تحريم نكاح المتعة إمامهم الأكبر، الإمام عليٌ بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فعليٌ عندهم هو إمام الأئمة، وهو خير من يقتدون به، ومن ضمن أحاديث تحريم نكاح المتعة في صحيح الإمام مسلم، رواها عليٌ بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،

فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ»(٢)،

ففي هذه الآية الكريمة ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ**﴾ دليلٌ على أن نكاح المتعة محرمٌ، لأن المرأة في نكاح المتعة ليست بزوجةٍ، ولا ملك يمينٍ، وليس لها عدةٌ، وليس لها ميراثٌ، وإنما صورته أن

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٥/ ١٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٢١٦)، ومسلم في " صحيحه " (١٤٠٧).

يذهب من أراد المتعة لإنسانةٍ يتفق معها على أن يمكث معها مدة شهرٍ، أو أقل، أو أكثر، بمالٍ يعطيها إياه، وكما ذكرت أجمع المسلمون على تحريم نكاح المتعة،

أدلة التحريم ورد أدلة المجيزين:

ومن أدلتهم الفاسدة على جواز نكاح المتعة يقولون قال الله ﴿**فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ [النساء: ٢٤] فيقولون قد أحل الله عزَّ وجلَّ المتعة في القرآن فقوله تعالى: ﴿**فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ**﴾ أي من النساء، ﴿**فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾

نقول لهم: هذا كلامٌ فاسدٌ، ورأيٌ مخالفٌ، فإن الله ذكر النساء اللاتي أحلهن للإنسان ثم قال جلَّ جلاله: ﴿**فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ**﴾ يعني تزوجتم به منهن ﴿**فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ وسمى الله تعالى الصداق أجراً،

وأيضا من الأدلة على تحريم نكاح المتعة، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن الرَّبِيعِ بْنُ سَبْرَةَ الْجُهَنِيُّ، أَنَّ أَبَاهُ، حَدَّثَهُ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا»(١)، وفي الصحيحين عَنْ عَلِيٍّ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يُلَيِّنُ فِي مُتْعَةِ النِّسَاءِ، فَقَالَ: «مَهْلًا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْهَا يَوْمَ خَيْبَرَ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ»(٢)،

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٤٠٦)، وابن ماجه في " سننه " (١٩٦٢)، وأحمد في " مسنده " (١٥٣٤٥).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٥١١٦)، ومسلم في "صحيحه " (١٤٠٧).

وعلي رضي الله عنه قال ذلك لابن عباسٍ رضي الله عنهما، لأن ابن عباسٍ رضي الله عنهما كان ممن يقول بجواز المتعة، ورجع عن ذلك لما أخبره الصحابة أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عنه، لأن نكاح المتعة كان حلالاً في أول الإسلام، والإمام النووي ذكر أنها أحلت قبل خيبر، وحرمت يوم خيبر، ثم أحلها الرسول صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، وحرمت في أوطاس، وأوطاس كانت مباشرةً بعد فتح مكة، ثم حرمت المتعة بعد ذلك للأبد.

قال النووي رحمه الله:" والصّواب المختار أنّ التّحريم والإباحة كانا مرّتين وكانت حلالًا قبل خيبر ثمّ حرّمت يوم خيبر ثمّ أبيحت يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ثمّ حرّمت يومئذٍ بعد ثلاثة أيّامٍ تحريمًا مؤبّدًا إلى يوم القيامة واستمرّ التّحريم ولا يجوز أن يقال إنّ الإباحة مختصّة بما قبل خيبر والتّحريم يوم خيبر للتّأبيد وأنّ الّذي كان يوم الفتح مجرّد توكيد التّحريم من غير تقدّم إباحةٍ يوم الفتح كما اختاره المازري والقاضي لأنّ الرّوايات الّتي ذكرها مسلمٌ في الإباحة يوم الفتح صريحةٌ في ذلك فلا يجوز إسقاطها ولا مانع يمنع تكرير الإباحة واللّه أعلم قال القاضي واتّفق العلماء على أنّ هذه المتعة كانت نكاحًا إلى أجلٍ لا ميراث فيها وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاقٍ ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلّا الرّوافض وكان ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما يقول بإباحتها وروي عنه أنّه رجع عنه قال وأجمعوا على أنّه متى وقع نكاح المتعة الآن حكم ببطلانه سواءٌ كان قبل الدّخول أو بعده"(١)،

---

(١) ينظر " شرح مسلم " للنووي (٩/ ١٨١).

وعن سبرة الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُتْعَةِ عَامَ الْفَتْحِ، حِينَ دَخَلْنَا مَكَّةَ، ثُمَّ لَمْ نَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى نَهَانَا عَنْهَا "(١)، أحلت في مكة ثلاثة أيامٍ، ثم بعد ذلك جاء التحريم إلى الأبد، والحديث رواه مسلم في صحيحه،

وكذلك النظر الصحيح يدل على تحريم نكاح المتعة، فنكاح المتعة هذا يفسد الأنساب، فلو أن إنسانـاً ذهب إلى زواج امرأةٍ بنكاح المتعة وكان مسافراً، وهذه المرأة حملت وولدت، وهو ليس له صلةٌ بهؤلاء الأولاد تمامـاً، ولا ينسبون إليه أبداً، ثم جاء هو نفسه إلى هذا المكان بعد خمسة عشر عامـاً، وذهب ينكح نكاح متعةٍ، فمن الممكن أن ينكح ابنته- عياذاً بالله- أو بعض أبنائه يذهب فينكح من نكح أبوه، وهذه مفاسدٌ عظيمةٌ، لأن هذه المرأة لا تنسب له كزوجةٍ، ولذلك ما أعظم شرع الله تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٣٠**﴾

مسألة إتيان المرأة في دبرها:

هذه الآية العظيمة تدل أيضـاً على تحريم أن يأتي الرجل أهله في دبرها(٢)، وهذا حرامٌ لا يجوز، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوِ

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه " (١٤٠٦)، والنسائي في " السنن الكبرى" (٥٥١٨)، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، به.

(٢) كما تقدم ذكره من كلام الشيخ السعدي.

امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»[١] ، والحديث رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وأصحاب السنن، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ،

وأيضا روى النسائي أن النبي ﷺ قال "إنّ الله لاَ يَسْتِحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَلاَ تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ" والحديث حسنه عدد من أهل العلم رحمة الله عليهم[٢]،

وروى الإمام أبو داود أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا»[٣]،

تنبيهٌ: بعض الناس يظن أن هذا الفعل حلالٌ، وهو حرامٌ، زوجتك أحلها الله لك لكن كما قال الله تعالى: ﴿**فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٣] ، وكما نص النبي ﷺ فيما رُوي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: " أتى ناسٌ من حمير إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن أشياء فقال له رجل : إني أحب النساء وأحب أن آتي امرأتي مجباة فكيف

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٣٩٠٤)، والترمذي في "سننه" (١٣٥)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٨٩٦٨)، وابن ماجه في " سننه " (٦٣٩)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٢٠٠٦).

(٢) **(صحيح)** أخرجه النسائي في "السنن الكبرى" (٩١٣٩)، وابن ماجه في "سننه" (١٩٢٤)، وأحمد في "مسنده " (٢١٨٥٤)، وابن حبان في "صحيحه " (٤١٩٨)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٢٠٠٥).

(٣) **(حسن)** أخرجه أبو داود في "سننه " (٢١٦٢)، والنسائي في " السنن الكبرى" (٨٩٦٦)، وأحمد في "مسنده " (٩٧٣٣)، والحديث حسنه الألباني في " صحيح سنن أبي داود " (٢١٦٢).

ترى في ذلك، فأنزل الله في سورة البقرة بيان ما سألوا عنه، وأنزل فيما سأل عنه الرجل ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] الآية ، فقال رسول الله ﷺ : ائتها مقبلةً ومدبرةً إذا كان ذلك في الفرج"[١] يعني في موضع الولد،

وعَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ، سَمِعَ جَابِرًا، يَقُولُ: " كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا، كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]"[٢]، فمن أراد أن يأتي أهله مقبلةً أو مدبرةً لكن في موضع الفرج، أما موضع الغائط فليس محلاً لجماع الرجل لأهله، ولذلك متى وطئ الرجل زوجته في دبرها يُعَزَّر، ولو تراضيا على ذلك يحرم عليهما، ولو رُفع أمرهما للحاكم يفرق بينهما من أجل هذا، فللحاكم أن يفرق بينهما من أجل هذه البلية، ولذلك هذه المحرمات ينبغي علينا أن يذكر بعضنا بعضاً بها، ولا نستهين بها.

مسألة الاستمناء:

هناك محرمٌ عظيمٌ- أيضاً- منتشرٌ بين المسلمين- -نسأل الله العصمة يا رب والسلامة والستر-، وينص أهل العلم على أن هذه الآية تدل على تحريمه[٣]، ألا وهو

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في " الدر المنثور " (٢/ ٥٩٤) وأخرج ابن جرير، وَابن أبي حاتم والطبراني والخرائطي.

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٥٢٨)، ومسلم في "صحيحه " (١٤٣٥).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٥/ ١٢)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٦/ ٣٦٧)، و"أحكام القرآن" للبيهقي (١/ ١٩٥).

الاستمناء، يسميه الشباب العادة السرية، وهي العادة السيئة.

وهذه العادة السرية محرمةٌ بنص هذه الآية الكريمة، سُئل العلامة ابن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاستماء باليد، فقال " الاستمناء باليد محرمٌ، في أصح أقوال أهل العلم، وهو قول جمهور العلماء، لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾ فأثنى الله تعالى على من حفظ فرجه؛ فلم يقض وطره إلا مع زوجته أو أمته".(١)

وَسُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عن " الاستمناء " هل هو حرامٌ؟ أم لا؟ فأجاب: أمّا الاستمناء باليد فهو حرامٌ عند جمهور العلماء وهو أصحّ القولين في مذهب أحمد وكذلك يعزّر من فعله. وفي القول الآخر هو مكروهٌ غير محرّمٍ وأكثرهم لا يبيحونه لخوف العنت ولا غيره ونقل عن طائفةٍ من الصّحابة والتّابعين أنّهم رخّصوا فيه للضّرورة: مثل أن يخشى الزّنا فلا يعصم منه إلّا به ومثل أن يخاف إن لم يفعله أن يمرض وهذا قول أحمد وغيره. وأمّا بدون الضّرورة فما علمت أحدًا رخّص فيه. واللّه أعلم. "(٢)

لأنه وللأسف الشديد يشهر قولٌ عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالجواز، وهذا نعم ثابتٌ عنه، لكن الأصح في مذهبه الحرمة، يعني أن هذا يجوز عند الضرورة، وأنه شبهه بأنه فضلةٌ من البدن، ويجوز إخراج هذه الفضلة، إذا كانت لحاجةٍ،

---

(١) ينظر " فتاوى نور على الدرب " لابن باز (٢٠/ ٧٣).

(٢) ذكره ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٢٤/ ٢٣٠).

ولكن كما ذكر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره من أهل العلم، أن لو قام الدليل على جواز هذه العادة، لكان ذو المروءة ينأى عنها، فقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال بعض العلماء: إنّه كالفاعل بنفسه، وهي معصيةٌ أحدثها الشّيطان وأجراها بين النّاس حتّى صارت قيلةً، ويا ليتها لم تقل، ولو قام الدّليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها"[(١)]، ولما لها من أضرار عظيمة على البدن.

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان " اعلم أنّه لا شكّ في أنّ آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ هذه الّتي هي ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١﴾ تدلّ بعمومها على منع الاستمناء باليد المعروف، بجلد عميرة، ويقال له الخضخضة ; لأنّ من تلذّذ بيده حتّى أنزل منيّه بذلك، قد ابتغى وراء ما أحلّه اللّه، فهو من العادين بنصّ هذه الآية الكريمة المذكورة هنا".[(٢)]

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال محمّد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز قال: سألت مالكًا عن الرّجل يجلد عميرة، فتلا هذه الآية:" والّذين هم لفروجهم حافظون"- إلى قوله-" العادون". وهذا لأنّهم يكنّون عن الذّكر بعميرة"[(٣)]،

قال الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق كلام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " الذي يظهر لي أن استدلال مالكٍ، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة، على منع

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٥/ ١٢).

(٢) ينظر " أضواء البيان " للشنقيطي (٥/ ٣١٦).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٥/ ١١).

جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلالٌ صحيحٌ بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن الكريم، ولم يرد شيءٌ يعارضه من كتابٍ ولا سنةٍ".(١)

مسألة السحاق:

وكذلك الآية أيضـًا تدل على حرمة السحاق، وهو ما يكون بين النساء، فهو محرمٌ لا شك، وما أعف العبد والمرأة عندما يكون عفيفـًا بكتاب الله، ومستمسكـًا بهدي الله عزَّ وجلَّ، وكلام رسوله ﷺ، ومعتصمـًا بالقرآن الكريم، ويسير على هدي الله في كتابه وفي كلامه ويجاهد نفسه.

من علاج هذه الشهوات المحرمة:

فلذلك ينبغي على العبد أن يحفظ نفسه، ونذكر شباب المسلمين بهذا، أن يتقوا الله تعالى، فعَنْ عَبْدِ اللهِ -يعني ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»(٢)، ما قال ومن لم يستطع فلينكح يده، أو يقوم بهذه العادة -حاشا لله- بل قال ومن لم يستطع فعليه بالصوم، والصوم هو العلاج، فمن لم يستطع الزواج فليتق الله ويصوم، ويجاهد نفسه، ويشغل نفسه بأعمالٍ صالحةٍ، ويقرأ القرآن كثيراً، ويكثر من صحبة الأخيار، ويترك مجالس الاختلاط، ويترك النظر في المجلات الخليعة، ولا يذهب إلى الأسواق التي فيها إثارةٌ للفتن، وهذا للرجال

---

(١) ينظر " أضواء البيان " للشنقيطي (٥/ ٣١٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٥٠٦٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٤٠٠).

والنساء، حتى يعصمه الله عزَّ وجل- ونسأل الله العافية والسلامة يا رب العالمين.

الزواج العرفي:

لا شك أن الزواج العرفي محرمٌ طبعـًا، لأن فاعله معتدٍ، وهذه مسألةٌ مهمةٌ.

تنبيهٌ: إذا أمسكت الزوجة فرج زوجها وأنزل، فهذا ليس بحرامٍ، بل جائزٌ أحيانـًا، لكن لا يكون على الدوام فيضر المرأة ولا تقضي شهوتها، لأنه مسئولٌ هو عنها.

قوله جلَّ جلاله: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ٣٢**﴾ أماناتهم في هذه الآية تشمل جميع الأمانات، من أمانات الدين، وأمانات الدنيا، فواجبٌ على العبد أن يرعاها، والله سائلنا عن هذه الأمانات،

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(١)،

وقد قال تعالى:﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا**﴾[النساء: ٥٨]، سواءً كانت هذه الأمانة عباداتٍ، من صلاةٍ، ووضوءٍ، وغسل جنابةٍ، أو كانت أناسٌ تركوا لإنسانٍ أمانةً وأعطوه إياها، أو كانت الأمانات أسراراً، ويدخل في ذلك أيضـًا تربية الأولاد، وغير ذلك من هذه الأمانات، فهذه الآية لفظها عامٌ ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ**

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٨٩٣)، ومسلم في "صحيحه" (١٨٢٩).

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾ يرعون الأمانات والعهود، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] فعلى العبد أن يحافظ على الأمانة، ويؤديها ما استطاع، فعمله أمانةٌ، وزوجته أمانةٌ، وأولاده أمانةٌ، وكل ما ولاه الله إياه هو أمانةٌ، وسيسأل عنها بين يدي الله، ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: " والأمانة والعهد يجمع كلّ ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا فعلا. وهذا يعمّ معاشرة النّاس والمواعيد وغير ذلك، وغاية ذلك حفظه والقيام به. والأمانة أعمّ من العهد، وكلّ عهدٍ فهو أمانةٌ فيما تقدّم فيه قولٌ أو فعلٌ أو معتقدٌ."(١)

ثم قال جلَّ جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾ والذين لا يكتمون ما استشهدوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يلزمهم أداؤها غير مغيرةٍ ولا مبدلةٍ(٢)، فهو يؤدي الشهادة ويقوم بها، ولو كانت هذه الشهادة فيها ضررٌ على أقرب الناس إليه، وقلَّ من يفعل هذا، قال الله عن الشهادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ [النساء: ١٣٥] لا تقل هذا فقيرٌ فأنا أشهد له من أجل أنه فقيرٌ، أو أشهد لهذا

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٥/ ١٥).

(٢) أورده الطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٢٧٧)

الغني لكي ينالني من غناه، بل إن كان غنيـًا أو فقيراً فالله أولى بهما، والله شرع أن تؤدي الشهادة على وجهها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ولذلك عدَّ الرسول ﷺ شهادة الزور من أكبر الكبائر، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ – وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ – أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ". (١)

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ بدأ الله تعالى صفات الأخيار بالصلاة، وختمها بالصلاة، فقال في أولها: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ ثم ختم الصفات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ فالآية الأولى ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ والآية الثانية ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ فهل هو نفس المعنى؟ بعض السادة العلماء الكبار من أئمة التفسير جعل المعنى واحداً،

قال ابن كثير رحمه الله: " ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحبّاتها، فافتتح الكلام بذكر الصّلاة واختتمه بذكرها، فدلّ على الاعتناء بها والتّنويه بشرفها، كما تقدّم في أوّل سورةٍ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١]؛ سواءٌ لهذا قال هناك: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٢٦٥٤)، ومسلم في "صحيحه " (٨٧).

﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ۝١١﴾ [المؤمنون: ١٠-١١] "[١]،

لكن القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال " فالدّوام خلاف المحافظة. فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يخلّون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشّواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراب المأثم. فالدّوام يرجع إلى نفس الصّلوات والمحافظة إلى أحوالها."[٢] وهذه كلمةٌ مهمةٌ جداً.

قال الله تعالى عن هؤلاء السعداء الكرام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ۝٣٥﴾ - اللهم اجعلنا منهم-، فهذه هي النتيجة عندما يطبق العبد هذه الآيات الكريمة، فيداوم على صلاته، ويبذل من ماله للفقراء، ويصدق بيوم الدين، ويخاف عذاب الله عزَّ وجلَّ، ويحفظ فرجه عما حرم الله تعالى عليه، ويؤدي الأمانات، ويشهد شهادة الحق، حينئذٍ يُبشر بكل خيرٍ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ۝٣٥﴾ عند رب العالمين جلَّ جلاله، مكرمون جزاءً لصبرهم على ترك ما حرم الله تعالى عليهم، كانت نفوسهم تدفعهم لما حرم الله، لكن أنقذوها ودفعوها لله، فيقول الواحد منهم إني أخاف الله فلا يقع فيه، فلذلك يكرمه الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ۝٣٥﴾ كفى فخراً، وشرفاً أن يقول الله في العبد: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، واللهِ كفى بها نعمة.

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٢٧).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٤٠).

ومن عفَّ عف أهله، فإذا اتقى العبد ربه، وعفت نفسه عن الحرام، وجاهد نفسه لله، يجد أثر هذا في أهله وولده بركةً أمام عينيه، ومن لا يبالي بحرامٍ، ولا يخاف رب العالمين، ويهاب الناس يجد هذا سريعـًا- نسأل الله العافية، ونعوذ بالله من الخذلان.

قال عز وجل:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧
أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ٣٨ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ٣٩ فَلَآ
أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ ٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾

ثم قال الله تعالى عن الكفار: ﴿**فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ٣٦**﴾ مهطعين يعني مسرعين(١)، ومهطعين يعني مديمين النظر إليك(٢)، والمعنى ما بالهم يديمون النظر إليك لا ينصرفون عنك استهزاءً بك(٣)، فقوله تعالى: ﴿**فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ٣٦**﴾ أي مسرعين في الاستماع منك، لينقلوا هذا الكلام

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (١٣/ ٤٠٤) وأخرجه عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وقتادة.

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (١٣/ ٤٠٥)، وأخرجه عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأبي الضحى، وأَبِي الْخَيْرِ بْنِ تَمِيمِ بْنِ حَذْلَمٍ، عَنْ أَبِيهِ، والضحاك، ومجاهد.

(٣) القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٤١).

استهزاءً بك.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ٣٧﴾ عزين أي جماعاتٍ متفرقةً[1]، وروى مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ؟ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ» قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حَلَقًا فَقَالَ: «مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ» قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟» فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[2]، يعني مالي أراكم متفرقين.

فالكفار كانوا جماعاتٍ عن اليمين وجماعاتٍ عن الشمال، يستهزءون به ﷺ.

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ٣٩﴾ يعني أهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، وقد قالوا لو أن الجنة حقٌ، وأتباع محمدٍ يدخلون الجنة، فنحن أولى بها منهم،

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: " قال المفسّرون: كان المشركون يجتمعون حول النّبيّ ﷺ ويستمعون كلامه فيكذّبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئًا لنعطينّ أكثر منه، فنزلت: أيطمع

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٤١): "والعزين: جماعات في تفرقة، قاله أبو عبيدة."

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤٣٠)، وأبو داود في "سننه" (٤٨٢٣)، والنسائي في "السنن الكبرى" (١١٧٣٤)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٩٥٨).

الآية"[(١)]

فالله تعالى يقول: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أيدخلون الجنة بكفرهم؟! ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كلا: زجرٌ، وإبطالٌ لكلامهم، ثم قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي إنا خلقناهم من نطفةٍ، وهم فيها سواءٌ جميعـًا.

بم يستحق الإنسان دخول الجنة؟ أيستحقها بكفره؟ لا، وإنما يستحق العباد دخول الجنة بسبب الإيمان، والأعمال الصالحة، وفضل الله ورحمته أولاً وآخراً، لا يستحقونها بفخرهم وبأحسابهم، ولا بأنسابهم، ولذلك روى الأَصْمَعِيُّ: عَنْ أَبِيْهِ، قَالَ: مرّ المهلّب على مالك بن دينارٍ متبختراً، فقال: أما علمت أنّها مشيةٌ يكرهها الله إلاّ بين الصّفّين؟! فقال المهلّب: أما تعرفني؟ قال: بلى، أوّلك نطفةٌ مذرةٌ، وآخرك جيفةٌ قذرةٌ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فانكسر، وقال: الآن عرفتني حقّ المعرفة." [(٢)]، يقول له أما تعرفني يعني أنا الأمير فلانٌ، قال: نعم أعرفك؛ أصلك نطفةٌ، وآخرك جيفةٌ، وأنت بين ذلك تحمل النجاسات في جوفك، فلماذا تفخر، ولماذا يزهو الإنسان؟

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ يقسم الجليل جلَّ جلاله وهو أصدق الصادقين، الذي قال عن نفسه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٤٣).

(٢) ينظر " سير أعلام النبلاء" للذهبي ٥/ ٣٦٣).

قِيلًا﴿١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢] قال: ﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ**﴾ وفي معنى المشارق أوجهٌ منها:

١ - **مشارق** الشمس والقمر والنجوم، ومغاربهم.

٢ - وأيضـًا: مشارق الشمس ومغاربها، فكل يومٍ لها مشارق على أناسٍ، ومشارق على أناسٍ أخر، ومغارب كذلك.

﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ**﴾ يقسم الله بنفسه العلية، والمُقسَمُ عليه ﴿**إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ**﴾ نبدِّل خيراً من هؤلاء الكفار الذين يخالفونك ويعصونك، ونأتي بأناسٍ هم أطوع لك منهم، فينقادون لك، ويعظمونك، ويجلونك، ويمتثلوا أمرك، ويتركوا نهيك [١] ﴿**وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴿٤١﴾**﴾ لا يستطيعون أن يفوتوا منا.[٢]

﴿**فَذَرۡهُمۡ**﴾ اتركهم أمهلهم، ﴿**يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴿٤٢﴾**﴾ اليوم هو يوم القيامة، الذي يُحل الله العذاب فيه-نسأل الله العافية والسلامة-.

﴿**يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ**﴾ الأجداث يعني القبور[٣]، ﴿**يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴿٤٣﴾**﴾ النُصُب هي الأعلام، كأن أعلامـًا

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٨٢)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٢٦).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٤٥).

(٣) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٨٤) و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٢٦).

وضعت لهم يستبقون إليها[١]، فهي شيءٌ يجرون إليه والنصب هي ما يعبد من دون الله[٢]، يوفضون أي يسرعون إليه، فكانوا يخرجون سراعـًا في أول النهار إلى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله عزَّ وجلَّ، مسرعين لا يلوي منهم أحدٌ على أحدٍ، ﴿**كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴿٤٣﴾**﴾ فكما أنهم كانوا يسرعون[٣] إلى هذه النصب التي كانوا ينصبونها أعلامـًا، وكذلك كما كانوا يسرعون لا يلوي أحدٌ منهم على أحدٍ، في أيهم يسبق أولاً؛ فيستلم الأنصاب التي كانت تعبد من دون الله، فإنهم سيخرجون من قبورهم سراعـًا على هذه الحال، وفيها إشارةٌ إلى أنه من عاش على شيءٍ مات عليه[٤]،

وما أجملها من كلمةٍ قالها الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث قال: " قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعث عَلَيْهِ، فَعِيَاذًا بِاللهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ "[٥] فلا يظنن العبد أن الله سيخلف وعده، فمن كان يحب الله، ويحب رسوله ﷺ، ويحب دينه، ويصلي ويصوم، ثم يأتيه الشيطان بأن الله سيختم له بخاتمة

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٨٥)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٣٠)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٣٨).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٣/ ٢٤٦)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٣٧٧).

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٨٥)، و"بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٤٩٨).

(٤) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٣٠).

(٥) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٢/ ٨٧).

السوء، فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، فهذه سنةٌ أجراها الكريم، من عاش على الإيمان، لا بد أن يختم له الله بإذن الله على الإيمان.

ثم ختم الله هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿**خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ**٤٤﴾ خاشعة أبصارهم أي ذليلةً حقيرةً[1]، ترهقهم ذلةٌ، كما قال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ**﴾ [يونس: ٢٧] -نسأل الله العافية-.

وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

تم الانتهاء من تفسير سورة المعارج بفضل الله ومنته.

****

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٤٨).

﴿ سُورَةُ نُوحٍ ﴾

هذه السورة العظمة سورةٌ مكيةٌ بالإجماع[١]، وآياتها ثمانٍ وعشرون آية، نزلت بعد سورة النحل.

مناسبتها لما قبلها:

١ - أنه قال في السورة السابقة: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا﴾ [المعارج: ٤٠-٤١]. وذكر هنا قصة نوح عليه السلام المشتملة على إغراقهم إلا من قد آمن، وإبدالهم بمن هم خيرٍ منهم، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى. فذكر هذه السورة كمثالٍ لهذا التبديل أن الله بدَّل الكفرة من قوم نوحٍ؛ فأهلكهم الله جميعـًا، فأغرق الله الكفار من أهل الأرض، وبدلهم وجاء بقوم آخرين، فهذه سورةٌ جليلةٌ فيها عبرٌ وعظاتٌ، نسأل الله سبحانه جلَّ جلاله أن ينفعنا بما فيها من عبرٍ وحكمٍ، وآياتٍ بيناتٍ، وأن يزيدنا الله تعالى بها إيمانـًا وهدىً.

٢ - **تواخي** مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعود به الكفار.[٢]

فائدةٌ للداعية من سورة نوحٍ:

أفرد الله تعالى هذه السورة من أولها إلى آخرها عن قصة نبي الله نوحٍ عليه السلام،

---

(١) قال السيوطي رحمه الله في " الدر المنثور" (١٤/ ٧٠٤): "أَخْرَج ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنها نزلت بمكة، وأَخْرَج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما مثله"، وابن عطية في " المحرر الوجيز " (٥/ ٣٧٢)

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ٧٨).

وذلك أنه مكث مدةً طويلةً جداً، يدعو قومه، وذكر الله تبارك وتعالى ألوانـًا من دعوته المباركة، وصبره الشديد في هذه السورة العظيمة، ونبي الله نوحٌ عليه السلام في قصته عبرةٌ وعظةٌ، لكل داعيةٍ يحمل هَمَّ الدعوة إلى الله تعالى، ويحمل هم دخول الناس في الإسلام، وهذه السورة تربيةٌ عظيمةٌ لكل مسلمٍ يعلم أنه ينبغي عليه أن يقوم بالواجب الذي أمره الله تبارك وتعالى به، وأما الهدى فلا يملكه إلا الله جلَّ جلاله، وتباركت أسماؤه وعلى الداعية أن يبذل جميع ما في وسعه من الأسباب في سبيل سلوك الهداية للخلق، ويُلَوِّنُ لهم أسباب الدعوة، فأحيانـًا يرغبهم، وأحيانـًا يرهبهم، أحيانـًا يحدثهم سراً، وأحيانـًا يجهر لهم بالدعوة، يدعوهم فرادى، ويدعوهم جماعاتٍ.

قصة نوحٍ عليه السلام مختصرة:

نبي الله نوحٌ عليه السلام هو أول رسولٍ أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض، بدلالة الحديث الثابت الصحيح في عرصات القيامة، وهو حديث الشفاعة، الذي رواه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟

فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي"(١) إلى غير ذلك.

فهو أول رسولٍ أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض، خلافـًا لبعض الناس الذين قالوا بأن إدريس هو أول رسولٍ أرسله الله تبارك وتعالى، وهو غير صحيحٍ، والصحيح الذي عليه أهل العلم، أن أول رسولٍ أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض هو نبي الله نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢)، وكان بينه وبين آدم عشرة قرون كما صح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ». قَالَ: وَكَذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا»(٣) فبَدَّل

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٤٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٩٤).

(٢) قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في " أحكام القرآن " (٢/ ٣١٥): "ومن قال من المؤرخين: إن إدريس كان قبله فقد وهم. والدليل على صحة وهمه في اتباعه صحف اليهود، وكتب الإسرائيليات الحديث الصحيح «في الإسراء، حين لقي النبي - ﷺ - آدم وإدريس، فقال له آدم: مرحبا بالنبي الصالح، والابن الصالح. وقال له إدريس: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح»." وينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٩/ ٢٥٧).

(٣) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"(١٥١٨٤)، والطبري في "جامع البيان"(٣/ ٦٢١)

قوم نوحٍ وغيروا هذه الشريعة وهذا التوحيد، وعبدوا الأصنام والأوثان، فأرسل الله تعالى إليهم نبي الله نوحاً عليه السلام، ينهاهم عن الشرك وعن عبادة غير الله تبارك وتعالى.

ونوحٌ عليه السلام مكث في قومه ألف عامٍ إلا خمسين، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: ١٤]

ونوحٌ عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل الكرام الكبار، وأولوا العزم من الرسل ذكرهم الله تعالى في موضعين من كتابه؛ في سورة الشورى، وفي سورة الأحزاب، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٧﴾ [الأحزاب: ٧] بدأ به لشرفه وجلاله عليه الصلاة والسلام، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ رغم أنه هو خاتمهم لكنه- ﷺ- سيدهم[1]، وإمامهم ، كما جاء في سنن الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»[2] يعني لا أقول هذا فخراً، بل هو كذلك ﷺ، وقال عن نفسه "

= والحاكم في "المستدرك" (٤٠٥٧)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٣٢٨٩).

(١) ينظر " شرح العقيدة الطحاوية" لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٤٢٤).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٦١٥)، وابن ماجه في " سننه " (٤٣٠٨)، وأحمد في " مسنده " (١٠٩٨٧) وصححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" (٣٦١٥).

وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي"[١]
أسأل الله أن يجعلنا تحت لوائه يا رب العالمين.

وفي سورة الشورى قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: ١٣] عليهم الصلاة وأتم السلام، فنبيُ الله نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من الرسل الكرام الكبار، ورغم ذلك سبحانك ربي ما أعظمك، قال الله عنه: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: ٤٠] وهذا يدل على أن الداعي إلى الله، ما عليه إلا أن يبلغ أوامر الله ونواهيه، فيتخذ الأسلوب الحسن ما استطاع ، أما الهداية فأمرها ومردها إلى الله جلَّ جلاله،

فنبي الله نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله تعالى عنه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [هود: ٣٦] وقال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ قليلٌ أي: عددٌ يسيرٌ جداً، فهذا القليل آمن ولم يؤمن كافة الخلق، فهل السبب هو عدم الفصاحة أو عدم البيان، أو عدم حسن الأسلوب؟ حاشا لله، بل كان نوحٌ من أعلى خلق الله أسلوباً وأرقهم قولاً، ورغَّبهم ورهَّبهم، ودعاهم في السر والجهر، ودعاهم بالليل والنهار، كما في هذه السورة العظيمة، ورغم ذلك فالهدى لا يملكه إلا الله جلَّ جلاله.

وهذه السورة نأخذ منها العبر والعظات العظيمة، فأحياناً قلب العبد يحترق على بعض أقربائه، ويتمنى أن يسلكوا سبيل الهدى، ويُلح عليه؛ يا فلان أو يا بني أو يا

---

(١) **(صحيح)** كما تقدم.

أختي أو يا أخي، افعل كذا واعمل كذا، ويكاد يشعر أنه يكاد يحترق، فليُهوِّن الداعي على نفسه فعليه البلاغ والدعاء- فرب العالمين يغير بالدعاء أموراً عظيمةً- ولكن الهداية بيد الله، فقد قال الله لنبيه في شأن عمه أبي طالب، (﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ**﴾ [القصص: ٥٦].

فهذه سورةٌ جليلةٌ فيها عِبرٌ وحِكمٌ وعِظاتٌ، يقول الله تعالى فيها:

﴿**بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**
إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤﴾

بدأ الله السورة بقوله: ﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ**﴾ يعني ليس مُتقوِّلاً من عند نفسه، بل رسولاً أرسله الله جلَّ جلاله، أرسله الله تعالى حاملاً رسالة ﴿**أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ**﴾ قال أهل العلم، الإنذار هو الإعلام والتخويف، بل لَا يَكَادُ يَكُونُ إِلَّا فِي تَخْوِيفٍ يَتَّسِعُ زَمَانُهُ لِلِاحْتِرَازِ(١)، إعلامٌ بعظمة الله وجلال الله، وتخويفٌ من جبروته

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " (١/ ٢٨١) للقرطبي، و"التفسير البسيط" (٥/ ١٩٣) للواحدي، و"التفسير الكبير" (٢/ ٢٨٦) للرازي، و"البحر المحيط" (١/ ٧٦) لأبي حيان، ومادة (نذر) في "مقاييس اللغة" (٥/ ٤١٤) لابن فارس.

وسلطانه وعذابه، إعلامٌ مع تخويفٍ، فهذا هو الإنذار، أي أنذرهم بطش الله، أنذرهم عذاب الله، أنذرهم النار، أنذرهم أن يأخذهم الله بالطوفان وبالهلاك العام[١]،

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝١﴾ يعني من قبل أن يأتيهم عذابٌ شديدٌ موجعٌ، هذا هو العذاب الأليم[٢]، ولذلك صحَّ عن عليٍّ ﵁ أنه قال: "أعذِبوا عَن النِّسَاء" [٣]، يَعني: امنعوا أَنفسكُم عَن ذكر النِّسَاء وشَغل الْقُلُوب بِهن فَإِن ذَلِك يَكسِركم عَن الْغَزْو وكل من منعته شَيْئا فقد أعذبته، المقصود أن الله تعالى أمر نوحـًا ﵇ أن ينذر قومه من قبل أن يأتيهم العذاب، يعني خذوا حذركم وارجعوا إلى الله، توبوا إليه، اتركوا الشرك وعبادة الأوثان، من قبل أن يحلَّ عليكم عذابٌ أليمٌ،

فذهب نوحٌ ﵇ ممتثلاً أمر ربه، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ۝٢﴾ وهذه الآية العظيمة تدل على أن أعظم الناس استجابةً لأمر الله تعالى هم الأنبياء الكرام،

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ۝٢﴾ مبين الدلالة، وجئتكم ببيناتٍ واضحاتٍ، لأُنذركم بها من قبل رب العالمين جلَّ جلاله، نذيرٌ لكم، موضحٌ لكم ما تخشونه، وما

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٨٨)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٧٢)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٤/ ٣٥٦).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (١/ ٢٩١)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٧/ ٢١٣)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٢/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في " غريب الحديث " (٣/ ٤٦٧)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١/ ٢٩٢).

تحذرونه وما تخافونه.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣﴾ هذه هي دعوة الرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] لا إله إلا الله هذه الكلمة العظيمة التي جاء بها كل الرسل الأنبياء، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣﴾ ولذلك ما من بعث الله نبياً إلا جاء بهذه العبادة العظيمة؛ توحيد الله عزَّ وجلَّ وترك عبادة ما سواه، كما قال رب العزة: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ۝٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: ٧٣] وهكذا كل الأنبياء إلى نبينا ﷺ، الذي كان يطوف على الناس في الأسواق، ويذهب إليهم في بيوتهم، ويغشاهم في مجالسهم، يا قوم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، كما روى الإمام أحمد في مسنده عن طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُحَارِبِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا، وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ أَدْمَى عُرْقُوبَيْهِ وَكَعْبَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا غُلاَمُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟ قَالَ: هَذَا عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ"(١)،

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٦٠٢٣)، وابن خزيمة في " صحيحه " (١٥٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٢٣١)، وصححه الألباني في "صحيح السيرة" (١٤٣).

وهذه الآية ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣﴾ قال بعض علمائنا هي معنى قول النبي ﷺ «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(١)، اعبدوا الله يعني افعلوا ما أمركم الله على قدر استطاعتكم، وما نهاكم الله عنه اجتنبوه(٢) وهذا هو معنى التقوى، التقوى أن تجتنب ما حرم الله عليك،

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ وجب على العبد أن يعظم الله ويتقيه، فالله تعالى أعظم من يُتقى، وأعظم من يُخاف منه، وأجلُّ من يُعظَّم، فالعبد ينبغي عليه أن يعظم ربه، ويجل ربه، ويتق الله تعالى في السر والعلانية،

ولذلك كانت وصية الله للأولين والآخرين بالتقوى، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: ١٣١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا۝٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [النساء: ١] ولذلك كان الرسول ﷺ يبدأ بهذه الثلاث آيات خُطَبَه، آية سورة النساء وآل عمران والآية التي في الأحزاب، وهكذا يُذكِّرُ الناسَ بتقوى الله تبارك وتعالى، فلذلك نبي الله نوحٌ عليه السلام قام بهذه المهمة التي جاء بها كل الأنبياء.

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٢٨٨)، ومسلم في " صحيحه " (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٣١)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤١٥).

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣﴾ ولابد للعبد أن يجمع بين هذين الأمرين، عبادة الله عزَّ وجلَّ وطاعة النبي محمد ﷺ، لا يقبل الله تعالى من أي عبدٍ أيَّ عملٍ لا فرضٍ ولا نافلةٍ، إلا إذا كان قصده ابتغاء وجه الله وعلى طريقة رسول الله ﷺ، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النساء: ٦٥] ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢].

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ ولأهل العلم في المراد بـ(مِّن) في قوله تعالى ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أوجهٌ منها:

الوجه الأول: بعض السادة العلماء قالوا لفظ (**مِّن**) هنا زائدةٌ[(١)]، يعني يغفر لكم ذنوبكم،

الوجه الثاني: بعضهم قال لا ليست زائدةً؛ بل هي بمعنى عن، ومعنى يغفر يعني يصفح، يعني يصفح لكم عن خطاياكم[(٢)]

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال آخرون هي بمعنى «عن»، وهذا غير معروفٍ في

---

(١) ينظر " النكت والعيون "للماوردي (٦/ ٩٩)، و " المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٣٧٢)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥٠).

(٢) ينظر " جامع البيان "للطبري (٢٣/ ٢٨٩)، و"المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٣٧٢)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٣٢)، و"الدر المصون" للسمين الحلبي (١٠/ ٤٦٨).

أحكام «من»"(١).

الوجه الثالث: بعض أهل العلم قالوا **(مِّن)** هنا للتبعيض(٢) يعني يغفر لكم من ذنوبكم الذنوب الكبار العظام، التي توعدكم بالهلاك لو وقعتم فيها، فإذا آمنتم وتبتم إلى الله يغفر لكم هذه الذنوب الكبار، والذنوب الصغار مغفورة باجتنابكم الكبائر، كما قال ربنا تعالى في محكم تنزيله: ﴿**إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء: ٣١]

وقفةٌ: وهذه الآية من عظيم منة الله على هذه الأمة، فللعبد صغائر لا يحصيها إلا الله، هذه الصغائر تمحى بمجرد اجتناب العبد للكبائر، مجرد ابتعادنا عن الكبائر مولانا سبحانه يغفر لنا ذنوبنا الصغائر كلها، بفضل الله تبارك وتعالى.

﴿**يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾ فيها أيضاً أن المقصود بالذنوب التي يغفرها الله هي الذنوب التي بين العبد وبين الله، وأما الذنوب التي هي حقوق العباد فلا بد فيها من المقاصة في حقوق العباد- نسأل الله اللطف والعافية- وأن نلقاه يا رب وليس لعبد من عباد الله له علينا حق، لأن الحقوق لابد أن ترد إلى أهلها ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ،

---

(١) ينظر "المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٣٧٢)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٣٢)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٥٦).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥١)، و " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٣١).

مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»(١)، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ مَوْعُوكًا قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «خُذْ بِيَدِي يَا فَضْلُ» فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمِنْبَرِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «صَحْ فِي النَّاسِ» فَصِحْتُ فِي النَّاسِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي حُقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرَهُ فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدَّ مِنْهُ، أَلَا وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضًا فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدَّ مِنْهُ، أَلَا لَا يَقُولَنَّ رَجُلٌ إِنِّي أَخْشَى الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَلَا وَإِنَّ الشَّحْنَاءَ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِي وَلَا مِنْ شَأْنِي، أَلَا وَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ حَقًّا إِنْ كَانَ لَهُ، أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيتُ اللهَ وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ، أَلَا وَإِنِّي لَا أَرَى ذَلِكَ مُغْنِيًا عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ مِرَارًا» (٢) ﷺ، إذاً لا بد من القصاص على هذا التأويل والمعنى صحيح، كل هذه المعاني صحيحة،

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي الذنوب التي بينكم وبين الله تعالى.(٣)

ولكن هنا في قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٨٢)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢٠)، وأحمد في " مسنده " (٧٢٠٤).

(٢) **(ضعيف جدا)** أخرجه الطبراني في" المعجم الكبير" (٧١٨)، وفي" المعجم الأوسط" (٢٦٢٩)، والبزار في " مسنده " (٢١٥٤)، وضعفه الألباني في " تحقيق فقه السيرة " (٤٦٤).

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥١)، و" فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤١٥)، و" التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي تفسير جزء تبارك (ص ١٨٤).

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فأهل العلم ذكروا أن نبي الله يدعوهم إلى الإسلام، وتَرْكِ الشرك الذي هم فيه، ولا شك أن العبد لو كان كافراً وأسلم فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، ويهدم كل الذنوب صغيرها وكبيرها، فكيف يقول **﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾**؟

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال آخرون: هي للتبعيض، وهذا عندي أبين الأقوال، وذلك أنه لو قال: **﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾** لعم هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأخر عن إيمانهم، والإسلام إنما يجبّ ما قبله، فهي بعض من ذنوبهم، فالمعنى يغفر لكم ذنوبكم، وقال بعض المفسرين: أراد يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ المهم الموبق الكبير لأنه أهم عليهم، وبه ربما كان اليأس عن الله قد وقع لهم وهذا قولٌ مضمونه أن **(مِّن)** للتبعيض"[١] وكل هذه أقوالٌ صحيحةٌ معتبرةٌ ذكرها أئمة التفسير.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني طاعتكم إذا أطعتم الله وآمنتم به يؤخركم إلى أجل مسمى،

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: " وقد يستدلّ بهذه الآية من يقول: إنّ الطّاعة والبرّ وصلة الرّحم، يزاد بها في العمر حقيقةً؛ كما ورد به الحديث: "صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ"[٢]،

(١) ينظر " المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٣٧٢)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣١).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣١)، و"تفسير المراغي" (٢٩/ ٨٠)، والحديث أخرجه القضاعي في "مسند الشهاب" (١٠٠) وصححه الألباني في "صحيح الجامع"

واستدل بأحاديث صحيحةٍ ذكرها وذكرها غيره[١]، مثل ما جاء في الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، أَوْ يُنْسَأَ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٢]

هذا في قوله جلَّ جلاله ﴿**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ**﴾ قالوا يعني أن الله تعالى يؤخر أعمارهم، هذا على هذا المعنى[٣]، يؤخر أعمارهم ويطيل أعمارهم ببركة الطاعة وبركة البر،

وأيضـًا صح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»[٤]

وقفةٌ: والله الحسرة كل الحسرة على ذلك العاق، وعلى ذلك القاطع للرحم،

=(٣٧٦٦).

(١) ينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٤٨)، و"تفسير المراغي" (٢٩/ ٨٠)، وتتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٣٠٧) و"التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي ـ تفسير جزء تبارك (ص ١٨٦).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠٦٧)، ومسلم في "صحيحه (٢٥٥٧).

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥١)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٤٥٤)، و" التسهيل لتأويل التنزيل" الموطن السابق.

(٤) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٥٢٥٩)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٧٥٩٩)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة" (٥١٩).

الذي لا يبالي لشيءٍ، وأهم شيءٍ نفسه وفقط، فلا ينظر إلى البركات التي يفيضها الله عليه ببركة صلة رحمه، وبركة بره والديه، فهذه الأبواب من أعظم أبواب التقرب إلى الله تبارك وتعالى بعد التوحيد وأداء الفرائض،

مسألةٌ: العبد الذي يطيع ربه، ويصل رحمه، ويبر والديه، الله يطيل عمره، ولو كان على غير ذلك الله يجعل عمره أقصر من هذا، هذا قولٌ صحيحٌ معتمدٌ،

وقد ذكر الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ القولين في المسألة فقال: "﴿**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ**﴾ أي يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى الذي قدره الله لكم بشرط الإيمان والطاعة، فوق ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان، وقيل التأخير بمعنى البركة في أعمارهم إن آمنوا، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا" [(١)]،

وأيضـًا بعض السادة العلماء[(٢)] ذكر في هذا الباب حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله - يعني ابن مسعودٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: اللهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ»[(٣)].

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥١)، و"فتح القدير " للشوكاني (٥/ ٤١٥).

(٢) ينظر" سلسلة التفسير" الشيخ مصطفى العدوي (٧٥/ ٧).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٦٣)، وأحمد في " مسنده" (٣٧٠٠)، وابن حبان في

وحتى نجمع المسألة، فهذه الأحاديث التي ذكرتها أولاً تبين بياناً واضحاً علاقة طول العمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين وغير ذلك، وكذلك في المقابل لها هذا الحديث، " قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ "(١)

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ولأهل العلم أقوال في المسألة وهي:

القول الأول: بعض السادة العلماء قالوا ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ولكل شخص عمرٌ، وهذا صحيح، ولكن إذا عمل الشخص بالصالحات وكان صالحاً مطيعاً لله، فالله تبارك وتعالى يطيل عمره ويجعل هذه الصالحات أو هذا البر الذي يقوم به، سبباً في إطالة العمر، فالله الكريم أجرى الأمور بأسبابها، وجعل لكل شيءٍ سبباً، كما أن للأرزاق أسباباً، كذلك طول العمر له أسبابٌ بإذن الله تعالى، وذلك سبق في علم الله.

القول الثاني: بعض العلماء قالوا إنما المراد البركة في العمر(٢)، فتجد ابن الأربعين قد قام بأعمالٍ ما قام بها ابن الثمانين، وهذا مشاهدٌ صراحةً، فتجد العبد قد تقرب إلى الله في اليوم بطاعات كثيرة، من صلاةٍ، من قراءة قرآنٍ، من صيامٍ، من تعلم علمٍ، من بر الوالدين، من حسن خلقٍ، وتسبيحٍ، وذكرٍ لله، بارك الله له في عمره تجده

="صحيحه " (٢٩٦٩)، والحاكم في " المستدرك " (٣٤٤٠).

(١) **(صحيح)** كما سبق.

(٢) ينظر " فتح الباري " للحافظ ابن حجر (٤/ ٣٠٢).

ابن أربعين أو ابن خمسين أو ابن ستين أو ثلاثين، من هم أمثاله لا يمكنهم أن يقوموا بمثل هذه الأعمال، وإنما هذا العبد فعل ذلك لأن الله تعالى بارك له في عمره، فبورك له في عمره بفضل الله تعالى وبفضل الصالحات التي قام بها.

القول الثالث: بعض السادة العلماء قال هناك كتابان، كتابٌ هو اللوح المحفوظ، لا يتبدل ولا يتغير، وكتابٌ بيد الملك، وهذا الذي قال الله تعالى عنه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩] يمحو الله ما يشاء ويثبت في صحيفة الملك،

وقد ذكره الطبري رحمه الله عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: "هُمَا كِتَابَانِ سِوَى أُمِّ الْكِتَابِ، يَمْحُو اللهُ مِنْهُمَا مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ. (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ) الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ منه شي"(١)،

وكما في قصة نبي الله موسى عليه السلام أرسل الله إليه الملك ليقبض روحه، والحديث في الصحيحين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، قَالَ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ، بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ، سَنَةٌ، قَالَ: أَيْ رَبِّ ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالْآنَ، فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلَوْ كُنْتُ

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٢/ ٨٦)، و"التفسير الكبير" للرازي (١٩/ ٥١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٣/ ٣١٧).

ثَمَّ، لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، تَحْتَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ»"(١)

إذاً فهذه المدة التي ذهب ورجع فيها ملك الموت لا شك أن علم الله سابقٌ، وأحاط الله بكل شيءٍ علمـاً، والله تعالى يعلم أن نبي الله موسى سيفعل هذا،

والمقصود أن بعض أهل العلم قالوا، بأن طول العمر في الحديث، على ظاهره

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تفصيل الأقوال الواردة في توضيح المراد بطول العمر: "قال ابن التّين ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤] والجمع بينهما من وجهين:

أحدهما: أنّ هذه الزّيادة كنايةٌ عن البركة في العمر بسبب التّوفيق إلى الطّاعة وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة وصيانته عن تضييعه في غير ذلك ومثل هذا ما جاء أنّ النّبيّ ﷺ تقاصر أعمار أمّته بالنّسبة لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه اللّه ليلة القدر وحاصله أنّ صلة الرّحم تكون سببًا للتّوفيق للطّاعة والصّيانة عن المعصية فيبقى بعده الذّكر الجميل فكأنّه لم يمت ومن جملة ما يحصل له من التّوفيق العلم الّذي ينتفع به من بعده والصّدقة الجارية عليه والخلف الصّالح وسيأتي مزيدٌ لذلك في كتاب القدر إن شاء اللّه تعالى

ثانيهما: أنّ الزّيادة على حقيقتها وذلك بالنّسبة إلى علم الملك الموكّل بالعمر وأمّا الأوّل الّذي دلّت عليه الآية فبالنّسبة إلى علم اللّه تعالى كأن يقال للملك مثلًا إنّ عمر فلانٍ مائةٌ مثلًا إن وصل رحمه وستّون إن قطعها وقد سبق في علم اللّه أنّه يصل أو

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٣٣٩)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣٧٢).

يقطع فالّذي في علم اللّه لا يتقدّم ولا يتأخّر والّذي في علم الملك هو الّذي يمكن فيه الزّيادة والنّقص وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿**يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴿٣٩﴾**﴾ فالمحو والإثبات بالنّسبة لما في علم الملك وما في أمّ الكتاب هو الّذي في علم اللّه تعالى فلا محو فيه ألبتّة ويقال له القضاء المبرم ويقال للأوّل القضاء المعلّق

والوجه الأوّل أليق بلفظ حديث الباب فإنّ الأثر ما يتبع الشّيء فإذا أخّر حسن أن يحمل على الذّكر الحسن بعد فقد المذكور، وقال الطّيبيّ: الوجه الأوّل أظهر وإليه يشير كلام صاحب الفائق قال ويجوز أن يكون المعنى أنّ اللّه يبقي أثر واصل الرّحم في الدّنيا طويلًا فلا يضمحلّ سريعًا كما يضمحلّ أثر قاطع الرّحم، ولمّا أنشد أبو تمّامٍ قوله في بعض المراثي

توفّيت الآمال بعد محمّدٍ وأصبح في شغلٍ عن السّفر السّفر

قال له أبو دلفٍ: لم يمت من قيل فيه هذا الشّعر ومن هذه المادّة قول الخليل عليه السلام ﴿**وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأٓخِرِينَ﴿٨٤﴾**﴾ [الشعراء: ٨٤]

وقد ورد في تفسيره وجهٌ ثالثٌ فأخرج الطّبرانيّ في الصّغير بسندٍ ضعيفٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ ذُكِرَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ وصل رَحمَه أنسيء لَهُ فِي أَجَلِهِ فَقَالَ إِنَّهُ لَيْسَ زِيَادَةً فِي عُمُرِهِ قال اللّه تعالى فإذا جاء أجلهم الآية ولكنّ الرّجل تكون له الذّرّيّة الصّالحة يدعون له من بعده وله في الكبير من حديث أَبِي مُشَجِّعَةَ الْجُهَنِيِّ رَفَعَهُ إِنَّ اللهَ لَا يُؤَخِّرُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَإِنَّمَا زِيَادَةُ الْعُمُرِ ذُرِّيَّةٌ صَالِحَةٌ الحديث وجزم ابن فورك بأنّ المراد بزيادة العمر نفي الآفات عن صاحب البرّ في فهمه وعقله وقال غيره في أعمّ

من ذلك وفي وجود البركة في رزقه وعلمه ونحو ذلك" [(١)]،

والمعنى أن العبد يبارك له في حياته ويطيل الله عمره ببركة فعله للصالحات، وأيّد هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "وقد قال بعض النّاس: إنّ المراد به البركة في العمر بأن يعمل في الزّمن القصير ما لا يعمله غيره إلّا في الكثير قالوا: لأنّ الرّزق والأجل مقدّران مكتوبان. فيقال لهؤلاء تلك البركة. وهي الزّيادة في العمل والنّفع. هي أيضًا مقدّرةٌ مكتوبةٌ وتتناول لجميع الأشياء. والجواب المحقّق: أنّ اللّه يكتب للعبد أجلًا في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب. وإن عمل ما يوجب النّقص نقص من ذلك المكتوب."[(٢)]،

وهذه المسألة وصفها بعض السادة العلماء بأنها من المسائل الشائكة، التي تجرى كغيرها ويسكت عنها، قال الشيخ مصطفى العدوي حفظه الله : "وهذه المسألة وصفها العلماء بأنها من المسائل الشائكة التي ينبغي أن تجرى على ظاهرها كسائر الأمور مثلها؛ فهي كمسألة الرزق، إذ الأجل والرزق مكتوبان، فمكتوبٌ لك وأنت في بطن أمك كم سترزق، فإذا سعيت والتمست الأسباب الصحيحة لطلب الرزق في الظاهر فإنك سترزق، وإذا نمت وتركت العمل، فلن يأتيك رزق ذلك اليوم، فإن آمنت بأن الرزق مقدرٌ؛ ومع ذلك تسعى في الأخذ بالأسباب، فكذلك تؤمن بأن الأجل مكتوبٌ، وعليك أن تسعى بما يزيد في أجلك كما تسعى بما يزيد في رزقك.

---

(١) ينظر " فتح الباري" للحافظ ابن حجر (١٠/ ٤١٦).

(٢) ينظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (١٤/ ٤٩١).

فالإيمان قائمٌ أن الأجل مقدرٌ، وعلمه عند الله تعالى، مع التدين بحديث الرسول ﷺ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَط لَهُ فِي رِزْقِه ويُنْسَأ لَهُ فِي عُمُرِه فَلْيَصِل رَحِمَهُ"، فعليك أن تصل الرحم، كما أن عليك أن تخرج لطلب الرزق، ومع ذلك تترك الباقي إلى المولى سبحانه وتعالى، كسائر المسائل المتعلقة بالقدر والله أعلم." [١]

فالمقصود أن الله تعالى قال عن نبيه نوحٍ عليه السلام، أنه قال لقومه ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾ قال الإمام الطبري رحمه الله: " وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يقول: ويؤخّر في آجالكم فلا يهلككم بالعذاب، لا بغرقٍ ولا غيره ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يقول إلى حينٍ كتب أنّه يبقيكم إليه، إن أنتم أطعتموه وعبدتموه، في أمّ الكتاب."[٢]

وهو الذي اختاره ابن تيمية رحمه الله[٣]،

والقرطبي رحمه الله قال: " قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أي يُنسئ في أعماركم، ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب" فالقرطبي ذهب إلى البركة في العمر."[٤]

---

(١) ينظر " سلسلة التفسير " للشيخ مصطفى العدوي (٧٥/ ٧).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٩٠)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣١)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٤٨).

(٣) ينظر " مجموع الفتاوى " (٨/ ٥٤٠).

(٤) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥١)، و"التفسير البسيط" للواحدي

وقفةٌ: هذه الآية آيةٌ عظيمةٌ، يستفيد منها العبد فائدةً عظمى، في أن تقواه لله، غض بصره عن الحرام، عندما يكون وحده خالٍ وتأتيه رسالةٌ سيئةٌ- وما أكثرها ترسل للجميع، ترسل للصالح والطالح وكل الناس- يأتيه رسائل أحيانـًا من أناسٍ لا يتخيل أن تأتيه منهم، رسائل سيئةٌ جداً، فإذا كان العبد مراقبـًا لربه، خائفـًا منه معظمـًا لله، يقول إني أخاف الله، ولا ينظر إليها ولا يفتحها، ويمسحها سريعـًا، فلا يقع أبداً في ما حرم الله تعالى عليه، وإن دعته نفسه وأغواه الشيطان، يرجع ويفيئ إلى الرحمن جلَّ جلاله سريعـًا، فتقواه لله تعالى، يستفيد منها فائدةً عظمى، إما على القول الأول أن يطيل الله عمره، ويمتعه بطول العمر، أو أن الله سيبارك له في حياته، وعلى أي حالٍ فالعبد الصالح من أربح الخلق، إما أن يطيل الله العمر، وإذا كان طول العمر في الصالحات هذه نعمةٌ عظيمةٌ، قال عنها ﷺ " خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ"(١) هذه من عظيم نعم الله على العبد، أن يكون أطال الله عمره ولا زال يصلي جماعةً، ولا يزال يقرأ القرآن، ولا زال يتعلم العلم، يبر والديه، ينفق ويتصدق، يصوم اثنين وخميس، هذه من عظيم الأعمال، وفي المقابل، قول النبي ﷺ" وَشَرُّكُم مَنْ طَالَ عُمْرُهُ

=(٢٢/ ٢٤٨).

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه " (٢٣٢٩)، وأحمد في " مسنده " (١٧٦٨٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٤٤٢٠)، والطبراني في "الأوسط" (١٤٤١) من حديث، عبد الله بن بسر رضي الله عنه، به، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٨٣٦).

وَسَاءَ عَمَلُهُ "(١)، نسأل الله العفو والعافية.

فقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ الأجل المقدور الذي أجله الله وكتبه، إذا جاء الأجل لا يؤخر، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ۝٤﴾ يعني لو كنتم تعلمون ذلك، لأَنَبْتُم إليه، لو تعلمون علم اليقين بذلك، لأنبتم إلى ربكم وتبتم إليه واستغفرتموه عزَّ وجل.

قال عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا۝٢٠﴾

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه " (٢٣٣٠)، وأحمد في " مسنده " (٢٠٤١٥)، والدارمي في "سننه" (٢٧٨٤)، والحاكم في "المستدرك" (٩٠٥)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب" (٣٣٦٣) من حديث، أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

وقفةٌ: في قول الله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝**﴾ هذا من التفاني في الدعوة إلى الله، وهو أبرك الأعمال كلها على العبد، أن يكون داعيةً إلى الله تعالى، ربما امتنع العبد عنها ويقول لنفسه أنا لست بشيخٍ داعيةٍ، فالدعوة إلى الله ليست حكراً على المشايخ الدعاة، فكل إنسانٍ منَّا يمكن أن يكون داعيًا إلى الله، قال الله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]،

وروى البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»(١) وقال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [آل عمران: ١٠٤]

وقال ﷺ لِعَلِي رضي الله عنه يوم خيبر «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(٢) واحدٌ فقط، طول حياة العبد يهديه الله على يديه في بابٍ من الأبواب، لعله كان كافراً فيسلم، لعله كان عاقًا لوالديه فيهديه الله، لعله كان تاركًا لصلاة الجماعة فصلى الجماعة، خيرٌ له من كنوز الأرض كلها، لو جمعت له ثم تصدق بها كذلك،

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٦١)، والترمذي في " سننه " (٢٦٦٩)، وأحمد في " مسنده " (٦٤٨٦)، وابن حبان في "صحيحه " (٦٢٥٦).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٩٤٢)، ومسلم في "صحيحه " (٢٤٠٦)، من حديث، سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، به.

فلذلك رب العزة يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ قام بمهمة الدعوة إلى الله، وليس فقط في وقتٍ معينٍ بل في كل الأوقات، ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ليس هناك محلٌ للدعوة إلا إذا كان الناس في شغلٍ لا يفقهوا كلام الداعي، فينبغي على العبد أن يستغل كل فرصةٍ يمكن أن تكون أمامه، في الدعوة إلى الله تعالى، رسالةً على الواتس آب، رسالةً على وسائل الاتصال الاجتماعي، كلمةً في مجلسٍ، تذكرةً لصاحبٍ، تذكرةً لأختٍ، يُذكر والده أو ولده، يفعل كل ما يستطيع فعله، لعل الكريم سبحانه يقبل منه عملاً من الأعمال ويرفع الله به درجته، ويغفر الله به ذنبه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝﴾ والواجب عليهم أنهم جاءتهم دعوة الهدى، وجاءتهم البركة من الله تعالى على لسان نبيٍ كريمٍ من أنبياء الله، الواجب عليهم أن يهتدوا وأن يسلكوا سبيل الهدى، ولكن هذه الدعوة زادتهم فراراً، بسبب خبثهم والعياذ بالله

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝﴾ إلا نفوراً وبعداً عن طريق الحق، نسأل الله العفو والعافية.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعون كلامه، وهذا من خذلان الله للعباد،

وقفةٌ: كثيرٌ من أهل زماننا الآن لا يريدون أن يسمعوا الهدى، لا يريدون أن يسمعوا كلام الله، فإذا قلت لأحدهم فتوى الصحابة الكرام أفتوا بكذا، حديث الرسول ﷺ أفتى بكذا، الله عزَّ وجلَّ يقول كذا، لا يريد أن يسمع، هذا خذله الله عزَّ وجل- عافانا الله وإياكم- أما إذا أراد الله بالعبد الهدى والخير، شرح الله تعالى صدره لسماع

الهدى، لذلك كان قوم نوحٍ إذا دعاهم نبي الله نوحٌ يجعلون أصابعهم في آذانهم، حتى لا يسمعوا

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ جعلوا ثيابهم غطاءً على رؤوسهم، والمعنى: جعلوا ثيابهم تغشى وجوههم حتى لا يرونه، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: جَعَلُوا ثِيَابَهُمْ عَلَى رؤوسهم لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ. فَاسْتِغْشَاءُ الثِّيَابِ إِذًا زِيَادَةٌ فِي سَدِّ الْآذَانِ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا، أَوْ لِتَنْكِيرِهِمْ أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَسْكُتَ، أَوْ لِيُعَرِّفُوهُ إِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ"، وهذا يدل على غِلظة هؤلاء القوم، وعلى قسوتهم العظيمة، وعلى نفورهم عن الحق، وعدائهم لرسول الله ﷺ، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أصروا على كفرهم، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧﴾ وتعالوا عن الحق ورفضوه وردوه والعياذ بالله.[١]

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨﴾ دعاهم أيضـاً جهاراً، يعني نادى بأعلى صوته، كما فعلها الحبيب ﷺ، كما روى الشيخان عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ»، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥٢)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣٢)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤١٦).

عَذَابٍ شَدِيدٍ»، قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ، كَذَا قَرَأَ الْأَعْمَشُ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ،[١]

ونادى ﷺ أيضـًا في موقفٍ آخر؛ كما روى الشيخان عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[٢]،

فلذلك نبي الله نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ جهر يعني نادى بأعلى صوته، وكأنه يقول يا أيها الناس وحدوا الله وأطيعوه، وفي حديث أبي بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ اذْكُرُوا اللهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ»، قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ، قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٧٧٠)، ومسلم في "صحيحه " (٢٠٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٢٧٥٣)، ومسلم في "صحيحه " (٢٠٦).

صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ: «إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»[١] الله أكبر.

إذاً نبي الله نوحٌ عليه السلام قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ أعلن وأسرَّ وجهر ودعا بالليل ودعا بالنهار، ما ترك سبيلاً في الدعوة إليهم إلا دعا إليه عليه الصلاة والسلام، وهذا يدلك على النشاط في الدعوة،

وقفةٌ: حالنا اليوم لا يخفى على أحدٍ، فالمسلمون الآن عندهم كسلٌ في الدعوة إلى الله إلا من رحم الله منهم، والنصارى عندهم نشاطٌ في الدعوة إلى دينهم الباطل، فلا يقوم المسلمون بما يقوم به النصارى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رحمة الله على الدكتور عبد الرحمن السميط الكويتي[٢]، الله يرحمه رحمةً

---

(١) **(حسن)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٥٧)، وأحمد في " مسنده " (٢١٢٤١)، مختصراً، والحاكم في " المستدرك " (٣٩٤٢)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٥٢).

(٢) هو الدكتور عبدالرحمن حمود السميط من أبرز المنظرين والمطبقين لـ فقه الدعوة في العصر الحديث أسلم على يديه أكثر من ١١ مليون شخصٍ في إفريقيا وبنى ٥٧٠٠ مسجداً وحفر ٩٥٠٠بئراً وأنشئ ٨٦٠مدرسةً و٤ جامعاتٍ و ٢٠٤مركزاً إسلامياً بعد أن قضى أكثر من ٢٩ سنة ينشر الإسلام في القارة السمراء بمعدل حوالي ٩٧٢ مسلماً يومياً، وقبل أن يصبح ناشطاً في العمل الخيري، كان طبيبا متخصصاً في الأمراض الباطنية والجهاز الهضمي، نال عدداً من الأوسمة والجوائز والدروع والشهادات التقديرية مكافأةً له على جهوده في الأعمال الخيرية ومن أرفع هذه الجوائز جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام والتي تبرع بمكافأتها لتكون نواةً للوقف التعليمي لأبناء أفريقيا ومن عائد هذا الوقف تلقت أعدادٌ كبيرةٌ من أبناء أفريقيا تعليمها في الجامعات، تعرض في أفريقيا لمحاولات قتل مراتٍ عديدةً من قبل

واسعةً، مكث بضعاً وثلاثين عاماً في أفريقيا داعياً إلى الله، وترك النعمة التي كان يعيش فيها، وذهب ليعيش في صحاري وبراري، وأمورٍ الله بها عليمٌ، عندما تقرأ في قصته ترى عجباً، كان يرى في أثناء دعوته النصارى بما يقومون به بما يسمى التبشير، يقول نحن نركب سيارةً ليست فيها مكيفٌ، وموديلات قديمةٌ، وهم يركبوا أحدث السيارات، يذهبون إلى المسلمين يكبون عليهم المال كباً، لأنهم يريدون أن يدخلوا في دينهم، نحن نجمع من هاهنا وهاهنا، وأحياناً دولةٌ إسلاميةٌ تمنع، وأحياناً دولةٌ تصفه بالإرهاب وتضعه في السجون، مشاكل سبحان الله العظيم.

=المليشيات المسلحة بسبب حضوره الطاغي في أوساط الفقراء والمحتاجين ، كما حاصرته أفعى الكوبرا في موزمبيق وكينيا وملاوي غير مرة لكنه نجا بالإضافة إلى لسع البعوض في تلك القرى وشح الماء وانقطاع الكهرباء وتسلق جبال كلمنجارو في سبيل الدعوة إلى الله وتعرض في حياته لمحن السجون وكان أقساها أسرة على يد البعثيين.

قضى ربع قرن في أفريقيا وكان يأتي للكويت فقط للزيارة أو العلاج، كما مارس الدعوة في كل من الأسكيمو والعراق. كانت سلسلة رحلاته في أدغال أفريقيا وأهوال التنقل في غاباتها محفوفة بالمخاطر وذلك بتعريض نفسه للخطر لأجل أن يحمل السلام والغوث لأفريقيا بيد فيها رغيف ويد فيها مصباح نور وكتاب استمر السميط يعمل في الدعوة بعد أن طعن في السن وثقلت حركته وأقدامه ورغم إصابته بالسكر وبآلام في قدمه وظهره وفي أواخر سنواته استحالت حالته الصحية غير مستقرة وأخذ يعاني من توقف في وظائف الكلى ويخضع لعناية مركزة في مستشفى مبارك الكبير. واستمر على تلك الحال حتى توفي يوم الخميس ١٥ أغسطس ٢٠١٣."مقالة كتبتها إسراء البدر ـ موقع رواد العمل الخيري على الشبكة."

فالمسلمون المعاصرون للأسف الشديد، ليس عندهم هم الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، ولذلك بَذْلُهم في هذا الجانب من أضعف ما يكون، والواجب على الأمة أن تتكاتف جهودها، من أجل الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ وهذا من أعظم الأبواب، التي يُعز الله بها هذه الأمة.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا۝١٠﴾ استغفروا الله إنه كان غفاراً، يعني ليس الأمر محصوراً فقط في كلمة استغفر الله، فعندنا في ديننا أبوابٌ عظيمةٌ لغفران الذنوب، فعند الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[١]، وقد أخرج مسلمٌ في صحيحه عن عبد الله – يعني ابن مسعودٍ– رضي الله عنه، قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم سُنَنَ الْهُدَى، وَلَعَمْرِي، لَوْ أَنَّ كُلَّكُمْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الصَّفِّ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، فَيَعْمِدُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيُصَلِّي فِيهِ، فَمَا يَخْطُو خَطْوَةً، إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه " (٢٣٣)، والترمذي في "سننه " (٢١٤)، وابن ماجه في "سننه " (١٠٨٦)، وأحمد في "مسنده " (٧١٢٩).

بِهَا خَطِيئَةً»(١)،

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللهُمَّ ارْحَمْهُ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ "(٢)، وكذلك في الصحيحين عَنْ حُمْرَانَ، مَوْلَى عُثْمَانَ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ دَعَا بِإِنَاءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الْإِنَاءِ فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ "، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٣)،

وروى البخاري في عن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ تَعَارَّ

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٦٥٤)، والنسائي في " المجتبى" (٨٤٩)، وابن ماجه في "سننه" (٧٧٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٧٧)، ومسلم في "صحيحه " (٦٤٩).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (١٥٩)، ومسلم في "صحيحه " (٢٢٦).

مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاَتُهُ".(١)

ففي هذه الآية فوائدٌ عظيمةٌ ينبغي على العبد أن يغتنمها، ويغتنم هذه البركات.

قال تعالى: ﴿**فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا**﴿١٠﴾﴾ وهذه الآية العظيمة أمر الله تعالى نبيه نوحـًا أن يقول لقومه استغفروا الله وتوبوا إليه من الكفر، وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم، إنه كان غفاراً أي كثير المغفرة، سبحانه جلَّ جلاله، فربنا تعالى كثير المغفرة لمن تاب وآب ورجع إليه، سبحانه عزَّ وجلَّ،

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: " وقوله: ﴿**فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا**﴿١٠﴾﴾ يقول: فقلت لهم: سلوا ربّكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، وعبادة ما سواه من الآلهة ووحّدوه، وأخلصوا له العبادة، يغفر لكم ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا**﴾ لذنوب من أناب إليه، وتاب إليه من ذنوبه."(٢)

وقفةٌ: الاستغفار مِنَّةٌ من الله جلَّ جلاله علينا، ونعمةٌ عظيمةٌ وسببٌ عظيمٌ من أسباب سعادة العبد، الاستغفار مَحَّاءٌ للذنوب مهما عظمت، ومهما كثرت، ولذلك

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه " (١١٥٤)، وأبو داود في "سننه " (٥٠٦٠)، والترمذي في "سننه " (٣٤١٤)، والنسائي في " السنن الكبرى" (١٠٦٣١)، وابن ماجه في "سننه " (٣٨٧٨).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٩٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥٣)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤١٧).

رب العزة سبحانه يقول: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ وأخوف ما يخافه العبد منا على نفسه، الذنوب، لأن هذه الذنوب والعياذ بالله توجب للعبد حلول النقم، فإذا استغفرت ربك وغفر لك ذنوبك أنزل عليك البركات من السماء والأرض، وصدق الله حيث قال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال جلَّ جلاله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: ٣] متاعاً حسناً، يعطيك الصحة والعافية، يبارك لك في أولادك، ييسر لك أسباب السعادة كلها في الدنيا والآخرة، ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى الأجل الذي قدره الله لكم أن تبلغوه، ويؤتي في الآخرة كل ذي فضلٍ فضله سبحانه وبحمده.

فينبغي علينا ألا نغفل عن الاستغفار، قال الله تعالى حاكياً عن نبيه هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢] إذاً من أراد العافية والصحة والقوة، وزيادة عافيةٍ في بدنه، استغفر الله كثيراً، وقول الله جلَّ جلاله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣] أمانان للأمة، وجود الرسول، والاستغفار، رسول الله توفي صلوات ربي وسلامه عليه، فبقي هذا الأمان إلى آخر الدنيا، فإذا استغفر العبد ربه فهذا أمانٌ له من أن يحل عليه العذاب، والعذاب هنا شاملٌ، يشمل كل ما يعذب به العبد، كل ما يؤلمه، يعني ربه يصرف عنا الهم، يصرف عنا الضيق، يصرف عنا الأمراض، يصرف عنا تعب الأولاد ويصلحهم لنا، يصلح لنا

أزواجنا، فيصلح للمرأة زوجها، فما أبرك الاستغفار !

ولذلك كان الحبيب ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا كما روى الإمام مسلمٌ في صحيحه عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(١)،

وكان يقول ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(٢)، وكان يقول «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٣)،

وكان يُعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد، كما روى أبو داود في سننه عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (٤)،

وأبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما سمع حديث الرسول ﷺ والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه " (٥٩١)، والترمذي في "سننه "(٣٠٠)، والنسائي في " المجتبى " (١٣٣٧)، وفي " السنن الكبرى " (١٢٦١)، وابن ماجه في "سننه" (٩٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٣٠٧)، والترمذي في "سننه " (٣٢٥٩)، والنسائي في " السنن الكبرى" (١٠١٩٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به..

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه " (٢٧٠٢)، وأبو داود في "سننه "(١٥١٥)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٢٠٣)، وأحمد في " مسنده " (١٧٨٤٧)، من حديث الأغر المزني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

(٤) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٥١٦)، والترمذي في "سننه " (٣٤٣٤)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٢١٩)، وابن ماجه في "سننه" (٣٨١٤)، والحديث صححه الألباني في" السلسلة الصحيحة " (٥٥٦).

في اليوم أكثر من سبعين مرة، قال أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مَرَّةً، وَذَلِكَ عَلَى قَدْرِ دِينِي - أَوْ قَدْرِ دِينِهِ»(١)، ورواها الذهبي بلفظٍ آخر فقال: قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مَرَّةً، وَذَلِكَ عَلَى قَدْرِ ذَنِبي»(٢)

يستغفر كل يوم كم؟ اثني عشر ألف مرةٍ، استغفارٌ، يجلب البركات، ويجلب الخير كله، ويدفع السوء بإذن الله الرحمن الرحيم، ولذلك عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَسْقِي بِالنَّاسِ، فَمَا زَادَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ حَتَّى رَجَعَ فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْنَاكَ اسْتسْقَيْتَ قَالَ: " لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي تُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ: ﴿**فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١**﴾ [نوح: ١٠-١١] وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴿**وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ**﴾ [هود: ٥٢](٣)،

فلذلك قال الحافظ بن كثير " وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ قِرَاءَةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي صَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ لِأَجْلِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ صَعِدَ الْمِنْبَرَ لِيَسْتَسْقِيَ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هَذِهِ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٧٢٦٩)، وأبو نعيم في " حلية الأولياء" (١/ ٣٨٣).

(٢) ينظر " تذكرة الحفاظ " للذهبي (١/ ٣٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه " (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة في "مصنفه " (٨٣٤٣)، والطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٢٩٣).

الْآيَةُ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا۝١١﴾ [نوح: ١٠-١١] ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْغَيْثَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي سَتُنْزِلُ بِهَا الْمَطَرَ."(١)

ومجاديح السماء، يعني الأسباب العظيمة التي يستنزل بها المطر، وقيل المجاديح الأنواء التي ينزل فيها المطر بإذن الله تعالى(٢)، روى ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره قال: "قال الْأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: خرج النّاس بدمشق يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعدٍ فقال: يا معشر من حضرتم، ألستم مقرّين بالإساءة؟ قالوا: نعم. فقال: اللّهمّ إنّك قلت: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] وقد أقررنا بالإساءة، فاعف عنّا واسقنا. قال: فسقوا يومهم ذلك."(٣)

وذلك حتى نرى الفارق الكبير بيننا -الآن- وبينهم، نحن نصلي صلاة الاستسقاء مرةً واثنتين وثلاث، وهؤلاء قومٌ وهم على المنبر، لا ينزلوا إلا وأمطروا، لهم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ، طهروا أقوالهم، وظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم طاهرةٌ

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٣٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥٤)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١١٣).

(٢) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " النهاية في غريب الحديث والأثر " (١/ ٢٤٣): "وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبها بالأنواء، مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولا بالأنواء."

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٠٢٠٩) وذكرها الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٥/ ٩٢) وابن كثير في " البداية والنهاية " (١٣/ ١٤٦).

وأبدانهم طيبةٌ طاهرةٌ، تسعى لله وعلى طريق رسول الله،

وفي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِثْنَا ، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا»، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةٍ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ حَوْلَنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللهُمَّ عَلَى الْآكَامِ، وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ» فَانْقَلَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ قَالَ شَرِيكٌ: فَسَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ: أَهُوَ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي،[1]، يعني من السبت إلى السبت،

وذكر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ خبراً في فضل ذلك عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ فقال:" وقال ابن صبيحٍ: شكا رجلٌ إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر اللّه. وشكا آخر إليه الفقر فقال له: استغفر اللّه. وقال له آخر. ادع اللّه أن يرزقني ولدًا، فقال له: استغفر اللّه. وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر اللّه. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (١٠١٣)، ومسلم في " صحيحه" (٨٩٧).

عندي شيئًا، إنّ اللّه تعالى يقول في سورة" نوحٍ": ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾."[١]

ما أبركَ الاستغفار وأعظمه!، وتدبر هذا الحديث العظيم الذي هو كنزٌ من كنوز السنة، عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، ثَلَاثًا غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ»[٢] أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، يسيرة مع عدم الإصرار على الذنب، وإن كان هناك حقٌّ للعباد رجع، يغفر الله تعالى لك،

وقد قال ﷺ والحديث في الصحيح، " سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ " - وتدبر هذه الجائزة العظمى، والله جائزة لو أننا نوقن بهذه الأذكار، ما غفلنا عنها أبداً، قال ﷺ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ

---

(١) ينظر " المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٧٤)، و "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٢٢) و "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٩٤٥٠)، وابن حزيمة في "صحيحه " (٣٥١٠)، والحاكم في " المستدرك " (١٩٠٨)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٢٧٢٧).

الجَنَّةِ»(١)، ما شاء الله أمانٌ وضمانٌ وكرمٌ من رب العالمين جلَّ جلاله، فلذلك أخي عليك بكثرة الاستغفار.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ " أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وفي طرقكم وعلى موائدكم، وفي أسواقكم وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون في أي وقتٍ تنزل البركة"(٢)، فالبركة تنزل بالاستغفار، فاستغفروا الله كثيراً، وقالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا " طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ فِي صَحِيفَتِهِ استِغفَاراً كَثِيراً "(٣)

وقفةٌ: نعجب من قول ربنا عزَّ وجلَّ عن الملائكة الكرام: ﴿**يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ۝٢٠**﴾ [الأنبياء: ٢٠] ثم نعجب أشد العجب من حالنا وحال إخواننا، أننا يمر علينا اليوم وأكثر ولعلنا ما استغفرنا مائة مرةٍ، ولو استغفرنا في اليوم مائة مرةٍ، وسبحنا مائة مرةٍ، وهللنا مائة مرةٍ، نشعر أننا من سادات الأولياء-سبحان الله العظيم- وهؤلاء ملائكةٌ كرامٌ يسبحون ليل نهارٍ، ما قال رب العزة يسبحون في الليل والنهار، لا

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٣٠٦)، والترمذي في "سننه" (٣٣٩٣)، والنسائي في "المجتبى" (٥٥٢٢)، وأحمد في "مسنده" (١٧١١١)، وابن حبان في "صحيحه" (٩٣٢)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في " التوبة " (١٥٨)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٦٤٧).

(٣) **(صحيح)** أخرجه ابن ماجه في "سننه " (٣٨١٨)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٦٣٨)، مرفوعا من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء موقوفا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أخرجه هناد السري في " الزهد" (٢/ ٤٦٢)، والبيهقي في "شعب الإيمان " (٦٣٧)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا موقوفـًا عليها، وقال هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ مَوْقُوفًا. وصححه الألباني في "صحيح الجامع " (٣٩٣٠).

بل قال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ۝٢٠﴾ يدل ذلك على أن تسبيحهم واستغفارهم لربهم يستغرق الوقت كله، طوال الليل وطوال النهار، على الدوام يسبحون رب العالمين، ويجلونه ويعظمونه،

فأين نحن؟ عندنا همومٌ الله بها عليم، ونشكي إلى هذا وذاك، لماذا لا نشتكي إلى الله، فهلا استغفرنا من ذنوبنا مائة مرةٍ، ألف مرةٍ، ألفي مرةٍ، هذا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَحَّ ذلك عنه، ورواه عددٌ من أهل العلم عنه، يستغفر اثني عشر ألف مرة(١)، رضي الله عنهم وأرضاهم،

وقال أبو المنهال رَحِمَهُ اللَّهُ -وهي كلمةً جميلةً جداً-: " ما جاور عبدٌ في قبره جاراً أحب إليه من استغفارٍ كثيرٍ"(٢) يعني عندما يوضع المرء منا في قبره، يجد الاستغفار مؤنسـاً له في قبره، ويكرمه ربه بكراماتٍ الله بها عليم، من غفرانٍ في الذنوب ورفعةٍ في الدرجات، ببركة الاستغفار،

وهناك حديثٌ يضعفه بعض أهل العلم ويصححه بعضهم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»(٣)

---

(١) تقدم تخريجه عنه (٥٨).

(٢) ينظر " جامع العلوم والحكم " لابن رجب (٢/ ٤١٥).

(٣) (ضعيف) أخرجه أبو داود في "سننه " (١٥١٨)، وابن ماجه في "سننه " (٣٨١٩)، والنسائي في " السنن الكبرى" (١٠٢١٧)، وأحمد في "مسنده" (٢٢٣٤)، والطبراني في " المعجم الكبير "

وقفةٌ: نشتكي قلة الأرزاق، نشتكي عدم استقامة الأولاد، فلنكثر من الاستغفار مع الأخذ بالأسباب التي أمرنا الله تعالى بها، يبارك الله عزَّ وجل.

قال الله عزَّ وجل: ﴿**فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١**﴾ أي ينزل مطراً مدراراً كثيراً متتابعـاً، متتابعـاً متتابعـاً، تبارك الله عزَّ وجل.(١)

﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ**﴾ يمددكم بأموالٍ، وينمي لكم أموالكم، وبنين، أي يعطيكم ذريةً ويكثر لكم من الذرية الصالحة، ولذلك عقب على هذه الآيات الجليلة بقوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢**﴾ قال بعض أهل التفسير رحمة الله عليهم وهذا من أعلى ما يكون من النعيم، أن يجمع الله تعالى للعبد أموالاً وبنين وجناتٍ وأنهاراً تجري في هذه الجنان، قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ**﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿**وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢**﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها." (٢)،

=(١٠٦٦٥)، وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (٧٠٥).

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥٤)، و"جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٢٩٣)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٢٣).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي (٨٨٩)، و"روح المعاني" للألوسي، (٢٧/ ٤٥٨)، و"التحرير والتنوير" للطاهر ابن عاشور (٢٩/ ١٩٨).

وقفةٌ: العبد يلحظ هذه النعمة العظيمة أن الله تعالى قال: ﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ**﴾ قال أهل العلم هذا فيه ترغيب في الاستكثار من الذرية(١)، وكثرة البنين والبنات نعمةٌ ،ولكننا الآن بعض أهل زماننا- نعوذ بالله، نسأل الله العافية من خذلانه- وكأن الله تعالى صرفهم، عن الخير صرفًا، والشياطين تؤزهم إلى الشر أزاً، يرفعون رايةً لا يقولون تنظيم النسل، بل يعلنون تحديد النسل، ويقولون النسل هذا أكبر مشكلة نقابلها بالنسبة للتنمية- سبحان الله العظيم -ما يعلمون أن الذرية وكثرة العدد هذه من أعظم نعم الله على العبد،

ولقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ، وَيَنْهَى عَنِ التَّبَتُّلِ نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ الْأَنْبِيَاءَ بِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢)،

ورب العزة حكى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠**﴾ [الصافات: ١٠٠] وأيضـًا قوله جلَّ جلاله عن إبراهيم: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ**﴾ [إبراهيم: ٣٩] ما قال كيف أربيهم وأنا كبير، لا الحمد لله، يحمد ربه، ويثني عليه بما هو أهله، أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق،

---

(١) انظر " التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي ـ تفسير جزء تبارك (١٩٢).

(٢) **(صحيح)** أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٤٩٠)، وأحمد في "مسنده " (١٢٦١٣)، وابن حبان في " صحيحه " (٤٠٢٨)، والطبراني في " المعجم الأوسط" (٥٠٩٩)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل" (١٧٨٤).

وزكريا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] وكذلك عن عباد الرحمن قالوا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]

وكذلك الولد الصالح قال عنه ﷺ فيما رواه الإمام مسلمٌ في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ "(١) منها ولدٌ صالحٌ يدعو له، وهذا من عظيم بركة الله أن ينعم على العبد بابن صالح يذكره بعد موته،

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ والحديث رواه الإمام أحمد بسندٍ حسن(٢)،

وقد يتفضل الله على العبد ويكرمه بموت بعض أبنائه شهيداً، فيكافئ الله أهله بكرامته كما روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٦٣١)، وأبو داود في "سننه " (٢٨٨٠)، والترمذي في "سننه " (١٣٧٦) والنسائي في " المجتبى" (٣٦٥١)، وأحمد في "مسنده " (٨٨٤٤).

(٢) **(حسن)** أخرجه أحمد في "مسنده " (١٠٦١٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه " (١٢٠٨١)، والطبراني في " المعجم الأوسط " (٥١٠٨)، وحسنه مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ (١٩٣).

الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ" (١)،

وقد يكون من بعض أبناء الإنسان ابناً حاملاً للقرآن، فيُكسى والداه حلتين لا يقوم لها أهل الدنيا، كما ثبت الحديث عن النبي ﷺ، رواه الإمام أحمد بسندٍ حسنٍ، بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: " تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ. فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذًّا كَانَ، أَوْ تَرْتِيلًا " (٢)،

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (١٦٦٣)، وابن ماجه في "سننه " (٢٧٩٩)، وأحمد في "مسنده " (١٧١٨٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٣٢١٣).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٢٩٥٠)، والدارمي في "سننه" (٣٤٣٤)، وابن أبي شيبة

وإذا مات الابن صغيراً، يكون شفيعـاً لوالديه، وقد ورد في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ، إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»[1]، وكذلك الولد، وهذه أحاديثٌ عظيمةٌ تدل على فضل الذرية، وخاصةً إذا قام الوالدان بالاعتناء بالذرية، وقاموا على تربيتهما بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ أي ينزل مطراً كثيراً متتابعـاً، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ لكل من يريد المال، ويريد الأولاد يستغفر الله كثيراً، يعني إخواننا الذين قدَّر الله وتأخروا في الإنجاب، أولى بهم أن يكثروا من الاستغفار كثيراً، فالله تعالى يكرم بالاستغفار ويرزق، فلا يخشى أحدٌ من كثرة الولد ويظن أن ذلك يُضعف الرزق فالرزاق هو الله تبارك وتعالى، والمطلوب أن يأخذ كل إنسانٍ بالأسباب المُوَّكَلِ بها، و يكفيه قول النبي ﷺ " تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُم الأُمَمَ "[2]،

وقفةٌ: لماذا لا تكون سببـاً ليُكاثر بك رسول الله محمدٌ ﷺ؟

الكلام الآن على الأب ليس على دولةٍ من الدول، الكلام لرب أسرةٍ، أنت من خطتك أن تقول ولدٌ واحدٌ يساوي حياةً سعيدةً، أو ولدٌ وبنتٌ حياةٌ أحسن، لا تستمع

=في "مصنفه" (٣٠٠٤٥)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٨٢٩)

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (١٢٥١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٣٢).

(٢) سبق تخريجه، رقم (٧٦).

لهذا الكلام، واترك الأرزاق لله تعالى،

فإذا قيل ننظم النسل بسبب مرض الزوجة أو مثل هذا، قلنا نعم قد يُقال بجواز هذا في بعض الحالات، لكن أن يكون قانونـًا عند أغلب الناس، فهذا حرامٌ لا يجوز،

وما ذكرناه من الأدلة شيئًا يسيراً يدل على استحباب تكثير الذرية، والواجب على العبد أن يعلم أن هذه الأمة، ما علم في تاريخها من يشكو من كثرة عددٍ، أو ادعى أن كثرة العدد عبئٌ على الأمة الإسلامية، بالعكس فالأمة الإسلامية إذا استخدمت القدرات التي عندها، والتي يستغلها أعداؤها لتغير حال أبناءها، فعدونا يعيش على ثرواتنا وخيراتنا، فإخواننا في السودان سلة غذاء العالم كله، والعالم العربي كله يأكل ويشرب من هناك،

إخواننا في السودان منهم من يكلمني يقول في بعض الأماكن لا يوجد خبزٌ لوقتٍ كبيرٍ. الخبز لا يوجد في السودان التي تطعم العالم كله، هذه سياسةٌ مقصودةٌ حتى يظل المسلمون في ضيقٍ، والغرب الكافر في نعيمٍ، ويبيعون لنا قمحهم وثرواتهم- سبحان الله العظيم-

والخلاصة: أن كثرة الذرية ما كانت أبداً سبباً للوهن، بل هي سببُ قوةٍ وخيرٍ وأكبر مصادر العز للأمة، لو استخدمت استخداماً صحيحاً.

الله تعالى يقول: ﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ١٢**﴾ علاجٌ لمشاكلنا، الآن في مصر والسودان يشتكون ويضع الناس أيديهم على قلوبهم، يخافون من جفاف النيل، فعلى من يخاف أن يأخذ بالأسباب الشرعية من طاعةٍ واستغفارٍ وغيرهما، وبالأسباب المادية الميسرة، فسيكرمه الله بأنهارٍ

تجري، أنهارٍ متعددةٍ وليس نهراً يجري من الجنة يخشى عليه من الجفاف، وسر الخوف أن الناس انصرفوا عن ربهم، وانصرفوا عن كتاب الله عزَّ وجل.

قال الله تعالى: ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ "الرَّجَاءُ" بِمَعْنَى الْخَوْفِ، و "الْوَقَارُ" الْعَظَمَةُ اسْمٌ مِنَ التَّوْقِيرِ وَهُوَ التَّعْظِيمُ، ولأهل العلم أوجهٌ في تأويل ذلك منها:

الوجه الأول: يعني ما لكم لا تعظمون الله حق تعظيمه(١)، أو مَا لَكُمْ لَا تَرَوْنَ لِلَّهِ عَظَمَةً، وروي عن ابن عباسٍ ومجاهد والضحاك.

الوجه الثاني: بعض السادة العلماء قال: ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ**﴾، ترجون هنا يعني تخافون، ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ أي ما لكم لا تخافون لله عظمة، سبحانه جلَّ جلاله(٢)، والمعنى: أَيُّ عُذْرٍ لَكُمْ فِي تَرْكِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ.

الوجه الثالث: ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ يعني ما لكم لا تعظمون الله حق تعظيمه.

الوجه الرابع: أي مالكم لا ترجون توقيراً من الله لكم لو أطعتموه، وما زلتم على معصيتكم، قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: "ما لكم لا ترجون في عبادة اللّه أن يُثيبكم على توقيركم

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٩٥)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٠١)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٧٠)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٣١).

(٢) ينظر "جامع البيان "للطبري (٢٣/ ٢٩٥)، و "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٣١)، و"الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥٥).

إيّاه خيرًا "[١]

وقفةٌ: العبد الذي يوقر ربه يعظمه، يطيعه، يمتثل أمره، يفعل ما أمر، ويجتنب ما نهى، والعبد الذي يعظم ربه ويوقره، لا يجرؤ على معصيته.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا۝١٤﴾ أطواراً أي طوراً بعد طورٍ، يعني خلقك الله من نطفةٍ، ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ، مخلقةٍ وغير مخلقةٍ، ثم جعلك عظامـًا، ثم كساك لحمـًا، ثم شق لك السمع والبصر وهكذا، بعد ذلك نفخ فيك الروح، وهكذا تخرج طوراً طفلاً صغيراً ثم تصير إلى أن تصل سنَّ التمييز، ثم بعد ذلك شابـًا قويـًا فتيـًا، ثم بعد ذلك تُرد إلى أرزل العمر، وهكذا سُنَّةُ الله، وكذلك الأطوار الأشكال المختلفة، خلقنا الله تعالى منَّا الغني ومنَّا الفقير، منَّا العالم ومنَّا الجاهل، منَّا الحليم ومنَّا سريع الغضب، منَّا الكريم ومنَّا البخيل، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا۝١٤﴾ ثم جعل يعدد آيات الله في الكون البهية، التي يستدل بها على عظمة الله العظيم.[٢]

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا۝١٥﴾ الطِّبَاقُ: مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: طَابَقْتُ مُطَابَقَةً وطِبَاقًا. وَإِنَّمَا عُنِيَ بِذَلِكَ: كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، سَمَاءً فَوْقَ سَمَاءٍ مُطَابَقَةً.

---

(١) ينظر " معالم التنزيل " للبغوي (٨/ ٢٣١)، و"الجامع لأحكام القرآن "للقرطبي (٢١/ ٢٥٦).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٧٤).

وهذه آيةٌ عظيمةٌ أمام الناس، سبع سماواتٍ طباقًا، طبقٌ فوق طبقٍ فوق طبقٍ[١]- سبحانك ربي ما أعظمك- بغير عمدٍ ترونها، آيةٌ عظيمةٌ تأخذ بقلوب أهل الألباب، وتأخذ بعقولهم وأسماعهم وأبصارهم، تدلهم على أنه لا إله لهذا الكون إلا الله، ﴿**أَلَمْ تَرَوْا**﴾ انظروا، كما قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴿١٨﴾**﴾ [الغاشية: ١٧-١٨] يأمرنا الله تعالى بالتفكر في الكون.

﴿**وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا**﴾ جعل الله تعالى القمر فيهن- في السماء- نوراً، إذاً نور القمر في السماء، أورد الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قتادة بسندٍ صحيحٍ قال ذُكر لنا أن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان يقول: إن ضوء الشمس والقمر نورهما في السماء، اقرءوا إن شئتم: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴿١٥﴾**﴾ ... إلى آخر الآية.[٢]

﴿**وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴿١٦﴾**﴾ سراجًا نورها أقوى، وَقِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: "مَا بَالُ الشَّمْسِ تَقْلِينَا أَحْيَانًا وَتَبْرُدُ عَلَيْنَا أَحْيَانًا؟ فَقَالَ: إِنَّهَا فِي الصَّيْفِ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَفِي الشِّتَاءِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عِنْدَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ،

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٢٩٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٥٨).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢١/ ٢٩٩) وصحح الأثر الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ص (١٩٣).

وَلَوْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لما قام لها شي."[١]، المقصود أن هذه آياتٌ عظيمةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ سراجًا قال أهل العلم يضىء مع حرارةٍ، ولذلك فيما رواه الإمام مسلمٌ في صحيحه عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآَنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[٢]،

والله تعالى هو الذي قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥] فقال أهل العلم، قال النبي ﷺ :"الصَّلاةُ نُورٌ"، لأن الصلاة على أي حالٍ يربح المرء، وتنير له في كل أوقاته، في حياته، وعلى قبره، وفي الصراط وغير ذلك، وأما الصبر قال عنه ضياءٌ يعني يضىء لك مع حرارةٍ، ومع ألمٍ ومع همٍّ، مع صبرك على الأمر الذي قدره الله عليك، إذا صبرت عليه أضاء لك، كما أن الشمس قال الله عنها بأنها

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٢٣)، والترمذي في " سننه " (٣٥١٧)، والنسائي في " المجتبى " (٢٤٣٧)، وابن ماجه في " سننه " (٢٨٠).

ضياءٌ، فهي تضئ للعباد ولكن مع حرارةٍ موجودةٍ فيها، فلذلك ربنا تعالى يقول: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴿١٦﴾﴾.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الصبر، فإنه ضياءٌ، والضياء: هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارةٍ وإحراقٍ كضياء الشمس بخلاف القمر، فإنه نورٌ محضٌ، فيه إشراقٌ بغير إحراقٍ، قال الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ ومن هنا وصف الله شريعة موسى بأنها ضياءٌ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨] وإن كان قد ذكر أن في التوراة نوراً كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولكن الغالب على شريعتهم الضياء لما فيها من الآصار والأغلال والأثقال.

ووصف شريعة محمدٍ – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بأنها نورٌ لما فيها من الحنيفية السمحة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ولما كان الصبر شاقاً على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها، وكفها عما تهواه، كان ضياءً، فإن معنى الصبر في اللغة: الحبس، ومنه قتل الصبر: وهو أن يُحبس الرجلُ

حتى يقتل."(١)

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا١٧﴾ وَاللهُ أَنْشَأَكُمْ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ، فَخَلَقَكُمْ مِنْهُ إِنْشَاءً، والمعنى خلقكم الله تعالى من ترابٍ، وقيل خلق أباكم من ترابٍ، آدم عليه الصلاة والسلام،

وفي الحديث عن أَبي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ: جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ «زَادَ فِي حَدِيثِ يَحْيَى» وَبَيْنَ ذَلِكَ "(٢)، لأن الأرض مختلفةٌ منها أرضٌ صلبةٌ، وخلق منها بعض الناس، وأرضٌ سهلةٌ خلق منها بعض الناس، فكل إنسانٍ أخذ من طباع الأرض التي خلق منها.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا١٨﴾ ثمّ يعيدكم في الأرض كما كنتم ترابًا فيصيّركم كما كنتم من قبل أن يخلقكم ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ ويخرجكم منها إذا شاء أحياءً كما كنتم بشرًا من قبل أن يعيدكم فيها، فيخرجكم إخراجًا منها، عند

---

(١) ينظر " جامع العلوم والحكم " لابن رجب (٢/ ٢٥)

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٤٦٩٣)، والترمذي في "سننه" (٢٩٥٥)، أحمد في "مسنده" (١٩٥٨٢)، ابن حبان في "صحيحه" (٦١٦٠)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة " (١٦٣٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﵁، به.

البعث والعرض على الله تبارك وتعالى.(١)

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا۝١٩﴾ أي جعلها الله ممهدةً وبسطها جلَّ جلاله، حتى يستطيع الناس أن يذهبوا ويجيئوا، ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا۝٢٠﴾ أي تسلكوا منها طرقًا واسعةً، لمعايشكم وقضاء مصالحكم، وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لِتَسْلُكُوا مِنْهَا طُرُقًا صِعَابًا مُتَفَرِّقَةً؛ وَالْفِجَاجُ: جَمْعُ فَجٍّ، وَهُوَ الطَّرِيقُ. وكل هذه من نعم الله وآيات الله الكونية، التي تدل على وحدانيته جلَّ جلاله."(٢)

فذكر نبي الله نوحٌ قومَه حتى يرجعوا ولكنهم ما رجعوا إلى الله وما تابوا ولا أنابوا، وأصروا على كفرهم وعتوا عتواً كبيراً.

قال عز وجل:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا۝٢١ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا۝٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا۝٢٤﴾

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا۝٢١﴾

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٠٠)، و"المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٣٧٥)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٥٩).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٠٠)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣٤)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٢٥).

قال ذلك نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد هذه الدعوة الطويلة، فقد دعا قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، ولون لهم الدعوة بالليل والنهار، وسراً وجهراً، وأسرَّ وأعلن، ورغم ذلك ما آمن معه إلا قليلٌ، فإذا به يشكوا حاله لربه تبارك وتعالى،

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول تعالى مخبراً عن نوحٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنّه أنهى إليه، وهو العليم الّذي لا يعزب عنه شيءٌ، أنّه مع البيان المتقدّم ذكره، والدّعوة المتنوّعة المشتملة على التّرغيب تارةً والتّرهيب أخرى: أنّهم عصوه وكذّبوه وخالفوه، واتّبعوا أبناء الدّنيا ممّن غفل عن أمر اللّه، ومتّع بمالٍ وأولادٍ، وهي في نفس الأمر استدراجٌ وإنظارٌ لا إكرامٌ؛ ولهذا قال: ﴿**وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا**﴿٢١﴾﴾[1] "،

﴿**إِلَّا خَسَارًا**﴾ أيْ نقصـًا، وأيُّ خسارةٍ أعظم من تركهم للإيمان، وتركهم الدين، وهذه الخسارة تأخذهم إلى الخسارة العظمى يوم القيامة، ﴿**قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ**﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].[2]

﴿**قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى**﴾ ما أطاعوني، ﴿**وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ**﴾ واتّبعوا في معصيتهم إيّاي من دعاهم إلى ذلك، ممّن كثر ماله وولده، فلم تزده كثرة ماله وولده ﴿**إِلَّا خَسَارًا**﴾ بعدًا من اللّه، وذهابًا عن محجّة الطّريقِ، أي اتبعوا

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٣٤)، و"تفسير المراغي" (٢٩/ ٨٦).

(٢) ينظر "جامع البيان " (٢٣/ ٣٠٢)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٢٦)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٤٦٥).

الرؤساء والأغنياء، واتبعوا هؤلاء السادة الكبراء، ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ وقُرِأت (وَوِلْدُه) بالفتح والضم، وكلاهما معنىً واحداً[١]،

وقفةٌ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ وفي هذا أن العبد يشكوا حاله لربه عزَّ وجلَّ، يعني الآن يشكوا نوحٌ قومه لله تعالى، يا رب أنا دعوتهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامـًا، وكذلك اجتهدت في الدعوة لهم، ودعوتهم سراً وجهاراً، وأعلنت وأسررت، وفرادى وجماعاتٍ، ورغم ذلك يا سيدي ما آمنوا بي، عصوني واتبعوا الأغنياء والكبراء والمُترَفِين، وهكذا العبد الصالح يشكوا همه لله، ألم تسمع إلى قول نبي الله يعقوب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وأعظم الهم، إذا كان الهم لله عزَّ وجلَّ، فاشكوه لربك، بينك وبينه، يا رب هذا حالي لا يخفى عليك، فهذا نبي الله نوحٌ يشكو ويبث همه لله تعالى رب العالمين عزَّ وجل: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾.

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ أي كادوا كيداً عظيمـًا بليغـًا، وقد اختلف العلماء في

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٠٢) ": ﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾ بفتح الواو واللام، وكذلك قرءوا ذلك في جميع القرآن. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بضم الواو وسكون اللام، وكذلك كل ما كان من ذكر الولد من سورة مريم إلى آخر القرآن. وقرأ أبو عمرو كل ما في القرآن من ذلك بفتح الواو واللام في غير هذا الحرف الواحد في سورة نوح، فإنه كان يضم الواو منه. والصواب من القول عندنا في ذلك، إن كل هذه القراءات قراءات معروفات، متقاربات المعاني، فبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب."، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٦٠).

المقصود بالمكر في الآية على أوجهٍ:

الوجه الأول: أن قوم نوحٍ أغروا السفهاء بقتل نوحٍ عليه الصلاة والسلام.

الوجه الثاني: وَقِيلَ: هُوَ تَعْزِيزُهُمُ النَّاسَ بِمَا أُوتُوا مِنَ الدُّنْيَا وَالْوَلَدِ، حَتَّى قَالَتِ الضَّعَفَةُ: لَوْلَا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ لَمَا أُوتُوا هَذِهِ النِّعَمَ.

الوجه الثالث: قَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ.

الوجه الرابع: قِيلَ: مَكْرُهُمْ كُفْرُهُمْ.

الوجه الخامس: وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ قَوْلُ كُبَرَائِهِمْ لِأَتْبَاعِهِمْ: لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعـًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً.[1]

والمعنى: مكروا وصدوا عن سبيل الله، ووضعوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا على كفرهم، وتمادوا على ما هم فيه، وكذلك أغووا الضعفاء والفقراء، بقتل نبي الله نوحٍ عليه السلام،

وزيادةً على ذلك ﴿**وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ**﴾ الكبراء يوصون الضعفاء، والسادة الأغنياء يوصون أتباعهم، ﴿**وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ**﴾ أي لا تتركونها أبدا، إياكم أن تتركوها لقول نوحٍ.

﴿**وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾**﴾ مَنْ هؤلاء؟ هؤلاء أسماءٌ كانوا لعباد صالحين، ولكن الغلو أوصلهم إلى أنهم جُعِلُوا آلهةً من دون الله

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٦١)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٠٣)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٦٢).

تبارك وتعالى، كانوا عباداً صالحين قبل نبي الله نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان لهم أتباعٌ ، فلما مات هؤلاء الصالحين جاء الشيطان لأتباعهم لما حزنوا عليهم جداً، فأمرهم أن يصوروا لهم صوراً فيتذكرونهم إذا نظروا إلى هذه الصور، وإذا بهم يجتهدون في العبادة كما كانوا يجتهدون أيام هؤلاء الصالحين، وإذا بهم بعد ذلك جاء الشيطان وسَوَّل إلى أبنائهم أن يجعلوا لهم تماثيل، فلما نُسي العلم جاء الشيطان إلى أبنائهم، وقال لهم: إن آبائكم كانوا يعبدون هذه الصور، وبهم يسقون إذا قحطوا، فعبدوهم من دون الله تعالى.

روى البخاري في صحيحه عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ» (١)،

ثم صارت هذه الأوثان الخمسة في العرب، أدخلها عمرو ابن لحي الخزاعي إلى الجزيرة العربية، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه " (٤٩٢٠)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٣٣٤١).

«رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفَ أَبَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلَاءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»[(١)]،

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٦٢٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨٥٦)، واللفظ له. هنا روى الإمام البخاري في صحيحه من طريق "ابن جريجٍ، قال عطاء" وهذا الأثر الذي رواه الإمام البخاري عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في سنده انقطاعٌ، لأن ابن جريجٍ لم يسمع من عطاء الخراساني،

وقال الحافظ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ "فتح الباري" (٨/ ٦٦٧):" قيل هذا منقطعٌ لأنّ عطاءً المذكور هو الخرساني ولم يلقَ ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ فقد أخرج عبد الرّزّاق هذا الحديث في تفسيره عن ابن جريجٍ؛ فقال: أخبرني عطاء الخرساني عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال أبو مسعودٍ ثبت هذا الحديث في تفسير ابن جريجٍ عن عطاء الخرساني عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وابن جريجٍ لم يسمع التّفسير من عطاء الخرساني وإنّما أخذه من ابنه عثمان بن عطاءٍ فنظر فيه، وذكر صالح بن أحمد بن حنبلٍ في العلل عن عليّ بن المدينيّ قال سألت يحيى القطّان عن حديث بن جريج عن عطاء الخرساني فقال ضعيفٌ؛ فقلت إنّه يقول أخبرنا قال لا شيء إنّما هو كتابٌ دفعه إليه انتهى، وكان ابن جريجٍ يستجيز إطلاق أخبرنا في المناولة والمكاتبة، وقال الإسماعيليّ أخبرت عن عليّ بن المدينيّ أنه ذكر عن تفسير بن جريجٍ كلامًا معناه أنّه كان يقول عن عطاء الخرساني عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فطال على الوراق أن يكتب الخرساني في كلّ حديثٍ فتركه فرواه من روى على أنّه عطاء بن أبي رباحٍ انتهى وأشار بهذا إلى القصّة الّتي ذكرها صالح بن أحمد عن عليّ بن المدينيّ ونبّه عليها أبو عليٍّ الجيّانيّ في تقييد المهمل قال بن المدينيّ سمعت هشام بن يوسف يقول قال لي بن جريجٍ سألت عطاءً عن التّفسير من البقرة وآل عمران ثمّ قال اعفني من هذا قال، قال هشامٌ فكان بعد إذا قال، قال عطاء عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال عطاء الخرساني قال هشامٌ فكتبنا ثمّ مللنا يعني كتبنا الخرساني قال بن المدينيّ وإنّما بيّنت هذا لأنّ محمّد بن ثورٍ

والشاهد أن جماهير أهل التفسير ذهبوا إلى هذا الذي نصَّ عليه ابنُ عباسٍ، أن هذه الأوثان التي كانت في قوم نوحٍ- وداً وسواعـاً ويغوث ويعوق ونسراً - وأنها كانت تعبد من دون الله، وأنها صارت في العرب بعد ذلك، وجرى على ذلك القول جماهير أهل التفسير(١)،

وبعض أهل العلم قال بأن هذه الأسماء الخمسة، أسماءٌ لأبناء نبي الله آدم، والله أعلم ولم يصح الحديث أو السند عن أهل العلم بذلك ولكن ذكره القرطبي وغيره من أهل التفسير(٢)،

=كان يجعلها يعني في روايته عن بن جريج عن عطاء عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيظنّ أنّه عطاء بن أبي رباحٍ وقد أخرج الفاكهيّ الحديث المذكور من طريق محمّد بن ثور عن بن جريج عن عطاء عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ولم يقل الخرساني وأخرجه عبد الرّزّاق كما تقدم فقال الخرساني وهذا ممّا استعظم على البخاريّ أن يخفى عليه لكنّ الّذي قوي عندي أنّ هذا الحديث بخصوصه عند ابن جريج عن عطاء الخرساني وعن عطاء بن أبي رباحٍ جميعًا ولا يلزم من امتناع عطاء بن أبي رباحٍ من التّحديث بالتّفسير أن لا يحدّث بهذا الحديث في بابٍ آخر من الأبواب أو في المذاكرة وإلّا فكيف يخفى على البخاريّ ذلك مع تشدّده في شرط الاتّصال واعتماده غالبًا في العلل على عليّ بن المدينيّ شيخه وهو الّذي نبّه على هذه القصّة وممّا يؤيّد ذلك أنّه لم يكثر من تخريج هذه النّسخة وإنّما ذكر بهذا الإسناد موضعين هذا وآخر في النّكاح ولو كان خفي عليه لاستكثر من إخراجها لأنّ ظاهرها أنّها على شرطه"

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٦١).

(٢) ينظر "النكت والعيون"للماوردي(٦/ ١٠٤)،و"الجامع لأحكام القرآن"للقرطبي(٢١/ ٢٦١)

والمقصود أن أهل الكفر يتواصون بالثبات على كفرهم، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴿٢٣﴾﴾ يتواصون، ويوصي بعضهم بعضـًا، ولذلك رب العزة يقول في كتابه، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴿٦﴾﴾ [ص: ٦] وقالوا أيضـًا (﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧]

فأهل الكفر يتواصون بالاستمساك بكفرهم وهم على باطل، ونحن أولى بذا منهم، فأوجب علينا أن نستوصي مع إخواننا بالاستمساك بالدين والثبات عليه، والله تعالى قال لنا جميعـًا: (﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣] الخطاب للحبيب ﷺ عند نزولها ولكن اللفظ عام لكل الأمة، فاستمسك بالذي أوحي إليك، وقال النبي ﷺ :"لَا تُشْرِك بِالله وَإِنْ قُتِلتَ أَوْ حُرِّقْتَ أَوْ صُلِبْتَ"(١) لا تشرك بالله تعالى أبداً، لا تترك دينك، اعتصم بالله تعالى واستمسك به، وتواصى مع إخوانك، فالكفار يتواصون، ترون الاتحاد الأوروبي مثلا في زماننا، متعاونون فيما بينهم، بلاد الكفر جميعـًا اليهود والنصارى مجتمعون متفقون، يتفقون ويجتمعون على هذه الأمة المباركة، وأمتنا للأسف الشديد يتفرقون ولا يعتصمون ولا

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٢٠٧٥)، والطبراني في "الأوسط" (٧٩٥٦)، وفي "الكبير" (٢٠/ ٨٢)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٩/ ٣٠٦)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٢٠٢٦) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به.

يجتمعون ولو اجتمعوا يجتمعوا على تفاهاتٍ، لا يجتمعوا على التواصي بالحق ولا التواصي بالصبر، على هذا الخير العظيم الذي حباهم الله تعالى إياه، فلذلك وجب علينا كمسلمين أن نتواصى بالحق وأن نستمسك به، وأن نعتصم بكتاب الله والسنة، وأن يوصي بعضنا بعضاً بالتقوى، والثبات على دين الله، ونبذ الكفر والشرك من هذه الملل التي تعبد من دون الله تعالى.

سبب كفر بني آدم:

نصَّ أهل العلم على أن في هذه الآية بيان سبب كفر بني آدم وهو الغلو في الصالحين(١)، فهؤلاء الخمسة كانوا عباداً لله صالحين، كانوا عباداً يطيعون ربهم ويقيمون أمره، ويجتنبون نهيه، وإذا بهم لما ماتوا، جاء القوم الذين كانوا يحبونهم فَغَلَوا فيهم، وأنزلوهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله تعالى إياها، وجعلوهم آلهةً من دون الله، وصاروا يدعونهم ويستغيثون بهم، ويذبحون لهم وغير ذلك مما عم من الشرك في بلاد العلم.

والعبد يرى الآن هذا الشرك منتشراً في أوساط الأمة، في شتى بقاع العالم الإسلامي، في مصر والسودان، ما من بقعةٍ من بقاع العالم إلا والشرك ينتشر فيها إلا من رحم الله تعالى، من التوسل بالصالحين، والتقرب إليهم وهذه العقيدة الفاسدة من الاعتقاد أنهم ينفعون أو يضرون، وأنهم يجيبون الدعاء، وأنهم يغيثون المستغيث،

---

(١) أورده الشيخ العثيمين في " القول المفيد شرح كتاب التوحيد " في شرح حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا السابق (١/ ٣٦٩).

وحتى من بعد- والعياذ بالله تعالى- ومنهم من يعتقد أن لكل بلد قطباً يتصرف فيه فيجيب دعاء الداعي ويفرج كربة المكروب، وغير ذلك من هذه الخزعبلات، وهذه الكفريات التي حادت بالناس عن طريق ربهم عزَّ وجلَّ، ولذلك الغلو مذمومٌ في ديننا، كما روى البخاري في صحيحه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه، يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ»[1]، يقول هذا وهو سيد ولد آدم، فقد قال عن نفسه ﷺ" أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْر"[2]، ورغم ذلك قال لا تطروني، والإطراء هو المبالغة في المدح، أو مُجَاوَزَةُ الحَدِّ فِي المَدْح، والكَذِبُ فِيهِ[3]، فقال النبي ﷺ «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»، لأن النصارى جعلوا عيسى إلهـاً من دون الله، وقالوا عنه ابن الله، أما الحبيب ﷺ فنهى عن ذلك، وحرم ذلك وهذا من أكبر أسباب الشرك، الموصلة إلى الكفر بالله عزَّ وجلَّ، ويؤدي ذلك إلى الخلود في جهنم لمن مات على ذلك.

ولذلك أم سلمة، وأم حبيبة رضي الله عنهما ذكرتا للنبي ﷺ كنيسةً رأتاها بأرض الحبشة، لما كانوا في الهجرة، فذكرتا ذلك للنبي ﷺ، وما فيها من الصور، فيها تصاويرٌ كثيرةٌ، مما كان يصنع النصارى في كنائسهم، فيصورون مريم، ويصورون عيسى عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه " (٣٤٤٥)، وأحمد في " مسنده " (١٥٤).

(٢) **(صحيح)** تقدم تخرجه في أول السورة (٧).

(٣) ينظر " فتح الباري " للحافظ ابن حجر (٦/ ٤٩٠)، و"النهاية في غريب الحديث والأثر " لابن الأثير (٣/ ١٢٣).

والحديث رواه الشيخان عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكِ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١)،

ولذلك لعن الرسول ﷺ في آخر أيامه قبل موته بخمسٍ ولعن ذلك أيضـًا وهو في سكرات الموت، ففي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» قَالَتْ: «فَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»(٢)، وقالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره، ﷺ(٣).

لذلك ينبغي على المؤمن أن لا يتغلغل إليه شيءٌ من هذه العقيدة الفاسدة، فإنها عقيدةٌ تهدم دينه، فلا يملك الضر ولا النفع إلا الله رب العالمين، لا السيد البدوي ولا أم هاشم ولا الحسين، ولا عبد القادر الجيلاني، ولا الدسوقي، ولا غيرهم أبداً، إنما الذي يملك النفع والضر هو الله جلَّ جلاله، فلا يملكه لا ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌ مرسلٌ ولا وليٌ من أولياء الله تعالى، ولذلك العبادة كلها لله، سرها وعلانيتها صغيرها وكبيرها كلها لله عزَّ وجلَّ لا ذبح إلا لله، ولا دعاء إلا لله، لا صلاة إلا له سبحانه، فتُصرف جميع

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٣٤)، ومسلم في " صحيحه" (٥٢٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٤٤١)، ومسلم في " صحيحه " (٥٢٩).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٥٣)، ومسلم في " صحيحه " (٥٣١).

العبادة لله تعالى،

وقد نصَّ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد على هذا المعنى وعلاقته بالآية في بابٍ عقده، قال:" باب بيان أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم، هو الغلو في الصالحين"، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.(١)

ورب العزة سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ**﴾ وفي عَوْدِ الضلال جهان عند أهل العلم:

الوجه الأول: هذه الأصنام بعبادة الناس لها، أضلت كثيراً، نَظِيرُهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [إبراهيم: ٣٦] فَأَجْرَى عَلَيْهِمْ وَصْفَ مَا يَعْقِلُ، لِاعْتِقَادِ الْكُفَّارِ فِيهِمْ ذَلِكَ.

الوجه الثاني: أَيْ أُضِلَّ كُبَرَاؤُهُمْ كَثِيرًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿**وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ٢٢**﴾. أي أن السادة الكبراء، والرؤساء أضلوا كثيراً من الخلق جعلوهم يتبعوهم، ويسيروا على طريقتهم والعياذ بالله.(٢)

﴿**وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ٢٤**﴾ هذا دعاءٌ على الكافرين، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ٢٨**﴾ في ختام السورة دعاءٌ على

---

(١) ينظر "القول المفيد شرح كتاب التوحيد" للعثيمين (١/ ٣٦٢)، باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٦٥)، "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٢٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٦٩).

الكافرين، الظالمون هنا هم الكافرون،

حكم الدعاء على الكافرين الظالمين:

القول الأول: قال بعض السادة العلماء الأحسن تركه، واستدلوا بذلك أن نوحًا عليه السلام دعا على قومه، ثم في حديث الشفاعة والحديث ثابت في الصحيح[(١)] لما يذهب الناس إلى آدم يقول نفسي نفسي اذهبوا إلى نبي الله نوح أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، فيعتذر ويقول إنه كانت لي دعوة مستجابة تعجلت دعوتي ودعوت على قومي، قال أهل العلم فنقصت منزلة نبي الله نوحٍ في الآخرة بسبب دعوته على قومه، ولذلك لم يشفع للناس في عرصات القيامة، ولذلك قال بعض أهل العلم، الأحسن عدم الدعاء على الظالمين، وتركه ولذلك قال ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ»[(٢)]، فقالوا: لو دعاها الرسول ﷺ في الدنيا ما نال هذه الدعوة في الآخرة.

فإذا ظلمك شخصٌ فإنه يجوز لك أن تدعو عليه، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ۝٣٩﴾ [الشورى: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ۝٦٠﴾ [الحج: ٦٠]، إلا أن العفو أفضل، لقوله

(١) **(صحيح)** وتقدم تخريجه في أول السورة (٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٣٠٤)، ومسلم في " صحيحه " (١٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وهو العفو، وقال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦] ، فكل هذه الآيات ترشد إلى أن العفو أفضل.

ويستشكل على ذلك أن نبي الله نوحاً عليه السلام ما دعا على قومه إلا بعد أن أعلمه الله بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [هود: ٣٦] وكذلك نبي الله موسى عليه السلام قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: ٨٨]

ولذلك من أهل العلم من يقول: إن الحال بحسبه، فإن كان الشخص يؤذيك أذىً مستمراً بما لا تطيقه ولا تتحمله فجائزٌ لك أن تدعو الله تعالى عليه، أو إذا كان يفسد وكان شره مستطيراً في الأرض فجائزٌ لك أن تدعو عليه، واستدل بدعاء نوح عليه السلام، ودعاء موسى عليه السلام على فرعون، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾

ودعاء الرسول ﷺ على عصية ورعل وذكوان، وقوله: " اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْمَلَأِ مِنْ قُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، أَوْ أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، شَكَّ عَبْدُ اللهِ"، إلى غير ذلك من الأدعية

الواردة عن رسول الله ﷺ.(١)

يحرم على المسلم أن يدعوا على إنسانٍ أن يختم الله له بالكفر، ويحرم عليه أيضـًا أن يشهد الله على ما في قلبه فلا يؤمن، لماذا؟

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"وقد استشكل بعض النّاس هذه الآية فقال: كيف دعا عليهم وحكم الرّسل استدعاء إيمان قومهم، فالجواب أنّه لا يجوز أن يدعو نبيٌّ على قومه إلّا بإذنٍ من اللّه، وإعلامٍ أنّه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن، دليله قوله لنوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ (٢)

ولكن عموم الدعاء على الظالمين جائزٌ؛ فإذا ضُرِبَ إنسانٌ، فيجوز له أن يدعو على من ظلمه،

قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يقول: لا يحبّ اللّه أن يدعو أحدٌ على أحدٍ، إلّا أن يكون مظلومًا، فإنّه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَن

---

(١) ينظر "تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٣١٣)، و "التسهيل لتأويل التنزيل" - تفسير جزء تبارك - ص (٢٠٥).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١١/ ٤١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٣٠).

ظُلِمَۚ﴾ وإن صبر فهو خيرٌ له." (١)

فجائزٌ للمظلوم أن يدعوا على ظالمه، و في قصة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيحين عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللهِ «فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ»، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ المَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ " (٢)-نعوذ بالله-

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦١٦٧)، والطبري في "جامع البيان" (٧/ ٦٢٥)، وينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٢/ ٤٤٢).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٧٥٥)، واللفظ له ومسلم في "صحيحه" (٤٥٣).

وكذلك قصة سعيد بن زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد العشرة المبشرين بالجنة، في الصحيحين أيضـًا، عَنْ عُرْوَةَ، أَنَّ أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ، ادَّعَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا، فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ»، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لَا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ: «اللهُمَّ، إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَعَمِّ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا»، قَالَ: «فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا، إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ»(١)- نسأل الله العافية والسلامة- فهذا يدل على جواز الدعاء على الظالم،

والنبي ﷺ دعا على رعل وزكوان ففي الصحيحين عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَنَتَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ الرُّكُوعِ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَيَقُولُ عُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ» (٢)،

ودعا على من ألقى سلى الجذور على ظهره الشريف وذلك فيما رواه الشيخان عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣١٩٨)، ومسلم في "صحيحه " (١٦١٠)، واللفظ له.

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٠٩٤)، ومسلم في "صحيحه " (٦٧٧).

جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ، رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ - قَلِيبِ بَدْرٍ"(١)،

فجائزٌ للمظلوم أن ينتصر، فبعض المظلومين يكون مقهوراً قهراً شديداً، وفي ظلمٍ، وهَوَانٍ بسبب الجبار الظالم المتكبر عليه، مثل هذا لو دعا الله، لا تلُمْهُ فمعه حقٌ، وإن استطاع أن يصبر فهو خيرٌ، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ۝﴾ [الشورى: ٤٣] لكن لو أنه دعا فله حقٌ فلا يلمه أحدٌ،

وروى الترمذي في سننه عن ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٢٤٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٩٤).

مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا»[(١)]، وهو أبرُّ الأمة، وخير من وطئ الثرى، ويقول يا رب اجعل ثأري على من ظلمني، بل صح عنه ﷺ فيما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي، وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي، وَانْصُرْنِي عَلَى عَدُوِّي، وَأَرِنِي مِنْهُ ثَأْرِي»[(٢)]

فيجوز للمؤمن أن يدعو ويقول يا رب أرني ثأري في الظالم الذي ظلمني، ولا يعرف هذا إلا من ظُلِم، فكثيرٌ من الناس يقول: لماذا تدعو عليه فهذه قسوةٌ لا تصلح؟، فنقول هذا حقٌ للمظلوم، ولا يُلام لو فعل، ولكنه لو استطاع أن يُفوض أمره إلى الله، ويقول فوضت أمري في هذا الظالم لله، ويعفو لله فهذا شيءٌ آخر، وهذه منزلة الإحسان العالية، والله رغَّبَ في ذلك، ولكن من أحب أن يأخذ بحقه له ذلك، وليس في ذلك معصيةٌ ولا عيبٌ ولا شيءٌ.

---

(١) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٥٠٢)، والنسائي في " السنن الكبرى" (١٠٣٤١)، وحسنه الألباني في " صحيح الجامع " (١٢٦٨).

(٢) **(صحيح)** أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٦٤٩)، والترمذي في "سننه" (٣٦٠٤)، والحاكم في "المستدرك" (١٩٤٢)، وصححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد" (٦٤٩).

قال عز وجل:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾

قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ يعني بسبب خطاياهم أغرقوا فأدخلوا ناراً[١]، أُغرقوا بالطوفان، كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر: ١١-١٢] فالله سبحانه أغرقهم جميعاً ولم يبقِ ولم يذر من الكافرين أحداً.

قال ربنا تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ أُدخلوا ناراً في القبور؛ يعني أجسادهم أُغرقت بالماء، وعُذبت بالنار مباشرة، قال أهل العلم هذا دليلٌ على عذاب القبر[٢]،

وما أكثرهم في زماننا هذا -لا كثرهم الله- الذين ينكرون عذاب القبر، ويقولون ليس هناك في القبر نعيمٌ ولا عذابٌ، ولا تظن أن هؤلاء كفارٌ؛ بل أناسٌ يصلون في

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢/ ٣٠٦)، و "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٣٦).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢/ ٢٦٦)، وفتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٢٢)، والزمخشري في "الكشاف" (٤/ ٦٢٠)، و"النبوات" لابن تيمية (١٨٤).

المساجد، وبعضهم قد أتى إلى مسجدنا قريباً، ويزعم هذا الكلام؛ فهذا كلامٌ ليس بعقيدةٍ إسلاميةٍ،

من أدلة عذاب القبر:

الأدلة على عذاب القبر كثيرةٌ جداً، منها هذه الآية ﴿**مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا**﴾ومنها قوله تعالى في شأن آل فرعون: ﴿**ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦**﴾ [غافر: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿**وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَـٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣**﴾ [الأنعام: ٩٣]

وفي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت " دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَتَا: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، قَالَتْ: فَكَذَّبْتُهُمَا وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ عَجُوزَيْنِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ دَخَلَتَا عَلَيَّ، فَزَعَمَتَا أَنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَقَالَ: «صَدَقَتَا، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ» قَالَتْ: «فَمَا رَأَيْتُهُ، بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»(١)،

وفي الحديث الثابت في الصحيح عن عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ، أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٦٣٦٦)، ومسلم في "صحيحه" (٥٨٦).

فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ» قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»(١)

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ "(٢) "

وفي صحيح الإمام مسلم -أيضـًا - عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﵁، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَلَمْ أَشْهَدْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَكِنْ حَدَّثَنِيهِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ، عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ - قَالَ: كَذَا كَانَ يَقُولُ الْجُرَيْرِيُّ - فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟ " قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ» ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٨٣٢)، ومسلم في "صحيحه " (٥٨٩).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣٧٧)، وأخرجه مسلم في "صحيحه " (٥٨٨)، واللفظ له والنسائي في " السنن الكبرى" (١٣١٠).

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ» قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ" (١)

إذاً عذاب القبر حقٌ، ونعيم القبر حقٌ، فالعذاب للكافرين، ولبعض العصاة الذين عليهم ذنوبٌ وشاء الله أن يطهرهم وينقيهم، فقد يُعذَّبون في قبورهم ثم إذا كانت الذنوب مدة القبر ستنتهي قبل القيامة وينتهي العذاب، ثم ينعمون بعد ذلك،

وأيضـًا مما يدل على عذاب القبر حديث البراء ابن عازب في الصحيحين عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِذَا أُقْعِدَ المُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾(٢)

وأيضا في الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ المَدِينَةِ، أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ثُمَّ قَالَ: «بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا» أَوْ: «إِلَى أَنْ يَيْبَسَا». (٣)

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه " (٢٨٦٧)، وأحمد في "مسنده " (٢١٦٥٨)، وابن أبي شيبة في "مسنده " (١٢٢).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (١٣٦٩)، ومسلم في "صحيحه " (٢٨٧١).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٢١٦)، واللفظ له،ومسلم في"صحيحه" (٢٩٢).

وكذلك حديث البراء ابن عازبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الطويل في مسند الإمام أحمد، فيه إثبات نعيم القبر وعذاب القبر، وأن روح الكافر يُفعل بها كذا وكذا من العذاب، وأن روح المؤمن يُفعل بها كذا وكذا من النعيم، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: " اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، "، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ ". قَالَ: " فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ " قَالَ: " فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ". قَالَ: " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ:

رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ ". قَالَ: " فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ". قَالَ: " وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي ". قَالَ: " وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ ". قَالَ: " فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ "، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ". ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ**

سَحِيقٍ﴾ " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، ..."(١)- نسأل الله أن يجعلنا من عباده الصالحين-.

قال تعالى: ﴿**مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا**﴿٢٥﴾﴾ لم يجدوا ناصراً ينصرهم ويدفع عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ**﴾ [الرعد: ١١]، فمن يرد الله عمن أراد الله أن يحلَّ عليه عذابه، لا أحد ﴿**فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا**﴿٢٥﴾﴾.

﴿**وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا**﴿٢٦﴾﴾ جاءت الدعوة عليهم مباشرةً، و ﴿**دَيَّارًا**﴾ يعني يدور في الديار(٢)، وهو الإنسان المخلوق لأنه من يسكن الديار، والمعنى لا تدع فيها أحداً، وكما أسلفنا حكم الدعاء على الظالمين، ثم

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده" (١٨٥٣٤)، والحاكم في " " المستدرك (١٠٨)، وصححه الألباني في" مشكاة المصابيح" (١٦٣٠).

(٢) قال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٢٦٩): "أي من يسكن الديار، قاله السدي. وأصله ديوار على فيعال من دار يدور، فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى. مثل القيام، أصله قيوام. ولو كان فعالاً لكان دواراً. وقال القتبي: أصله من الدار، أي نازل بالدار. يقال: ما بالدار ديار، أي أحد. وقيل: الديار صاحب الدار."

ذكر العلة من هلاكهم والدعاء عليهم فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ الكفار المتكبرون يضلوا الضعفاء، ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ لأن الله أعلمه بذلك،

كما نص القرطبي على ذلك فقال: " قلت: وإن كان لم يؤمر بالدّعاء نصًّا فقد قيل له: أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن فأعلم عواقبهم فدعا عليهم بالهلاك، كما دعا نبيّنا ﷺ على شيبة وعتبة ونظرائهم فقال: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِهِمْ" لمّا أعلم عواقبهم، وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدّعاء."[(١)]، فيحرم على أي نبيٍ أن يدعو على قومه إلا إذا أعلمه الله أنهم لن يؤمنوا ولن يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله تعالى،

لذلك قال نوحٌ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ فاجراً في أعماله كفاراً في قلبه، وَذَلِكَ لِخِبْرَتِهِ بِهِمْ وَمُكْثِهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا[(٢)]-نسأل الله العافية-فهؤلاء يجمعون بين شر الأوصاف في العمل والقلب، قلبٌ خبيثٌ يعتقد عقيدةً فاسدةً، وجوارحُ فاسدةٌ تقوم بالأعمال المحرمة.

ثم دعا ربه قائلا: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ ومن هنا قال أهل العلم بأن والداه كانا مؤمنين[(٣)]، وروي عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنه قال:" لَمْ يَكْفُرْ لِنُوحٍ وَالِدٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٢٦٩)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٧٣).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣٧)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٣٠)، والزمخشري في "الكشاف" (٤/ ٦٢١).

(٣) قال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٢٦٩): "دعا لنفسه ولوالديه وكانا

آدَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ"[١]

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ قيل بيته ظاهراً، يعني من دخل بيت نوحٍ[٢]، قالوا وقدم الوالد والوالدة، والمؤمنين الذين يترددون عليه في بيته، لعظيم حقهم، وقيل إن بيتي يعني مسجدي، وكثيرٌ من أهل التفسير قالوا ذلك، أن المراد بقوله تعالى: ﴿بَيْتِيَ﴾ يعني مسجدي[٣]، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾ ﴿تَبَارًۢا﴾ يعني هلاكـًا وخساراً[٤]، والمعنى وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ إِلَّا خَسَارًا، لذلك يشرع لنا أن ندعوا للمؤمنين والمؤمنات، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

=مؤمنين. وهما: لمك بن متوشلخ، وشمخى بنت أنوش."

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٧٠)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٧٧)، وذكره الرازي في "التفسير الكبير" (٣٠/ ١٣٠) عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٣٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٧٥)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٧٥).

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٠٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٢٧١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٣٠)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٧٥).

(٤) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٠٩)، و" الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٢٧١).

وقال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "العين" (٨/ ١١٧): "والتبار: الهلاك والفَناء."، وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (١٤/ ١٩٧)، والزبيدي في "تاج العروس" (١٠/ ٢٧٧)، و"لسان العرب" لابن منظور (٤/ ٨٨).

وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين

تم بحمد الله ومنته الانتهاء منه تفسير سورة نوح

******

﴿ سُورَةُ الجِنِّ ﴾

هـذه السـورة مكيـةٌ بالإجمـاع، وآياتهـا ثمـان وعشـرون، نزلـت بعـد سـورة الأعراف(١)

مناسبتها لما قبلها:

١- أنه جاء في السورة السابقة: ﴿**فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ**﴾ [نوح: ١٠] وجاء في هذه السورة: ﴿**وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦**﴾.

٢- أنه ذكر في هذه السورة شيء يتعلق بالسماء كالسورة التي قبلها.

٣- أنه ذكر عذاب من يعصى الله في قوله: ﴿**وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣**﴾ وذكر هناك مثله في قوله: ﴿**مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا**﴾ [نوح: ٢٥]. (٢)

﴿**بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ١ يَهْدِىٓ
إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في "الدر المنثور" (١٥/ ٥): "أَخْرَج ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة الجن بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مثله."، وينظر ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٣٧٨) وابن الجوزي في "زاد المسير" (٨/ ٣٧٦)

(٢) ينظر " تفسير المراغي " (٢٩/ ٩٢).

وَلَا وَلَدًا﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ
وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ
رَهَقًا﴿٦﴾ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ
فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن
يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ
بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدًا﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ
أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ
فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا﴿١٣﴾﴾

قال الله تعالى ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴿٢﴾﴾، هؤلاء الجن سمعوا كلام الله، الله تعالى يخبر نبيه ـ ﷺ ـ، أن يقول للناس أنه أوحي إلي عن طريق جبريل، جاءني من قبل الله تعالى، بوحي من السماء، أن الجن استمعت إلى كلام الله ـ تعالى ـ من رسوله ـ ﷺ ـ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً، عجباً في فصاحته، وبلاغته، ومواعظه، وأمره، ونهيه، عجباً في بركته، وفي كل شيءٍ، قرآنا عجباً، يهدي ـ هذا القرآن ـ إلى الرشد، يهدي إلى الطريق المستقيم، إلى طريق الله، كما قال تعالى ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣٠]، وهذه الآية العظيمة

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ سبب نزولها ما ثبت في الصحيحين عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ. فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ. قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ. فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ - وَهُوَ بِنَخْلٍ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ - فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ. وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ. فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.(١)

وفي هذه الواقعة العظيمة، رسول الله - ﷺ - لم يعلم بالجن، ولم يرهم، وقرأ القرآن، وهم يرونه ويستمعونه، ولكنه لا يراهم ﷺ، وهذا ظاهر من الحديث، قال ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ"، وذكر القصة، وأن الجن لما ضربت مشارق الأرض ومغاربها، ووصل النفر من الجن إلى الذين ضربوا الأرض

---

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٧٣)، ومسلم في " صحيحه " (٤٤٩) عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به.

قِبَل تهامة، وجدوا الرسول - ﷺ - يصلي صلاة الفجر، وهو يقرأ القرآن، فاستمعوا لقراءته، فآمنوا به، ﷺ.(١)

وأيضًا الظاهر من قوله تعالى - جلَّ ذكره - ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ**﴾ أنه ما رآهم عليه الصلاة والسلام، وأيضًا من قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ**﴾ [الأحقاف: ٢٩] ظاهر أنه -ﷺ- لم يرهم، ولكنه قرأ عليهم مرة وهو يراهم ويرونه، فقد ثبت في صحيح الإمام مسلم، عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: فَقَالَ عَلْقَمَةُ، أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ - أي طارت به الجن - أَوِ اغْتِيلَ. - أي قتل سرا - قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلَ حِرَاءٍ، قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: "لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».(٢)

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٧٢)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٣٤).

(٢) أخرجه مسلمٌ في "صحيحه" (٤٥٠)، وأحمد في "مسنده" (٤١٤٩) عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ ... الحديث.

الجن حقيقةٌ، وليست خرافةً:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ دل على أن الجن حقيقة، ليست خرافة، بعض الفلاسفة ،والمخرفين يقولون بأن الجن ليسوا بحقيقةٍ، بل خرافاتٌ، أو أرواحٌ فقط، وقال بعضهم: الجن نوازع الشر في النفس الإنسانية، ـ وهذا إنكارٌ لما جاء في القرآن الكريم ـ، وبعضهم ـ من المُحدَثين ـ قال بأن الجن هي الجراثيم والميكروبات، التي كشف عنها العلم الحديث[1]، وهذا ضلالٌ طبعًا، إنما يقول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ النفر، أي من ثلاثةٍ إلى تسعةٍ[2]،

---

(١) قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في " أحكام القرآن " (٤/ ٣١٧): "وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن وقالوا إنهم بسائط ولا يصح طعامهم؛ اجتراء على الله وافتراء عليه وقد مهدنا الرد عليهم في كتب الأصول، وبينا جواز وجودهم عقلا لعموم القدرة الإلهية، وأوضحنا وجوب وجودهم شرعا بالخبر المتواتر من القرآن والسنة، وأن الله خلق لهم من تيسر التصور في الهيئات ما خلق لنا من تيسر التصور في الحركات؛ فنحن إلى أي جهة شئنا ذهبنا، وهم في أي صورة شاءوا تيسرت لهم، ووجدوا عليها، ولا نراهم في هيئاتهم، إنما يتصورون في خلق الحيوانات. وقولهم: إنهم بسائط، فليس في المخلوقات بسيط، بل الكل مركب مزدوج، إنما الواحد الله سبحانه؛ وغيره مركب ليس بواحد كيفما تصرف حاله؛ وليس يمتنع أن يراهم النبي – ﷺ – في صورهم، كما يرى الملائكة؛ وأكثر ما يتصورون لنا في صور الحيات"، وينظر " التفسير الكبير " للرازي (٣٠/ ١٣١)

(٢) قال ابن منظورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في " لسان العرب " (٥/ ٢٢٦): "وهو اسم جمع يقع على جماعة من

هذا عددٌ نصَّ الله عليه .

والجن منهم المؤمن ،ومنهم الكافر ، قال الله ـ عزو جلَّ ـ حاكياً عنهم ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، وسيأتي الكلام معنا، وربنا تعالى قال ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال تعالى ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: ٢٧] وقال ـ تعالى ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨] و ثبت في الصحيحين عنه أنه – ﷺ – كان يقول: "أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ" (١).

بعثة النبي –ﷺ –للثقلين (الجن والإنس):

فرسولنا محمد ـ ﷺ ـ بعث للثقلين، بعث للإنس والجن، قال ـ جلَّ ذكره ـ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ [الجن: ١٣] وقال ـ جلَّ جلاله ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقول ـ تبارك وتعالى ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١] العالمون عالم الإنس

=الرجال خاصة ما بين الثلاثة إلى العشرة."

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٣٨٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧١٧)، من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، به.

وعالم الجن، وقال ـ جلَّ جلاله ـ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] من تبلغه دعوة القرآن الكريم، وقال ـ جلَّ جلاله ـ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩] فهذه الأدلة تؤكد أن النبي ـ ﷺ ـ بعث للجن، كما بعث للإنس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " لم يخالف أحدٌ من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدا ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم، كإقرار المسلمين وإن وُجد فيهم من ينكر ذلك. وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك كما يوجد في طوائف المسلمين؛ كالجهمية والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك، وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالضرورة، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات ، وأعراضًا قائمة بالإنسان ،أو غيره، كما يزعمه بعض الملاحدة، فلما كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء تواترًا ظاهرًا تعرفه العامة والخاصة؛ لم يمكن طائفةٌ كبيرةٌ من الطوائف المؤمنين بالرسل أن تنكرهم، وقال أيضـًا جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن، وكذلك جمهور الكفار، كعامة أهل الكتاب، وكذلك عامة مشركي العرب وغيرهم من أولاد حام، وكذلك جمهور الكنعانيين ،واليونانيين

وغيرهم من أولاد يافث، فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن."(١)

رؤية الحيوانات للجنِّ:

ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا» (٢)، إذن بعض الحيوانات ترى الجن، وإن لم ترها أنت، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ كِلَابٍ أَوْ نُهَاقَ حُمُرٍ بِاللَّيْلِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَقِلُّوا الْخُرُوجَ إِذَا هَدَأَتِ الرِّجْلُ، فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَبُثُّ مِنْ خَلْقِهِ فِي لَيْلِهِ مَا شَاءَ، وَأَجِيفُوا الْأَبْوَابَ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا أُجِيفَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَغَطُّوا الْجِرَارَ، وَاكْفَئُوا الْآنِيَةَ، وَأَوْكُوا الْقِرَبَ» (٣)،إذاً ، دلَّت تلك الآثار، على أن بعض الحيوانات قد ترى الجن ، وكما ذكر الله في كتابه وثبت في سنة النبي - ﷺ -، أنهم حقيقةٌ ،وأنهم خلقٌ ،وأنهم عقلاء، وأنهم مأمورون ومنهيون، وأن - كما سيأتي - منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون، وأن المؤمنين منهم يثابون كمؤمني الإنس ، ويدخلون الجنة، وأن الكفار منهم يعاقبون كما يعاقب كفار بني آدم بالنار.

---

(١) ينظر "مجموع الفتاوى " لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ١٢).

(٢) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٣٠٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٢٩).

(٣) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (١٢٣٣)، وأبو داود في " سننه " (٥١٠٣) ابن حبان في " صحيحه " (٥٥١٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٣١٨٤).

أصل خلق الجن من النار، ولهم ذرية كبني آدم:

والجن خلقٌ خلقهم الله تعالى من نار السموم، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾**﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧] وكما أن لآدم ذرية، كذلك لإبليس ذرية، فالجن لهم ذراري، قال الله تعالى ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾**﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد خلق الله الجن والإنس لعبادته، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾**﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، هذا كلام الرحمن ـ جلَّ جلاله ـ، والجن كلهم مكلفون كالإنس، منهم المؤمنون، ومنهم الكافر، منهم المطيعون ومنهم العاصون، ومنهم العالم ومنهم الجاهل، ومنهم الفاسق والفاجر، ومنهم البار التقي، هكذا مثل الإنس.

الراجح أن صالحي الجن في الجنة ينعمون كالإنس:

وجزاء الجن في الآخرة كجزاء الإنس ، كما سيأتي معنا في هذه السورة العظيمة ﴿**وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾**﴾ [الجن: ١٤-١٥] ،والجن والإنس سيقفون جميعًا للحساب أمام رب العباد ـ سبحانه ـ ، كما قال الله تعالى ﴿**يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا**

بِسُلْطَٰنٍ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣] ، ونص الأئمة أن ذلك في يوم الحساب، وفي أرض المحشر، ومن حاول الفرار من الحساب من الجن والإنس لن يتمكن لأن الله تعالى قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن: ٣٥].

وأيضا الجن يتزوجون، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠] ولقوله تعالى أيضـًا، عن الحور العين ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٦]، هذا يدلك على أن الجن يتناكحون، ويتكاثرون، كتزاوج وتكاثر الإنس، وأن للشيطان ذرية، وأن الشياطين تتوالد.

هل الجن يتزوجون من الإنس والعكس:

هذه المسألة، زواج الإنس من الجن، ذكرها عددٌ من أهل العلم، ولا زلنا نسمع أن فلانـًا من الناس يقول: تزوجتُ جنية، وأن امرأة من الإنس طلقها جني، وهذا الكلام لا دليل عليه، لكن يذكره عدد من العلماء، وعلى فرض إمكان وقوعه، فقد كرهه جمع من العلماء الكرام الكبار، من السابقين والأئمة الأكابر، كالحسن البصري، وقتادة والحكم، وإسحاق[(١)]، وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: "ليس هناك دليلٌ ينهى عن

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في الأشباه والنظائر " (ص٢٥٧): "روي المنع منه عن الحسن البصري، وقتادة، والحكم بن عيينة وإسحاق بن راهويه، وعقبة الأصم. وقال الجمال السجستاني من الحنفية. في كتاب " منية المفتي عن الفتاوى السراجية " لا يجوز المناكحة بين الإنس والجن، وإنسان الماء لاختلاف الجنس."

مناكحة الجن غير أنه لم يستحبه، وعلل ذلك بقوله "لكني أكره إذا وجدت امرأة حاملاً فقيل من زوجك؟ قالت من الجن، فيكثر الفساد".[١]

نعم يكثر الفساد بمثل هذا، ولذلك ذهب أكثر أهل العلم إلى الكراهة[٢]، وذهب عددٌ آخر من أهل العلم إلى التحريم، واستدلوا على ذلك بأدلةٍ، منها أن الله ـ جلَّ جلاله ـ جعل للإنس من جنسهم ما يستمتعون به، قال تعالى ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾**﴾ [الروم: ٢١] فلو أمكن وقوعه فلا يمكن أن يحدث التآلف، والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس، هذا جنس وهذا جنس آخر، فتصبح الحكمة من الزواج لاغيةً، إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليه في الآية الكريمة التي ذكرناها.[٣]

---

(١) قال النفراوي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني" (٢/ ٣): "فقد سئل الإمام مالك – رَحِمَهُ اللَّهُ– عن نكاح الجن فقال: لا أرى به بأسا في الدين، ولكن أكره أن توجد امرأة حاملة فتدعي أنه من زوجها الجني فيكثر الفساد."

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في "مجموع الفتاوى" (١٩/ ٣٩): "وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف وقد ذكر العلماء ذلك وتكلموا عليه وكره أكثر العلماء مناكحة الجن."

(٣) قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " أضواء البيان " (٢/ ٤١٥): "مسألة. اختلف العلماء في جواز المناكحة بين بني آدم والجن. فمنعها جماعة من أهل العلم، وأباحها بعضهم."

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ (في شرح الجامع الصغير): "ففي الفتاوى السراجية للحنفية: لا تجوز المناكحة

وقوله جلَّ جلاله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، يؤيد أن الجن يتناكحون كتناكح الإنس.[١]

وقفةٌ: مساكن الجن وأماكن معيشتهم

وأما مساكن الجن، فإن الجن يسكنون في هذه الأرض التي نعيش عليها، ويكثر

=بين الإنس والجن وإنسان الماء ; لاختلاف الجنس. وفي فتاوى البارزي من الشافعية: لا يجوز التناكح بينهما. ورجح ابن العماد جوازه. اه.

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا مستنكر للعقول ; لتباين الجنسين، واختلاف الطبعين ; إذ الآدمي جسماني، والجني روحاني. وهذا من صلصال كالفخار، وذلك من مارج من نار، والامتزاج مع هذا التباين مدفوع، والتناسل مع هذا الاختلاف ممنوع. اه.

وقال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نكاحهم جائز عقلا ; فإن صح نقلا فبها ونعمت.

قال مقيده -عفا الله عنه -: لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة نبيه - ﷺ - نصا يدل على جواز مناكحة الإنس الجن، بل الذي يستروح من ظواهر الآيات عدم جوازه. فقوله في هذه الآية الكريمة: والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا الآية ممتنا على بني آدم بأن أزواجهم من نوعهم وجنسهم، يفهم منه أنه ما جعل لهم أزواجا تباينهم كمباينة الإنس للجن، وهو ظاهر.

ويؤيده قوله تعالى: ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، فقوله: أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، في معرض الامتنان يدل على أنه ما خلق لهم أزواجا من غير أنفسهم"

(١) قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " فتح الباري " (٦/ ٣٤٥): "واستدل من قال بأنهم يتناكحون بقوله تعالى لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان وبقوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني"

تجمعهم في الخراب، والفلوات[١] البراري والصحاري والأماكن الخربة، ومواضع النجاسات؛ كالحمامات والحشوش والمزابل؛ ولذلك شرع لك عند دخولك الحمام أن تقول «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ»[٢]؛ ذكران الشياطين وإناثهم، وكذلك الأقوال الخبيثة والأفعال الخبيثة،

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والفلوات ويوجدون في مواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والقمامين والمقابر. والشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين وتكون أحوالهم شيطانية لا رحمانية يأوون كثيرا إلى هذه الأماكن التي هي مأوى الشياطين. وقد جاءت الآثار بالنهي عن الصلاة فيها لأنها مأوى الشياطين والفقهاء منهم من علل النهي بكونها مظنة النجاسات. ومنهم من قال: إنه تعبد لا يعقل معناه. والصحيح أن العلة في الحمام وأعطان الإبل ونحو ذلك أنها مأوى الشياطين وفي المقبرة أن ذلك ذريعة إلى الشرك مع أن المقابر تكون أيضا مأوى للشياطين." [٣]

يقولون هذا الشيخ يطير في الهوا، وهذا الشيخ الذي يطير بالهواء تراه لا يصلي، ولا يركع ركعةً واحدةً، لله تعالى، ويقول منذ سنتين لم أغتسل من جنابة ولا نجاسة،

---

(١) قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ في" الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية "(٦/ ٢٤٥٦): "الفَلاةُ: المفازةُ، والجمع الفَلا والفلوات. وجمع الفلا."

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٤٢)، ومسلم في " صحيحه " (٦٣٢٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) ينظر " مجموع الفتاوى" لابن تيمية (١٩/ ٤٠).

ولم يتوضأ، ويطير في الهواء، ويمشي على وجه الماء، وممكن يكون أكفر العالمين ـ والعياذ بالله ـ، لا دين عنده، أنا رأيت بعض هؤلاء قديمًا، رأيناهم لا يصلون ولا يعرفون الله عزَّ وجلَّ، ويفعلون بعض خوارق العادات، تعينهم عليها الشياطين، شريطة أن يشرك مع الله عزَّ وجلَّ، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمقصود أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعي ولهم أحياناً مكاشفات ولهم تأثيرات يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نهى عن الصلاة فيها؛ لأن الشياطين تتنزل عليهم بها وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان وكما كانت تدخل في الأصنام وتكلم عابدي الأصنام وتعينهم في بعض المطالب كما تعين السحرة وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك. فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب وقد تقضي بعض حوائجهم إما قتل بعض أعدائهم أو إمراضه وإما جلب بعض من يهوونه وإما إحضار بعض المال ولكن الضرر الذي يحصل لهم بذلك أعظم من النفع بل قد يكون أضعاف أضعاف النفع."(١)

وقد جاءت الأحاديث ناهية عن الصلاة في الحمام؛ لأجل ما فيها من نجاسة، ولأنها مأوى الشياطين، وفي المقبرة؛ لأنها ذريعة إلى الشرك، ويكثر تجمعهم في الأماكن التي يستطيعون أن يفسدوا فيها كالأسواق، لذلك إن استطعت أن لا تكون أول واحد يدخل السوق ولا آخر واحد يخرج ففعل ذلك، فقد أوصى سلمان ـ رضي

(١) ينظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (١٩/ ٤٢).

الله عنه ـ أصحابه بذلك، والحديث في صحيح الإمام مسلم ، عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "لَا تَكُونَنَّ إِنِ اسْتَطَعْتَ، أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا، فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ، وَبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ."(١)

كيف نحفظ أنفسنا وبيوتنا من الشياطين:

والشياطين تبيت في البيوت التي يسكنها الناس، وتطردها التسمية، وذكر الله، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ "(٢)،

وقراءة القرآن، وخاصة سورة البقرة، تطرد الشيطان، فعن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا،

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٤٥١)، وأحمد في " الزهد " (٨١٧)، والبزار في " مسنده " (٢٥٤١).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٠١٨)، وأبو داود في " سننه " (٣٧٦٥)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٦٧٢٤)، وابن ماجه في " سننه " (٣٨٨٧).

اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»(١)، وأخبر أن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، يفر منه الشيطان، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ تُقْرَأُ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».(٢) فاقرؤوها في بيوتكم، واحرصوا على قراءتها من الحين للآخر، ولو كل ثلاثة أيام، أنت تقرأ مرة والأم تقرأ مرة، وبعض الأبناء يقرؤون مرة، واجتهدوا حتى تكون البيوت عامرةً بالملائكة، بفضل الله تعالى،

وآية الكرسي من أعظم الآيات التي تطرد الشيطان وخاصة عند النوم، فقد قال الشيطان لأبي هريرة ﵁، لما أمسكة وهو يأخذ من تمر الصدقة، "قال دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨٠٤)، وأحمد في "مسنده" (٢٢١٤٦)، وابن حبان في "صحيحه" (١١٦).

(٢) أخرج الحاكم في " المستدرك " (٢٠٦٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢١٥٩)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٥٨٨).

فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»". (١)

وأخبر الرسول - ﷺ - أن الشياطين تنتشر، وتكثر بحلول الظلام، ولذلك أمرنا بحبس الأبناء بعد غروب الشمس حتي تمر ساعة من الليل وهو وقت انتشار الشياطين، فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ، أَوْ أَمْسَيْتُمْ،

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه" (٢٣١١)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٧٢٩)، والبيهقي في " دلائل النبوة" (٧/ ١٠٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في " مجموع الفتاوى" (١٩/ ٥٣ - ٥٦): " ومن أعظم ما ينتصر به عليهم آية الكرسي فقد ثبت في صحيح ...فذكر حديث أبي هريرة السابق ثم قال: ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير في دفع الشياطين وإبطال أحوالهم ما لا ينضبط من كثرته وقوته فإن لها تأثيرا عظيما في دفع الشيطان عن نفس الإنسان وعن المصروع وعن من تعينه الشياطين مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب وأرباب السماع المكاء والتصدية إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين وبطلت الأمور التي يخيلها الشيطان ويبطل ما عند إخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطاني إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هي من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين."

فَكُفُّوا صِبْيَانكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَحُلُّوهُمْ، فَأَغْلِقُوا الأَبْوَابَ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا، وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا، وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ»(١)، نسأل الله أن يحفظ أبناء المسلمين أجمعين.

والشياطين تهرب من الأذان(٢)ـ وكلمة شيطان لا تطلق إلا على الكافر من الجن ـ، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر كما سبق؛ أما كلمة شيطان فلا تقال إلا

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في "صحيح " (٣٢٨٠)، ومسلم في " صحيحه" (٢٠١٢).

وفي رواية عند البخاري في" صحيحه " (٥٦٢٣) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رَفَعَهُ، قَالَ «خَمِّرُوا الآنِيَةَ، وَأَوْكُوا الأَسْقِيَةَ، وَأَجِيفُوا الأَبْوَابَ وَاكْفِتُوا صِبْيَانكُمْ عِنْدَ العِشَاءِ، فَإِنَّ لِلْجِنِّ انْتِشَارًا وَخَطْفَةً، وَأَطْفِئُوا المَصَابِيحَ عِنْدَ الرُّقَادِ، فَإِنَّ الفُوَيْسِقَةَ رُبَّمَا اجْتَرَّتِ الفَتِيلَةَ فَأَحْرَقَتْ أَهْلَ البَيْتِ»، قَالَ: ابْنُ جُرَيْجٍ وَحَبِيبٌ، عَنْ عَطَاءٍ «فَإِنَّ لِلشَّيَاطِينِ»

وفي رواية عند مسلمٍ في " صحيحه" (٥٣٠١) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لاَ تُرْسِلُوا فَوَاشِيَكُمْ وَصِبْيَانكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْبَعِثُ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ.

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٢٢٢)، ومسلم في " صحيحه" (٣٨٩)، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: " إِذَا نُودِيَ بِالْأَذَانِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ الْأَذَانَ، فَإِذَا قُضِيَ الْأَذَانُ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ بِهَا أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ يَخْطُرُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ إِنْ يَدْرِي كَمْ صَلَّى، فَإِذَا لَمْ يَدْرِ أَحَدُكُمْ كَمْ صَلَّى فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ

للكفار منهم، والجن هم هذه الطائفة التي تشمل المؤمن[1] وتشمل الكافر منهم، قال الحافظ بن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وَالشَّيْطَانُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْبُعْدِ عَلَى الصَّحِيحِ؛ وَلِهَذَا يُسَمُّونَ كُلَّ مَا تَمَرَّدَ مِنْ جِنِّيٍّ وَإِنْسِيٍّ وَحَيَوَانٍ شَيْطَانًا "[2] فالمقصود أن كلمة شيطان تطلق على كفار الجن، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر، والمؤمن منهم يقال له جن، وثبت في الصحيحين أن الشياطين من الجن ، نص حديث ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي ذكرناه الآن.

والشياطين تحب الجلوس بين الظل والشمس؛ ولذا نهى الشارع عن الجلوس بينهما[3]، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الشَّمْسِ»، وَقَالَ مَخْلَدٌ: «فِي الْفَيْءِ فَقَلَصَ عَنْهُ الظِّلُّ، وَصَارَ بَعْضُهُ فِي الشَّمْسِ، وَبَعْضُهُ فِي الظِّلِّ فَلْيَقُمْ»[4]

(١) قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "التفسير الكبير" (١٩/ ١٤٣): "والأصح أن الشياطين قسم من الجن فكل من كان منهم مؤمنًا فإنه لا يسمى بالشيطان وكل من كان منهم كافراً يسمى بهذا الاسم."
قال ابن حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " فتح الباري " (٨/ ٦٧٥): "وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن وأنهما لمسمى واحد وإنما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان."

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (١/ ١١٥)، و"مقاييس اللغة" لابن فارس (٣/ ١٨٣)، و"تهذيب اللغة" للأزهري (١١/ ٢١٤)، و"تاج العروس" للزبيدي (٣٥/ ٢٧٨).

(٣) ينظر كتاب " عالم الجن والشياطين " للأشقر ص (٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٨٢١)، والحميدي في " مسنده " (١١٧٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٨٣٧).

وفي رواية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الْفَيْءِ فَقَلَصَ عَنْهُ، فَلْيَقُمْ فَإِنَّهُ مَجْلِسُ الشَّيْطَانِ»(١)

والشياطين تصفد في رمضان، فعن عرفجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: " فِي رَمَضَانَ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ، وَيُصَفَّدُ فِيهِ كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ كُلَّ لَيْلَةٍ: يَا طَالِبَ الْخَيْرِ هَلُمَّ، وَيَا طَالِبَ الشَّرِّ أَمْسِكْ ".(٢)

ولهم دواب كما أن للإنس دوابًا، ففي صحيح مسلم من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، " ...أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: " لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ»(٣)، وقال تعالى ﴿**وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ**

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في "جامعه"(١٩٧٩٩)، ومن طريق عبد الرزاق في "المصنف" (١٩٧٩٩)، والبيهقي في "الكبرى" (٥٩٨٩)، والبغوي في "شرح السنة" (٣٣٣٥)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة"(٣١١٠) مرفوعًا وموقوفًا.

(٢) أخرجه النسائي في " المجتبى " (٢١٠٧)، وأحمد في " مسنده " (١٨٧٩٤)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٨٦٨).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٤٥٠)، وأحمد في "مسنده " (٤١٤٩)، وابن خزيمة في " صحيحه " (٨٢).

وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥] إذن عندهم خيل، فالجن لهم خيول.

وهناك حيوانات تصاحبها الشياطين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ عَلَى ذُرْوَةِ كُلِّ بَعِيرٍ شَيْطَانًا، فَامْتَهِنُوهُنَّ بِالرُّكُوبِ، وَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللهُ.(١)

ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْوُضُوءِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ، فَقَالَ: «تَوَضَّئُوا مِنْهَا» وَسُئِلَ عَنْ لُحُومِ الْغَنَمِ، فَقَالَ: «لَا تَوَضَّئُوا مِنْهَا»، وَسُئِلَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ، فَقَالَ: «لَا تُصَلُّوا فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ، فَإِنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ» وَسُئِلَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، فَقَالَ: «صَلُّوا فِيهَا فَإِنَّهَا بَرَكَةٌ»(٢) ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَلُّوا فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ، وَلَا تُصَلُّوا فِي أَعْطَانِ الْإِبِلِ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الشَّيَاطِينِ».(٣)

أعمار الجن:

أعمار الجن هي أطول من أعمار الإنس، وليس عندنا دليل ينص على أعمارهم

---

(١) (صحيح) أخرجه الدارمي في "مسنده" (٢٧٢٣)، وابن خزيمة في "صحيحه" (٢٥٤٧)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٠٣٤١)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٥٧٩).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٨٤)، والترمذي في " سننه " (٨١)، وأحمد في " مسنده " (١٨٥٣٨)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٥٣١٧).

(٣) **(صحيح)**، أخرجه ابن ماجه في " سننه " (٧٦٩)، وأحمد في " مسنده " (١٦٧٩٩)، وابن حبان في " صحيحه " (١٧٠٢)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٣٧٨٨).

بالتمام، ولكن أعمارهم أطول من أعمار الإنس، أما أبوهم ـ إبليس ـ لا شك أنه يعمر إلى آخر الدنيا، ـ إلى يوم القيامة ـ قال تعالى: ﴿**قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴿١٥﴾**﴾ [الأعراف: ١٤، ١٥][١] ،وأما الدليل على أنهم يموتون، أن خالد بن الوليد رضي الله عنه لما أرسله النبي ﷺ بعد فتح مكة، أرسله فقتل الشيطانة، شيطانة العزى، التي كانت تعبدها العرب، وغارت وخرجت تولول الشيطان خرج في صورة امرأةٍ ناشرةً شعرها، وقتلها خالد رضي الله عنه، فعَن أَبي الطُّفَيْلِ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا العُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ البَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخبَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا أبصرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتُهَا، أَمْعَنُوا فِي الجَبَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى يَا عُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخبَرَهُ، فَقَالَ: تِلْكَ العُزَّى..[٢]

فالمقصود أن هذه السورة العظيمة، وهذه الآيات الجليلة، تخبرك أن الجن كانوا أعقل كثيراً من بني آدم، لما سمعوا كلام الله مرة واحدة آمنوا، فما بال كفار قريش

---

(١) ينظر كتاب " عالم الجن والشياطين " للأشقر ص (٢٢).

(٢) **(حسن)** أخرجه النسائي في " السنن الكبرى " (١١٦٥٩)، وأبو يعلى في " مسنده " (٩٠٢)، وأبو نعيم في " دلائل النبوة " (٤٦٣)، والضياء المقدسي في " الأحاديث المختارة " (٢٥٨)، وحسنه الشيخ مقبل في " الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين " (٥٣٥).

سمعوا القرآن مرات ومرات وهم أهل البلاغة وأهل الفصاحة، ووصلوا في البيان والفصاحة والبلاغة إلى الذروة، ورغم ذلك لم يؤمنوا، فهذا توبيخ لهم، يا من أوتيتم البلاغة والفصاحة، ويامن ضُرِب بكم المثل في البيان وحسن الأداء، أنتم لم تؤمنوا وقد سمعتم هذا القرآن العجب، والجن وهم من جنسٍ آخر ليسوا من جنسكم يا معشر البشر، سمعوا كلام الله وآمنوا به من مرة واحدةٍ، وأيضـاً قاموا بدعوة إخوانهم إلى الإسلام واتباع الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿**يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٣١﴾**﴾ [الأحقاف: ٣١] فهم لم يكتفوا بإيمانهم هم، بل قاموا وصاروا دعاة إلى الله تبارك وتعالى، فلا تكن الجن أعقل منكم، ولا أحرص على الدين منكم. والجن يتعلمون ويحضرون مجالس علم الإنس، وقد ذُكِرَ عن الشيخ ابن بازٍ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، ذكره طلبته وهو مقيد في كتبه، أن طالبـاً من الجن كان يحضر مجلس الشيخ باستمرار وكان يتفقه، فهذا وارد، لأن منهم الصالحون ومنهم الطالحون، ومنهم علماء وطلبة علم وغير ذلك.[1]

(١) ذكر الشيخ سعيد بن وهف القحطاني ـ حفظه الله ـ (س/ أحسن الله إليك، هؤلاء بعض الأخوة يقولون، أنك قد عرف عنك مرافقتك للشيخ ابن باز رحمه الله فهم يريدون أن تحدثهم عن تقوى الشيخ وعمله وعلمه؟؟

ج/ الشيخ رحمه الله له سيرة كتبها تلاميذه الكُبار، وأخذوها ونشروها، ومن أراد أن يطلع على هذه السيرة فليقرأ ما كتب وهي موجودة في المكتبات في الغالب، فمن أراد ذلك فليرجع إليها، لكن ممكن أخبركم بشيء قد لا يقال إنه منشور لأني أنا سمعته وثبت عندي، أو أخبرني به بعض الناس يعني مواقف، من هذه المواقف التي تدل على أن الشيخ درَّس الجن والأنس. الشيخ

=استفاد منه الجن والأنس، وهكذا كل طالب علم يستفيد منه الجن والإنس.

*. كان في الباحة رجل يقال له أبو يوسف، يقول بأنه كان سائقا للشيخ عام ٨٣هـ ....

يقول عام ٨٣هـ، كنت سائقا للشيخ في المدينة وكان رئيس الجامعة الإسلامية، وكان فيه طالب من أفريقيا يدرس مع الطلاب كان في غرفة ما يقارب طولها (٦متر)، ودخل بعض الطلاب وقال لهم هذا الرجل الأفريقي: [أغلق الباب] لبعض الطلاب، فلم يغلق الباب، فغضب هذا الأفريقي ومد يده وامتدت إلى ستة متر وأغلق الباب، ثم رجع يده، مغاط ما شاء الله مغطها ورجعها، سبحان الله دخل الخوف في قلوب الناس، ذهبوا للشيخ وأنا معهم، لا يزال حيًا في الباحة اسمه أبو يوسف في مركز الدعوة في الباحة.

يقول وأنا معهم، وهو كبير في السن لكن الشيخ شفع له خلاه عندهم موظف هناك في حياته رحمه الله، وجلسوا عند الشيخ وأخبروه بالقصة.

جاء له الشيخ [للأفريقي وقال]: أسألك بالله -اسمه عمر هذا الطالب الأفريقي اسمه عمر -فقال: أسألك بالله هل أنت جني وأم إنسي؟؟

قال لا والله يا شيخ إلا جني، وجيت أطلب العلم لا تحرمني طلب العلم جزاك الله خيراً بمعنى كلامه.

يقول: فاشترط عليه الشيخ: لا تغير شكلك، تبقى على شكلك هذا ولا تغير شيء من صفاتك، يعني تبقى إنسان، وواصل الدراسة، يقول والله كنت أمره في سكنه ويركب معي في سيارتي وأصلي أنا وهو في الحرم وأرجعه لشقته، ويقول آخر عهدي به حينما أخذ شهادته من يد الشيخ.

الموقف الثاني: يقول سئلت واحد يقال له عبد الرحمن الجلال، في الخرج في الدلم، من طلاب الشيخ الآن [وعمره ٦٥]، سألته قبل سنة تقريبًا، قلت ما فيه مواقف للشيخ رأيتها ما كتبت؟؟

قال: نعم، فيه مواقف اذكر لك موقفين..

وقد أفرد الله هذه السورة في كتابه باسم "الجن"، سماها رب العالمين سورة الجن، وذلك لما فيها من عجب، أنهم استمعوا لكلام الله تعالى من مرة واحدةٍ، فآمنوا وقاموا بالدعوة إلى الله ـ تعالى ـ ولم يكتفوا بإيمانهم فقط، بل قاموا دعاة إلى الله ـ تعالى

=**الموقف الأول:** أن الشيخ اشترى أرض في الصحنه، [الصحنه هذه على الطريق وادي الدواسر] في الدلم، جاء بعض الناس وأخذ هذه الأرض، وأخبروا الشيخ، فقالوا: الجماعة الفلانية أخذوا أرضك التي اشتريت، قال: هم راضين، قال: راضين، قال: بس ما عندهم شيء آخر، قلوبهم طيبة، قال: خلهم براحتهم يستأهلونها، أهم شيء ما يكونون غضبانين علينا، قال: تركها، وهو قاضي منطقة الخرج ومع ذلك قال هم راضين قال: خلهم يروحون، راحت الآن وراح الشيخ رحمه الله وكلهم راحوا.

قال الموقف الثاني : قال فيه جني تلبس في إنسان في الدلم ، وسألوه قالوا : أنتم ما تحضرون الدروس ، قالوا : إلا نحضر دروس والحمد الله ، إلا إذا كان فيه درس للشيخ ابن باز في الرياض فنحضر دروس الشيخ ، قالوا تروحون للرياض قالوا : آوووه ، وين الرياض نحضر عند الشيخ ويحضر جن من الهند يحضرون دروس الشيخ ، من الهند يحضرون عند الشيخ ، قال: فرحت عند الشيخ وقلت يا شيخ أبشرك ، قال : بشرك الله بالخير ، قال فأخبرته بالقصة ، قال آيه ولهذا كنت أجمع في كلامي بين الجن والإنس ، ممكن تسمعون الشيخ أحياناً يقول : "يجب على الجن والإنس تقوى الله تعالى ، يجب على الجن والإنس أن يوحدوا الله عزَّ وجلَّ".

أما بالنسبة لسيرة الشيخ وحياة الشيخ مذكورة في الكتب موجودة ويراجعها الإنسان نسأل الله وإياكم أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح والتوفيق. ينظر كتاب "سؤالات ابن وهب لشيخ الإسلام الإمام المجدد عبد العزيز بن باز " ص (٧٦).

ـ، وكذلك أخبر الله ـ تعالى ـ في هذه السورة العظيمة أنهم طرائق قددا، طرائق مختلفة وجماعات، وكذلك أخبر أنهم عندهم قوةٌ هائلةٌ خارقةٌ، أنهم يصعدون إلى السماء ويهبطون، وأنهم كانوا يسترقون السمع، الكلام الذي يوحى به في السماء، مما تتحدث به الملائكة مما أوحى الله تعالى به مما يكون في الأرض، فأخبر الله تعالى عن الجن بهذه الأحوال؛ ولذلك سمى الله تعالى سورة الجن بهذا الاسم العظيم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ أي وأنه تعالت عظمة الله ـ جلَّ جلاله ـ، وكما قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي على فعله وأمره وقدرته"[(١)]، وأيضا ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:" ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، وروي عن مجاهد وعكرمة أي جلال ربنا" [(٢)]وقال قتادة:" تعالى جلاله وعظمته وأمره."[(٣)]

﴿مَا ٱتَّخَذَ﴾ ما اتخذ ليس له جد مثل البشر، وليس له أب ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ٣١٢): "اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ٢﴾ وآمنا بأنه تعالى أمر ربنا وسلطانه وقدرته" وأخرجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣٧)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٧٨).

(٢)أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣١٣) وأخرجه عن عكرمة ومجاهد، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣٧)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٣٨).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣١٤)، وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١١٠)، و "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٥٨).

﴿وَلَدًا ۝٣﴾ صاحبة أي زوجة، ولا ولداً أي ليس له ولد، وكما قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " إنهم عنوا بذلك أي الجن أن حظوتهم سبحانه جلَّ جلاله من الملك والسلطان، والقدرة والعظمة عالية[1]، فلا يكون له صاحبة ولا ولد، لأن الصاحبة ـ أي الزوجة ـ إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذ الصاحبة، وأما الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد، فقال النفر من الجن، على ملك ربنا جلَّ جلاله وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفا ضعف خلقه، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبةٍ، أو وقاع منه ولد، ـ تبارك الله ذو الجلال والإكرام ـ، فالذي يتخذ صاحبة هم البشر، وكذلك الجن، فالإنسان إنما يتخذ صاحبة أي ـ يتزوج ـ وما ذلك إلا لحاجته ليقضي شهوته ويستمتع بأهله، وهكذا، أما رب العزة ـ سبحانه جلَّ جلاله ـ فجل جلاله وتباركت أسماءه وتعالت عظمته وتعالى ملكه، وتعالى كبريائه أن يكون له صاحبة أو ولد."[2]

وهناك قولٌ ضعيفٌ نصَّ أكثر أهل التفسير على ضعفه؛ أن الجن قالت ذلك لجهلها ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قالوا الجد هو أبو الأب، وإنما قالت الجن ذلك

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٨١): "وقيل: إنهم عنوا بذلك الجد الذي هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجن."، وينظر "اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (١٩/ ٤١٥).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ٣١٥): "وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: عني بذلك: تعالت عظمة ربنا وقدرته وسلطانه."

لجهلها، وأن المراد جدُّ الله، تعالى جدُّه، وهذا لا شك أنه ضعيفٌ، ونص أكثر المفسرين على ضعفه، وأن المراد بالآية عند أكثرهم كما ذكرنا، تعالى جلاله، وتعالت عظمته، وتعالى آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، كما ثبت عن ابن عباس وغيره من السلف الصالح، رحمة الله تعالى عليهم.(١)

وقال ابن فارسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " الْجِيمُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: الْأَوَّلُ الْعَظَمَةُ، وَالثَّانِي الْحَظُّ، وَالثَّالِثُ الْقَطْعُ.

فَالْأَوَّلُ الْعَظَمَةُ، قَالَ اللهُ جلَّ ثَنَاؤُهُ إِخْبَارًا عَمَّنْ قَالَ: ﴿**وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا**﴾ [الجن: ٣]. وَيُقَالُ جَدَّ الرَّجُلُ فِي عَيْنِي أَيْ عَظُمَ. قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: " كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا "، أَيْ عَظُمَ فِي صُدُورِنَا.

وَالثَّانِي: الْغِنَى وَالْحَظُّ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي دُعَائِهِ: «لَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (٢)، يُرِيدُ لَا يَنْفَعُ ذَا الْغِنَى مِنْكَ غِنَاهُ، إِنَّمَا يَنْفَعُهُ الْعَمَلُ بِطَاعَتِكَ. وَفُلَانٌ أَجَدُّ مِنْ

---

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٢٨١): "وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع: ليس لله تعالى جد، وإنما قالته الجن للجهالة، فلم يؤاخذوا به"

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " المحرر الوجيز " (٥/ ٣٧٩): "قال كثيرٌ من المفسرين هذا قولٌ ضعيفٌ"

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٨٤٤)، ومسلم في " صحيحه " (٥٩٣)، عَنْ وَرَّادٍ، مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: كَتَبَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ، إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»

فُلَانٍ وَأَحَظُّ مِنْهُ بِمَعْنًى.

وَالثَّالِثُ: يُقَالُ جَدَدْتُ الشَّيْءَ جَدًّا، وَهُوَ مَجْدُودٌ وَجَدِيدٌ، أَيْ مَقْطُوعٌ."(١)

إذن ربنا رب العزة جلَّ جلاله، ليس كمثله شيء، ولا يشبه البشر، فتعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً،

﴿**وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا④**﴾ أي سفيه الجن كان يقول على الله كذبا؛ بأن الله له ولد، وبأن الله له صاحبة، وأن الجن كانت تصدقه، فقد علمت الجن بكذب سفهائهم، وقطعوا أنهم كذابين، بمرة واحدة يسمعون كلام الله، والإنس يسمعون كلام الله آلاف المرات، ملايين المرات يسمعون كلام الله تعالى، ولا يزالون إلى يومك هذا ينسبون إلى الله الصاحبة، والولد ـ عياذاً بالله ـ، قال تعالى: ﴿**وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا⑧⑧ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا⑧⑨ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا⑨⓪ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا⑨① وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا⑨② إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا⑨③**﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

قالوا ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا⑤**﴾ سبحان الله، الجن قالت نحن ظننا أنه لا يوجد أحد يكذب على الله، قالوا ما كنا نظن أن أحد يجرؤ أن يكذب على الله، فلذلك كنا نصدق السفهاء من الجن الذين يقولون بأن الله له صاحبة، وله ولد؛ ولكن هناك من يكذب على الله ـ تبارك وتعالى ـ، كما قال ـ جلَّ جلاله ـ ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ⑦⑤**﴾ [آل عمران: ٧٥] وأعظم أمة

---

(١) ينظر " مقاييس اللغة " لابن فارس (١/ ٤٠٧).

تكذب على الله اليهود، وأعظم طائفة في الإسلام تكذب على الله عزَّ وجلَّ الشيعةُ الروافضُ يكذبون على الله، ويفترون الكذب ويستحلونه، ورب العزة سبحانه قال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: ٧]،

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ ظنوا وكان هذا يغلب على ظنهم، أن الإنس والجن لا تقول على الله كذبا.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ أي أن رجالاً الإنس كانوا يستعيذون برجال من الجن، فزادوا الجن طغيانـًا وتكبراً، هذا على أن الضمير يعود على الإنس، الإنس لما استعاذت بالجن، الجن تكبرت وازدادت طغيانا[١]، فزادوهم رهقا، أي طغيانـًا وتكبراً، ويحتمل كذلك أيضـًا عود الضمير إلى الجن، أي أن الإنس لما استعاذوا بالجن، الجن زادوهم رهقا، أي إثمـًا فأوقعوهم في الآثام[٢]، وارتكاب

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٢٥): "وقال آخرون: بل عني بذلك أن الكفار زادوا بذلك طغيانا" وأخرجه عن مجاهد. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١١١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٣٩).

(٢) قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في " تيسير الكريم الرحمن " ص (٨٩٠): "أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع، فزاد الإنس الجن رهقا أي: طغيانا وتكبرا لما رأوا

المعاصي، بسبب توسلهم إلى الجن[1]، واستحلالهم ما حرم الله تعالى عليهم، والحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا۝٦﴾ قالوا أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجانِّ أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمته وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، " فزادوهم رهقًا " أي : خوفًا وإرهابًا وذعراً ، حتى صاروا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم ، كما قال قتادة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي : إثما ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة .[2]

=الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو أي: زاد الجن الإنس ذعرا وتخويفا لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: " أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه"

(١) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٢٤): "اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: فزاد الإنس بالجن باستعاذتهم بعزيزهم، جراءة عليهم، وازدادوا بذلك إثمـًا" وأخرجه عن قتادة. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١١١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٣٩).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٣٩)، وأخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٢٤) عن قتادةرَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: "قال الله: {فزادوهم رهقا} أي إثما، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة." و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٤٢٩).

وعن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: ازدادت الجن عليهم جرأة.

وقال السدي رَحِمَهُ اللَّهُ: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، قال فإذا عاذ بهم من دون الله، رهقتهم الجن الأذى عند ذلك.(١)

وعن عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "كان الجنّ يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشدّ، وكان الإنس إذا نزلوا واديًا هرب الجنّ، فيقول سيّد القوم: نعوذ بسيّد أهل هذا الوادي. فقال الجنّ: نراهم يفرقون منّا كما نفرق منهم، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول اللّه: وأنّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقًا."(٢)

مسألةٌ: هل يجوز الاستعانة بالجن المسلم في أمر مباح؟

وهنا مسألةٌ مهمةٌ هل يجوز الاستعانة بالجن المسلم في أمر مباح؟ فمثلاً: الآن

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٣٩): "أي: كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في جاهليتها. يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: خوفا وإرهابا وذعرا، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثما، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة."

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في" تفسيره" (١٩٠٠٠).

يوجد مساجين مظاليم كثيرون، والجن المسلم عنده قوةٌ خارقةٌ، هل يجوز للإنسان أن يستعين بالجن فيكسر الأقفال ويخرج المساجين؟ أمرٌ آخر، أنت وضعت مثلاً مائة ألف ريالٍ، أو مائة ألف دولارٍ، ونسيت المكان الذي وضعتها فيه أو سرقوا منك فأخبرك أحد إخوانك أن فلانـًا يتعامل مع الجن وهو ظاهره أنه رجلٌ صالح، فهل يجوز هذا؟

أولاً: اتفق السادة العلماء على أن الاستعانة بالجن فيما هو محرم حرام[1]، وإذا وقع المستعيذ بشيء فيه شرك لا شك أنه محرم.

ثانيـًا: اختلفوا في مسألة الاستعانة بالجن المسلم في المباحات:

فأكثر العلماء على أنه يحرم الاستعانة بالجن فيها، والعلة في ذلك، أنه سيفتح باب شرٍ لاشك، فإغلاقه لا شك أنه الواجب، ولذلك سئلت اللجنة الدائمة عن الاستعانة بالجن هل يجوز؟ قالوا الاستعانة بالجن أو الملائكة والاستغاثة بهم لدفع ضر أو جلب نفع، لجلب نفع؛ مال ضائع يأتي به، أو يدفع عنه ضراً واقع؛ ظلم، أو للتحصن من شر الجن، فهذا شرك أكبر ، يخرج عن ملة الإسلام والعياذ بالله ، سواء كان ذلك بطريق ندائهم ، أو كتابة أسمائهم وتعليقها تميمة ، أو غسلها وشرب الغسول، أو نحو ذلك، إذا كان يعتقد أن التميمة أو الغسل تجلب له النفع أو تدفع عنه

---

(١) في الموسوعة الفقهية الكويتية (٤/ ١٨): "أما الاستعانة بغير الله، فإما أن تكون بالإنس أو بالجن. فإن كانت الاستعانة بالجن فهي ممنوعة، وقد تكون شركـًا وكفراً، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا۝٦﴾."

الضر دون الله.(١)

وأيضًا سئلوا ما الحكم في الذي يستعين بالجن في معرفة المغيبات كضرب المندل؟

فقالوا: لا يجوز الاستعانة بالجن وغيرهم من المخلوقات في معرفة المغيبات لا بدعائهم والتزلف إليهم ولا بضرب مندل أو غيره، بل ذلك شرك بالله.(٢)

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك سُئل سؤالاً مثل المثال الذي ضربته أو ذكرته، قال له السائل جدنا ترك تركةً كبيرةً مخفية في بيت لنا قديم، فبحثنا عنها ولم نجدها، وتعرفت على شخص أكَّد وجودها وأنه يستطيع إخراجها، علمًا بأنه يستخدم الجن، لكنه أقسم بالله أنه لا يشرك بالله عندما يستخدمهم، وأنه لم يشرك بالله، هل يجوز لي أن أستخدمه في إخراج هذا المال؟ علمًا بأنه قال لي: أنا وأنت نذهب لأحد المشايخ ونسأله.

أجاب الشيخ البراك قائلاً: " ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث عدة أن من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ(٣)،

---

(١) ينظر "فتاوى اللجنة الدائمة" (١/ ١٣٤).

(٢) ينظر "فتاوى اللجنة الدائمة" (١/ ٣٤٨:٣٤٥).

(٣) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٣٩٠٤)، والترمذي في " سننه " (١٣٥)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٨٩٦٨)، وابن ماجه في " سننه " (٦٣٩)، وأحمد في " مسنده " (٩٥٣٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ

والمعروف أن الكهان إنما يتلقون ما يخبرون به عن الشيطان مما يسترقه الشيطان من السماء ومما يطَّلعون عليه من أحوال الناس، وعلى ذلك فهذا الذي يدَّعي أنه يعرف مكان ذلك المال، وأنه يستعين بالجن في معرفة مكان هذا المال أو غيره من الأمور المخفية الظاهر من حاله أنه كاهن بل هو كاهن ولو زعم أنه لا يشرك".(١)

=كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ. وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٥٩٤٢).

(١) وفي "فتاوى الشيخ البراك "من موقع الإسلام اليوم: ص (١٢٢) الاستعانة بالجن للدلالة على المفقود

ترك جدنا تركة مخفية في بيت لنا قديم بحثنا عنها ولم نجدها، وتعرفت على شخص أكد وجودها وأنه يستطيع إخراجها، علماً أنه يستخدم الجن، لكنه أقسم بالله أنه لا يشرك بالله عندما يستخدمهم وأنه لم يشرك بالله، هل يجوز لي أن أستخدمه في إخراجها؟ علماً أنه قال لي: أنا وأنت نذهب لأحد المشايخ ونسأله عن جواز ذلك من عدمه، ولكنني لم أفعل، علماً أنني سمعت أنه يجوز ذلك إذا لم يكن فيه إضرار بالآخرين، وهو كذلك إذ التركة خاصة بنا وهي كبيرة جداً، آمل الرد على بسرعة مع خالص دعواتي بالتوفيق والسداد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فقد ثبت عن النبي -ﷺ- في أحاديث عدة أن من أتى كاهناً أو عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد -ﷺ-، والمعروف أن الكهان إنما يتلقون ما يخبرون به عن الشيطان مما يسترقه الشيطان من السماء ومما يطلعون عليه من أحوال الناس، وعلى ذلك فهذا الذي يدعي أنه يعرف مكان ذلك المال، وأنه يستعين بالجن في معرفة مكان هذا المال أو غيره من الأمور المخفية الظاهر من حاله أنه كاهن بل هو كاهن ولو زعم أنه لا يشرك ولو أقسم على ذلك، فلا يجوز إذاً الاستعانة به على معرفة مكان هذا المال، ولكن ابحثوا عن أسباب أخرى وتحروا لعلكم تعثرون على

هنا فتوى فيها تفصيل أكثر، وهذا الكلام أشكل على الكثير من الناس، وهي فتوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فصَّلَ في حكم الاستعانة بالجن، وهذا كلام مهم لنا أن نذكره ونتدارسه ، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: " والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال: فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه، ويأمر الإنس بذلك، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له، فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له، وهذا كان يأمرهم بما يجب عليهم، وينهاهم عما حرم عليهم، ويستعملهم في مباحات له، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك. هذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى، فغايته أن يكون في عموم أولياء الله تعالى، مثل النبي الملك مع العبد الرسول، كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله.

إما في الشرك، وإما في قتل معصوم الدم، أو في العدوان عليهم بغير القتل، كتمريضه وإنسائه العلم، وغير ذلك، وإما في فاحشة، كجلب من يطلب منه الفاحشة،

=هذه التركة دون أن تتوسلوا بما حرم الله، ولهذا نص بعض أهل العلم في تعريف الكاهن أنه الذي يخبر بالمغيبات في المستقبل ويدل على مكان المسروق وعلى الضالة، فهذا مما يحترفه الكهان ويسألهم الناس فيه، فالواجب على المسلم أن يحرص على سلامة دينه ولو فاته ما فاته من أمر الدنيا، والله أعلم.

فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان، ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص، إما فاسق، وإما مذنب غير فاسق.

وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات، مثل أن يستعين بهم على الحج، أو أن يطيروا به عند السماع البدعي، أو أن يحملوه إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعي الذي أمر الله به ورسوله، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة، ونحو ذلك، فهذا مغرور قد مكروا به." أهـ.(١)

كثيرٌ من الناس اعتمد كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في جواز الاستعانة بالجن في العلاج وما شابه ذلك من الأمور المباحة، ولكن لا شك أن هذا خطأ لأن آخر كلام شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعني أنه ذهب إلى المنع من ذلك، كلامه في آخره قالوا والنوع الثالث أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله، كما يستعمل الإنس في مثل ذلك، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذا حال نبينا محمد ﷺ ، وحال من اتبعه واقتدى به من أمته وهم أفضل الخلق ، فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله، إلى أن قال فلم يستخدم الجن أصلاً – أي رسول الله ﷺ – ،و لكن دعاهم إلى الإيمان بالله، وقرأ عليهم القرآن، وبلّغهم الرسالة، وبايعهم كما فعل بالإنس، عليه الصلاة والسلام.(٢)

---

(١) ينظر" الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" لابن تيمية ص (١٩٧).

(٢) أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٣/ ٨٨).

فلنا في رسول الله ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم، أسوة حسنة، الرسول ﷺ، وقع في حوادث عظيمةٍ جداً، لو أن الاستعانة بالجن كانت جائزةً لاستعان بها، ففي الهجرة كان بحاجةٍ ماسةٍ إلى أن يختفي، وأن يذهب هذه المسافة سريعًا، حتى لا تدركه قريش، ورغم ذلك لم يستعين بالجن وأخذ بالأسباب المقدورة له، عليه الصلاة والسلام، لما جاء المشركون في يوم الخندق، ما استعان بالجن في حفر الخندق، ومن الممكن أن يستعين بهم فيحفرونه في طرفة عين، أليس كذلك؟ الجن عندهم قوة خارقة، قال الله عنهم بالنسبة لنبي الله سليمان ﴿**يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ١٣**﴾ [سبأ: ١٣] مع تلك القوة الخارقة، لم يستعين بهم ﷺ، بل أيضًا الصحابة رضي الله عنهم، يحفرون الخندق، والنبي ﷺ يحمل التراب معهم على كتفيه(١)، لو كان جائزاً، ما الذي جعله يتعب نفسه ويتعب إخوانه؟ وكذلك التعرض للخطر يوم أحد، و«ظَاهَرَ يَوْمَ أُحُدٍ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، أَوْ لَبِسَ دِرْعَيْنِ»(٢)، ولم يستعن بالجن في حادثةٍ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤١٠٤)، ومسلم في " صحيحه " (١٨٠٣) عَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ، أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يَقُولُ: «وَاللهِ لَوْلاَ اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا» وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: «أَبَيْنَا أَبَيْنَا».

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٢٥٩٠)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٨٨٣٨) وابن ماجه في "سننه" (٢٨٠٦) عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ رَجُلٍ قَدْ سَمَّاهُ، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٢٥٩٠).

واحدةٍ، ـ ﷺ ـ، وسار على ذلك جمهور الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ويُذكر أن امرأة صحابية في زمان عمر كان لها رئي من الجن(١)، وقد تأخر عمر رضي الله عنه يوماً من الأيام، فخشوا عليه فجاءوا فسألوها، فسألت الجن فقالت هو في إبل الصدقة لا بأس على أمير المؤمنين، وهذه الآثار ضعيفةٌ ولا تصح(٢)، والذي عليه أكثر أهل العلم كما ذكرت أنه لا يجوز

---

(١) قال ابن الأنباري رحمه الله: "رئي من الجن، بوزن رعي وهو الذي يعتاد الإنسان من الجن.، ويقال أيضا: به رَئِيٌّ من الجن، أي مَسٌّ."، وينظر " تهذيب اللغة" للأزهري (١٥/ ٢٣٤)، و "الصحاح " للجوهري"(٦/ ٢٣٤٧)

قال الحربي رحمه الله في "غريب الحديث "(٢/ ٧٧٣): "قوله: «كان لي رئي» هو جني يتعرض للإنس"

(٢) **(ضعيف جداً)** أخرجه أحمد في " فضائل الصحابة " (٣٠٤)، وابن أبي الدنيا في "الهواتف"(٧٨)، ومن طريقه ابن عساكر في" تاريخ دمشق " (٤٤/ ٨٩)، وابن أبي الدنيا في "مكائد الشيطان" (٧٨)، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ خَبَرُ عُمَرَ، فَكَلَّمَ امْرَأَةً فِي بَطْنِهَا شَيْطَانٌ، فَقَالَتْ: حَتَّى يَجِيءَ شَيْطَانِي فَأَسْأَلُهُ، قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ مُتَّزِرًا بِكِسَاءٍ يَهْنَأُ إِبِلَ الصَّدَقَةِ، وَقَالَ: لَا يَرَاهُ الشَّيْطَانُ إِلَّا خَرَّ لِمِنْخَرَيْهِ، لَلْمَلَكُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَرُوحُ الْقُدُسِ يَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: حَدَّثَنَا بِهِ شُجَاعٌ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً قَالَ: عَنْ أَبِي مُوسَى، وَمَرَّةً قَالَ: أَبْطَأَ عَلَى أَبِي مُوسَى خَبَرُ عُمَرَ.

وأخرج أحمد في " فضائل الصحابة " (٣٨٠) عن سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: رَاثَ عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ خَبَرُ عُمَرَ وَهُوَ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ بِهَا امْرَأَةٌ فِي جُبَّتِهَا شَيْطَانٌ يَتَكَلَّمُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا رَسُولًا فَقَالَ لَهَا: مُرِي صَاحِبَكِ فَلْيَذْهَبْ فَلْيُخْبِرْنِي عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: هُوَ بِالْيَمَنِ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ، فَمَكَثُوا غَيْرَ طَوِيلٍ، قَالُوا: اذْهَبْ فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ قَدْ رَاثَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: إِنَّ ذَاكَ لَرَجُلٌ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْنُوَ مِنْهُ، إِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ رُوحُ الْقُدُسِ، وَمَا خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ شَيْطَانًا

الاستعانة بالجن المسلم، في أمور مباحة، فهذا من الأمور المحرمة، و بعض المعالجين من المس، أو السحر ونحوه، أحيانا يستعينون بالجن المسلم زعموا، وقد سئل العلامة محمد ابن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن الاستعانة بالجن، فبيَّن أنه طلب من الجن فيدخل في سؤال الغائبين الذي يشبه سؤال الأموات وفيه رائحة من روائح الشرك، ثم

=يَسْمَعُ صَوْتَهُ إِلَّا خَرَّ لِوَجْهِهِ.

والقصة معلة من أوجه: الآفة الأولى: يحيى بن يمان، فإنه يأتي بعجائب عن سفيان الثوري، ويخلط في روايته، ويروي أحاديث كثيرة غير محفوظة حتى قال ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٣٦): «ولابن يمان عن الثوري غير ما ذكرت وعامة ما يرويه غير محفوظ وابن يمان في نفسه لا يتعمد الكذب إلا أنه يخطئ ويشتبه عليه».. وقال وكيع: هذه الأحاديث التي يحدث بها يحيى بن يمان ليست من أحاديث سفيان ...وقال الإمام أحمد: ليس بحجة، وقال: حدث عن الثوري بعجائب لا أدرى لم يزل هكذا أو تغير حين لقيناه أو لم يزل الخطأ في كتبه.

وهذ الحديث من طريق الثوري.

الآفة الثانية: الانقطاع، فرواية سالم بن عبد الله بن عمر عن عمر وأبي موسى رضي الله عنهما منقطعة، قال البخاري: لم يسمع من عائشة، قلت وأبو موسى أقدم منها وفاةً فقد توفي أبو موسى سنة ٥٠ خمسن على الأظهر كما رجح الحافظ في التقريب، وتوفيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ سنة ٥٧ سبع وخمسين على الراجح كما قال الحافظ في التقريب، ثم إن الأثر ورد على الحكاية التي حدثت بين عمر وأبي موسى، وسالم لم يدرك جده عمر رضي الله عنه قطعـاً.

فبهذا يتضح ضعف هذا الأثر جداً من كلا الطريقين والظاهر في هذا الأثر أنه منكر فكيف سأل الصحابة شيطانا من الجن ويصدقون خبره وأما قوله "أن بين عينيه روح القدس" فالنكارة ظاهرةٌ في هذا الأثر والله أعلم.

ما أدراك أن الجن الذي يتكلم معك صادقٌ، بل ما يدريك أنه مؤمن أصلاً، فلعله كذَّاب وما أكثر الكذب فيهم.(١)

وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما اللجوء إلى الجن فلا؛ لأنه وسيلة إلى عبادتهم وتصديقهم، لأن في الجن من هو كافر، ومن هو مسلم، ومن هو مبتدع، ولا تعرف أحوالهم، فلا ينبغي الاعتماد عليهم ولا يسألون. وقد ذم الله المشركين بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا۝٧﴾ [الجن: ٦-٧] ولأنه وسيلة للاعتقاد فيهم والشرك، وهو وسيلة لطلب النفع منهم، والاستعانة بهم، فأرى أنه لا يجوز؛ لأن في ذلك استخداماً لهم، وقد لا يخدمون إلا بتقرب إليهم واستضعاف لهم".(٢)

وكذلك كثيرٌ من العلماء المعاصرين أفتى بالمنع؛ لأنه إما أن يكون شركاً أو وسيلةً إلى الشرك، إذن: هذه المسألة المهمة ـ الاستعانة بالجن المسلم في المباحات، أكثر أهل العلم على أنه لا يجوز، والاستعانة بالجن الكافر حرامٌ قولاً واحداً.(٣)

---

(١) قال: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ في " الفتاوى والرسائل" (١/ ١١٤): "...والوجه الثاني: أنه طلب من الجن فيدخل في سؤال الغائبين الذي يشبه سؤال الأَموات، وفيه رائحة من روائح الشرك."

(٢) ينظر " مجلة الدعوة " (العدد ١٦٠٢، ربيع الأول ١٤١٨ هـ، ص ٣٤)، و" فتاوى الشبكة الإسلامية" (١/ ٤٣٢٢)، و"موقع الألوكة" (٢/ ٧٥٧).

(٣) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي ـ تفسير جزء تبارك ص (٢٢٤).

ثم قال رب العالمين ـ جلَّ جلاله ـ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ وهنا قصةٌ، أخرجها عبد الرزاق بسند صحيح عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: طَلَّقَ غَيْلاَنُ بن سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ نِسَاءَهُ، وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ، قَالَ: فِي خِلاَفَةِ عُمَرَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ، فَقَالَ: طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ، وَقَسَمْتَ مَالَكَ بَيْنَ بَنِيكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَاللهِ، إِنِّي لأَرَى الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْرِقُ مِنَ السَّمْعِ، سَمِعَ بِمَوْتِكَ، فَأَلْقَاهُ فِي نَفْسِكِ، فَلَعَلَّكَ أَنْ لاَ تَمْكُثَ إِلاَّ قَلِيلاً، وَايْمُ اللهِ، لَئِنْ لَمْ تُرَاجِعْ نِسَاءَكَ، وَتَرْجِعْ فِي مَالِكَ، لأُوَرِّثُهُنَّ مِنْكَ إِذَا مُتَّ، ثُمَّ لآمُرَنَّ بِقَبْرِكَ فَلَيُرْجَمَنَّ، كَمَا رُجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَأَبو رِغَالٍ أَبو ثَقِيفٍ، قَالَ: فَرَاجَعَ نِسَاءَهُ، وَرَاجَعَ مَالَهُ.

قَالَ نَافِعٌ: فَمَا مَكَثَ إِلاَّ سَبْعًا حَتَّى مَاتَ. (١)

اللهم ارضَ عنك يا عمر الخير، أمره أن يرجع في طلاق نسائه، يردهن إليه، وأمر أن يرجع في ماله، وقد يحدث هذا بالفعل، الشيطان يسترق السمع مما يقضى في السماء من الأمر، بموت فلان، أو مولد فلان، مما يوحي به إلى الملائكة، فتأخذه الشياطين وتلقي بها للكهنة ويزيدون على الكلمة مائة كلمة، وسيأتي الحديث إن شاء الله في الآية التي بعدها، فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ أي هناك طوائف من الجن ظنت أن لن يبعث الله أحداً، مثل طوائف الإنس.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه عبد الرزاق في " مصنفه " (١٢٢١٦) والأثر صححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٢٨).

قال تعالى:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ فالجن كانوا يسترقون السمع قبل ذلك، فلما جاءوا بعد بعثة النبي - ﷺ - يسترقون السمع؛ وجدوا السماء ملئت حرساً شديداً - من الملائكة -، وشهباً ترمى عليهم فتحرقهم.

قال الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: "يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن وكان من حفظه له؛ أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطُرِدت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز،

ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه.[1]

وأخرج الطبري بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن زيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية قال" فَلَمَّا وَجَدُوا ذَلِكَ رَجَعُوا إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالُوا: مُنِعَ مِنَّا السَّمْعَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ السَّمَاءَ لَمْ تُحْرَسْ قَطُّ إِلَّا عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا لِعَذَابٍ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُنْزِلَهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَغْتَةً، وَإِمَّا نَبِيٍّ مُرْشِدٍ مُصْلِحٍ؛ قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [الجن: ١١].[2]

فظاهر النصوص أن الجن يختطفون بعض الكلمات، ويلقونها على أفواه الكُهَّان، إلى يومنا هذا، وأن الأمر لم ينتهي ببعثة النبي -ﷺ-، ولكن شُدِّد فيه منذ بعثة النبي -ﷺ-، كما روى الإمام البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ - قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ - فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٤٠)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٤٢)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٣٩).

(٢) **(صحيح)** أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٢٨) وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل" تفسير جزء تبارك ص (٢٢٥).

قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ - فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ - وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الأَرْضِ - فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ". (١)

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا كان الرَّمي بها غُلِّظ وشُدِّد بسبب نزول الوحي، فهلاَّ انقطع بانقطاع الوَحي بِمَوت النبي -ﷺ-، ونحن نشاهدها الآن يُرْمَى بها؟

فالجواب: يُؤخذُ مِن حديث الزهري المتقدِّم؛ في رواية مسلم: قالوا: كُنّا نَقول وُلِد الليلة رَجل عظيم، ومات رَجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: " فإنها لا تُرْمَى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربّنا إذا قَضى أمرا أخبر أهل السماوات بعضهم بعضا حتى يبلغ الخبر السماء الدنيا، فيَخْطِف الجن السمع، فيَقْذِفُون به إلى أوليائهم "(٢)،

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٧٠١)، والترمذي في " سننه " (٣٢٢٣)، وابن ماجه في " سننه " (١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٥٨٧٧) عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ، أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ

فيؤخذ من ذلك: أن سبب التغليظ والْحِفظ لَم يَنْقَطِع لِمَا يَتَجَدَّد مِن الحوادث التي تُلْقَى بأمْرِه إلى الملائكة، فإن الشياطين مع شدة التغليظ عليهم في ذلك بعد الْمَبْعَث لم يَنقطع طَمَعهم في استراق السمع في زمن النبي ﷺ، فكيف بما بعد بعثة النبي ﷺ.(١)

فهذا ظاهر أن استراق الشياطين للسمع استمر أيضاً بعد بعثة رسول الله ـ ﷺ ـ، وصدق الله ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴿٩﴾﴾، والشهب ـ كما قال السادة العلماء ـ؛ نيازك تخرج من النجوم يرمى بها، أي ليست هي النجوم، بل نيازك تخرج ويرمى بها الشيطان، ولا مانع من أن يكون الشيطان خلق من نار؛ أن يحرق بالنار، وربنا ـ تعالى ـ على كل شيء قدير ـ جلَّ جلاله ـ.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ

=فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِنَّهَا لاَ يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ: قَالَ فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاؤُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ.

(١) ينظر " فتح الباري " لابن حجر (٨/ ٦٧٣).

رَشَدٗا ١٠﴾ وهذا الكلام من قول الجن بعضهم لبعض، لما قالوا وأنا لمسنا السماء فوجدنا حرساً شديداً من الملائكة، وكذلك شهباً ترسل على من يستمع الأخبار، أو يستمع الكلام الذي يُوحَى به من كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، مما يقضيه الله ـ جلَّ جلاله ـ، قالوا ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾ فنحن الآن حجبنا ومنعنا من الاستماع، ومنعنا من القعود لكي نستمع الأخبار وما يوحى به في السماء، قالوا ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ لأن هذا أمر فهموه بعقولهم السليمة، والفطرة التي خلقهم الله عليها؛ كأنهم علموا بأن هذا حدثٌ عظيمٌ سيقع، فمنعوا من السمع في السماء لأمر جلل، فقالوا هكذا ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾

قال ابن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا ندري أراد الله بهذا المنع أن يُرسل على أهل الأرض عذابًا، أو يُرسل إليهم رسولاً مرشداً مصلحًا؛ لأنهم لما قالوا اضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما الذي منعكم من الاستماع إلى السماء، فلما سمعوا رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، قال إبليس فإنه لا تمنع السماء إلا لأمر، إما أن أراد الله أن ينزل عذابًا على عباده، أو أن يرسل إليهم رسولاً مرشداً مصلحًا، سبحانك ربي ما أعظمك.

وأيضا في قوله ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ أن الجن قالوا هذا أيضًا لقولهم لما انصرفوا ورجعوا إليهم؛ فأشفقوا ألا يؤمن كثير من أهل الأرض بهذا النبي الذي بعث، فقالوا إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض

بما آمنا به أم يؤمنون، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾.

فائدةٌ: في قول الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ قال أهل العلم هنا فائدة في التأدب في النقل عن الله تعالى، ألا وهو ـ الخير ـ حيث نسبوه إلى الله ـ تعالى ـ، والشر نسبوه إلى غير فاعل، قالوا ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ فنسبوا الرشد إلى الله، والشر إلى غير فاعل، كما في قصة موسى والخضر، ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: ٧٩] وأيضاً ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: ٨٠-٨١] ولما جاء إلى الغلامين وما فيه إرادة الخير والمصلحة لهما نسب إرادة الخير لله تعالى فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف: ٨٢] هذا من الأدب في النقل عن الله عزَّ وجلَّ، رغم أن الأمور كلها بقدر الله، وأنه لا يكون شيء في ملك الله سبحانه إلا أن يشاء الله تبارك وتعالى.(١)

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾

(١) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٣٣)

الصالحون هم المسلمون العاملون بالشريعة، فمنا مسلمون وصالحون انقادوا لأمر الله تعالى، وعملوا بما أوحاه الله من الشريعة، ومنا دون ذلك في الصلاح[١]، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴿١١﴾﴾ وأيضًا يحتمل المعنى؛ أنه منا المسلمون ومنا الكافرون، منا المسلمون الصلحاء، ومنا مسلمون لكنهم غير صلحاء، أو أقل منهم في الصلاح، ومنا كافرون[٢]، وقال سعيد ابن المسيب في هذه الآية أي "كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس.

أي مثل الإنس تمامًا[٣]، وقال السدي مثلكم قدرية، ومرجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسنية.[٤]

سبحانك ربي ما أعظمك، أي أن عندهم فرق مثل الفرق الموجودة في

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٢٩)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٧/ ٤٩٥).

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٩٠): "ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. وقال المسيب: كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس. وقال قوم: أي وإنا بعد استماع القرآن مختلفون: منا المؤمنون ومنا الكافرون. أي ومنا الصالحون ومنا مؤمنون لم يتناهوا في الصلاح."

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٩٠)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٢٩).

(٤) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٩٠): "وقال السدي في قوله تعالى: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ قال: في الجن مثلكم قدرية، ومرجئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسنية"، وذكره ابن الجوزي في " زاد المسير (٨/ ٣٨٠)، والبغوي في " معالم التنزيل" (٨/ ٢٤٠) عن الحسن والسدي.

المسلمين، منهم أهل سنة متمسكون بالكتاب والسنة، ومنهم الغلاة؛ كالخوارج، ومنهم من عنده تهاون كالمرجئة، وغير ذلك، فرق مثل فرق الإنس الموجودة، وقوله ـ جلَّ جلاله ـ ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ الطرائق جمع طريقة، وهي مذهب الرجل، يعني كنا مذاهب مختلفة(١)، كنا فرقا مختلفة ومذاهب شتى، كما ذكر السدي أي: فيهم قدرية ومرجئة وخوارج ورافضة وسنية وغير ذلك، ـ سبحان الله العظيم ـ.

والطرائق: جمع طريقة، وهي مذهب الرجل، قدداً: توكيد لها، وقدداً جمع قِدَّة أي: فرق متناحرة مختلفة، وهكذا.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾ مهما هربنا إلى السماء أو في الأرض فنحن في قبضة الله وفي ملكه سبحانه جلَّ جلاله، وفي سلطانه لن نفوت ونهرب إلى غيره أبدا، وهذا من تمام عقلهم.

فالجن لما سمعوا القرآن ـ الكريم ـ أيقنوا أنهم في قبضة الله، وأنهم لا يعجزونه الله أبداً، إذا أرادهم بسوء حلَّ بهم، وأنهم مهما هربوا إلى السماء أو إلى أي مكان لا يستطيعون الفرار من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٢٩): "﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ يقول: وأنا كنا أهواء مختلفة، وفرقا شتى، منا المؤمن والكافر. والطرائق: جمع طريقة، وهي طريقة الرجل ومذهبه. والقدد: جمع قدة، وهي الضروب والأجناس المختلفة." وينظر "تهذيب اللغة" للأزهري (٨/ ٢١٩)، و"الصحاح" للجوهري (٢/ ٥٢٢)، و"تاج العروس" للزبيدي (٩/ ١١).

﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ما المقصود بالهدى هنا؟ إنه القرآن الكريم، لا شك أن القرآن فيه أكمل الهدى، قال الله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] و قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] و قال تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢] فالقرآن فيه هدى وشفاء، وفيه هدى للمتقين؛ والمتقون الذين يعملون بالقرآن الكريم، ويقومون به آناء الليل وآناء النهار، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، فهذا القرآن لا شك أنه هدى لهم، ففيه هداية لهم إلى كل خير، هداية لهم في الدنيا والآخرة،

والله تعالى حكى قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ وهذا من تمام توفيق الله لهم، قالوا ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾أي: الذي يؤمن بالله لا يخاف بخساً، أي: نقصاناً، لا ينقص الله من حسناتهم شيء، والرهق: هو الزيادة في الإثم، عدوان وظلماً[1]، ولذلك قالوا بأن الذي يؤمن بربه، لا يخاف، فلا ينقص من حسناته حسنةً، ولا يزاد على سيئاته سيئةً لم يعملها، علموا تمامَ عدلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتمامَ فضله ـ

---

(١) أورده الطبري في " جامع البيان (٢٣/ ٣٣١).

سبحانه جلَّ جلاله ـ(١)، فلذلك أخبروا أن الذي يؤمن بربه يهنأ بكونه سيكرم من الله، ولن يظلم أبداً، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ١١٢**﴾ [طه: ١١٢] فالظلم أن نزيد عليه سيئة، والهضم أن نبخسه شيئاً مما قام به من أعمال الخير والبر.

﴿**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣**﴾ وهذا يدُلك على مسارعتهم للإيمان، وكما ذكرنا سابقاً آمنوا بمجرد أن سمعوا القرآن لأول مرة، آمنوا وقالوا هذا الكلام العظيم، ﴿**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ١٣**﴾.

قال تعالى: ﴿**وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ١٤**﴾ أي أنهم لما سمعوا القرآن منهم المسلمون، استسلموا لأمر الله وانقادوا له، وخضعوا وذلوا لأمره، ومنهم قاسطون أي جائرون(٢)، القاسط هو الجائر وأما المقسط هو العادل(٣)، ﴿**وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ**﴾ أي منا من أسلم

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان (٢٣/ ٣٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما يَقُولُ: "لَا يَخَافُ نَقْصًا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلَا زِيَادَةً فِي سَيِّئَاتِهِ." وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١١٤)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٨٢).

(٢) ينظر " جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٣٣٢)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٣٥)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٤٣٥)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٣٤) قال ابن زيدٍ رحمه الله: "المقسط: العادل، والقاسط: الجائر." وينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٤١).

واستسلم لأمر ربه وانقاد له، ومنا من جار عن أمر الله تعالى، وعدل عن الحق، وقالوا ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخَّوه، وأصابوا الرشد، فأولئك تحروا رشدا، ـ ومنه تحري القبلة، أي قصدوها وتوخَّوها ـ، وأما الجائرون عن القصد والسبيل، فقد جاروا عن الحق والإيمان،

فما مصير هؤلاء ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ هنا قالوا، فكانوا لجهنم حطبـًا، فتحمل على وجهين:

الوجه الأول: أنهم كافرين؛ فكانوا لجهنم حطبـًا، أي خالدين فيها أبداً،

والوجه الثاني: لو حملت ـ القاسطون ـ على الجائرين من المسلمين، فالجائر الظالم، فكانوا لجهنم حطبـًا؛ إلا أن يشاء الله تعالى ويشملهم بالعفو وتنالهم الشفاعة؛ شفاعة الشافعين، وأما إذا حملت الآية على الوجه الأول، فلا شك أن الكافر لا يخرج من النار أبداً.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ قال أهل العلم فيها قولان صحيحان، ذكرهما الطبري والقرطبي وغيرهم من أهل التفسير:

القول الأول: وهو أشهرهما: أنهم لو استقاموا على الطريقة، أي طريقة الحق والإيمان، لكان ذلك سببـًا في سعة أرزاقهم، وأن يصبَّ الله عليهم ماءاً غدقـًا، أي كثيراً متتابعـًا، ويحصل به الخير العميم الذي فيه صلاحهم وصلاح دنياهم ودينهم، ونحوه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

وأيضاً قوله ـ جلَّ ذكره ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦] وقوله ـ جلَّ جلاله ـ ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣] والمقصود أن العبد لو كان مستقيماً على طريقة ربه؛ لكان ذلك سبباً في سعة أرزاقه، ونماء إيمانه، وأن يصبَّ الله عليه الخير صباً.(١)

والقول الثاني: أن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر، لأسقيناهم ماءاً غدقاً، أي لوسعنا عليهم في دنياهم؛ لنبتليهم، ونفتنهم ونستدرجهم بهذه النعم التي نوسع عليهم بها، كقول تعالى ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥] وأيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن

(١) ينظر " جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٣٣٤)، و "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٩٣).

مَّالٍ وَبَنِينَ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].[(١)]

إذن عندنا معنيان صحيحان في هذه الآية الكريمة:

الأول: لو استقاموا على الإسلام، واستمسكوا بهدي الله تعالى الذي أنزله على عباده وساروا على طريقته المثلى، التي يحبها الله ويرضاها، لصبَّ الله عليهم الأرزاق صبًا، ولوسَّع الله تعالى عليهم في حياتهم، ولكان ذلك سببًا في زيادة أرزاقهم،

والثاني: لو استقاموا على الطريقة، طريقة الكفر التي هم عليها، فالله تعالى يبسط لهم في الأرزاق استدراجًا لهم، حتى إذا أخذهم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، والقرطبي رحمة الله عليه قال " والأول أشبه ، أي أن لو استقاموا على طريقة الحق والهدى، لأن الطريقة معرفة بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى، والمقصود بالطريقة هنا على ـ الأرجح ـ أنها طريقة الحق، طريقة الله التي يحبها الله ويرضاها، طريقة الإيمان، سبيل الله الذي أنزله لعباده، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لأصحابه لما جاء مال البحرين فاقبلوا عليه، قَالَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا،

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ في "جامع البيان"(٢٣/ ٣٣٧): "وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأن لو استقاموا على الضلالة لأعطيناهم سعة من الرزق لنستدرجهم بها"وأخرجه عن أبي مجلز وينظر"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي(٢١/ ٢٩٥)،و"زاد المسير"لابن الجوزي(٨/ ٣٨١)

وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»"(١) نسأل الله العافية والسلامة.(٢)

إذن المسلم المستقيم على طاعة الله لا يخاف فقراً، ومما يؤسف أن بعض الناس يقول أنا لا أطلق لحيتي حتى يتم تعييني في وظيفة، أو حتى تتيسر لي وظيفة جيدة، ثم بعد ذلك أطلق اللحية!، وكثير من البنات تقول أنا إن شاء الله أتحجب؛ لكن لما أتزوج، العكس صحيحٌ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴿١٦﴾﴾ فالبنت إذا استقامت على طاعة الله؛ وسع الله رزقها، وجاءها زوج صالح خيرٌ مما تتمنى، وكذلك الإنسان إذا اتقى الله عزَّ وجلَّ وسَّع الله عليه رزقه، عملاً بهذه الآية الجليلة، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ أي لنختبرهم فيه، هذا على القول الأول، لو أنهم استقاموا على طريقة الهدى لأسقيناهم ماءاً غدقا كثيراً متتابعـاً، لنختبرهم، ونحوه قول الله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣١٥٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٩٦١)، من حديث الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٢٩٥): "والأول أشبه، لأن الطريقة معرفة بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى، ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى. وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: (أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا) قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال: (بركات الأرض..) وذكر الحديث. وقال ﷺ: (فوالله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم."

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فصاحب النعمة مبتلى؛ أيشكر، أم يكفر هذه النعمة، وصاحب الفقر مبتلى بالفقر؛ أيصبر أم يجزع.

قال تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ أي هكذا يقول النبي ﷺ أوحي إلى أن المساجد لله تعالى، والمراد بها البيوت التي بنيت للعبادة(١)، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ قَالَ: قَالَتِ الْجِنُّ لِنَبِيِّ اللهِ: كَيْفَ لَنَا نَأْتِي الْمَسْجِدَ، وَنَحْنُ نَاءُونَ عَنْكَ، وَكَيْفَ نَشْهَدُ مَعَكَ الصَّلَاةَ وَنَحْنُ نَاءُونَ عَنْكَ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨].(٢)

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٩٧)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٤٣)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٤١)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٢٩٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٨٣).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أراد البقاع كلها، يعني: أن الأرض كلها مواضع للسجود، وجعلت مسجدًا لهذه الأمة." (١)، وفي الصحيح: "وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا"(٢)

وَقَالَ سعيد بن المسيب وطلق ابن حَبِيبٍ-رحمهما الله-: "أراد بالمساجد الأعضاء الّتي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والرّكبتان واليدان والوجه، يقول: هذه الأعضاء أنعم اللّه بها عليك، فلا تسجد لغيره بها، فتجحد نعمة اللّه."(٣)

مسألة: حكم اتخاذ القبور في المساجد

و قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ يستفاد منها أن المساجد تكون خالصة لله يقام فيها التوحيد، ولا يشرك فيها مع الله أحد، ولذلك لعن النبي ﷺ اليهود والنصارى، في غير ما حديث، لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، عن

---

(١) أخرجه الواحدي في " التفسير الوسيط " (٤/ ٣٦٧)، وينظر " معالم التنزيل " للبغوي (٨/ ٢٤٢)، و"الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٩٨).

(٢) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٣٥)، ومسلم في " صحيحه " (٥٢١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٩٨)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٦٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٨٣).

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا»، قَالَتْ: وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.(١)" صلوات الله وسلامه عليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٢)، وأمنا عائشة وابن عباسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، قالوا لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: وَهُوَ كَذَلِكَ «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا."(٣)، وأيضاً قال ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٤) ، وقال ﷺ: «لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا»(٥) نهى عن الصلاة إلى القبر، ونهى عن الصلاة على القبر، ونهى عن الصلاة إلى القبر، ولا تجوز الصلاة في القبور إلا صلاة الجنازة، لو فاتت من جماعة أو من إنسان

---

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه" (١٣٣٠)، ومسلم في " صحيحه " (٥٢٩).

(٢) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه" (٤٣٧)، ومسلم في " صحيحه " (٥٣٠).

(٣) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه" (٤٣٥) ومسلم في " صحيحه " (٥٣١) عن عَائِشَةَ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به.

(٤) **(صحيح)** أخرجه مالك في " الموطأ" (٨٥) وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٧٥٠) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٥) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٩٧٢)، والنسائي في "المجتبى " (٧٧٢)، عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

وحده له أن يذهب إلى المقابر ويصلي صلاة الجنازة، أما أن يذهب الإنسان ويبنى على قبر صالح أو نبي مسجداً، فإن اللعن واضحٌ في حديث رسول الله، قاتل الله اليهود والنصارى، لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وكان يحذر ما صنعوا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فلعنهم في حياته، ولعنهم قبل وفاته بخمسة أيام(١)، ولعنهم وحذر من هذا الصنيع وهو في سكرات موته، هذا يدلك على عظم هذا الأمر، لأن التوحيد أعظم ما جاء به الأنبياء، عليهم صلوات الله وسلامه.

فائدةٌ نفيسةٌ:

في قوله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي ملكـًا له ونسبة الملك له تشريفـًا لها، فتنسب إلى الله عزَّ وجلَّ من هذا الوجه، وقد تنسب إلى غيره تعريفـًا، يعني إنسان بنى مسجداً، هل يجوز أن يكتب المسجد باسمه؟ باسم فلان الفلاني الذي بنى المسجد؟ أم لا يجوز؟

هذا جائزٌ، ما دام مخلصـًا لله تعالى، وليس هناك رياء ولا سمعة، قال القرطبي ـ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٥٣٢)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١١٠٥٨)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٤٢٥)، عن جُنْدَبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»

رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "المساجد وإن كانت لله ملكـًا وتشريفـًا فإنها قد تُنسب إلى غيره تعريفـًا"[(١)] أي من باب التمييز، يعني عندنا المسجد الذي نحـن فيـه مسـجد يوسـف كـانو، والمسـجد الذي بجوارنـا مسـجد كـذا، وهكـذا المسـاجد لا مـانع أبـداً أن تنسـب إلـى أسـماء، وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وأمدها ثنية الوداع ، وسابق بين الخيل التي لم تضمر مـن الثنيـة إلـى مسـجد بنـي زريـق[(٢)]، وَتَكُـونُ هَذِهِ الْإِضَافَةُ - أي إضافة المسجد لبني زريق- بِحُكْمِ الْمَحَلِّيَّةِ كَأَنَّهَا فِي قِبْلَتِهِمْ، وَقَدْ تَكُونُ بِتَحْبِيسِهِمْ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْأُمَّةِ فِي تَحْبِيسِ الْمَسَاجِدِ وَالْقَنَاطِرِ وَالْمَقَابِرِ وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي تَحْبِيسِ غَيْرِ ذَلِكَ. في مسائل أخرى غير هذه.

مسألةٌ: هل يجوز استعمال المساجد في غير العبادة؟

قال القرطبي ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ "مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنـه تجـوز القسـمة فيها للأموال، والغنـائم والفـيء، ومـا شـابه ذلـك، ويجـوز وضـع الصـدقات فيهـا، كـان الرسـول ﷺ يـأمر أبـا هريـرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يقـوم علـى صـدقات رمضـان، وكـان ذلـك في المسجد، ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشـتراك بـين المسـاكين، أي يجـوز أن يأتي بصدقة ويضعها بالمسجد هذه للفقراء، شركاء فيها يعني أي فقيـر، أو مسكين، جائز أن يأخذ منها، كل مـن جـاء أكـل، أحيانـا تـأتي إلـى مسـجدنا، أو إلـى غيـره؛ فتجـد

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٢٩٩)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (١٩/ ٤٣٣).

(٢) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه" (٤٢٠) ومسلم في " صحيحه " (١٨٧٠).

بجوار الثلاجة تمراً موضوعـاً، هل يجوز لأي إنسان أن يأكل من هذا التمر؟ أم يحرم؟

بل جائز؛ لأن الذي وضعه أراد الثواب، فمن جاء من الفقراء، والمسكين أكل، ويجوز حبس الغريم فيها، والغريم المديون الذي عليه دين، يجوز أن يحبس في المسجد، وربط الأسير فيه والدليل حديث ثمامة بن أثال رضي الله عنه، أن النبي ﷺ ربطه في المسجد[(١)]، والنوم فيها، فعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كما روى الإمام البخاري، قال " كُنْتُ غُلاَمًا شَابًّا عَزَبًا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُنْتُ أَبِيتُ فِي المَسْجِدِ " على عهد النبي ﷺ[(٢)]، وسكنى المريض فيها، فقد ضرب النبي ﷺ خيمةً لسعد رضي الله عنه،

---

(١) (متفق عليه)، أخرجه البخاري في " صحيحه" (٤٦٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٦٤)، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» ...الحديث.

(٢) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه" (٧٠٣٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٤٠) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ غُلاَمًا شَابًّا عَزَبًا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُنْتُ أَبِيتُ فِي المَسْجِدِ، وَكَانَ مَنْ رَأَى مَنَامًا قَصَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ لِي عِنْدكَ خَيْرٌ فَأَرِنِي مَنَامًا يُعَبِّرُهُ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَنِمْتُ، فَرَأَيْتُ مَلَكَيْنِ أَتَيَانِي، فَانْطَلَقَا بِي، فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ آخَرُ، فَقَالَ لِي: لَنْ تُرَاعَ، إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ. فَانْطَلَقَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البِئْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُ بَعْضَهُمْ، فَأَخَذَا بِي ذَاتَ اليَمِينِ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِحَفْصَةَ، فَزَعَمَتْ حَفْصَةُ، أَنَّهَا قَصَّتْهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدَ اللهِ رَجُلٌ صَالِحٌ، لَوْ كَانَ يُكْثِرُ الصَّلاَةَ مِنَ اللَّيْلِ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: «وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْثِرُ الصَّلاَةَ مِنَ اللَّيْلِ».

لما أصابه سهم في أكحله، في يوم الخندق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ضرب له خيمة في المسجد حتى يعوده عن قرب، ﷺ[(١)]، وفتح الباب للجار إليها، فلو أن هناك جار ولا يوجد طريق إلا من المسجد، يجوز أن يفتح له باب يمر من خلاله، وكذلك وإنشاد الشعر فيها إذا عري عن الباطل .[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، يعني في المساجد وغير المساجد، يحرم على العبد أن يدعوا غير الله دعاء العبادة، وأما دعاء المسألة ففيه تفصيل، يجوز أن يسأل العبد المخلوق ما يستطيعه أو يقدر عليه، ويحرم أن يسأل مخلوقاً سواء كان حياً أو ميتاً مالا يقدر عليه إلا الله عزَّ وجلَّ، كأن يقول يا سيدي فلان أو يا صاحب القبر الفلاني اشفيني هذا لا يستطيعه إلا الله، أو أن يسأل حياً شيئاً لا يمكن أن يقوم بهذا الفعل، وهذا عيب على اليهود

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (٤٦٣)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٦٩)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الخَنْدَقِ فِي الأَكْحَلِ، «فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي المَسْجِدِ، لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ فَلَمْ يَرُعْهُمْ» وَفِي المَسْجِدِ خَيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، إِلَّا الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الخَيْمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ؟ فَإِذَا سَعْدٌ يَغْذُو جُرْحُهُ دَمًا، فَمَاتَ فِيهَا

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٢١٢)، ومسلم في " صحيحه " (٢٤٨٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَرَّ بِحَسَّانَ وَهُوَ يُنْشِدُ الشِّعْرَ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَحَظَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أُنْشِدُ، وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَجِبْ عَنِّي، اللهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»؟ قَالَ: اللهُمَّ نَعَمْ.

والنصارى لأنهم كانوا يجعلون كنائسهم وبيعهم ويشركون فيها مع الله تبارك وتعالى، فأمر الله ـ جلَّ جلاله ـ نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله في مساجدهم ويجعلوها كلها لله تبارك وتعالى.(١)

وقوله جلَّ جلاله ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ أي لما قام عبد الله هو رسول الله محمد ﷺ،(٢) وهذا أجل وصف لرسول الله، وكذلك أجل وصف لكل عبد يتقرب ويتذلل إلى الله تعالى، هذا أسمى ما يمكن أن تصل إليه أن تكون عبداً لله حقا، ولذلك وصف الله رسوله محمداً ﷺ في أشرف المواطن بالعبودية، في موطن الإسراء قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] وكذلك في موطن تحدي الكفار، ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] وفي مقام العبادة والدعوة إلى الله قال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا

(١) قال السعدي رحمه الله في " تيسير الكريم الرحمن " ص (٨٩٠): "﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته."

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٤٢): "يقول: وأنه لما قام محمد رسول الله ﷺ يدعو الله يقول: لا إله إلا الله. "

قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩](١)

وقوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴿١٩﴾﴾ هناك أقوالٌ كلها صحيحةٌ مذكورةٌ عن أهل العلم؛ ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره من أهل التفسير،

القول الأول: المراد بهم الجن لما استمعوا القرآن، لبداً أي يركب بعضهم فوق بعض، من شدة حرصهم على الخير، وشدة حرصهم أن يسمعوا القرآن من رسول الله، كان الجن يركب بعضهم فوق بعض، لبداً أي متجمعون، ونحوه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴿٧﴾﴾ [البلد: ٧] أي مالاً متجمعـاً كثيراً، اجتمعوا وتكاثروا

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " مدراج السالكين "(١/ ١٢٣) :و"وصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] وقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩] فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال «لا تطروني كما أطرت النصارى» المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله وفي الحديث «أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر."

حتى ركب بعضهم فوق بعض، حتى ينظروا إلى رسول الله، صلوات ربي وسلامه عليه.(١)

القول الثاني: أن الإنس والجن اجتمعت على رسول الله ﷺ، وتحزبوا عليه ليطفئوا نور الله تبارك وتعالى.(٢)

والقول الثالث: أن الجن تعجبوا من صلاة رسول الله ﷺ، وصلاة أصحابه، وائتمامهم به، وأنهم يفعلون مثلما يفعل بالتمام، فحكوا ذلك بقولهم لما رجعوا، وعجبوا من شدة حرص أصحابه وائتمامهم به في صلاتهم، وأنهم يفعلون مثلما يفعل، حتى يكونون لبداً عليه، مجتمعين له، ممتثلين لأمره، ﷺ.(٣)

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا**﴾ وهذه الغاية العظيمة التي خلقنا الله لأجلها، قل إنما أدعو ربي، أعبد ربي، ولا أشرك به أحداً، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال ﴿**وَمَآ**

---

(١) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٤٢) وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وينظر "معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٣٧)، و " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٠٣).

(٢) قال الطبري رحمه الله في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٤٤): "وقال آخرون: بل ذلك من خبر الله الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ لعلمه أن الإنس والجن تظاهروا عليه، ليبطلوا الحق الذي جاءهم به، فأبى الله إلا إتمامه."، وأخرجه عن قتادة وابن زيد. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٢٠).

(٣) ذكره الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٤٤) وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وسعيد بن جبيرٍ رحمه الله. وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٢٠)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٨٣).

أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وفي الصحيحين عَنْ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»[1]، هذه الغاية العظمى التي خلقك الله لأجلها يا عبد الله، أن تعبد الله ولا تشرك به أحداً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦] بعض الناس يظن أنه إن حافظ فقط على الصلاة يكون قد أدى ما أمره الله به من الواجبات؟، لا لابد ان تؤدي الأوامر و الواجبات، وتجتنب النواهي والمحرمات، وأعظم الأوامر توحيد الله عزَّ وجلَّ، وأعظم النواهي اجتناب الشرك، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦] والطاغوت هو الشيطان، ومشتق من الطغيان ومجاوزة العبد حده، كل ما جاوز العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فهو يسمى طاغوتاً[2]، فأنت مأمور بالكفر بالطاغوت، ومأمور كذلك بالإيمان بالله معاً، فلابد

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٤٣٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٨).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في " إعلام الموقعين" (١/ ٤٠): "والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع."

من البراءة من الشرك والإيمان بالله تعالى ليصح إيمانك كما في الآية السابقة ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٥٦﴾**﴾ [البقرة: ٢٥٦]

لذلك قال الله لحبيبنا ﷺ، ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴿٢٠﴾**﴾ والدعاء هنا دعاء العبادة ودعاء المسألة، يدعوا الله، أي يعبد الله، يسأل الله، لا يسأل أحداً بشيء إلا الله، ولا يتقرب بشيء من العبادة إلا إليه ـ جلَّ جلاله ـ، ولذلك يحرم على العبد أن يصرف شيئًا من عبادته؛ لا إلى إنس أو إلى جن، أو إلى ملك، أو غير ذلك، إنما يجعل عبادته كلها لله رب العالمين جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، وتعالت صفاته.

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴿٢١﴾**﴾ أمر الله تعالى الحبيب ﷺ أن يقول ذلك للكافرين، الذين عاندوه وكذبوه وكفروا به، ولقد جاءهم بسبب سعادتهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم كفروا به وتولوا واستغنى الله عزَّ وجلَّ، فالله تعالى يقل لنبيه ﴿**قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴿٢١﴾**﴾ وهو جاءهم بكل الرشد وجاء لهم بأسباب السعادة، وجاءهم بكل خير، ولكنهم ما قبلوا هدايته التي جاء بها من عند الله، وردوها عليه، فلذلك هو لا يملك الهداية التوفيقية لأحدٍ

﴿**قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴿٢١﴾**﴾ أي أني لا أملك أن أجعلكم مهتدين مسلمين، تسيرون في طريق الحق الذي يحبه الله ويرضاه، وإنما ذلك إلى الله، وإن كنتم كذبتموني وآذيتموني فأنا لا أستطيع لكم ضراً، والضر والنفع بيد الله تبارك

وتعالى، فمرد ذلك إلى ربي ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.(١)

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ قل إني لن يجيرني، أي لن يعصمني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحدا، أي ملجأ ألجأ إليه(٢)، وهذا إخبار منه ﷺ أنه لا يملك لنفسه هو نفعا ولا ضرا، بعد أن أخبر أنه لا يملك لغيره نفعـًا ولا ضراً، وهو عليه الصلاة والسلام ما ملك الهداية لعمه، وكان أحرص ما يكون على هدايته، فعن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ "، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٤٨): "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي العرب الذين ردوا عليك ما جئتهم به من النصيحة: إني لا أملك لكم ضراً في دينكم ولا في دنياكم، ولا رشداً أرشدكم، لأن الذي يملك ذلك، الله الذي له ملك كل شيءٍ"

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٤٩)، و"التفسير البسيط" (٢٢/ ٢٩٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٠٥).

أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴿١١٣﴾ [التوبة: ١١٣] وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: **﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴿٥٦﴾** [القصص: ٥٦] "[١]، فنهي عن الاستغفار له ﷺ، هو لا يملك لنفسه ضراً ولا رشداً، بل هو عليه الصلاة والسلام قام ينادي في بطون قريش، حتى عمم وخص، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: "لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»[٢].

قال تعالى: **﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴿٢٢﴾** أي يدفع عني عذابه ـ سبحانه جلَّ جلاله ـ أي لا يدفع عني عذاب الله إذا أراد الله عذاباً لي أيُّ أحدٍ،

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴿٢٢﴾ أي ملجأ ألجأ إليه، أو مُدَّخلاً في الأرض، مثل السرداب أهرب إليه، ليس هناك عاصم من الله

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (١٣٦٠) ومسلم في " صحيحه " (٢٤).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٢٧٥٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٠٤).

تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٧] سبحانه وبحمده، فالله جلَّ جلاله وحده هو الذي يملك الضر والنفع، وإذا أراد بعباده ضراً أو نفعا سبحانه لا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه ـ سبحانه ـ.

قال تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ أي، ولكن أبلغكم رسالات الله تبارك وتعالى، هذا الذي أستطيعه وهذا الذي أملكه، أما الهداية وعدم الهداية هذا مردُّه إلى الله، لا أملكه أنا، إنما الذي أملكه لكم البلاغ، بلاغ الرسالة من الله ـ تبارك وتعالى ـ، أما هداية التوفيق لسلوك هذه الهداية أو هذه الرسالة، لا أملكها إنما يملكها الله جلَّ جلاله وتباركت أسماءه.

وثَمَّ معنى آخر للآية ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ أي، هذا الذي يعصمني أيضـًا من العذاب، لن يجيرني من الله أحدٌ إن أراد عذابـًا يحل عليَّ، إلا بلاغـًا من الله ورسالاته هذا الذي ينجيني ويعصمني من عذابه(١)، أن أبلغ رسالات الله تعالى التي أمرني الله ـ جلَّ جلاله ـ ببلاغها لكم، ولذلك بلاغ الرسالة من القرآن والسنة، سبب لنجاة العباد، وسبب لحماية الأمم، وسبب لصرف الشر والسوء عنهم.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ إلا أن أبلغ رسالات الله وأعمل بها، وأبلغكم ما

---

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٠٦): "فعلى هذا يكون مردوداً إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي لا أملك لكم إلا أن أبلغكم."

أمرني الله إياه، وأعمل برسالته التي أنزلها على ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴿٢٣﴾﴾ وهذه الآية فيها وجهان للعلماء:

الوجه الأول: إذا حملت على الكفر فظاهرة، ومن يعص العصيان الذي هو الشرك بالله، ويكفر به سبحانه ـ جلَّ جلاله ـ، ويموت على الكفر، فإن هذا الكافر له نار جهنم خالداً فيها أبداً، يُخلَّد في العذاب أبدَ الآباد.

والوجه الثاني: إذا حملت على العصيان الذي هو دون الشرك، ودون الكفر، فإن له نار جهنم خالداً فيها أبداً، إلا أن يشاء الله ـ تعالى ـ، وتدركه شفاعةَ الشافعين[1]، أو عفو الله عنه، والعبد المسلم مهما عصى الله عزَّ وجلَّ فمآله بإذن الله إلى الجنة، وإن آخذه الله وقدَّر عليه عذاباً، بسبب بعض الذنوب فلا بد أن يخرج منها يوماً من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]

فقوله جلَّ ذكره: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ

---

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٠٦): "وقوله أبدا دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وقيل: هو المعاصي غير الشرك، ويكون معنى خالدين فيها أبدا إلا أن أعفو أو تلحقهم شفاعة، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو."

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " المحرر الوجيز " (٥/ ٣٨٥): "وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يريد الكفر بدليل الخلود المذكور"

﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾

على الوجه الأول: إذا كانت المعصية معصيةً شركيةً، أو كفرية، فلا شك أن هذا الكافر يخلد في نار جهنم أبد الآباد، وليست عقيدتنا كعقيدة اليهود، ولا كما يعتقد أهل البدع منن ينتسبون للإسلام ، فاليهود يعتقدون أنهم يمكثون في النار سبعة أيام[(١)]، أو أربعين يومـًا ، يقولون أحيانـًا سبعة وأحيانـًا غير ذلك، يقولون نمكث في النار المدة التي عبدنا العجل فيها بعد موسى[(٢)]، ثم نخرج نحن من النار، وتخلفوننا فيها أنتم يا أمة محمد، ولما سألهم الرسول ـ ﷺ ـ من أصحاب النار؟ قالوا يا محمد ندخلها أيامـًا ثم نخرج منها، ثم تخلفوننا فيها، قال كذبتم والله لن نخلفكم فيها أبدا[(٣)]، أي لن نكون

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢/ ١٧٥) وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨١٣)، والحاكم في "المستدرك" (٤١٧١)، والطبراني في " المعجم الكبير" (١١/ ٩٦) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: " كانت يهود يقولون: إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الله الناس يوم القيامة بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا من أيام الآخرة، وإنها سبعة أيام. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ [البقرة: ٨٠] "

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢/ ١٧١) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: " ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ قال ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم الأيام التي أصبنا فيها العجل أربعين يوما، فإذا انقضت عنا تلك الأيام، انقطع عنا العذاب والقس"

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢/ ١٧٤) عن ابن زيدٍ قال: "حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال لهم: «أنشدكم بالله وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة؟» قالوا: إن ربهم غضب عليهم غضبة، فنمكث في النار أربعين ليلة،

خلفاً لكم في النار أبداً، بل اليهود يعذبون في نار جهنم أبد الآباد، نسأل الله العافية والسلامة،

وأما على الوجه الثاني: إذا كان العصيان لله ورسوله دون الشرك والكفر، أي كبائر الذنوب أو صغائرها، أو غير ذلك، فلا شك أن صاحب المعصية في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، ولو عذبه مآله بإذن الله تعالى إلى الجنة، لأن الموحدين يخرجون من النار ومآلهم إلى الجنة بإذن الله ـ الرحيم الرحمن ـ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم كمال الإيمان.

قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤**﴾ أي أن المشركين كانوا يستقوون بكثرة عددهم على المستضعفين من المؤمنين، فالله تعالى قال ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ**﴾ وهذا الوعيد جاء مفصلاً في سورة مريم، قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥**﴾ [مريم: ٧٥] ، إما العذاب في الدنيا، أي يوم بدر، وكانت هذه الآية سابقة عليها، حتى إذا رأوا ما يوعدون من القتل والأسر يوم بدر، أو الساعة تأتيهم بغتة؛ فسيعلمون حينها، ﴿**مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤**﴾ أي من الذي جنده أضعف؟ أهم أم المستضعفون من المؤمنين، بل جند

=ثم نخرج فتخلفوننا فيها. فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم والله، لا نخلفكم فيها أبداً» فنزل القرآن تصديقا لقول النبي ﷺ، وتكذيبا لهم: ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ**﴾ إلى قوله: ﴿**هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾."

المؤمنين أقوى، لأن الله ـ سبحانه ـ معهم ـ سبحانه وبحمده ـ، والله ناصرهم وهم أقل عدداً، فالكفار وإن كانت أعداداهم كثيرة فإنها لا تغني عنهم ولا تدفع عنهم عذاب الله تعالى إذا أراد الله جلَّ جلاله بهم عذاباً.[(١)]

قال عز وجل:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قال تعالى: **﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾** أقريب ما توعدون من العذاب أو من الساعة[(٢)]، أم يجعل له ربي أمداً، الله أعلم به أنا لا أعلم متى يحل عليكم هذا العذاب، ومتى تأتي الساعة، لا أدري **﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾** أم له أمدٌ لا زال الأمد لم ينقضي.

قال تعالى: **﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾** ففي الآية السابقة

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٠٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٣٠٢).

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٠٧): "قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾** يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا."

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾ أنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم متى الساعة، مع الآية السابقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ ففيه أنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم متى الساعة، ولا يعرف موعد قيامها، لا هو، ولا أحد من إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا الملائكة المقربون، ولا الأولياء الصالحون، لا من الإنس، ولا من الجن، ولا غيرهم، لا أحد يعرف متى الساعة إلا الله تعالى، كما قال الله ـ سبحانه ـ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤] وجاء جبريل إلى الحبيب ـ ﷺ ـ فقال يا محمد، أخبرني عن الساعة، متى الساعة؟ قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ﷺ [1]، وفي الصحيحين عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، "وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟» قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا، بَعْدَ الْإِسْلَامِ

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه" (٥٠)، ومسلم في " صحيحه" (٩)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ."(١)، ونحن نُشهِد الله أننا نحب الله، ونحب رسوله، ـ ﷺ ـ، ونحب الصحابة الكرام أجمعين، ونحب سلف هذه الأمة ونسأل الله جلَّ جلاله أن يحشرنا جميعـًا معهم يا رب العالمين، فرسول الله ـ ﷺ ـ لا يعلم متى الساعة، وهذا الغيب الذي استأثر الله به لا يعلمه أحد قط إلا الله.

قال تعالى: ﴿**عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧**﴾ والمعنى لكن من ارتضى رب العالمين، من أنبيائه ورسله، قد يطلعهم على بعض الغيبيات،

وقد خصَّ الفخر الرازي في تفسيره هذه الآية بالساعة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" والذي تدل عليه الآية الكريمة أن قوله ﴿**عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ**﴾ ليس فيه صيغة عموم، فيكفي في العمل بمقتضاه ألا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة" (٢)

ورد عليه كثيرٌ من أهل العلم ، ومراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن الله تعالى لم يطلع أحداً من أنبيائه على شيء من الغيوب، لا الساعة ولا غيرها(٣)، ويردُّ عليه بأن هناك بعض

---

(١) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٦٨٨)، ومسلم في " صحيحه" (٢٦٣٩) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) ينظر " التفسير الكبير " للرازي (٣٠/ ١٤٨).

(٣) قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح القدير" (٥/ ٤٣٦):" أما قوله إذ لا صيغة عموم في غيبه فباطل...".

الغيبيات قد أخبر الله تعالى بها بعض أنبيائه، مثل قول الله تعالى عن نبي الله عيسى ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩] ومثل ما صح عن النبي - ﷺ - في غير ما حديث، من أمور الساعة وأشراط القيامة، أخبر عن أشراط الساعة وعلاماتها ، والفتن التي تحدث بين يديها، وما يحدث في آخر الزمان من أمور، وقي الصحيحين عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَامًا، مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، إِلَّا حَدَّثَ بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ [(١)]، فالرسول ﷺ أخبره الله تعالى ببعض الغيبيات، وفي الصحيحين أيضـًا، عن حُذَيْفَةَ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الفِتْنَةِ، قُلْتُ أَنَا كَمَا قَالَهُ: قَالَ: إِنَّكَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا لَجَرِيءٌ، قُلْتُ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ»، قَالَ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، وَلَكِنِ الفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ البَحْرُ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: يُكْسَرُ، قَالَ: إِذًا لاَ يُغْلَقَ أَبَدًا، قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ البَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: البَابُ

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (٦٦٠٤)، ومسلم في " صحيحه" (٢٨٩١).

عُمَرُ.(١)، وأيضا عليه الصلاة وأتم السلام أخبر أبا ذرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما سيحدث له، وقوله أن أبا ذرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحيا وحده، ويموت وحده، ويبعث أمة وحده، ـ عليه الصلاة والسلام ـ(٢)، وأخبر علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذي السدية، الذي يكون مع الخوارج(٣)، وحدث كما أخبر به

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه" (٥٢٥)، ومسلم في " صحيحه" (١٤٤).

(٢) **(ضعيف)** أخرجه الحاكم في " المستدرك " (٤٤٢٧)، والبيهقي في "دلائل النبوة " (٥/ ٢٢٢)، ضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة " (٥٥٣١) من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٦١١)، ومسلم في " صحيحه" (١٠٦٦)، واللفظ له (عن زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ الْجُهَنِيُّ، أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ، مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ، «وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ، وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ» فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ. قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ: فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا، حَتَّى قَالَ: مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ، فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ، فَقَالَ: لَهُمْ أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ، فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ، وَسَلُّوا السُّيُوفَ، وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ، قَالَ: وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا

صلوات الله وسلامه عليه، وأخبر عن الدجال، وهذا من الغيب الذي لم يأتي بعد[١]، فالنبي ﷺ، أخبر ببعض الغيب الذي أطلعه الله تعالى عليه،

لكن الساعة والقيامة، لا يعلم أحد عن الساعة إلا الله تبارك وتعالى، ولذلك قول الله جلَّ جلاله ﴿**عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ**﴾ فلا شك أن الغيب ما غاب عنك، والشهادة ما ظهر أمامك، وما غاب عنك لا يعرفه ولا يعلمه إلا الله، وكما قال تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ورسول الله ﷺ أخبر كما في قوله جلَّ جلاله ﴿**غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥**﴾ [الروم: ٢-٥]

=أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ، فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، قَالَ: أَخِّرُوهُمْ، فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ، فَكَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَسَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: إِي، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا، وَهُوَ يَحْلِفُ لَهُ.

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٤٥٠)، ومسلم في " صحيحه" (٢٩٣٤) عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ، مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ، أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ، مَاءٌ أَبْيَضُ، وَالْآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ، نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ، فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ».

هذا كان غيباً بالنسبة للصحابة، وأيضاً إخباره عن الدابة التي تخرج في آخر الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢] وهذه دآبة حقيقية تمشي على الأرض ، تكلمهم بصوت مسموع، أن الناس كانوا قبل ذلك بآيات الله لا يوقنون(١)، وفي قراءة تُكْلِمُهم، أي تضربهم على أنوفهم أو على نواصيهم، تجعل علامةً، تميُّز بها الناس، هذا مسلم، وهذا كافر(٢)، والعجب من بعض السفهاء، من أهل الزيغ والضلال المنتسبين لتلك الأمة، كالشيعة، يحرفون الكلم عن مواضعه، فيقولون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴿٨٢﴾﴾ يقولون ما في دآبةٍ ولا شيءٍ، دآبة تدب أي تدور، وتدور بإذن من؟ بإذن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه!!، وهو الذي يجعلها تدور؟ وهذا شركٌ بالله تعالى: : ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه" (١٥٨)، والترمذي في" سننه" (٣٠٧٢)، وأحمد في " مسنده " (٩٧٥٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ "

(٢) قال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن "(١٦/ ٢١٤): "وقيل: تُكَلِّمُهُم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه عن قرب وبعد" أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون" أي بخروجي، لأن خروجها من الآيات. وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين. وقرأ أبو زرعة وابن عباسٍ رضي الله عنهما والحسن وأبو رجاء:" تَكَلِّمَهُم" بفتح التاء من الكلم وهو الجرح قال عكرمة: أي تسمهم."

﴿ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ۝٨٢﴾ فهذا أيضـاً من الغيب الذي أخبر به عليه الصلاة والسلام، وأيضـاً قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ۝٩٦﴾ [الأنبياء: ٩٦] أخبر به عليه الصلاة والسلام، وبما سيكون من أحوالهم في آخر الزمان، وأخبر لما أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضـاً وسأله متى الساعة؟ قال ما المسؤول عنه بأعلم من السائل، ولكن سأخبرك بأماراتها، هذه الأمارات كلها كانت غيبـاً، منها ما تحقق من الأشراط الصغرى، ومنها ما يزال غيبـاً، سيتحقق بعد ذلك، قال أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان، هذه العلامة، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان، ظهرت في زماننا نحن(١)، وقبل زماننا بيسير.

فالمقصود أن قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا۝٢٧﴾ يعني من ارتضى من رسولٍ كما صح عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "فإنه يصطفيهم ويطلعهم على ما شاء من الغيب"(٢) وأيضـاً صح عن ابن زيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: "ينزل الله من غيبه ما

---

(١) **(صحيح)**، وقد تقدم تخريجه.

(٢) **(صحيح)** أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٥٢) عن قتادة، قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ فإنه يصطفيهم، ويطلعهم على ما يشاء من الغيب. وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٥٤).

شاء على الأنبياء، أنزل على رسوله الغيب القرآن.[١]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ يسلك يعني يجعل، ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ ملائكة كرام، يحفظون الوحي، حتى لا تسترقه الشياطين، ويبلغ النبي ـ ﷺ ـ كما نزل من عند الله تبارك وتعالى[٢]، ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ أي ملائكة تترصَّد الشياطين، حتى لا تسترق السمع فيبلغ إلى الأنبياء وإلى الرسل، كما بلَّغهم الله تبارك وتعالى، وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وذلك بسندٍ صحيحٍ عنه ـ " قال: الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من الجنّ، يحفظوا النبي ﷺ[٣]، وكذلك قال قتادة "هم الملائكة".[١]

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٥٢) عن ابن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قوله: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُول﴾ قال: ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء أنزل على رسول الله ﷺ الغيب القرآن، قال: وحدثنا فيه بالغيب بما يكون يوم القيامة وصححه الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل التنزيل ـ تفسير جزء تبارك ـ "(٢٥٤).

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٥٢): "وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ يقول: فإنه يرسل من أمامه ومن خلفه حرساً وحفظةً يحفظونه."، وينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٤٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣١٠).

(٣) **(صحيح)** أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٥٣) عن إبراهيم، "في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ قال:الملائكة رصد من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من الجن"،

وفي قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ٢٧﴾ دليلٌ على إبطال الكُهَّان والعرَّافين، والمشعوذين والسحرة، الذين يدعون معرفة شيء من الغيب، أو أن يخبروا بما يكون في المستقبل، وقد ينخدع بهم كثير من الناس فيصدقونه، ويأخذ هؤلاء أموالهم، بهذه الشعوذة والعياذ بالله، وقد جاء النهي الأكيد عن إتيان الكهان[٢]،

ففي صحيح مسلمٍ، قال ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً». [٣] العراف يدخل في جملة الكهان، سواء كان منجماً، أو يضرب الرمال، أو غير ذلك مما يزعمون معرفة علم الغيب به، فهؤلاء الكهان والعرافين كثير من

=وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٥٥) وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٥/ ٣٣).

(١) (حسن) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٥٤) وحسنه الشيخ مصطفى العدوي في "التسهيل لتأويل التنزيل" ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٥٥).

(٢) قال القرطبي رحمه الله في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٠٨): "قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم. وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه."

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٢٢٣٠) عَنْ صَفِيَّةَ رضي الله عنها، به.

الناس إذا سرق منه شيء، يقول الشيخ الفلاني يعرف المكان ويدلك عليه، وقد يصدق لأنه يستعمل الجن، وقد تكلمنا عن حكم استخدام الجن، وذكرنا آراء أهل العلم ورجحنا أنه يحرم استخدام الجن المسلم وإن كان في أمور مباحة، أما الجن الكافر لا شك في حرمة الاستعانة بهم، ولكن الأرجح والله أعلم عدم استخدام الجن وإن كان في أمور مباحة، لأن الرسول ﷺ لم يستخدمهم وكذلك لم يستخدمهم الصحابة، رضي الله عنهم، وقد مضى تحرير هذه المسألة في أول السورة، وفي صحيح الإمام مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، قال:" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ، قَالَ: «فَلَا تَأْتِهِمْ» قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ، قَالَ: " ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ ".[(١)]

وفي صحيح الإمام مسلم أيضًا عَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها قَالَتْ: سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَاسٌ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ: «لَيْسَ بِشَيْءٍ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَا أَحْيَانًا بِشَيْءٍ فَيَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُهَا مِنَ الجِنِّيِّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»"[(٢)] وهذا حقٌّ، يسمع كلمةً من السماء كما ذكرنا قبل ذلك في الحديث، ثم يلقيها للجني بما يكون، ويزيد عليها مائةَ كذبةٍ، كما ذكرنا في قصة عمر رضي الله عنه ، مع هذا الرجل الذي طلق نساءه في زمانه، وكذلك قسم

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٥٣٧)، وأبو داود في " سننه" (٩٣٠)، والنسائي في " المجتبى " (١٢١٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٥٧٦٢)، ومسلم في " صحيحه" (٢٢٢٨).

ميراثه، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه إني لأحسب أن الجن استرقت السمع فيما يوحي الله تعالى في السماء وأخبرتك أنك ستموت، وما أراك تعيش إلا قليلاً، ووالله لو مت لأورثهن بعدك، ولآمرن بقبرك أن يرجم، وأمره أن يرد نساءه ويرجع في ماله الذي قسمه بين بنيه.(١)

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا» ثُمَّ قَالَ: " الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ: قَالَ فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ". (٢)، يقرفون: أي يقترفون الإثم فيه وهو الكذب.

---

(١) تقدم تخريجها.

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٢٢٢٩)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١١٢٠٨)، وأحمد في " مسنده " (١٨٨٣)، وابن حبان في " صحيحه" (٦١٢٩).

فهذا يدل على أنه يحرم على العبد أن يأتي الكهان أو العرافين، أو هؤلاء المشعوذين، ويعلم يقيناً أنه، لا يعلم الغيب إلا الله تبارك وتعالى، وقد ورد عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَوْفِ بْنِ الأَحْمَرِ، أَنَّ مُسَافِرَ بْنَ عَوْفِ بْنِ الأَحْمَرِ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الأَنْبَارِ إِلَى أَهْلِ النَّهْرَوَانِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لاَ تَسِرْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، وَسِرْ فِي ثَلاَثِ سَاعَاتٍ مَضَيْنَ مِنَ النَّهَارِ، قَالَ عَلِيٌّ: وَلِمَ؟ قَالَ: لإِنَّكَ إِنْ سِرْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ أَصَابَكَ أَنْتَ وَأَصْحَابَكَ بَلاَءٌ وَضُرٌّ شَدِيدٌ، فَإِنْ سِرْتَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي آمُرُكَ بِهَا ظَفُرْتَ وَظَهَرْتَ، وَأَصَبْتَ مَا طَلَبْتَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: مَا كَانَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مُنَجِّمٌ، وَلاَ لِنَاسٍ بَعْدَهُ، هَلْ تَعْلَمُ مَا فِي بَطْنِ فَرَسِي هَذِهِ؟ قَالَ: إِنْ حَسَبْتُ عَلِمْتُ، قَالَ: مَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا الْقَوْلِ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، قَالَ الله عزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٣٤**﴾ [لقمان: ٣٤] مَا كَانَ مُحَمَّدٌ يَدَّعِي عِلْمَ مَا ادَّعَيْتَ عِلْمَهُ، تَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي يُصِيبُ السُّوءُ مَنْ سَارَ فِيهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا الْقَوْلِ اسْتَغْنَى عَنِ الله فِي صَرْفِ الْمَكْرُوهِ عَنْهُ، وَيَنْبَغِي لِلْمُقِيمِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُوَلِّيَكَ الأَمْرَ دُونَ الله رَبِّهِ؛ لأَنَّكَ أَنْتَ تَزْعُمُ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي هُوَ أَمِنَ السُّوءَ مَنْ سَارَ فِيهَا، فَمَنْ آمَنَ بِهَذَا الْقَوْلِ لَمْ آمَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَمَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ الله نِدًّا وَضِدًّا، اللهمَّ لاَ طَائِرَ إِلاَّ طَائِرُكَ، وَلاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ، وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ، نُكَذِّبُكَ وَنُخَالِفُكَ، وَنَسِيرُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الَّتِي تَنْهَانَا عَنْهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ هَذِهِ النُّجُوم إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، إِنَّمَا الْمُنَجِّمُ كَالْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ، وَالله لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، وَتَعْمَلُ بِهَا لأُخَلِّدَنَّكَ الْحَبْسَ مَا بَقِيتُ

وَبَقِيتَ، وَلأَحْرِمَنَّكَ الْعَطَاءَ مَا كَانَ لِي سُلْطَانٌ، ثُمَّ سَارَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي نَهَاهُ عَنْهَا فَأَتَى أَهْلَ النَّهْرَوَانِ، فَقَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ سِرْنَا فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَمَرَنَا بِهَا فَظَفِرْنَا أَوْ ظَهَرْنَا لَقَالَ قَائِلٌ: سَارَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَمَرَنَا بِهَا الْمُنَجِّمُ، مَا كَانَ لِمُحَمَّدٍ مُنَجِّمٌ وَلاَ لَنَا مِنْ بَعْدِهِ، فَتَحَ الله عَلَيْنَا بِلاَدَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَسَائِرَ الْبُلْدَانِ، أَيُّهَا النَّاسُ تَوَكَّلُوا عَلَى الله وَثِقُوا بِهِ فَإِنَّهُ يَكْفِي مِمَّا سِوَاهُ.(١)

مسألةٌ: ما يذكره علماء الأرصاد من توقع المطر أو الريح، هل هو من الغيب؟

لا ليس من علم الغيب، لأن هذا العلم بأشياء محسوسة، وبآلات حديثة، وعلم بالحساب وغير ذلك، وبالتجربة وبما شابهها من هذه الأمور المحسوسة، فهذا ليس من علم الغيب في شيء، ثم هو يرصد شيئًا موجوداً، لكننا لا نراه بالعين المجردة، ولكنه موجود بالفعل.

قال تعالى: ﴿**لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾**﴾ في هذه الآية وجهان ذكرهما العلماء:

الوجه الأول: أي ليعلم الله عزَّ وجلَّ الأثر الذي يترتب عليه الجزاء والعقاب، أن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، بلغوا رسالات ربهم تبارك وتعالى، كما أمرهم الله(٢)

---

(١) أخرجه الحارث في " مسنده "(٥٦٤) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَوْفِ بْنِ الأَحْمَرِ رَحِمَهُ اللهُ، به. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٠٩).

(٢) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في " زاد الميسر " (٨/ ٣٨٦): "ليعلم الله عزَّ وجلَّ ذلك موجوداً ظاهراً

والوجه الثاني: أيضـًا ليعلم الرسول أن إخوانه الأنبياء قبله، بلغوا رسالات ربهم، وأحاط الله بما لديهم، وأحصى كل شيء عددا، جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه، هو المحيط بكل شيء ولا يخفى عليه لا سر ولا علن، ولا غيب ولا شهادة.(١)

وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى تفسير سورة الجن بحمد الله ومنته

******

=يجب به الثواب فهو كقوله تعالى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم قاله ابن قتيبة."

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٤٨): "ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في "زاد المسير" ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما بين إليهم من الوحي؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم"

(١) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في " زاد الميسر " (٨/ ٣٨٦): "ليعلم محمدٌ ﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم وأن الله قد حفظها فدفع عنها قاله قتادة."، وأخرج الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٥٤) عن قتادة، مثله، وينظر "تفسير عبد الرزاق" (٣٣٦٠).

﴿سُورَةُ المُزَّمِّلِ﴾

هذه السورة العظيمة عدد آيها عشرون، نزلت بعد سورة القلم.

وهي سورةٌ مكيةٌ كما رُوي عن ابن عباسٍ، واستثنى بعض أهل العلم الآية الأخيرة؛ وهي قوله جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾(١)،

وبعض أهل العلم استثنى آيتين؛ وهما قوله جلَّ جلاله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠﴾ بالإضافة إلى الآية الأخيرة، فقالوا: هاتان الآيتان مدنيتان وباقي السورة مكيةٌ(٢).

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة جاءت بعد سورة الجن، والرابط بين السورتين:

١- أن الله جلَّ جلاله ختم سورة الجن بذكر الرسل، فقال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الدر المنثور" (١٥/ ٣٥): "أَخْرَجَ ابن الضريس، وَابن مردويه والبيهقي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة المزمل بمكة إلا آيتين ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾."

(٢) قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في " النكت والعيون"(٦/ ١٢٤) مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقتادة إلا آيتين منها: قوله ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والتي بعدها وينظر " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣١٣).

﴿أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾ وقبلها قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ثم بدأ هذه السورة بذكر سيدهم وإمامهم وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ.

٢ - وأيضاً في سورة الجن قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ وأما في هذه السورة الجليلة، قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾، فهذه أوجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها.[1]

ربنا جلَّ جلاله في هذه السورة العظيمة يقول:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ المزمل هو رسول الله ﷺ، ولكن هذه صفته، وليس اسمه، وهذا ينبغي أن يُنتبه له

مسألةٌ: هل من أسماء رسول الله ﷺ المزمل؟ أو هل من أسمائه المدثر؟

الجواب: كل هذه ليست أسماءً للرسول ﷺ، إنما هي صفاتٌ له ﷺ، والمدثر

---

(١) ينظر في "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٠٩).

أيضا صفة له ﷺ.

فالمزمل يعني المتزمل بالثياب، أي المتلفف بها(١)، ولذلك قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال السّهيليّ: ليس المزّمّل باسمٍ من أسماء النّبيّ ﷺ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض النّاس وعدّوه في أسمائه عليه السّلام، وإنّما المزّمّل اسمٌ مشتقٌّ من حالته الّتي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدّثّر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما الملاطفة، فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سمّوه باسمٍ مشتقٍّ من حالته الّتي هو عليها، كقول النّبيّ ﷺ لعليٍّ حين غاضب فاطمة رضي اللّه عنهما، فأتاه وهو نائمٌ وقد لصق بجنبه التّراب فقال له: (قم يا أبا ترابٍ). ، كما روى البخاري ومسلمٌ في صحيحيهما عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: اسْتُعْمِلَ عَلَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ مِنْ آلِ مَرْوَانَ قَالَ: فَدَعَا سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَشْتِمَ عَلِيًّا قَالَ: فَأَبَى سَهْلٌ فَقَالَ لَهُ: أَمَّا إِذْ أَبَيْتَ فَقُلْ: لَعَنَ اللهُ أَبَا التُّرَابِ فَقَالَ سَهْلٌ: مَا كَانَ لِعَلِيٍّ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَبِي التُّرَابِ، وَإِنْ كَانَ لَيَفْرَحُ إِذَا دُعِيَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَنْ قِصَّتِهِ، لِمَ سُمِّيَ أَبَا تُرَابٍ؟ قَالَ: جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟» فَقَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ، فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ «انْظُرْ، أَيْنَ هُوَ؟» فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، فَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٥٧)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٥١)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٣٩)، و"تاج العروس" للزبيدي (٢٩/ ١٣٨).

عَنْهُ وَيَقُولُ: «قُمْ أَبَا التُّرَابِ قُمْ أَبَا التُّرَابِ»(١) فأبو تراب كانت كنية سيدنا عليٍ، كما كانت كنيته أبا الحسن، والرسول ﷺ لما كناه بأبي ترابٍ وصفه بالحالة التي كان هو فيها، (قم يا أبا تراب)"(٢)،

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكذلك قوله عليه السّلام لحذيفة: (قم يا نومان) وكان نائمًا ملاطفة له، وإشعارًا لترك العتب والتّأنيب. فقول اللّه تعالى لمحمّدٍ ﷺ: يا أيّها المزّمّل قم فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ، ليستشعر أنّه غير عاتبٍ عليه"(٣)

وقفةٌ: مثل هذه المواقف العظيمة تحتاج إلى أبٍ من نوعٍ خاصٍ، فكثيرٌ من الناس إذا زوَّج ابنته وغاضبها زوجها، لا يُلاطِف زوجَ ابنته بهذه الملاطفة العظيمة، بل من الممكن أن يكون سبباً في الطلاق والفراق، فيقول لابنته: كيف يخرجك من بيتك؟ وأنت أكرم من أن تذهبي إليه من تلقاء نفسك؟ ويقول لزوجها: ألا تعلم من هي ومن عائلتها؟، ومثل هذه الألفاظ التي هي أصلاً ليست من الشرع، - نسأل الله جلَّ جلاله أن يرزقنا مكارم الأخلاق ومحاسنها، - وطبعا مثل هذه المواقف لا يخلو منها بيتٌ من البيوت فتحدث مع من هو في مثل شرف عليٍ رضي الله عنه، أو أعلى كرسول الله ﷺ، أو أدنى كسائر الناس وعوامهم، والعبرة ليست بحدوث المشكلة، ولكن العبرة أن يكون الزوج إنسانـًا يُقدِّرُ أهله أيما تقديرٍ، ويعظم أهلها، ويعلم قدر هذا العمل

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٤١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٤٠٩).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣١٥)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٨/ ٧).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣١٥).

الذي قام به الرسول ﷺ مع علي رضي الله عنه.

المقصود أن المزمل ليس اسماً من أسماء الرسول ﷺ؛ ولكن صفته ﷺ حين إنزال هذه الآيات، وذلك كما قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما[1]، أنه لما جاء جبريل إلى الرسول ﷺ رُعب منه ورجع إلى خديجة رضي الله عنها وقال زملوني زملوني، غطوني غطوني، يعني أُرعب جداً، دثروني دثروني، ﷺ، فغطوه بثياب تزمل بها، أي تلفف بها ﷺ، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.

قال القرطبي رحمه الله: "وقيل: كان هذا في ابتداء ما أوحي إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال: (زملوني دثروني) روي معناه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما. وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزمل والمدثر في أول الأمر، لأنه لم يكن بعد أدثر شيئا من تبليغ الرسالة.. "[2]

وقد جاء ذلك من حديث جَابِر بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه، قَالَ: "وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: " بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي " فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١-٢] إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥]. فَحَمِيَ الوَحْيُ

(١) ينظر " التفسير البسيط " للواحدي (٢٢/ ٣٤٢)، و " التفسير الكبير " للرازي (٣٠/ ١٥١).

(٢) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣١٥).

وَتَتَابَعَ."[1]

فائدةٌ: قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "التنبيه لكل متزملٍ راقدٍ ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة"[2]

مسألةٌ: إذا كان رب العزة أمر الرسول ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ فهل هذا الأمر للرسول ﷺ وحده؟ أم هو أمرٌ له ولأمته؟[3]

الجواب: هو أمرٌ له ولأمته كذلك، والأصل أن الخطاب الشرعي الموجه لرسول الله ﷺ عامٌ لجميع الأمة حتى تأتي قرينةٌ تدل على خصوصيته بالرسول ﷺ.[4]

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤) ومسلم في " صحيحه" (١٦١).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣١٥)، و"التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزي الغرناطي (٢/ ٤٢٢)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (١٩/ ٤٥١).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣١٧)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (١٩/ ٤٥١)، و" السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" للخطيب الشربيني (٤/ ٤١٣).

(٤) قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في "مذكرة أصول الفقه " (١٩٥): "لأدلة دلت على أن الخطاب الخاص به ﷺ يشمل الأمة حكمه لا لفظه إلا بدليل على الخصوص كقوله: **﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾** [الأحزاب: ٢١] وقد علمنا من استقرار القرآن أن يخاطب نبيه ﷺ بخطاب لفظه خاص والمقصود منه تعميم الحكم. فمن ذلك قوله تعالى: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾** ثم قال: **﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾** [الطلاق: ١] الآية. فأفهم شموله حكم الخطاب للجميع."

وقفةٌ: فيما سبق إشارةٌ إلى أن هذا الكلام حَثٌّ شرعيٌ من ربنا لنا، هذا وما نحن عليه من الحال؛ فنحن ننام طول الليل؛ وما عندنا قيام ليلٍ، ولا دعاء في وقت السحر، ولا استغفار ولا سؤال الله، وهذه مصيبةٌ، عندنا همومٌ، وعندنا حاجاتٌ عظيمةٌ ومصائبٌ ومحنٌ، وننام الليل فضلاً عمن يجلس أمام التلفاز على الأفلام أو المسلسلات أو الأخبار أو ما شابه هذا، يضيع عمره بلا فائدةٍ، إذاً في هذه الإشارة فائدةٌ عظيمةٌ أن الراقد في الليل يتنبه.

أمر الله حبيبه وخليله ومصطفاه ﷺ فقال له: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢**﴾ يا أيها النائم المتلفف بالثياب قم الليل إلا قليلاً، أمامك مهمةٌ عظيمةٌ، مهمة الدعوة إلى الله، وبعض أهل العلم حملوا المزمل على تفسيرٍ معنويٍ، قالوا يعني يا أيها الملتزم بالقرآن، فجعلوها من هذا المعنى، تفسيراً معنوياً؛ لكن أولى التفسير ما أُجري على ظاهر اللفظ، ظاهر القرآن الكريم.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢**﴾ الليل يبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر(١)، ولذلك الإمام أحمد وبعض السادة العلماء قالوا "إن الصلاة بين العشاءين تعد من قيام الليل" يعني بعد صلاة المغرب وقبل العشاء- العشاءان هما المغرب والعشاء-، قال ابن ضويان رَحِمَهُ اللهُ: " قال الإمام أحمد قيام الليل من المغرب إلى طلوع الفجر."(٢)

---

(١) أورده القرطبي في " الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٣١٧)

(٢) ذكره ابن ضويان في " منار السبيل " (١/ ١١٣)

وكان يؤثر عن السلف الصالح أنهم كانوا يصلون كثيراً في هذا الوقت، فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ عزَّ وَجَلَّ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: ١٧]، قَالَ: «كَانُوا يُصَلُّونَ فِيمَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ» (١)،

يقول السادة العلماء: هذه الصلاة تعتبر من قيام الليل، لكن بلا وترٍ، لأن الوتر يكون بعد العشاء. قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: "ووقته ما بين العشاء وطلوع الفجر الثاني، فلو أوتر قبل العشاء، لم يصح وتره."(٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢﴾ قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا ٢﴾ يعني أن الله جلَّ جلاله خيَّر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ يا محمد قم الليل كله، إلا قليلاً منه، ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ نصف الليل أو زد عليه شيئًا قليلاً، أو أنقص منه شيئًا قليلاً، فالله خيَّره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وهناك سبب نزولٍ لآخر آيةٍ في هذه السورة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ وذلك ما ورد في الحديث الذي رواه أبو داود بسندٍ صحيحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ أَوَّلُ الْمُزَّمِّلِ، كَانُوا يَقُومُونَ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، حَتَّى نَزَلَ آخِرُهَا، وَكَانَ بَيْنَ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا سَنَةٌ» (٣)

---

(١) أخرج أبو داود في "سننه " (١٣٢٢) والأثر صححه الألباني في " إرواء الغليل " (٤٦٩).

(٢) أورده ابن قدامة في " المغني " (٢/ ١١٩)

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٣٠٥)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٥٩٤٢)،

مسألةٌ: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ حثٌ من الله لرسوله على قيام الليل فهل قام الرسول ﷺ وحده؟

والإجابة: أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين قاموا معه، يصلون مثل صلاته، يقتفون أثره، يفعلون مثلما يفعل، يتقربون إلى الله بمثل ما يتقرب، وهذه هي حقيقة المحبة، كثيرون هم المُدَّعُون حب النبي ﷺ، فيقول الواحد منهم أنا أحبه، وفي شهر ربيعٍ الأول يحتفل كثيرٌ منهم بميلاده ﷺ، لكن هذا انفصالٌ واضحٌ في هذه الأمة العظيمة المباركة، والتي هي مليئةٌ بالخير، انفصالٌ كبيرٌ عظيمٌ بين اقتفاء الأثر واتباعه ﷺ، وبين الأقوال التي يقولها الناس،

فقوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢**﴾ الله تعالى حثَّ رسوله ﷺ على قيام الليل في غير ما موضعٍ في القرآن الكريم، فالله تعالى قال: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩**﴾ [الإسراء: ٧٩] وأيضاً قوله جلَّ جلاله: ﴿**كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧**﴾ [الذاريات: ١٧] – اللهم اغفر لنا وارحمنا–.

وقفةٌ: يخبر الله عن حال هؤلاء الصالحين بقوله: ﴿**كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧**﴾، ونحن الآن صورة واقعنا معكوسةٌ تماماً، فكل الليل تقريباً نهجع، وقليلاً ما لو ذكرنا الله ولو حدث لاستشعرنا أن هذا خيرٌ نمنُّ به– نسأل الله العافية والسلامة والمدد–.

=والحاكم في "المستدرك" (٣٨٦٤)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (١٣٠٥)

وفي قوله جلَّ جلاله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ قال بعض أهل العلم كان قيام الليل فرضـًا على رسول الله ﷺ وحده، وبعضهم قال كان فرضـًا عليه وعلى أمته، ولعل هذا الراجح،

وهذا الذي رجحه القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلف: هل كان قيامه فرضًا وحتمًا، أو كان ندبًا وحضًّا؟ والدّلائل تقوّي أنّ قيامه كان حتمًا وفرضًا، وذلك أنّ النّدب والحضّ لا يقع على بعض اللّيل دون بعضٍ، لأنّ قيامه ليس مخصوصـًا به وقتا دون وقتٍ.

وأيضًا فقد جاء التّوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي. واختلف أيضًا: هل كان فرضًا على النّبيّ ﷺ وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمّته؟ ثلاثة أقوالٍ:

الأوّل: قول سعيد بن جبيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتوجّه الخطاب إليه خاصّةً.

الثّاني: قول ابن عبّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان قيام اللّيل فريضةً على النّبيّ ﷺ وعلى الأنبياء قبله.

الثّالث: قول عائشة وابن عبّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا وهو الصّحيح، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى أَنَّ سَعْدَ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ أَرَادَ أَنْ يَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ... الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَقُلْتُ لِعَائِشَةَ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُلْتُ: بَلَى! قَالَتْ فَإِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ

فَرِيضَةٍ. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ"(١)، قلت أنبئيني عن قيام رسول الله، فذكرت صفة وتره ﷺ، والحديث في صحيح الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

وقفةٌ: كان قيام الليل فرضـًا على رسول الله ﷺ وعلى أمته- سبحان الله العظيم- وأنت تعجب لماذا؟ لأن هذا في صدر الإسلام، وفي الحقيقة العبد لا يستطيع أن يقوم بأعباء الدولة إلا إذا كان له صلةٌ عظيمةٌ بينه وبين ربه، فَهَمُّ الدعوة إلى الله وتحمل المشاق، وبذل النفس رخيصةً في سبيل الله، لا يهون إلا على من ذاق حلاوة الإيمان، وبذل من وقته ونفسه لله رب العالمين، وكابد الليل وصلى والناس نيامٌ، وصام النهار وهكذا...، فرسول الله محمد ﷺ قام من الليل وأصحابه الكرام قاموا معه، حولاً كاملاً، نصف الليل أحيانـًا، ثلثه أحيانـًا، ثلثين أحيانـًا- سبحان الله العظيم- ولذلك رب العزة يقول: (﴿**أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩].

وقفةٌ: هل يستوي قائمٌ نصف الليل، أو ثلثه، أو نصف ساعةٍ منه، مع الذي لم يخطر بباله أصلاً قيام الليل؟ هل يستويان مثلاً؟ لا يمكن أبداً،

وإن في الليل ساعةً لا يوافقها عبدٌ قائمٌ يسأل الله من خير الدنيا والآخرة إلا

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣١٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٤/ ٣٧٢)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٧٤٦)، والنسائي في "الكبرى" (٤٢٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٥٥١).

أعطاه الله إياها، كما جاء عند مسلمٍ في صحيحه عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ»(١)،

وفي الثلث الأخير من كل ليلةٍ، ينادينا مولانا هل من تائبٍ فأتوب عليه، هل من مستغفرٍ فأغفر له، هل من سائلٍ فأعطيه، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ " (٢)،

وقفةٌ: بيوت المسلمين يبكي المرء من أجلها، فَجُلُّ بيوت المسلمين إلا من رحم الله، يقضون الليل في المشي على الكورنيش، الذهاب إلى المولات، يشاهدون التلفزيونات- نسأل الله الستر والعافية-، إلا من رحم الله؛ بيوتٌ يُذكر فيها اسم الله،

ولذلك رب العزة سبحانه جلَّ جلاله لما قال: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ**﴾ قال بعدها: ﴿**وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ٢٦**﴾ [الإنسان: ٢٦] - أسأل الله أن يرزقنا العمل- فينبغي علينا أن نُصحح حياتنا من الآن، في هذا الباب خاصةً، فقيام الليل شرف المؤمن؛ كما ورد في الحديث الذي رواه الحاكم في المستدرك، عن ابن عمر وسهلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جاء

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٧٥٧)، وأحمد في " مسنده " (١٤٣٥٥)، وابن حبان في " صحيحه " (٢٥٦١).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٤٥)، ومسلم في " صحيحه " (٧٥٨).

جبريل إلى النبي ﷺ فقال"«...يَا مُحَمَّدُ شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»"[(١)]،

وسنستعرض الآن صوراً يسيرةً من قيام الرسول ﷺ، وقيام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، حتى نرى أين نحن من هؤلاء الأماجد، الذين استحقوا بجدارةٍ أن يقودوا الأمة، وكانوا قبل الإسلام لا وزن لهم، ولا كرامة، ولا قيمة، ولا أي مكانةٍ لهم في الدنيا، ثم جاء الإسلام فجعلهم في الصدر الأول، وكل الأمم تبعٌ لهم، وهذا هو المجد العظيم في الدنيا والآخرة، روى الإمام أبو داود بسندٍ حسنٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ، نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ»

وقفةٌ: هذا الحديث نسوقه لبيوتنا، نسوقه لبيوت المسلمين اليوم يسمعون النشرات والأخبار للساعة الثانية عشر، والساعة الواحدة، والثانية بعد نصف الليل، ولا يسمعون موعظةً من عالمٍ أو واعظٍ لربع ساعةٍ فقط، ولا يجتمعون على كتاب الله لخمس دقائق، ووالله هذه مصيبةٌ، فتدبر على من يترحم رسول الله ﷺ «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ، نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى، نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»[(٢)]

(١) **(حسن)** أخرجه الحاكم في " المستدرك " (٨١٣٤)، والطبراني في " المعجم الأوسط " (٤٢٧٨)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة "(٨٣١).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٣٠٨)، والنسائي في " المجتبى" (١٦٢٦)، وفي "

والحديث ثابتٌ صحيحٌ،

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ﷺ "أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيلِ"[١]

وقال ﷺ لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» والحديث في صحيح الإمام البخاري ومسلم رحمة الله عليهما[٢]،

ولما قال ﷺ: "أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللهِ صَلاَةُ دَاوُدَ"، وتدبر لأن هذه المسألة مستمرةٌ معنا في الكلام عن قيام رمضان ، «أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللهِ صَلاَةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ،" فلنعتبر أن الليل اثنا عشر ساعة حينئذٍ ينام العبد نصف الليل، وهو ست ساعات، ويقوم ثلثه، يعني أربع ساعاتٍ، وينام سدسه، وهو الجزء المتبقي من الوقت قبل الفجر، «وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا» وهذا حديثٌ في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٣]، ولما سُئل ﷺ قال «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ» والحديث في صحيح مسلمٍ من حديث جابرٍ[٤]

=السنن الكبرى" (١٣٩٣)، وأحمد في " مسنده " (٧٤١٠)، والحديث صححه الألباني في " صحيح الجامع "(٣٤٩٤).

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه" (١١٦٣)، وأبو داود في " سننه " (٢٤٢٩)، والترمذي في " سننه" (٤٣٨)، والنسائي في " المجتبى " (١٦١٣)، وفي " السنن الكبرى " (١٣١٤).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٢٢)، ومسلم في " صحيحه" (٢٤٧٩).

(٣) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١٣١) ، ومسلم في "صحيحه" (١١٥٩).

(٤) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٧٥٦)، والترمذي في "سننه" (٣٨٧)، وابن ماجه في "سننه"

مسألةٌ: قول النبي ﷺ " طول القنوت" هل هو طول الدعاء؟ أم طول القراءة؟ أم كثرة عدد الصلوات؟

كلها أقوالٌ صحيحةٌ، طول القيام والقراءة وتخفيف عدد الركعات؛ أو أنه يخفف القراءة ويكثر السجدات، هذا وهذا صحيحٌ

وذلك لما ثبت عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ."[(١)]

وقفةٌ: النبي ﷺ يقرأ في ركعةٍ واحدةٍ مائة آيةٍ، واليوم لو أراد إمام أي مسجدٍ أن يقرأ في العشاء مثلاً مائة آيةٍ لنهره الناس ولربما تطاولوا عليه بالضرب، وصوته سَيَضعف ولن يقدر أن يقرأ الصلاة التي بعدها، والنبي ﷺ قرأ البقرة والنساء وآل عمران، ليس في شهرٍ وإنما في ركعةٍ واحدةٍ، ويقرأ مترسلاً، حتى تدخل القراءة القلب،

=(١٤٢١)،

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٧٧٢)، والنسائي في " المجتبى " (١٦٦٤)، وأحمد في " مسنده " (٢٣٢٦١).

فيتأثر ويصلح قلبه، فتصلح الأعمال وتصلح الأقوال، ويصلح السر والعلن، بمواطئة القلب مع اللسان،

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وقد تنازع العلماء: أيّما أفضل: إطالة القيام؟ أم تكثير الرّكوع والسّجود؟ أم هما سواءٌ؟ على ثلاثة أقوالٍ: وهي ثلاث رواياتٍ عن أحمد. وقد ثبت عنه في الصّحيح "أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: طُولُ الْقُنُوتِ". وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "إنَّك لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إلَّا رَفَعَك اللهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْك بِهَا خَطِيئَةً". "وَقَالَ لِرَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ: أَعِنِّي عَلَى نَفْسِك بِكَثْرَةِ السُّجُودِ". ومعلومٌ أنّ السّجود في نفسه أفضل من القيام ولكنّ ذكر القيام أفضل وهو القراءة وتحقيق الأمر أنّ الأفضل في الصّلاة أن تكون معتدلةً. فإذا أطال القيام يطيل الرّكوع والسّجود كما كان النّبيّ ﷺ يصلّي باللّيل كما رواه حذيفة وغيره. وهكذا كانت صلاته الفريضة وصلاة الكسوف وغيرهما: كانت صلاته معتدلةً فإن فضّل مفضّلٌ إطالة القيام والرّكوع والسّجود مع تقليل الرّكعات وتخفيف القيام والرّكوع والسّجود مع تكثير الرّكعات: فهذان متقاربان. وقد يكون هذا أفضل في حالٍ كما أنّه لمّا صلّى الضّحى يوم الفتح صلّى ثماني ركعاتٍ يخفّفهنّ ولم يقتصر على ركعتين طويلتين. وكما فعل الصّحابة في قيام رمضان لمّا شقّ على المأمومين إطالة القيام." (١)

تدبر النبي ﷺ للقرآن الكريم:

كان ﷺ إذا مرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سَأَل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوذ،

(١) ينظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (٢٣/ ١١٥).

ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد، فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه- اللهم أعنا ولا تعن علينا-،

ومن هذا الباب ويشبهه ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَطَالَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ»، قَالَ: قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: «هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ»..[١]

فالأولى بالعبد المستطيع إذا كان يصلي قيام الليل في البيت منفرداً مثلاً، أن يطيل الصلاة، أولى به إن استطاع، وأن تكون أغلب صلاته إحدى عشر ركعة-نسأل الله الإعانة والتوفيق والمدد يا رب العالمين- لما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ قَالَتْ: مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ، وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»[٢]

وقفةٌ: إذا صلى العبد صلاةً جميلةً، مطمئنةً طويلةً، فيركع براحته ويسجد براحته، فلن يحمل همَّ الدنيا أبداً، طالما متيقنٌ أن حاجاته عند الملك، فقلبه معلقٌ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٣٥)، ومسلم في " صحيحه " (٧٧٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠١٣)، ومسلم في " صحيحه " (٧٣٨).

بالعرش، فلن يخشى من صاحب الشركة أن ينهي عمله، ولا يخاف من صاحب المؤسسة أن يجازيه أو يخصم من راتبه شيئًا، فهذه الأمور ليست بيد أي أحدٍ من الخلق، وإنما بيد الملك جلَّ جلاله، فوَصْفُ صلاة النبي ﷺ بأنه يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، ركعتين وركعتين، ليست أربعًا متصلات،

وهذه بشرى عظيمةٌ أسوقها للمناسبة، أنه صح عن بعض السلف بالإسناد الصحيح، بأنه من صلى أربعًا بعد العشاء كُتب كأنه قامهن ليلة القدر، وهذا ثبت بالإسناد الصحيح عن عبد الله - يعني ابن مسعودٍ- رضي الله عنه، قال: مَنْ صَلَّى أَرْبَعًا بَعْدَ الْعِشَاءِ لاَ يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ بِتَسْلِيمٍ عُدِلْنَ بِمِثْلِهِنَّ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.[1]،

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: "أَرْبَعَةٌ بَعْدَ الْعِشَاءِ يُعْدَلْنَ بِمِثْلِهِنَّ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ."[2]،

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: "مَنْ صَلَّى أَرْبَعًا بَعْدَ الْعِشَاءِ كُنَّ كَقَدْرِهِنَّ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ."[3]

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٧٣٥٣)، وصححه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (١١/ ١٠٣).

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه "(٧٣٥٢)، وصححه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (١١/ ١٠٣).

(٣) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " و(٧٣٥١)، وصححه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (١١/ ١٠٣).

وقولها ﵂: «ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»، وقول أم المؤمنين قبلها " مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ، وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً " فقد أخبرت أمنا عائشة بعلمها بما رأته من رسول الله ﷺ، ولكن أخبر غيرها بأن رسول الله ﷺ زاد على ذلك، وهناك أدلةٌ على ذلك.

أدلة الزيادة على إحدى عشر ركعة في قيام الليل:

أولاً: قول الحبيب ﷺ كما في الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَشِيَ أَحَدُكُمُ الصُّبْحَ، صَلَّى رَكْعَةً وَاحِدَةً تُوتِرُ لَهُ مَا قَدْ صَلَّى»[(١)] ، فالعبرة هنا بالزمن، وليست العبرة بعدد الركعات، فمن الممكن أن يصلي العبد في نصف ساعةٍ ركعتين، ومن الممكن أن يصلي آخر في النصف ساعة عشرين ركعة، وليس هناك إشكالٌ فيها، فليس العبرة بأن تلتزم بإحدى عشر ولا تزيد، بل يجوز الزيادة على ذلك وستتلوا هذا الدليل أدلةٌ كثيرةٌ.

ثانياً: حديث عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ﵄، أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[(٢)]، دليلٌ

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٩٩٠)، ومسلم في " صحيحه " (٧٤٩).

(٢) **(صحيح)** وقد تقدم تخريجه.

على أن العبرة هنا بالزمن، وليس العبرة بعدد الركعات.

ثالثاً: قول النبي ﷺ لخادمه لما قال يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة، فقال أعني على نفسك بكثرة السجود، والحديث في صحيح مسلمٍ عن رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»(١)،

رابعاً: عن مَعْدَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيُّ، قَالَ: لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ؟ أَوْ قَالَ قُلْتُ: بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ، فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ. ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً»(٢)،

وقفةٌ: لو تخيل الإنسان كل ما يصلي ركعتين أنه كل ما يسجد سجدةً يرفعه ربنا درجةً، وهي درجةٌ من درجات الجنة، فكلما سجد رفعه الله، وهكذا.

خامساً: يعني ثبت في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها،

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٤٨٩)، وأبو داود في " سننه " (١٣٢٠)، والنسائي في " المجتبى " (١١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٤٨٨)، والترمذي في " سننه " (٣٨٨)، ووالنسائي في " المجتبى " (١١٣٩)، وابن ماجه في " سننه " (١٤٢٣).

قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ ثَلاَثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنْهَا الوِتْرُ، وَرَكْعَتَا الفَجْرِ[١]،

سادساً: وأيضا ثبت ذلك عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وحديثه في الصحيحين- قَالَ: نِمْتُ عِنْدَ مَيْمُونَةَ وَالنَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ «فَتوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ عَلَى يَسَارِهِ، فَأَخَذَنِي، فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَصَلَّى ثَلاَثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ نَامَ حَتَّى نَفَخَ، وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفخَ، ثُمَّ أَتَاهُ المُؤَذِّنُ، فَخَرَجَ، فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ»[٢]

وثبت ذلك عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وحديثه في صحيح الإمام مسلم- أَنَّهُ قَالَ: لَأَرْمُقَنَّ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللَّيْلَةَ، «فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ أَوْتَرَ فَذَلِكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً»[٣]،

فالثلاثة- أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وزيد ابن خالدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كلهم رووا أن الرسول ﷺ صلى ثلاث عشرة ركعةً،

سابعاً: إن قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، ما المقصود منه؟ هل المقصود منه قم إحدى عشر ركعة؟ أم المقصود منه

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٤٠)، ومسلم في " صحيحه " (٧٣٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٩٨)، ومسلم في " صحيحه " (٧٦٣).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٧٦٥)، وأبو داود في " سننه" (١٣٦٦)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٣٣٨)، وابن ماجه في " سننه" (١٣٦٢).

قم زمنـًا، وهو وقت الليل إلا قليلاً، أي صلِ مدةً طويلةً

ثامنـًا: وكذلك قول الرسول ﷺ والحديث في الصحيحين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الحَبْلُ؟» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[(١)] .

تاسعـًا: ثبت وصح ذلك عن عمر رضي الله عنه أنه جمع الناس على أبي بن كعب رضي الله عنه، فصلى بهم أبي أحيانـًا إحدى عشرة ركعة فعَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، أَنَّهُ قَالَ: أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وَتَمِيمًا الدَّارِيَّ أَنْ يَقُومَا لِلنَّاسِ بِإِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً قَالَ: وَقَدْ «كَانَ الْقَارِئُ يَقْرَأُ بِالْمِئِينَ، حَتَّى كُنَّا نَعْتَمِدُ عَلَى الْعِصِيِّ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، وَمَا كُنَّا نَنْصَرِفُ إِلَّا فِي فُرُوعِ الْفَجْرِ» [(٢)]،

وأحيانـًا صلى عشرين ركعة-رضي الله عنهم- وذلك ثابت في الموطأ ومسند على رضي الله عنه، عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «كَانُوا يَقُومُونَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بِعِشْرِينَ رَكْعَةً، وَإِنْ كَانُوا لَيَقْرَءُونَ بِالْمِئِينَ مِنَ الْقُرْآنِ»[(٣)]

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١١٥٠)، ومسلم في " صحيحه" (٧٨٤).

(٢) **(صحيح)** أخرجه مالك في " الموطأ " (٤)، والنسائي في " السنن الكبرى" (٤٦٧٠)، والأثر صححه الألباني في " إرواء الغليل " (٤٤٦).

(٣) **(صحيح)** أخرجه علي بن الجعد في " مسنده " (٢٨٢٥)، ومن طريقه البيهقي في " السنن الكبرى " (٤٢٨٨)، وضعفه الألباني في "صلاة التراويح" (٥٧)، وصححه النووي في

عاشراً: قد ثبت ذلك عن التابعين، فروى ابن أبي شيبة عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: أَدْرَكْت النَّاسَ وَهُمْ يُصَلُّونَ ثَلاَثًا وَعِشْرِينَ رَكْعَةً بِالْوِتْرِ.[١]، وعطاءٌ تابعيٌ، فالناس الذين أدركهم هم الصحابة، وذلك بمكة شرفها الله، فكانوا يصلون ثلاثةً وعشرين ركعة،

وروى ابن أبي شيبة أيضـًا بإسنادٍ صحيحٍ عَنْ نَافِعِ بْنِ عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ: كَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يُصَلِّي بِنَا فِي رَمَضَانَ عِشْرِينَ رَكْعَةً وَيَقْرَأُ بِحَمْدِ الْمَلاَئِكَةِ فِي رَكْعَةٍ. [٢]، وابن أبي مليكة تابعيٌ أيضـًا،

وروى ابن أبي شيبة أيضا بسند صحيح، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عُبَيْدٍ؛ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ رَبِيعَةَ كَانَ يُصَلِّي بِهِمْ فِي رَمَضَانَ خَمْسَ تَرْوِيحَاتٍ وَيُوتِرُ بِثَلاَثٍ.[٣]، والترويحة هذه بعد كل أربع ركعات، فيصلون أربعـًا ويستريحون قليلاً، فيصلون عشرين ركعة، ثم يصلون الوتر ثلاثـًا، فيكون مجموع ما يصلون في الليلة ثلاثـًا وعشرين ركعة.

وروى ابن أبي شيبة -أيضـًا- عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ: أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي خَمْسَ تَرْوِيحَاتٍ

="المجموع" (٤/ ٣٢)، والشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٧٥).

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٧٧٧٠). وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٧٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٧٧٦٥) وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٧٦)

(٣) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٧٧٧٢). وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٢٧٧).

فِي رَمَضَانَ وَيُوتِرُ بِثَلَاثٍ.(١)

وروى كذلك عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الأَسْوَدِ يُصَلِّي بِنَا فِي رَمَضَانَ أَرْبَعِينَ رَكْعَةً وَيُوتِرُ بِسَبْعٍ، وهو صحيحٌ عن عبد الرحمن بن الأسود(٢)،

حادي عشر: فعل الناس في زمان عمر بن عبد العزيز روى ابن أبي شيبة عَنْ دَاوُدَ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ بِالْمَدِينَةِ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ يُصَلُّونَ سِتَّة وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً وَيُوتِرُونَ بِثَلَاثٍ.(٣)

ثاني عشر: أقوال الأئمة الكبار، وهذا الكلام ينير للعبد الطريق، لأن بعض الناس فعلاً يعتقد أنه لا يصح الزيادة على إحدى عشر ركعة، وهذا رجلٌ مأجورٌ ومتبعٌ للسنة لأنه يظن أنه يتبع سنة الرسول ﷺ، لكنه لم يجمع السنة في هذا الباب، ومن أقوال الأئمة:

١ - قول الإمام مالك بن أنسٍ رَحِمَهُ اللهُ: عن ابْنُ الْقَاسِمِ: سَمِعْتُ مَالِكًا رَحِمَهُ اللهُ يَذْكُرُ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ سُلَيْمَانَ - وكان أميراً- أَرْسَلَ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ: أَنْتَقِصُ مِنْ قِيَامِ رَمَضَانَ فَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ فَقِيلَ لَهُ: قَدْ كَرِهَ ذَلِكَ قَالَ: نَعَمْ وَقَدْ قَامَ النَّاسُ هَذَا الْقِيَامَ قَدِيمًا قِيلَ لَهُ:

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٧٧٦٨) ع. وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " - تفسير جزء تبارك - ص (٢٧٧)

(٢) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٧٧٦٩) وصححه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " - تفسير جزء تبارك - ص (٢٧٧)

(٣) **(صحيح)** أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٧٧٦٩).

فَكَمِ الْقِيَامُ؟ فَقَالَ: تِسْعٌ وَثَلَاثُونَ رَكْعَةً بِالْوِتْرِ " أ. هـ[١] ، فيكون أصل الصلاة ستاً وثلاثين ركعةً، وثلاثـًا وتراً.

وعن ابْن أَيْمَنَ: قَالَ مَالِكٌ: «أَسْتَحِبُّ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ فِي رَمَضَانَ بِثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً ثُمَّ يُسَلِّمُ الْإِمَامُ وَالنَّاسُ ثُمَّ يُوتِرُ بِهِمْ بِوَاحِدَةٍ وَهَذَا الْعَمَلُ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ الْحَرَّةِ مُنْذُ بِضْعٍ وَمِائَةِ سَنَةٍ إِلَى الْيَوْمِ».[٢]

٢ – قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: نقل الزَّعْفَرَانِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: رَأَيْتُ النَّاسَ يَقُومُونَ بِالْمَدِينَةِ تِسْعًا وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً قَالَ: " وَأَحَبُّ إِلَيَّ عِشْرُونَ قَالَ: وَكَذَلِكَ يَقُومُونَ بِمَكَّةَ قَالَ: وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ضِيقٌ وَلَا حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ لِأَنَّهُ نَافِلَةٌ فَإِنْ أَطَالُوا الْقِيَامَ وَأَقَلُّوا السُّجُودَ فَحَسَنٌ وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ وَإِنْ أَكْثَرُوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ فَحَسَنٌ"[٣]، فما أجمل كلام الفقهاء ، فهو كلامٌ طيبٌ، لأنه كلام أهل العلم، الذين استقرأوا سنة الرسول وهدي السلف، وخرجوا لنا بهذا الحكم العظيم.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: " اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي قِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، أَنَّهُ قَالَ: أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، وَتَمِيمًا الدَّارِيَّ أَنْ يَقُومَا لِلنَّاسِ بِإِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، فَكَانَ الْقَارِئُ يَقْرَأُ بِالْمئين، حَتَّى كُنَّا نَعْتَمِدُ عَلَى الْعِصِيِّ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، وَمَا كُنَّا نَنْصرِفُ إلا فِي فُرُوعِ الْفَجْرِ. وَقَالَ

---

(١) أخرجه المروزي في " مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر" ص (٢٢٢).

(٢) ذكره المروزي في " مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر" ص (٢٢٢).

(٣) ذكره المروزي في " مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر" ص (٢٢٢).

مَالِكٌ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ: كَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ فِي زَمَانِ عُمَرَ بِثَلاثٍ وَعِشْرِينَ رَكْعَةً فِي رَمَضَانَ. وَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنْ يُصَلِّيَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ رَكْعَةً مَعَ الْوِتْرِ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَهُمْ، وَهُوَ اخْتِيَارُ إِسْحَاقَ. وَأَمَّا أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَعَلَى عِشْرِينَ رَكْعَةً يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ، وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ، وَابْنِ الْمُبَارَكِ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَهَكَذَا أَدْرَكْتُ بِبَلَدِنَا بِمَكَّةَ يُصَلُّونَ عِشْرِينَ رَكْعَةً. وَلَمْ يَقْضِ أَحْمَدُ فِيهِ بِشَيْءٍ." [(١)]،

قوله" كان القارئ يقرأ بالمئين"، فيصلي في الركعة الأولى مثلاً بسورة الأعراف، وفي الركعة الثانية بسورة البقرة، وفي الركعة الثالثة يصلي بقريبٍ من ذلك، فقراءتهم كانت بالمئات في الركعة،

وقوله "كان الناس يقومون في زمان عمر بثلاث وعشرين ركعة في رمضان"، يدل على أنهم كانوا أحيانـًا يصلون إحدى عشر ركعة ويطيلوا القراءة، وأحيانـًا يصلون ثلاثـًا وعشرين ويخففوا القراءة، وينتهوا من الصلاة على أول الفجر.[(٢)]

٣ - قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ: قُلْتُ لِأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ: كَمْ مِنْ رَكْعَةٍ تُصَلِّي فِي قِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ؟ فَقَالَ: قَدْ قِيلَ فِيهِ أَلْوَانٌ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ، إِنَّمَا

---

(١) ينظر "سنن الترمذي" عقب الحديث (٨٠٦).

(٢) أورده البغوي في "شرح السنة" (٤/ ١٢٠:١٢٣)، وهذه الأقوال ذكرها الترمذي في "سننه" عقب الحديث (٨٠٦).

هُوَ تَطَوَّعٌ قَالَ إِسْحَاقُ: نَخْتَارُ أَرْبَعِينَ رَكْعَةً وَتَكُونُ الْقِرَاءَةُ أَخَفَّ "(١)، والإمام أحمد معروفٌ أنه من أشد الناس تحرياً لهدي السلف، إن لم يجد في المسألة إلا أثراً عن الصحابة فإنه يقول به(٢)، ونعم المذهب هذا، قال قد قيل ألوانٌ يعني أصنافـًا، نحواً من أربعين، يعني قيل أربعين ركعةً، وإنما هو تطوعٌ، قال إسحاق نختار أربعين وتكون القراءة أخف، فبدلاً من أن يطيل القراءة يخفف قرائته، ويصلي أربعين ركعةً.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ نفيسٌ في هذه المسألة، حيث قال: " كما أنّ نفس قيام رمضان لم يوقّت النّبيّ ﷺ فيه عددًا معيّنًا؛ بل كان هو - ﷺ - لا يزيد في رمضان ولا غيره على ثلاث عشرة ركعةً لكن كان يطيل الرّكعات فلمّا جمعهم عمر على أبي بن كعبٍ كان يصلّي بهم عشرين ركعةً ثمّ يوتر بثلاث وكان يخفّ القراءة بقدر ما زاد من الرّكعات لأنّ ذلك أخفّ على المأمومين من تطويل الرّكعة الواحدة ثمّ كان

---

(١) أورده أبو عبد الله المروزي كما في " مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر" ص (٢٢٢).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "إعلام الموقعين" (١/ ٢٥): "الأصل الثاني من أصل فتاوى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أفتى به الصحابة، فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يعرف له مخالف منهم فيها لم يعدها إلى غيرها، ولم يقل إن ذلك إجماع، بل من ورعه في العبارة يقول: لا أعلم شيئا يدفعه، أو نحو هذا، كما قال في رواية أبي طالب لا أعلم شيئًا يدفع قول ابن عباسٍ وابن عمرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأحد عشر من التابعين عطاء ومجاهد وأهل المدينة على تسري العبد، وهكذا قال أنس بن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: لا أعلم أحداً رد شهادة العبد، حكاه عنه الإمام أحمد، وإذا وجد الإمام أحمد هذا النوع عن الصحابة لم يقدم عليه عملاً ولا رأيـًا ولا قياسـًا."

طائفةٌ من السّلف يقومون بأربعين ركعةً ويوترون بثلاث وآخرون قاموا بستّ وثلاثين وأوتروا بثلاث وهذا كلّه سائغٌ فكيفما قام في رمضان من هذه الوجوه فقد أحسن. والأفضل يختلف باختلاف أحوال المصلّين فإن كان فيهم احتمالٌ لطول القيام فالقيام بعشر ركعاتٍ وثلاثٍ بعدها. كما كان النّبيّ ﷺ يصلّي لنفسه في رمضان وغيره هو الأفضل وإن كانوا لا يحتملونه فالقيام بعشرين هو الأفضل وهو الّذي يعمل به أكثر المسلمين فإنّه وسطٌ بين العشر وبين الأربعين وإن قام بأربعين وغيرها جاز ذلك ولا يكره شيءٌ من ذلك. وقد نصّ على ذلك غير واحدٍ من الأئمّة كأحمد وغيره. ومن ظنّ أنّ قيام رمضان فيه عددٌ موقّتٌ عن النّبيّ ﷺ لا يزاد فيه ولا ينقص منه فقد أخطأ فإذا كانت هذه السّعة في نفس عدد القيام فكيف الظّنّ بزيادة القيام لأجل دعاء القنوت أو تركه كلّ ذلك سائغٌ حسنٌ. وقد ينشط الرّجل فيكون الأفضل في حقّه تطويل العبادة وقد لا ينشط فيكون الأفضل في حقّه تخفيفها. وكانت صلاة رسول اللّه ﷺ معتدلةً. إذا أطال القيام أطال الرّكوع والسّجود وإذا خفّف القيام خفّف الرّكوع والسّجود هكذا كان يفعل في المكتوبات وقيام اللّيل وصلاة الكسوف وغير ذلك.

وقد تنازع النّاس هل الأفضل طول القيام؟ أم كثرة الرّكوع والسّجود؟ أو كلاهما سواءٌ؟ على ثلاثة أقوالٍ: أصحّها أنّ كليهما سواءٌ فإنّ القيام اختصّ بالقراءة وهي أفضل من الذّكر والدّعاء والسّجود نفسه أفضل من القيام فينبغي أنّه إذا طوّل القيام أن يطيل الرّكوع والسّجود وهذا هو طول القنوت الّذي أجاب به النّبيّ ﷺ لَمَّا "قِيلَ لَهُ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: طُولُ الْقُنُوتِ" فإنّ القنوت هو إدامة العبادة سواءٌ كان في حال القيام أو الرّكوع أو السّجود كما قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ**

سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩] فسمّاه قانتًا في حال سجوده كما سمّاه قانتًا في حال قيامه.)"[(١)]

الخلاصة: هذه المسألة المهمة نَخْلُص منها بأنه في قيام رمضان يجوز للإنسان أن يصلي على حسب سعته، وعلى حسب نشاطه، وعلى حسب همته- فنسأل الله سبحانه الإعانة والمدد-.

تنبيهٌ: هذه مسألةٌ مهمةٌ جداً، لقد رأيت وأنا في الحرم أكثر من مرةٍ، بعض الشباب الملتزمين قديمـاً، وكانوا على علمٍ، يصلون خلف إمام الحرم عشر ركعاتٍ، وبعد ذلك لا يكملوا معه، ويجلسوا، ليعملوا بهذا الحديث، وهذا خطأٌ عظيمٌ، فالمرء حتى يتفقه في بابٍ من أبواب الفقه، لا بد أن يجمع الوارد عن رسول الله ﷺ وعن السلف الصالح، في هذا الباب ويأخذ الحكم، فلا يأخذ الحكم من حديثٍ واحدٍ.

﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**۝﴾ هو القرآن الكريم، قرآنٌ كريمٌ مباركٌ **ثقيلٌ في حال نزوله** على الحبيب ﷺ [(٢)]، وأيضـاً **ثقيلٌ في العمل به**[(٣)]، فالنبي ﷺ نزل عليه كتابٌ ثقيلٌ، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله

---

(١) ينظر " مجموع الفتاوى" لابن تيمية (٢٢/ ٢٧٣).

(٢) ذكره الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٦٥) وأخرجه عن ابن زيدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٥٢)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٩٠).

(٣) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٦٤) وأخرجه عن الحسن وقتادة وينظر "تفسير عبد الرزاق" (٣٣٦٤)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٢٦).

وصفه بأنه قولٌ ثقيلٌ، فهو كما وصفه به ثقيلٌ محمله ثقيلٌ العمل بحدوده وفرائضه."[١]، لما ورد في صحيح الإمام البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ ﵂، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ ﵁ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا."[٢]

وروى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﵄، أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ جَالِسًا فِي المَسْجِدِ، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ: " أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ: ﴿**لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ**﴾ ﴿**وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ**﴾"، قَالَ: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهَادَ لَجَاهَدْتُ - وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى - فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: ﴿**غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ**﴾.[٣]

---

(١) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٦٦).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢)، ومسلم في " صحيحه " (٣٢١٥).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٨٣٢)، وأبو داود في "سننه" (٢٥٠٧)، والترمذي في "سننه" (٣٠٣٣)، والنسائي في " المجتبى " (٣٠٩٩).

ومما يؤيد أن القرآن ثقيلٌ في حال نزوله على الرسول ﷺ، ما جاء في صحيح الإمام البخاري عن عَطَاءٌ، قَالَ: أَخْبَرَنِي صَفْوَانُ بْنُ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ، أَنَّ يَعْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يَقُولُ: لَيْتَنِي أَرَى رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ عَلَيْهِ ثَوْبٌ قَدْ أَظَلَّ عَلَيْهِ، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مُتَضَمِّخٌ بِطِيبٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحْرَمَ فِي جُبَّةٍ، بَعْدَ مَا تَضَمَّخَ بِطِيبٍ؟ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ سَاعَةً فَجَاءَهُ الوَحْيُ، فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَى يَعْلَى: أَنْ تَعَالَ، فَجَاءَ يَعْلَى فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ، فَإِذَا هُوَ مُحْمَرُّ الوَجْهِ، يَغِطُّ كَذَلِكَ سَاعَةً، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ: «أَيْنَ الَّذِي يَسْأَلُنِي عَنِ العُمْرَةِ آنِفًا» فَالْتُمِسَ الرَّجُلُ فَجِيءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، وَأَمَّا الجُبَّةُ فَانْزِعْهَا، ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ»[(١)]، فالنبي ﷺ كان يعاني من التنزيل جداً، وكان نزول الوحي ثقيلٌ عليه ﷺ .

وأيضـاً ثقيلٌ في أوامره ونواهيه على النفوس، ولذلك قال الحسين بن الفضل رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثقيلاً لا يحمله إلا قلبٌ مؤيدٌ بالتوفيق، ونفسٌ مزينةٌ بالتوحيد" [(٢)]، وقال ابْنُ زَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**۝﴾ قَالَ: هُوَ وَاللهِ ثَقِيلٌ مُبَارَكٌ الْقُرْآنُ، كَمَا ثَقُلَ فِي الدُّنْيَا ثَقُلَ فِي الْمَوَازِينِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[(٣)]، كما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٨٥)، ومسلم في " صحيحه " (١١٨٠).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٢٤)، وفتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان القنوجي (٧ / ٢٤٦).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٣٦٦).

كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ "[١]" فمجرد الثناء على الله عزَّ وجلَّ، يثقل في الميزان ثُقلاً عظيماً، فما بالنا بأحب الكلام إليه؛ كلامه جلَّ جلاله وعز جاهه، فهو في الميزان ثقيلٌ جداً، بفضل الله تعالى، وما أبرك ما ذكره الرسول ﷺ عن القرآن، فعن عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[٢]

وعَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا۝﴾ ثَقِيلٌ وَاللهِ فَرَائِضُهُ وَحُدُودُهُ"[٣]، فحدود الله ثقيلةٌ على العباد، وفرائض الله ثقيلةٌ، لكن من قام بها خفت عليه بتوفيق الله عزَّ وجلَّ،

وكذلك قال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: "حلاله وحرامه"[٤]، فالحلال والحرام ثقيلٌ على النفوس، وهو فرعٌ عن الفرائض والحدود.

وعَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا۝﴾ قَالَ: الْعَمَلُ

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٦٤٠٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٩٤)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٩١٠)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء (٦/ ٢٦٣)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٣٣٢٧).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٦٥)، وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٢٦)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٣٩٠).

(٤) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٢٤).

بِهِ، قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَهُذُّ السُّورَةَ، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ بِهِ ثَقِيلٌ"[١]، والغاية العظمى من كتاب الله أن يعمل المسلمون بهذا الكتاب بفضل الله تعالى،

وهناك معنىً آخر محتملاً وهو جيدٌ ذكره القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "وقيل: ثقيلاً أي ثابتًا كثبوت الثقيل في محله-يعني القرآن ثابتٌ راسخٌ- قال ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز على الدوام على مدار الدهور[٢]،

فالقرآن ثابتٌ مُعجِزٌ لكل الثقلين، فمهما جاء العباقرة والفلاسفة والأذكياء، والذين يحادون الله ورسوله بكل ما أوتوا لن يستطيعوا أن يعجزوا كلام الله بل هو يعجزهم، لأنه كلام الله جلَّ جلاله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لا يزول إعجازه أبداً،

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويحتمل تأويلاً خامسًا: أن يكون ثقيلٌ بمعنى ثابتٌ؛ لثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً." [٣]،

وأيضًا قول الله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا۝﴾ بعض أهل العلم قال: "ثقيل بمعنى كريم مأخوذٌ من قولهم: فلانٌ ثقيلٌ عليّ أي كريم عليّ، قاله السدي"[٤]،

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٦٥)، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٥٢)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٤٨٠).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٢٤).

(٣) ذكره الماوردي في " النكت والعيون " (٦/ ١٢٧).

(٤) ينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٢٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي

يعني أن القرآن كريمٌ عزيزٌ غالي.

وحمل الآية على ظاهرها أنه القرآن الكريم في حال نزوله على سيد الأولين والآخرين ثقيلٌ هو أولى، ولكن المعاني الأخرى لا شك أن لها أوجهٌ صحيحةٌ.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ٦﴾ ولأهل العلم أقوالٌ في معنى ناشئة الليل منها:

١ - ناشئة الليل يعني ساعات الليل[(١)]، لأنها تنشأ ساعةً بعد ساعةٍ، عزاه الطبري لابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن أبي نجيحٍ، وعكرمة، ومجاهدٍ، وابن زيدٍ، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والضحاك.

٢ - وبعض أهل العلم قالوا ناشئة الليل هي أول الليل[(٢)]،

٣ - وأيضـًا قيل ناشئة الليل هي بين المغرب والعشاء، لأنها أول الليل[(٣)]، وعزى ابن عطية هذا القول لابن عمر وأنس بن مالك وعلي بن الحسين، ولذلك ذهب بعض السلف إلى أن الصلاة بين العشائين- المغرب والعشاء- تعد من قيام الليل،

=(٢١/ ٣٢٤).

(١) أورده الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٦٦).

(٢) أورده الجوهري في "الصحاح" (١/ ٧٨)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٢٧).

(٣) أورده ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٣٨٧)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٢٧).

ورُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعَشَاءِ، وَيَقُولُ: "هَذِهِ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ."[١]،

٤ – وذهب بعض أهل العلم إلى أنها ما كانت بعد نومٍ، يعني نام وقام وأنشأ قيامـًا، وعزاه ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومجاهدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. [٢]

فالله جلَّ جلاله يقول: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ يعني أشد مواطئةً وموافقةً بين القلب واللسان والسمع والبصر،

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: " فالمعنى أشدّ موافقةً بين القلب والبصر والسّمع واللّسان، لانقطاع الأصوات والحركات وقال ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمعناه، أي يواطئ السّمع القلب، قال الله تعالى: ليواطؤا عدّة ما حرّم اللّه"[٣]

وقفةٌ: يشعر العبد بذلك حينما يقرأ القرآن بالليل في السكون والهدوء، وقد نام الناس وأخذوا مضاجعهم، وقام هو لله رب العالمين- نسأل الله أن يجعلنا ممن يقومون للصلاة بالأسحار يا رب العالمين ، ونسأل الله الإعانة والمدد وأن لا يحرمنا

---

(١) البغوي في "معالم التنزيل" (٨/ ٢٥٣)، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٢٧).

(٢) ذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٣٨٨) وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٢٧).

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٣٧٠) وأخرجه عن قتادة وابن زيدٍ والضحاك ومجاهد وابن أبي نجيح وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٢٨)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٥٤)، و"الدر المنثور" للسيوطي (١٥/ ٤٩).

أبداً- فعندما يقوم لله تعالى ويترك فراشه، ويقف بين يدي الله تعالى في هذا السكون، ويقرأ القرآن الكريم فهو أشد مواطئةً وموافقةً بين القلب واللسان، وتدخل هذه القراءة القلب ويحصل له التدبر والانتفاع بها بفضل الله تبارك وتعالى، يعني أشد وطئاً وموافقةً، بين القلب واللسان والسمع على فهم القرآن وتدبر آياته ومعانيه، وكذلك هو أدعى للفهم وكذلك أثبت للحفظ، ومنه قوله جلَّ جلاله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أي ليوافقوا عدة ما حرم الله، ومنه كذلك الحديث في صحيح الإمام البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أُرُوا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي المَنَامِ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ"، يعني قد توافقت.(١)

الله جلَّ جلاله يقول: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ يعني القيام في الناشئة، وهو القيام في أول الليل، لأن الإنسان إذا قام أول الليل فإنه لا يأمن إذا نام أن يقوم، فإذا كان يخشى ألا يقوم قبل الفجر فأولى له أن يقوم في أول الليل، وأما على القول الآخر؛ الذين قالوا بأن الناشئة ما كان بعد نومٍ، فيكون قول الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي القيام لله تعالى بعد ما الاستيقاظ من النوم،

ويكون المعنى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أشد مواطئةً بين القلب واللسان والسمع والبصر، وتوافق هذه الجوارح، فتسكن وتستفيق، ويحصل لها العبرة والعظة من كتاب الله تعالى، إذا قرأ العبد القرآن في هذا الوقت، الذي هو

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠١٥)، ومسلم في " صحيحه " (١١٦٥).

سكون الليل، وكذلك خلت المشاغل، فليس هناك ما يشوش الفكر، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ قيلاً يعني أصوب قراءةً[١]، وأخلص للقول وأسمع له، وأقرب للتفكر والفهم.

وقفةٌ: لذلك ينبغي على العبد أن يسأل الله الإعانة والمدد، وأن نجعل لأنفسنا ورداً من الليل ما استطعنا، ولو شيئًا يسيراً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ سبحـًا أي فراغـًا ومتسعـًا، وأصل سبحـًا من سبح، ومنه يقال للذي يسبح في البحر سابحٌ، لأنه يتقلب ويضرب بيديه ورجليه، سبحـًا طويلاً، قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾: أي فَراغـًا طويلاً. وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: منقلبـًا طويلاً. وقال المؤرج [٢]: هو الفَراغُ، والجِيئَةُ والذَهاب. وسَبْحُ الفَرَس: جَرْيُه. وهو فرسٌ سابحٌ." [٣]،

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٧٣) وأخرجه عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومجاهد.

(٢) هو مؤرج بن عمرو بن الحارث بن ثور بن سعد بن حرملة بن علقمة بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة السدوسي البصري المتوفي في عام (١٩٥ هـ) وكان يعرف بأبي فيد الإخباري من بين ما أشتهر مؤرج في علم الأنساب وكانت له معرفة واسعة واهتمام كبير في الأنساب العربية وألف في هذا ميدان كتب منها كتاب (جماهير القبائل) وكتاب (حذف من نسب قريش) الذي اختصر فيه نسب قريش في مجلد واحد وقد وصف ابن خلكان هذا الكتاب بأنه (كتاب لطيف) وكذلك كتاب الأمثال.

(٣) ذكره الجوهري في " الصحاح " (١/ ٣٧٢)، وينظر "الوسيط "للواحدي (٤/ ٣٧٤)، "والجامع

والمعنى إن لك في النهار وقتـًا متسعـًا تتقلب فيه وتقضي فيه حوائجك، فالعبد في النهار يذهب للسوق، ويذهب للعمل، ويذهب لأقربائه، ويذهب لجيرانه، وهكذا للعبد في النهار سبحـًا طويلاً، ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ حتى تتفرغ لعبادة ربك بالليل بالقيام والذكر، فتنام في الليل وتستريح، ثم تقوم لقيام الليل[1]، وهذه حياة المؤمن، أنه إذا جاء الليل يعلم أن له عبادةً، فقيام الليل شرف المؤمن، ولابد أن يأخذ نصيبـًا منه ما استطاع، وكلما أكثر كلما حباه الله نوراً، وأفاض الله عليه من بركاته.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ يعني انقطع إليه تعالى انقطاعـًا، وتفرغ إليه، وهذا كما قال جلَّ جلاله ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٧] يعني أيها العبد إذا فرغت من أمور الدنيا، ومشاغلك وعملك الذي أخذ كثير أوقاتك، فانصب إلى عبادة الله، وذلك على وجهٍ من أوجه التفسير في هذه الآية[2]

،

وهنا قول الله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ يعني انقطع إليه وإلى عبادته، وانقطع إلى توحيده، وانقطع عن عبادة الأصنام، اتركها لا تمسها ولا تقربها، والتبتل هو الانقطاع[3]، وأيضـًا نُهي عن التبتل في السنة النبوية[1]، وهنا أمر بالتبتل في القرآن

=لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٣٠).

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٧٤)

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٤/ ٤٩٨) عن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٧٧)، وينظر "معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٩٨)،

الكريم،

ولكن كما قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فصار التّبتّل مأمورًا به في القرآن، منهيًّا عنه في السّنّة، ومتعلّق الأمر غير متعلّق النّهي، فلا يتناقضان، وإنّما بعث ليبيّن للنّاس ما نزّل إليهم، فالتّبتّل المأمور به: الانقطاع إلى اللّه بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] والتّبتّل المنهيّ عنه: هو سلوك مسلك النّصارى في ترك النّكاح والتّرهّب في الصّوامع، لكنّ عند فساد الزّمان يكون خير مال المسلم غنمًا يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن."[٢]، ويدخل في ذلك النهي أيضـًا، النهي عن الاختصاء، كما يفعله بعض الناس.

حكم الاختصاء:

وحكم الخصاء أنه محرمٌ، سَلُّ الخصيتين وكذلك الذكر أحيانـًا، وفرق العلماء بين هذا وذاك فقالوا من قطعت أنثياه قيل له خصيٌ، وإن قطع ذكره فهو مجبوبٌ، وقد فرق ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين المجبوب والخصي والموجوء، فقال: "وأما الجب، فهو أن يكون جميع ذكره مقطوعـًا، أو لم يبق منه إلا ما لا يمكن الجماع به" وقال الخصي:

="تهذيب اللغة" للأزهري (١٤/ ٢٠٧).

(١) يأتي ذكره قريبا.

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٣٤)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (١٩/ ٤٦٧)، و" السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" للخطيب الشربيني (٤/ ٤١٧).

"وهو الذي سُلَّت بيضتاه، أو موجواً، وهو الذي رُضَّت بيضتاه" (١)

وجاء في الموسوعة الفقهية: "إن خصاء الآدمي حرامٌ، صغيراً كان أو كبيراً لورود النهي في ذلك عن النبي ﷺ"(٢)،

وقال ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: " هو نهي تحريمٍ بلا خلافٍ في بني آدم لما تقدّم وفيه أيضًا من المفاسد تعذيب النّفس والتّشويه مع إدخال الضّرر الّذي قد يفضي إلى الهلاك"(٣)،

والأدلة على ذلك كثيرة منها:

ما جاء في الصحيحين عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ لَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ نَسْتَخْصِي؟ «فَنهَانَا عَنْ ذَلِكَ»(٤)،

وفي الصحيحين أيضـًا، " عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «رَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لَاخْتَصَيْنَا»(٥)"

وقفةٌ: نبينا ﷺ جاءنا بشريعةٍ توافق النفوس السليمة المستقيمة، عن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ

---

(١) ابن قدامة في " المغني " (١٠/ ٥٨) (٥/ ٤٦٢).

(٢) ينظر " الموسوعة الفقهية الكويتية " (١٩/ ٢٠).

(٣) ذكره ابن حجر في " فتح الباري " (٩/ ١١٩).

(٤) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠٧١)، ومسلم في " صحيحه " (١٤٠٤).

(٥) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠٧٣)، ومسلم في " صحيحه " (١٤٠٢).

النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟»، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَلاَ تَفْعَلْ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»، فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً قَالَ: «فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلاَ تَزِدْ عَلَيْهِ»، قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: «نِصْفَ الدَّهْرِ»، فَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[1]

فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إن لجسدك عليك حقـًا"، هو أن يقوم العبد بالتمتع بما أحله الله له، وهذا من شريعة الله، وأما أن يحرم نفسه الطيبات وهو يستطيع التمتع بها فلا، حتى لا يعرض نفسه للخطر كحال النصارى -والعياذ بالله- رهبانـًا وقساوسةً حيث ينقطعون عن الزواج، وإذا بالزنا ينتشر بينهم وبين الراهبات، وأكثر ما ينتشر الزنا بينهم، لأنهم حرموا على أنفسهم ما أحل الله، فلا شك أن يقعوا فيما حرم الله تعالى عليهم،

قال ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ معقبـًا على هذه الأحاديث السابقة- على حديث عثمان، وعلى حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: " والحكمة في منعهم من الاختصاء إرادة تكثير النّسل ليستمرّ جهاد الكفّار وإلّا لو أذن في ذلك لأوشك تواردهم عليه فينقطع النّسل فيقلّ المسلمون بانقطاعه ويكثر الكفّار فهو خلاف المقصود من البعثة المحمدية"[2]

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٩٧٥)، ومسلم في " صحيحه " (١١٥٩)،

(٢) ينظر " فتح الباري " لابن حجر (٩/ ١١٨).

وقفةٌ مع المشكلة السكانية:

لو تدبرنا هذا الكلام المبارك وقارناه مع كلام كثيرٍ من النخبة والمثقفين وبعض من تبعهم من الحكام لرأينا عجبـًا، وهم يحملون همًّا وشعاراً بتقليل النسل، كأن النسل هذا بالنسبة لهم مصيبةٌ عظمى، ودائمـًا في خطاباتهم يقولون مشكلتنا زيادة السكان، وهذه ليست مشكلة وإنما نعمةٌ ومنةٌ من الله تعالى،

فتكثير نسل المسلمين، واستخدم هذه الطاقات الهائلة، وما فيها من شتى صنوف المهن، فتنتج وتثمر، والكفار الآن يجنحون إلى زيادة نسلهم، ونخبتنا في كل كلمةٍ وكل خطابٍ لهم، يتكلمون عن زيادة النسل وأنها المشكلة الكبرى، وأنه لا بد لنا من تحديد النسل، وتنظيم النسل وغير ذلك، وهذا خلاف مقصود الشرع المبارك،

قال الحافظ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "كما أن فيه من المفاسد تعذيب النفس، والتشويه مع إدخال الضرر، الذي قد يفضي إلى الهلاك، وفيه إبطال معنى الرجولة، التي أوجبها الله فيه، وتغيير خلق الله تعالى، وكفر النعمة وفيه تَشبُّهٌ بالمرأة، واختيار النقص على الكمال" (١)

هذا الكلام ذكره الحافظ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ وفيه زيادة علمٍ، وفائدةٌ مهمةٌ، فهذا الذي يذهب ليختصي، فيزيل الخصيتين بعمليةٍ، وهذه العملية تفقده الشهوة في النساء بالكلية، هذا يدخل في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ، وهم الذين يجوز لهم الاطلاع على زينة المرأة، كما يطلع عليها محارمها، صار له حكمـًا مختلفـًا، لأن

---

(١) تقدم ذكره.

الأصل كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ﴾ [النور: ٣١]

قال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ: " قال أشهب: سئل مالكٌ أتلقي المرأة خمارها بين يدي الخصيّ؟ وهل هو من غير أولي الإربة؟ فقال: نعم، إذا كان مملوكًا لها أو لغيرها؛ فأمّا الحرّ فلا، وإن كان فحلًا كبيرًا وغدًا، تملكه لا هيئة له ولا منظرة فلينظر إلى شعرها. "(١)

وهذا رأي جمهور العلماء، المالكية والحنابلة والشافعية، قالوا الخصي يصير من غير أولي الإربة من الرجال، لأنه أصبح لا شهوة عنده،

وفي الموسوعة الفقهية:" الرّأي الرّاجح عند الحنفيّة أنّ الخصيّ والمجبوب والشّيخ والعبد والفقير والمخنّث والمعتوه والأبله في النّظر إلى الأجنبيّة كالفحل (أي كصاحب الإربة) لأنّ الخصيّ قد يجامع ويثبت نسب ولده، والمجبوب يتمتّع وينزل، والمخنّث فحلٌ فاسقٌ، وأمّا المعتوه والأبله ففيهما شهوةٌ، وقد يحكيان ما يريانه. وقال المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة، وهو رأيٌ للحنفيّة: حكم غير أولي الإربة حكم المحارم

---

(١) ينظر "أحكام القرآن " لابن العربي (٣/ ٣٨٧).

في النّظر إلى النّساء، يرون منهنّ موضع الزّينة مثل الشّعر والذّراعين، وحكمهم في الدّخول عليهنّ مثل المحارم أيضًا لقوله تعالى: ﴿**أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ**﴾"[١]، ويجوز له أن ينظر إلى المرأة، كما يجوز أن ينظر إليه محارمها، فينظر مثلاً إلى يدها، ووجهها، أو شعرها، أو أسفل قدميها، أو ما شابه ذلك.

وسئلت اللجنة الدائمة: ما معنى التابعين غير أولي الإربة من الرجال؟

فكان الجواب: المراد بغير أولي الإربة: من يتبع أهل البيت لطعامٍ ونحوه، ولا حاجة له في النساء؛ لكونه عنينـًا، أو معترضـًا، أو أبله ضعيف العقل، لا ينتبه إلى ما يثير الشهوة من زينةٍ أو جمالٍ، أو رجلاً كبير السن أضعفه الكبر حتى صار لا هم له في النساء، ونحو ذلك ممن ذهبت حاجتهم إلى النساء لعلةٍ ما من العلل، فأمن جانبهم ولم تخش منهم الفتنة، فللنساء أن يبدين لهم من الزينة ما يجوز لهن أن يبدينها لمحارمهن المذكورين في الآية، ومن في حكمهم من النساء والأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلغـًا من الإدراك أن يعرفوا عورات النساء ويتأثروا بها." [٢]

كذلك من ظن أنه من غير أولي الإربة وظهر من كلامه أنه غير ذلك، فتحتجب المرأة عنه، وهذا حدث في حياة الصحابة، روى مسلمٌ في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مُخَنَّثٌ فَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ، قَالَ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً، قَالَ: إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ

(١) ينظر "الموسوعة الفقهية الكويتية" (٣/ ٨).

(٢) ينظر السؤال الثاني من الفتوى رقم (٤٨٠٢) "فتاوى اللجنة الدائمة" (٤/ ٢٦٦).

بِأَرْبَعٍ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مَا هَاهُنَا لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ» قَالَتْ: فَحَجَبُوهُ"(١).

لباس الخصي:

مسألة الخصي أو المخنث بالنسبة للباسه، هل يلبس لباس رجالٍ، أم بما أن شهوته أزيحت وليس له حاجةٌ في النساء، يلبس لباس النساء؟

الجواب: بخصوص اللباس أو مثلاً في الإحرام إن ذهب للحج، فإنه لا يلبس لباس المرأة، ولكن يكون حكمه حكم رجال، سواءً لباسه في الإحرام والصلاة وغير ذلك من الأحكام حكم الرجال،

قال ابن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وأجمعوا أن أحكام الخصي، والمجبوب في ستر العورة في الصلاة، والإمامة، وما يلبسه في حال الإحرام، وما يصيبه من الميراث، وما يسهم له في الغنائم، أحكام الرجال".(٢)

أما الخصاء في الحيوان: إذا كان للتسمين وغيره، فحكمه يختلف،

وقفةٌ: دينٌ جاءنا بهذه الشرائع العظيمة، والمبادئ العالية، ما أعظمه من دينٍ!.

ربنا تعالى يقول: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ أي انقطع له انقطاعـاً، لكنه انقطاعٌ موافقٌ للشريعة، انقطاعٌ العبد فيه يجد ويجتهد، ولكنه لا يكلف

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢١٨١)، وأبو داود في " سننه " (٤١٠٧)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٩٢٠٢)، وأحمد في " مسنده " (٢٥١٨٥).

(٢) ينظر " الإجماع " لابن المنذر ص (٧٩).

نفسه مالا يطيق، كما دخل الحبيب ﷺ يومـًا، مسجده المبارك، فوجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين، فقال لمن هذا الحبل؟ فقالوا هو لزينب رضي الله عنها، إذا قامت تصلي بالليل فإذا فترت تعلقت به، فقال ﷺ حلوه، ليصلي أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد" (١)

فالعبد مأمورٌ بالانقطاع إلى الله وقتـًا ما، أو مهما استطاع من الانقطاع والتبتل إلى الله، لكن لا يشق على هذه النفس، حتى لا تمل،

ولقد صح عنه ﷺ أنه قال "إِنَّ الله لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا"(٢)جلَّ جلاله وتباركت أسماؤه،

وكذلك حديث الثلاثة نفر، الذين أتوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٣)،

وفي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ، فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٣)، ومسلم في "صحيحه" (٧٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، به.

(٣) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠٦٣)، ومسلم في " صحيحه " (١٤٠١).

فِرَاشًا، وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «الْقَنِي بِهِ»، فَلَقِيتُهُ بَعْدُ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟» قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: «وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟»، قَالَ: كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: «صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةً، وَاقْرَإِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»، قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «صُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ»، قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا» قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً» فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَاكَ أَنِّي كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ، فَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى بَعْضِ أَهْلِهِ السُّبْعَ مِنَ القُرْآنِ بِالنَّهَارِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ يَعْرِضُهُ مِنَ النَّهَارِ، لِيَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَحْصَى، وَصَامَ مِثْلَهُنَّ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا، فَارَقَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ "،[(١)]، وهكذا عليه الصلاة وأتم السلام، يأمرنا أن نجد وأن نجتهد في العبادة، ولكن يقول لنا، ليصلي أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد- ﷺ- حتى نعلم أن هذا الدين، دينٌ يوافق ويناسب ويواكب جميع العصور وجميع الأزمان، إلى يوم القيامة بفضل الله تعالى، لأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، جاء به جبريل الأمين عليه السلام، نزل به على قلب رسول الله محمد ﷺ، وبلغه رسول الله ﷺ.

قال جلَّ جلاله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴿٩﴾﴾، بعد قول تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴿٨﴾﴾ يعني انقطع لربك هو ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴿٩﴾﴾ سبحانه وبحمده ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٠٥٢)، والنسائي في " سننه " (٢٣٨٩).

﴿وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وهو رب المشارق والمغارب، وهو رب الجهات كلها ورب الكون كله بما فيه، سبحانه وبحمده، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كان هو سبحانه رب المشرق والمغرب، رب السماء والأرض وما فيهن، فإذا أقررت أيها العبد بالربوبية، فإقرارك بالربوبية يستلزم ويستوجب أن تفرده وحده بالإلهية والعبادة، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً، أي توكل عليه وحده، يا من تُقرُّ أن الله الذي خلق السماء، وهو الذي خلق الأرض، وهو رب السماء والأرض وما فيهن، وهو الذي يجيب المضطر، وهو الذي يكشف الضر، وهو الذي سبحانه وبحمده يعطي ويمنع، ويقبض ويبسط، وهو الذي بيده الخير كل الخير سبحانه وبحمده، فإذا أقررت بهذا كله، فوجب عليك أن تفرده وحده بالعبادة، لا إله إلا هو، ومن أعظم أنواع العبادة التوكل على الله جلَّ جلاله، ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾، أي توكل عليه، والله قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣] وهذا شرط الإيمان، فالذي يتوكل على الله حق التوكل هو المؤمن،

تعريف التوكل:

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله جلَّ جلاله، لجلب كل خيرٍ، ودفع كل ضرٍ، سواءً من أمور الدنيا، أو من أمور الآخرة،

وقال بعض السلف "التوكل هو انطراح القلب بين يدي رب العالمين، كانطراح الميت بين يدي المغسل" يعني تفويضٌ كاملٌ لله تعالى، تفويضٌ كاملٌ واستسلامٌ لأمره جلَّ جلاله،

وقال سعيدٌ بن جبيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "التوكل جماع الإيمان"[١]؛ فالتوكل يجمع للعبد الإيمان كله، ولذلك رب العزة قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مؤمنين حقاً فتوكلوا عليه، لا تتوكلوا على غيره، فحال المؤمن في كل حالٍ وفي كل وقتٍ، أن يتوكل على الله، والله تعالى يقول: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] اعبده وحده، أي أخلص له العبادة، وتوكل عليه جلَّ جلاله، وكذلك قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] سبحانه وبحمده، وعلى من يخاف الأرزاق ويخاف من غدٍ، فليتذكر قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]

وقفةٌ: كثيرٌ منا إذا سمع عن إنهاء خدمات بعض الموظفين والعمال، خاف على نفسه أن يُنهوا خدماته في وظيفته وعمله، لكن المؤمن يتوكل على ربه الذي خلقه، وكتب له رزقه قبل أن يخلق السماء والأرض، بل قبل أن يخلق الخلق كله، بخمسين ألف سنة، كما ثبت في صحيح الإمام مسلم، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: " كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"[٢]، فمم يخاف

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٢٩٥٨٩)، وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٤/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٦٥٣)، والترمذي في " سننه " (٢١٥٦)، وابن حبان في " صحيحه" (٦١٣٨)، وأحمد في " مسنده " (٦٥٧٩).

الإنسان منا؟

ولكن أهم شيءٍ أن يكون العبد على ما يحب ربنا عزَّ وجلَّ، ودائمًا أبداً في طاعته ، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى: ١٠] ويقول أيضا تبارك وتعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: ١٦٠] ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾ [النحل: ٤١-٤٢] هؤلاء أجرهم أكبر الأجور، ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩] كفى شرفـًا للمتوكل على الله أن الله يحبه، وأن الله معه، وأن الله يؤيده، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله أبداً، تبذر البذرة وتأخذ بالأسباب، وأنت معتمدٌ اعتماداً كليـًا جملةً وتفصيلاً على الله رب العالمين جلَّ جلاله،

والله تعالى أمر بالتوكل عليه، وأمر بالأخذ بالأسباب، فلا يجوز الطعن في الأسباب أبداً، ولا يجوز التوكل على الأسباب وحدها، ولا يجوز للإنسان أبداً أن يقول أنا متوكلٌ على الله ولا يأخذ بالأسباب، كما روى الإمام البخاري في صحيحه، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ " كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ

﴿ٱلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٩٧] "[(١)]،

هذه الآية في شأن الذهاب إلى الحج، ففي سائر الأمور من باب الأولى، فالعبد يتزود، فيأخذ الزاد الحسي، وخير الزاد كذلك أن يتزود بالتقوى، مع الزاد الحسي،

ورب العزة سبحانه جلَّ جلاله أمر مريم وهي في أضعف حالاتها ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥] يعني عليك يا عبد الله أن تعتمد على الله بقلبك ثم تأخذ بما يسره الله لك من أسبابٍ، ولا تقصر في الأخذ بالأسباب، فإن التقصير في الأسباب يطعن في سنة النبي محمد ﷺ، فهو ﷺ سيد المتوكلين ورغم ذلك كان يدخر لأهله قوت سنةٍ، ﷺ، وما أجمل ما قال القائل:

توكَّل على الرَّحمن في كلِّ حاجةٍ ** ولا تؤثرنّ العجز يومـًا على الطّلب
ألم تر أن الله قال لمريم ** إليك فهزِّي الجذع يسَّاقط الرُّطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزِّها ** جنته ولكن كلُّ شيءٍ له سبب

وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وقال له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، ورغم ذلك كان يُظاهر بين درعين، كما ورد عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ رضي الله عنه، عَنْ رَجُلٍ قَدْ سَمَّاهُ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ظَاهَرَ يَوْمَ أُحُدٍ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، أَوْ لَبِسَ دِرْعَيْنِ» حيث خرج في غزوة أحد لبس درعـًا، ولبس درعـًا فوقها

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٥٢٣)، وأبو داود في " سننه " (١٧٣٠)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٨٧٣٩)، وابن حبان في " صحيحه " (٢٦٩١).

كذلك[١]، آخذاً بالأسباب، ولما أراد أن يهاجر ﷺ خرج خفيةً- وهو أشجع الناس، لا يخاف الموت-، وكذلك استأجر خبيراً بالطرق، وكذلك عمَّ أخباره عنهم، وخرج هو وأبو بكرٍ وكَمِنَا في الغار ثلاث ليالٍ، واختبئا فيه، حتى هدأ الطلب، وبدأ يمشي ﷺ[٢]،

(١)(صحيح) أخرج أبو داود في " سننه " (٢٥٩٠)، وابن ماجه في " سننه" (٢٨٠٦)، وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" (٢٥٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٩٠٥) أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: "... فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ - بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ - إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا

فالأخذ بالأسباب من التوكل على رب العباد جلَّ جلاله، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١) يعني تغدو في أول النهار جياعًا، وترجع وهي ملأى البطون، والحديث في المسند وصححه العلامة الألباني وغيره،

وأيضًا عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»"(٢) يعني اربط الدابة وتوكل على الله، والحديث في سنن الترمذي، وحسنه العلامة الألباني رحمة الله عليه،

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ، أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ»(٣)، قال السادة العلماء في شرحها يعني أفئدتهم مثل أفئدة

=مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيَا خِرِّيتًا، وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ"

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه" (٢٣٤٤)، وابن ماجه في " سننه " (٤١٦٤)، وأحمد في " مسنده " (٢٠٥)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة " (٣١٠).

(٢) **(حسن)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٥١٧)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٨/ ٣٩٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٧٨)، وحسنه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٢٢).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٤٠) وأحمد في " مسنده " (٨٣٨٣).

الطير في التوكل[١]، فالطير تغدو ليس لها عملٌ، إنما هي تبحث وتسعى، فليس لها وظيفةٌ مثل الإنسان ، ولكنها تسعى حيث وجهها الله سبحانه، فتذهب خماصـًا، وترجع بتوفيق الله لها كل يومٍ وقد ملئت حواصلها بالطعام، وكذلك أفئدتهم مثل أفئدة الطير في الرقة، قلوبٌ رقيقةٌ، فأهل الجنة ليست قلوبهم غليظةً، فقلوبهم في التوكل والاعتماد على الله رقيقةٌ، وقلوبهم رقيقةٌ في الرقة لله تعالى جلَّ جلاله،

وعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ثلاث آياتٍ في كتاب الله عزّ وجلّ اكتفيت بهنّ عن جميع الخلائق أَوَّلُهُنَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧] وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢] وَالثَّالِثَةُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ﴾ [هود: ٦].[٢] لو أن المرء أيقن بهذه الثلاث حق اليقين فعلاً ، لاستغنى عن الناس كلهم ووثق في رب العالمين جلَّ جلاله،

قال علي بن بكارٍ رَحِمَهُ اللهُ: " شكا رجلٌ إلى إبراهيم بن أدهم كثرة عياله، فقال له إبراهيم: يا أخي، انظر كلّ من في منزلك ليس رزقه على الله فحوّله إلى منزلي "[٣] أبداً فكل من في السماوات والأرض أرزاقهم على الله جلَّ جلاله،

---

(١) ذكره النووي في " شرح صحيح مسلم " (١٧/ ١٧٧) وقال: "وقيل المراد متوكلون والله أعلم"

(٢) أخرجه البيهقي في " شعب الإيمان " (١٢٦٥)، وابن أبي الدنيا في " الرضا " (٨٩).

(٣) أخرجه البيهقي في " شعب الإيمان " (١٢٧٢)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦/ ٣٤٥).

وقَالَ رَجُلٌ لِمَعْرُوفٍ الكارفي رَحِمَهُ اللَّهُ: أَوْصِنِي. قَالَ: «توكّل على اللّه حتّى يكون جليسك وأنيسك، وموضع شكواك، وأكثر ذكر الموت حتّى لا يكون لك جليسٌ غيره، واعلم أنّ الشّفاء لما نزل بك كتمانه، وأنّ النّاس لا ينفعونك ولا يضرّونك، ولا يعطونك ولا يمنعونك»[١] والله ما أجملها من كلمةٍ، توكل على الله حتى يكون أنيسك وجليسك وموضع شكواك، فتبث همَّك لله رب العالمين، واعلم أن الناس لا ينفعوك ولا يضروك ولا يعطوك ولا يمنعوك، إن أعطوك إنما أعطوك بإذن الله، وإن منعوك منعوا بإذن الله سبحانه جلَّ جلاله،

عن أبي قُدَامَةَ الرَّمْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: قرأ رجلٌ هذه الآية: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨**﴾ [الفرقان: ٥٨]، فأقبل على سليمان الخوّاص، فقال: يا أبا قدامة، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحدٍ غير اللّه في أمره. ثمّ قال: انظر كيف قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ**﴾، فأعلمك أنّه لا يموت، وأنّ جميع خلقه يموتون، ثمّ أمرك بعبادته، فقال: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ**﴾، ثمّ أخبرك بأنّه خبيرٌ بصيرٌ. ثمّ قال: واللّه يا أبا قدامة، «لو عامل عبدٌ اللّه بحسن التّوكّل، وصدق النّيّة له بطاعته؛ لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم، فكيف يكون هذا محتاجًا، وموئله وملجؤه إلى الغنيّ الحميد؟».[٢] ، فينبغي على العبد ألا يتوكل على إنسٍ، بل يتوكل على رب العالمين جلَّ جلاله هو الحي

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في " الرضا " (٣٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في " التوكل على الله " (٣٦).

الذي لا يموت، سبحانه عزَّ وجل.

التوكل على الله كما ذكرنا جماع الإيمان، والله تعالى كفى بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وكفى بقوله جلَّ جلاله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]

ثمرات التوكل:

فثمرات التوكل من أعظمها وكلها عظامٌ:

١ - سعة الأرزاق، لقول النبي ﷺ «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» الحديث الذي مر معنا،

والإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له أبياتٌ جميلةٌ في هذا المعنى قال:

تَوكلْتُ في رِزْقي عَلَى اللهِ خَالقي وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شكٌ رازقي

وما يكُ من رزقي فليسَ يفوتني وَلَو كَانَ في قَاع البَحَارِ العَوامِقِ

فلو أن للعبد رزقٌ فلا يحمل همه، فإن رزقه آتيه آتيه، فليتوكل على الله وليدع الأمر لربه، وكم من أناس أغلق بابهم وكانوا يظنون أن هذا هو أنسب الأبواب لهم، ثم فتح الله لهم أبواب خيرٍ من هذه الأبواب، ببركة الله فلا بد أن يتوكل المرء على الله، ليس لنا إلا هو سبحانه جلَّ جلاله، وختام كلام الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال

سيأتي بِهِ اللهُ العظيمُ بفضلهِ ولو لم يكن مني اللسانُ بناطقِ

ففي أي شيءٍ تذهبُ النفسُ حسرةً وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلاَئِقِ(١)

---

(١) ينظر "ديوان الإمام الشافعي" ص (١١٢).

والمعنى: في أي شيءٍ يتحسر العبد؟، والله قسم أرزاق العباد، ولن تموت نفسٌ حتى تستوفي رزقها وأجلها، فالرزق يا ابن آدم يطلبك كما يطلبك الأجل بالتمام، و عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ» (١)، فلو أن للعبد رزقٌ في أقصى البلاد، يهيئ الله إليه الأسباب حتى يأخذه.

ومن جميل ما يذكر في التوكل على الله، وحكي أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولادٌ ذكورٌ وإناثٌ، ولم يكن يملك حبةً واحدةً، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلةٍ مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟

وكان له ابنةٌ صغيرةٌ فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناولٌ للرزق، وليس برزاقٍ، فذكّرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة، يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج،

---

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن ماجه في " سننه " (٢١٤٤)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٢٣٩)، والحاكم في "المستدرك" (٢١٣٤)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٢٧٤٢).

وخرج مسافراً، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكتّ ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطشٌ شديدٌ، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماءً، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتمٍ رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعـًا، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزاً جديداً وملأته ماءً، وقالت للمتناول منها:

اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأميرٍ؟ فقالوا: لا والله بل لعبدٍ من عباد الله الصالحين يعرف بحاتمٍ الأصم.

فقال الأمير: لقد سمعت به. فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئـًا، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعـًا، فقال الأمير: ونحن أيضـًا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير مِنطَقَته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: من أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن

الله قد وسّع علينا، فقالت: يا أم، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعـًا، فنظر إلينا مخلوقٌ نظرةً واحدةً، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحدٍ طرفة عينٍ، اللهم انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.(١)"

عن عُمَرَ بْنِ حَفْصٍ النَّسَائِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قَالَ: قِيلَ لِحَاتِمٍ الأَصَمِّ: عَلامَ بَنَيْتَ أَمْرَكَ؟ - يعني كيف صرت متوكلاً هذا التوكل العظيم- فَقَالَ: عَلَى التَّوَكُّلِ. ثُمَّ قَالَ: بَنَيْتُ أَمْرِي عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَلِمْتُ أَنَّ رِزْقِي لا يَأْكُلُهُ غَيْرِي؛ فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَمَلِي لا يَعْمَلُهُ غَيْرِي؛ فَلَمْ أَشْتَغِلْ لِغَيْرِهِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِينِي بَغْتَةً؛ فَأَنَا أُبَادِرُهُ، وَعَلِمْتُ أَنِّي لا أَخْلُو مِنْ عَيْنِ اللهِ عزَّ وجلَّ حَيْثُ ما كنت؛ فأنا مستحيي مِنْهُ.(٢)، ما شاء الله كلماتٌ جميلةٌ،

عن أَحْمَدَ بْنِ خَضْرَوَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ لِحَاتِمٍ الأَصَمِّ: مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ؟ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ۝٧﴾ [المنافقون: ٧](٣) فالتوكل على الله سبيلٌ للعبد في كل خيرٍ في الدنيا والآخرة، سبيلٌ للفرج وقضاء الديون، فإذا توكل العبد على الله فالله يقضي عنه دينه،

والقصة التي رواها الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: "

---

(١) أوردها الأبشيهي في " المستطرف في كل فن مستطرف " (٧٧).

(٢) أخرجه الدينوي في " المجالسة " (٧/ ١٣٩)، وأبو نعيم في " حلية الأولياء " (٨/ ٧٣)، والبيهقي في " شعب الإيمان " (١٢١٦).

(٣) أخرجه البيهقي في " شعب الإيمان " (١٢٧٤).

أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي البَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاَ، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا ".[١] الألف دينار تساوي أربعة كيلو جرامـًا وربع من الذهب، فالدينار الواحد يساوي أربع جراماتٍ وربع من عيار أربعة وعشرين

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٢٩١)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٥٨٠٠)، وأحمد في " مسنده " (٨٥٨٧)، وابن حبان في " صحيحه" (٦٤٨٧).

ذهبٌ صافي، وهذا مالٌ كثيرٌ جداً.

٢ - التوكل على الله تعالى يعصم الله به العبد من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] ليس له سلطانٌ، على هؤلاء الصالحين،

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: " إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟ "(١)

٣ - وأيضاً من عظيم التوكل على الله أن يذهب الله عن العبد التشائم، فلا يتشائم العبد ولا يقع فيما يقع فيه الجاهليون، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» " والحديث رواه الترمذي وصححه العلامة الألباني رحمة الله عليه(٢)،

٤ - التوكل على رب العالمين سببٌ في دخول الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ،

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٥٠٩٥)، وابن ماجه في " سننه " (٣٨٨٦)، والطبراني في "الدعاء" (٤٠٩) صححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٢/ ٢٦٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد" (٩٠٩)، وأبو داود في " سننه " (٣٩١٠)، وابن ماجه في " سننه " (٣٥٣٨)، وأحمد في " مسنده " (٣٦٨٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤٢٩).

وهذه من أعظم الثمرات، أن يدخل العبد الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، فلا يُنصب له ميزانٌ بفضل الرحيم الرحمن، روى مسلمٌ في صحيحه عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ "، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: " ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ؟» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»،(١) فتوكل على الله، لا تحمل همَّ شيءٍ، ودع أمرك للملك، وفوض أمرك إليه، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: ٤٤] واجعله يقينـًا في قلبك.

والتوكل على الله تبارك وتعالى عنوان الإيمان، وأمارة الإسلام، فالمؤمن الصادق في إيمانه، هو الذي يتوكل على الله دائمـًا أبداً، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في" صحيحه " (٥٧٠٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٢٠).

مُّؤْمِنِينَ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

التوكل على الله عبادةٌ عظيمةٌ جليلةٌ، لذلك ربنا تبارك وتعالى أمر بها، في هذه الآية العظيمة، فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴿٩﴾﴾ تجده وكيلاً يتولى أمورك، ويتولاك لأن أمرك كله بيده، ففوض أمرك أنت له والخيرة فيما اختاره الله لك، سبحانه وبحمده فاتخذه وكيلاً.

قال عز وجل:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴿١٨﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴿١٠﴾﴾ ومرَّ معنا أن هذه الآية مدنية، وأن هذه السورة مكيةٌ إلا هذه الآية والآية الأخيرة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾(١)

(١) تقدم ذكره في أول السورة.

ورب العزة في هذه الآية الجليلة يقول: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فإن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارمـًا لا ينبو، وجنداً لا يُهزم، وحصنـًا حصينـًا لا يُهدم ولا يثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان، فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدةٍ ولا عددٍ، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حسابٍ، وأخبره أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين."(١)

ولذلك ضمن الله جلَّ جلاله للصابرين أن يُوفَّون أجورهم بغير حسابٍ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]) وأخبر الله تعالى أنه معهم، بهدايته لهم وتوفيقه إياهم، ونصره لهم فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦]، والصابرون يجعلهم الله أئمةً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤] ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦] ولذلك كان الصبر شعار المتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠] الصابر تقيٌ، والصابر محسنٌ، لذلك علق الله الفلاح بالصبر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، وكذلك قال جلَّ جلاله:

(١) ينظر "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" لابن القيم (ص: ٣)

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فماذا يفعل المرء بعد هذه النصوص العظيمة؟!،

ومع قول النبي ﷺ " «عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»(١)،

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»(٢)، فالصبر زادٌ للعبد إلى الله جلَّ جلاله، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالصبر على ما يقول الكفرة فيه، وقد عابوه أشد العيب، وافتروا عليه أعظم الافتراء، قالوا عنه ساحرٌ، وقالوا عنه كذابٌ، وقالوا عنه شاعرٌ، وقالوا عنه مجنونٌ -ﷺ-، وهو أعقل الورى وخير من وطأ الثرى، وخير خلق الله أجمعين ﷺ، ولكنه رغم ذلك افتروا عليه الكذب، قال الله عنه ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ عاش بين أظهرهم أربعين عامـًا كاملةً، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين،

---

(١) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٩٦)، وابن ماجه في " سننه " (٤٠٣١)، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به. وحسنه الألباني في " مشكاة المصابيح " (١٥٦٦).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٢٨٣)، ومسلم في " صحيحه " (٩٢٦).

ولما بُعث قالوا كذابٌ؛ فكذبوا أنفسهم، فلذلك رب العزة يقول: ﴿**وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠**﴾، والهجر الجميل هجرٌ ليس فيه عتابٌ،

﴿**وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١**﴾ الله جلَّ جلاله يقول لنبيه ﷺ دعني وهؤلاء ﴿**أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ**﴾ أولي النعمة يعني المترفين، المنعمين في هذه الحياة الدنيا، فربنا تعالى يقول: دعني وهؤلاء سأنتقم لك منهم، فالمترفين المكذبين الذين كذبوا برسول الله محمدٍ ﷺ وكذبوا بالقرآن الكريم، ولم يؤمنوا به ولم يتبعوا هديه.

﴿**وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١**﴾ ولذلك كل عبدٍ لا يشكر نعمة الله عليه فقد جحد هذه النعمة(١)، وأيضاً أعظم نعمةٍ هي نعمة الدين، نعمة الإسلام، نعمة النبي محمدٍ ﷺ والإيمان به واتباعه، نعمة القرآن الكريم والسير على هديه، هذه من عظيم النعم، بل هي أعظم النعم كلها، نعمة التوحيد أنه لا إله إلا الله، ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا مستحقٌ للعبادة غيره سبحانه جلَّ جلاله، فمن كذَّب بهذه النعم حريٌ به أن يحلَّ عليه عذاب الله الأليم،

وقفةٌ: الواجب على العبد أن يشكر نعمة الله عليه، بأن يوحده سبحانه، ويشكر نعمة النبي محمدٍ ﷺ وبعثه وإرساله للعباد، ويؤمن به حق الإيمان وينقاد إليه، ويتبع طريقته المباركة، ويؤمن بالقرآن الكريم ويسير على هديه،

﴿**وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ**﴾ المترفين الذين تنعموا بما حرم الله تعالى عليهم، كما قال الله جلَّ جلاله: (﴿**وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ**

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٨١).

طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴿١١﴾﴾ هم كفار قريشٍ، المترفين منهم، الكبراء، والوجهاء، والرؤساء، الذين شغلهم التنعم بنعم الله تعالى، عن شكرها وعن القيام بحقها، فلذلك رب العزة يقول: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دعني وهؤلاء، سأحل عليهم عذابي وسأنتقم منهم،

قال تعالى: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴿١١﴾﴾ فيها وجهان:

الوجه الأول: قيل يعني أمهلهم مدة أجلهم، فمدة الأجل يسيرةٌ(١)،

الوجه الثاني: ومهلهم قليلاً إلى انتهاء الدنيا وإتيان يوم القيامة، والله عبر عن الدنيا بأنها قليلٌ(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥]

وقفةٌ: سبحانك ربي ما أعظمك، الدنيا بتمامها من أولها إلى آخرها وصفها الله تعالى بأنها ساعةٌ، فلماذا تلهينا هذه الساعة عما خلقنا لأجله؟ ولذلك وجب على العبد أن يعتني بما خلق له، ولا ينشغل بما ضمنه الله تعالى له.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴿١١﴾﴾ أي أمهل هؤلاء الكفرة الذين كذبوا

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٣٥).

(٢) ينظر " التفسير الكبير " للرازي (٣٠/ ١٥٩).

بالنعم، ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي قيوداً، مفردها نَكْلٌ، فالأنكال قيودٌ في الأرجل[١]، يقيدهم رب العالمين بها، فإن لكل عبدٍ جزاءً من جنس عمله، جزاءً وفاقـًا، جزاءً على حسب الأعمال، هذا عبدٌ صالحٌ كان يراقب الله ويخافه، ويبكي من خشيته، فيحرمه الله على النار، كما روي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ "[٢]، وهذا ظالمٌ جبارٌ كان يعذب المستضعفين ويعذب الأولياء، ويعذب حملة القرآن والعلماء، ويسجنهم ويقيدهم بالأغلال في أيديهم وأعناقهم، ويقيدهم بالأنكال في أرجلهم [٣]، فلذلك رب العزة يوم القيامة ينتقم من هؤلاء المجرمين انتقامـًا عظيمـًا، ليس مثل انتقام الله شيءٌ- والعياذ بالله-، فيجعل أنكالاً في أرجلهم،

قَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: " أترون أنّ اللّه تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النّار خشية

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٨٢) وأخرجه عن عكرمة ومجاهد وحماد وقتادة.

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (١٦٣٩)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٥/ ٢٠٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٧٥)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب " (٣٣٢٢).

(٣) قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيحه" (٩/ ٣٧) "لا تكون الأغلال إلا في الأعناق،" وينظر فتح الباري" لابن حجرٍ (١٢/ ٤٠٩)، وقال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ في "البحر المحيط" (٨/ ٣٥٦): "أَنكَالاً قيوداً في أرجلهم." وينظر "مقاييس اللغة" لابن فارس (٥/ ٣٧٤)، و"تاج العروس" للزبيدي (٣١/ ٣٤)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٣٤١).

أن يهربوا؟ لا واللّه! ولكنّهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم"[١] يعني لا يزالون يعذبون في نار جهنم، هذا العذاب الأليم وأرجلهم مقيدةٌ بالأنكال،

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ذكر الله أصنافاً وألواناً يعذب بها الكفرة المتمردين عن الله وعن رسوله ﷺ، وها هنا ذكر من ألوان عذابهم أصنافاً أربعاً، فذكر أن لهم أنكالاً وقيوداً يقيدون بها، وجحيم نارٍ تلتهب وتتأجج -نسأل الله العافية، ونعوذ بالله من النار-، وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الرؤية وفيه: أن النبي ﷺ قال: "... فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ"[٢]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ- يعني ابن مسعودٍ- رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».[٣]

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ طعامٌ كأن الكفار لما سمعوا طعاماً يستبشرون، لكنه ذا غصةٍ، لا يُستساغ أبداً، ولا ينزل إلى الجوف فيهنأ العبد، ولا يرجع فيخرج، وهذا الطعام كما قال الله تعالى عنه: (﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] الضريع شوكٌ- والعياذ بالله-، شوكٌ في الحلق وليس مثل

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٣٦)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٧/ ٥١٥)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/ ٦٤٠).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٥٨١)، ومسلم في " صحيحه " (١٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٤٢)، والترمذي في " سننه " (٢٥٧٣)، والحاكم في " المستدرك " (٨٧٥٨).

شوك الدنيا أبداً، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦] -أسأل الله أن يجيرنا يا رب، ويجعل طعامنا من الجنان بلا حسابٍ ولا عذابٍ.(١)

ذكر الله تعالى أنه أعد للكافرين أنكالاً قيوداً في أرجلهم، وأعد لهم جحيماً تتلهب، وناراً تتأجج، وكذلك طعاماً ذا غصةٍ لا يستساغ، ثم قال: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا۝١٣﴾ يعني ألواناً أخرى من العذاب الله بها عليمٌ.

وهذه الآية ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا۝١٢﴾ للحسن البصري معها قصةٌ، عن خليد بن حسان الهجري، قال: أمسى الحسن صائمًا، فلما أتي بإفطاره، عَرَضَت له هذه الآية: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ فَقَلُصَت يداه عن عشائه. فقال: ارفعوه. فرفع، فأصبح صائمًا، فلما أتي بإفطاره، عرضت له أيضًا هذه الآية فرفع، فلما كان اليوم الثالث انطلق ابنه إلى ثابت البناني، ويزيد الضبي، ويحيى البكاء، وناسٍ من أصحابه، فقال: أدركوا أبي فإنه لم يذق طعامًا منذ ثلاثة أيامٍ، كلما قربنا إليه الطعام، عرضت له هذه الآية: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا۝١٢﴾ فيتركه. فأتوه، فلم يزالوا به حتى سقوه شَربةً من سويقٍ.(٢)

ذكر الله ألوان العذاب التي تحل على المكذبين المترفين، ثم ذكر اليوم الذي

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه الواحدي في " التفسير الوسيط " (٤/ ٣٧٦)، وينظر " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٢٧).

يحل فيه هذا البلاء عليهم، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ تتزلزل، زلزالاً عظيماً، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ۝١﴾ [الحج: ١] -نسأل الله أن يجيرنا يا رب، ويجعلنا في أمنه وأمانه-.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: إن لدينا لهؤلاء المشركين من قريشٍ؛ الذين يؤذونك يا محمد العقوبات التي وصفها في يوم ترجف الأرض والجبال؛ ورجفان ذلك: اضطرابه بمن عليه، وذلك يوم القيامة."(١)

وقفةٌ: إذا تدبر العبد منا القرآن انتفع بكلام الله عزَّ وجلَّ، وانتفع بسنة رسوله ﷺ، فالله عزَّ وجلَّ يخبر عن اليوم الذي يحلُّ فيه البلاء على هؤلاء، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ ترجف رجفةً شديدةً، وعَنْ الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ اذْكُرُوا اللهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ المَوْتُ بِمَا فِيهِ»، قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: «مَا شِئْتَ». قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ، قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ: «إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ"(٢)

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٨٥)

(٢) **(حسن)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٥٧)، وأحمد في " مسنده " (٢١٢٤١)، مختصرا، والحاكم في " المستدرك " (٣٩٤٢)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٥٢).

فبكثرة الصلاة على النبي يكفي العبد هذا اليوم العظيم، الذي ترجف الأرض فيه رجفةً عظيمةً، فكل شيءٍ عليها يتساقط ويذوب وينتهي، فلا يبقى على وجه الأرض معلماً لأحدٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: ١٤] قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ الكثيب هو المجتمع من الرمل، أي كانت الجبال رملاً سائلاً متناثراً[(١)]، فبعد أن كانت الجبال صخوراً صماء، صارت كثيباً من الرمال، إذا وضع المرء رجله عليها غارت تحت رجله، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يذكرهم الله تعالى بما حل على الأمم المكذبة قبلهم، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ في هذه الآية العظيمة، يخبر الله تعالى أنه أرسل إلى فرعون، العاتي الطاغي الكافر، الذي هو من أكفر خلق الله على مدار التاريخ، فقد ادعى الإلهية، وادعى أنه رب العالمين، فالله تعالى يخبر قريشاً ويخبر جميع الكفرة أنه أرسل إلى هذه الأمة- أمة الدعوة منذ بعثة رسول الله- رسولاً، هذا الرسول ﴿شَٰهِدًا﴾ علينا، كما أرسل الله إلى فرعون رسولاً، فرسول الله يشهد عليكم يوم القيامة هل أجبتم الداعي أم

---

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٨٥) وينظر "معاني القرآن" للفراء (٣/ ١٩٨)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٤٢).

لا، كما قال تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾**﴾ [النساء: ٤١]

رسول الله ﷺ يقول وهو على الحوض لمن حاد عن طريقه وابتدع في الدين "سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي"، كما جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ سَمِعْتُ سَهْلاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : " أَنَا فَرَطُكُمْ -أي : سابقكم - عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ " قَالَ أَبُو حَازِمٍ فَسَمِعَ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلا يَقُولُ قَالَ فَقُلْتُ نَعَمْ قَالَ وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فَيَقُول - أي النبي ﷺ - : " إِنَّهُمْ مِنِّي" فَيُقَالُ : إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ . فَأَقُولُ: "سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي "(١)، فيشهد على العبد هل استمسك بهديه، وسار على طريقته، أم أنه بدَّل وغير سنته ﷺ،

فلذلك رب العزة يقول: ﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ**﴾ وكذلك في الآية العظيمة في سورة النساء، ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾**﴾ وقد أبكت هذه الآية رسولنا ﷺ لما سمعها من عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴿٤١﴾**﴾

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٠٥٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٩٠).

[النساء: ٤١] قَالَ لِي: «كُفَّ - أَوْ أَمْسِكْ -» فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ[١]،

وذلك لأنه تذكر هذا المشهد العظيم، مشهداً يشيب فيه الولدان، ولذلك في هذا المشهد العظيم، ذكر الإمام البخاري ومسلم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿**وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢**﴾ [الحج: ٢] فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قَالَ: فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعَرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الحِمَارِ»[٢]،

فلذلك ربنا يذكرنا بهذا اليوم ويقول ﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ**﴾ يشهد عليكم في هذا اليوم العصيب، الذي فيه تضع كل ذات حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، وفيه يشيب الولدان، ﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥**﴾ كما أرسلنا إلى فرعون

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٠٥٠)، ومسلم في "صحيحه" (٨٠٠).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٣٠)، ومسلم في "صحيحه" (٢٢٢).

رسولاً وهو موسى عليه السلام، شاهداً عليه ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ فرعون عصى موسى عليه السلام وكفر به، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ كلمة وبيلاً معناها شديداً، يعني أحل الله عليه عذابـًا شديداً، وبلاءً عظيمـًا، فأهلكه الله وجنده أجمعين، في ساعةٍ واحدةٍ[١]-سبحانك ربي ما أعظمك- أغرقه رب العالمين على يد من كان يتفاخر عليه، (﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف: ٥٢] و أغرقه رب العالمين بما كان يفخر به ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] افتخر بهذه الأنهار التي تجري من تحته، فأجراها الله تعالى فوق رأسه وأغرقه بها غرقـًا عظيمـًا، كان فيها هلاكه، قال الله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾

ثم يذكره مرةً ثانيةً، بشدة العذاب يوم القيامة، ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ إن لم تؤمنوا، فكيف يتقي العباد عذاب الله إن لم يسلكوا سبيل المرسلين، ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ وهذا الحديث الذي ذُكر، هو أنسب في هذه الآية، يعني الحديث الذي في الصحيحين أن النبي ﷺ قال ينادي رب العزة آدم يوم القيامة، فيقول يا آدم فيقول لبيك وسعديك، فينادي رب العزة بصوتٍ إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثـًا إلى النار، فيقول يا رب وما بعث النار؟ فيقول من كل ألفٍ تسعمائة وتسعٌ وتسعون- نسأل الله العافية- فعندئذٍ تضع كل ذات حملٍ حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديدٌ، فشق

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٨٦)، وينظر "معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٤٢).

ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، شقَّ ذلك على الصحابة حتى تغيرت وجوههم رضي الله عنهم، فإذا بهم يقولون يا رسول الله أينا ذلك الواحد، فقال ﷺ، من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعٌ وتسعون، ومنكم واحدٌ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبر الصحابة، ثم قال ثلث أهل الجنة، فكبروا ثم قال إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، فكبروا"(١)

وجاء في حديثٍ آخر ثابتٍ صحيحٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»(٢)بفضل الله وكرامته لنبيه ﷺ.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ كيف يتقي العبد عذاب الله وبأسه الشديد، في يومٍ يجعل الولدان شيبــًا، من شدة الهول والهم والحزن،

وقفةٌ: قال أهل العلم "الهموم والأحزان إذا تواردت على العبد انتشر الشيب فيه سريعــًا"(٣) فكيف بهمومٍ عظيمةٍ تتوارد على القلوب والأبدان يوم القيامة، فالشمس

---

(١) (صحيح) تقدم تخريجه.

(٢) (صحيح) أخرجه الترمذي في " سننه" (٢٥٤٦)، وابن ماجه في" سننه" (٤٢٨٩)، وأحمد في "مسنده" (٢٢٩٤٠)، وصححه الألباني في "مشكاة مصابيح" (٥٦٤٤).

(٣) قال ابن عاشور رحمه الله في " التحرير والتنوير " (٢٩/ ٢٧٥): "ووصف اليوم بأنه يجعل الولدان شيبــًا وصف له باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان، لأنه شاع أن الهم مما يسرع به الشيب

تدنو من رؤوسهم؛ بينها وبينهم الآن ملايين الملايين من المسافات، ولكنها يوم القيامة تدنوا منهم بمقدار ميلٍ، وهم حفاةٌ عراةٌ غرلاً- نسأل الله المعافاة واللطف والسلامة- كذلك يحشر الله العباد كلهم، إنسهم وجنهم والملائك والدواب، فيكاد المرء يموت بسبب شدة العرق، ويغوص المرء في عرقه حتى يبلغ في العرق، بعض الناس يبلغ في العرق سبعين ذراعـاً في الأرض، وفوق الأرض إلى أنصاف آذانهم،

فعن الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» -قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ -قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ"(١)،

ومن الأهوال والهموم نارٌ تتوارد يخرج عنقٌ منها في عرصات القيامة، تنادي بصوتٍ مسموعٍ وكلت بكل جبارٍ عنيدٍ، والعبد واقفٌ قلبه يرجف-نسأل الله أن يجعلنا

=فلما أريد وصف هم ذلك اليوم بالشدة البالغة أقواها أسند إليه يشيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده."، وينظر" المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٣٨٩)، و" البحر المحيط " لأبي حيان (٨/ ٣٥٧).

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٦٤)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢١)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٣٣٠) وأحمد في " مسنده " (٢٣٨١٣).

في أمنه وأمانه-وهكذا أهوالٌ وأهوالٌ تتوارد على العباد، في هذا اليوم العصيب، فلذلك ربنا تعالى يقول: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ﴾ كيف تتقون عذاب الله ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا﴾ سيأتي عليكم هذا اليوم، ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ السماء تتشقق في هذا اليوم(١)، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥] وقوله جلَّ ذكره: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: ١] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: ١] تتشقق ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النبأ: ١٩] سبحان الله العظيم السماء التي قال ربنا عنها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾ [الذاريات: ٧] أي أنها محكمةٌ، أحكم الله خلقها، وجعلها في غاية ما يكون من الإحكام، ولكن يوم القيامة تتقطع وتتشقق، وتنفطر بسبب هذا اليوم العظيم.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾ يعني كان وعده آتيـًا لا شك، والله يفعل ما يشاء، ولا راد لأمره سبحانه وبحمده.

قال عز وجل:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩ ۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٨٩)، وينظر "لسان العرب" لابن منظور (٥/ ٥٥).

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا وَأَعۡظَمَ أَجۡرًاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾

ولذلك قال ربنا تعالى معقباً على هذه الآيات العظيمة، والتذكرة بيوم القيامة وما فيه من أهوالٍ، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ هذه الآيات تذكرةٌ، وموعظةٌ؛ لمن اعتبر بها واتعظ من أصحاب القلوب الحية[1]، وكما قال تعالى: ﴿**فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾**﴾ [ق: ٤٥] يعني أهل التذكر والاعتبار، هو الذي يخاف الله عزَّ وجلَّ ويعتبر ويتعظ، هذا الذي له قلبٌ حيٌ، يتعظ ويتذكر وينزجر، ويستقيم ويسعد بآيات الله عندما يسمعها،

﴿**إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾**﴾ فمن شاء سلك السبيل الموصل إلى الله، وهذا السبيل الذي ثبت في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِ الْخَطِّ وَعَنْ شِمَالِهِ خُطَطًا ثُمَّ قَالَ: «هَذَا صِرَاطُ اللهِ مُسْتَقِيمًا، وَهَذِهِ السُّبُلُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا**﴾[2]

---

(١) الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٣٩٢) وينظر "روح المعاني" للألوسي (٢٨/ ٢٩)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه النسائي في " السنن الكبرى " (١١١٠٩)، وأحمد في " مسنده " (٤١٤٢)، وابن حبان

الله له طريقٌ وسبيلٌ وضعه لعباده، وأمرهم بالسير عليه، صراطًا مستقيمًا، من مشى عليه في الدنيا مستقيمًا، يسير على صراط الله الذي ينصبه، وبفضل الله وكرامته يعبر ويجوز، ومن مشى يمينًا وشمالاً وحاد عن صراط الله، فيوم القيامة تخطفه الكلاليب من على الصراط، إما يمينًا تخطفه الكلاليب أو شمالاً إلى جهنم- نسأل الله العافية والسلامة-.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ هذه الآية العظيمة تخفيفٌ لما قد أوجبه الله في أول السورة، كما مر معنا عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن الله لما أنزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ قام ﷺ وأصحابه حولاً كاملاً يصلون، أحيانًا نصف الليل، أحيانًا إلى ثلث الليل، أحيانًا إلى ثلثي الليل، ثم خفف الله بعد عامٍ كاملٍ، فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾[(١)] يعني أن الله تعالى يعلم أنك وأصحابك الكرام، تقومون أحيانًا نصف الليل، وأحيانًا تقومون إلى ثلث الليل، وأحيانًا تقومون إلى ثلثي الليل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي والله تعالى يعلم مقادير الليل والنهار، وهو الذي يقدر الأوقات سبحانه وبحمده،

وفي الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ يعني أقل من ثلثي الليل، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنى: وأدنى من نصفه وثلثه، إنكم لم تطيقوا العمل بما

=في " صحيحه " (٦).

(١) تقدم تخريجه.

افترض عليكم من قيام الليل، فقوموا أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه."[١]، ﴿وَنِصۡفَهُۥ﴾ أي النصف ﴿وَثُلُثَهُۥ﴾ أي والثلث، ثم قال: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ يعني لن تطيقوا قيام الليل كله، وكذلك لن تحصوه أي لن تستطيعوا تحديد زمن القيام بالتمام، إلى النصف، أم إلى الثلثين، أم إلى الثلث، لأنهم لم يكن عندهم ساعاتٍ يضبطون بها الوقت، ولذلك كان الواحد منهم يخاف إن نقص عن الواجب يهلك، فكانوا يشقون على أنفسهم بالزيادة رضي الله عنهم [٢]، فقال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي لن تطيقوه،

قال القرطبي رحمه الله: "قال مقاتلٌ وغيره: لما نزلت: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٤ - ٢] شَقَّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم، وانتقعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفف عنهم."[٣]

ولذلك من هذا الباب ما ورد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٩٣) وينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٥٠)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٠).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٣٩٤) وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٥٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٠).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٤٥) وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٥٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٣٥٤).

ﷺ: " خَلَّتَانِ لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا "، قَالَ: فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ، قَالَ: «فَتِلْكَ خَمْسُونَ، وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي المِيزَانِ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ تُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ وَتَحْمَدُهُ مِائَةً، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي المِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَمِائَةِ سَيِّئَةٍ»؟ قَالُوا: فَكَيْفَ لَا نُحْصِيهَا؟ قَالَ: " يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، حَتَّى يَنْفَتِلَ، فَلَعَلَّهُ أَلَّا يَفْعَلَ، وَيَأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ، فَلَا يَزَالُ يُنَوِّمُهُ حَتَّى يَنَامَ ".(١)

لذلك قال تعالى: ﴿**عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ**﴾ أي لن تطيقوا قيام الليل كما أمرناكم، وكذلك لن تحصوه أي لن تستطيعوا تحديد زمن القيام، فلن تستطيعوا تحديد ثلث الليل ونصفه إلى غير ذلك، فخفف الله تعالى عن العباد،

حكم قيام الليل:

وقيام الليل الآن ليس بواجبٍ، بل هو مستحبٌ والدليل على أنه ليس بواجبٍ، الحديث الثابت في الصحيحين، عن طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه، يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ، وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٣٤١٠)، وأبو داود في " سننه " (٥٠٦٥)، والنسائي في " المجتبى " (١٣٤٨)، وابن ماجه في " سننه " (٩٢٦)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٢٤٠٦).

مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَاللَّيْلَةِ» فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ»، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ»، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ».(١)

ربنا تعالى قال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ والتوبة من الله تعالى ما أكرمها وأعظمها، فبعد العمل الصالح والاجتهاد فيه، ينبغي للعبد أن يلتمس توبة الله تعالى عليه، ودائمـًا أبداً يدين نفسه بالتقصير، حتى لا يرى لنفسه منةً، ولا يرى لنفسه فضلاً، فدائمـًا أبداً يرى نفسه مقصراً، ويرى نفسه لم يَبلُغ ما أمره الله، كما قال الله جلَّ جلاله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ [عبس: ٢٣] سبحانه وبحمده، فلذلك أخبر ربنا تعالى بأسباب التخفيف على العباد، في أمر قيام الليل، فقال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني صلوا واقرأوا ما يسر الله لكم، اقرأ عشر آياتٍ، عشرين آيةٍ، خمس آياتٍ، آيةً واحدةً، ثبت عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ ابْنِ عَبَّاسٍ بِالْبَصْرَةِ فَقَرَأَ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ بِالْحَمْدِ وَأَوَّلِ آيَةٍ مِنَ الْبَقَرَةِ ثُمَّ قَامَ فِي الثَّانِيَةِ فَقَرَأَ الْحَمْدَ وَالْآيَةَ الثَّانِيَةَ مِنَ الْبَقَرَةِ ثُمَّ رَكَعَ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: " إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ".(٢) وقد ورد عن بعض الصحابة

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٦)، ومسلم في " صحيحه " (١١).

(٢) أخرجه الدارقطني في " سننه " (١٢٧٩)، والبيهقي في " السنن الكبرى " (٢٣٧١) وقال

أنهم صلوا بعض الصلوات النافلة فقرؤوا فيها الفاتحة فقط رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم

الله تعالى قال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ وهذا يعني أنه ليس هناك حدٌ في قراءة القرآن في الصلاة يجب على العبد أن يلتزم به، ولا ينقص عنه، ثم ذكر الله الأعذار التي رخَّصَ بسببها ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ مرضى يشغلهم المرض ويتعبهم، فيشغلهم عن قيام الليل ولا يستطيعون القيام، ولذلك من رحمة الله لهذه الأمة وكرامة الله لها،

الحديث الذي ثبت في صحيح الإمام البخاري عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(١)، وهذا فضل الله تعالى علينا،

وذكر الله تعالى سببان في هذه الآية، ذكرهما الرسول ﷺ في هذا الحديث، قال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ آخرون يسافرون في التجارات، ويبتغون المكاسب وأرزاق الله تعالى، فالمسافر يشغله سفره، عن قيام الليل، وعن القيام بهذه النعم العظيمة، بسبب انشغاله في السفر، وكما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ

=الدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ عقبه: "هذا إسنادٌ حسنٌ وفيه حجة لمن يقول: إن معنى قوله ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ إنما هو بعد قراءة فاتحة الكتاب والله أعلم."

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٩٩٦)، وأحمد في " مسنده " (١٩٦٧٩).

أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ»[١] فهذا سببٌ ثاني، وفي قوله جلَّ جلاله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: " ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله، أحب إليَّ من أن يأتيني وأنا ألتمس من فضل الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. "[٢] فالعبد عندما يبتغي رزق الله الحلال، ولكي يعف نفسه عن سؤال الناس، وكذلك يعف أهله ومن يعول، فهو مجاهدٌ في سبيل الله يبتغي فضل الله تعالى، ولعل الله يكتب له أجر المجاهدين، إن أحسن النية لله تبارك وتعالى.

ثم ذكر السبب الثالث، قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أقيموا الصلاة المفروضة، وآتوا الزكاة الواجبة، وأقرضوا الله قرضـًا حسنـًا، وهي الصدقة غير الواجبة،

وقد سمى الله تعالى الصدقة قرضـًا حسنـًا، وحتى يكون القرض حسنـًا فلا بد له

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٨٠٤)، ومسلم في " صحيحه " (١٩٢٧).

(٢) ينظر " التفسير من سنن سعيد بن منصور ط الصميعي مع تكملته ط الألوكة" (٢٣٢١) وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (١١٩٨)، وعبد الرزاق في "المصنف" (٢١٠١٨) بلفظ: " مَا جَاءَنِي أَجَلِي فِي مَكَانٍ مَا عَدَا فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَأْتِيَنِي وَأَنَا بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلِي أَطْلُبُ مِنْ فَضْلِ اللهِ "

من شروطٍ:

١ – أن يكون من مالٍ حلالٍ،

٢ – ولا يتبع هذا المال منٌ ولا أذى، فلا يعير الفقير بإعطائه المال،

وكذلك أقرض القرض، وأعسر المنين، إما أن يعسر عنه، أو يخفف عنه، أو يمهله(١)، كما في الحديث أن تاجرا كان يداين الناس، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي "(٢)،

وكذلك العبد إذا أقرض قرضـًا حسنـًا كتب له نصف هذا القرض كل يومٍ، كأنه صدقه(٣)، وذلك صحَّ عن رسول الله ﷺ، عَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ، وَمَنْ أَنْظَرَهُ بَعْدَ حِلِّهِ كَانَ لَهُ مِثْلُهُ، فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ» فلو أنه تصدق بألفٍ، يكتب له بخمسمائة صدقةٍ ، فإذا جاء ميعاد الأجل وصاحب الدين معسرٌ، فأمهله كتب له بمثله صدقةً بفضل الله تعالى، وكرامة الله عزَّ

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢٠/ ٢٤٤).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٠٧٧)، ومسلم في " صحيحه " (١٥٦٠).

(٣) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٢٤١٨)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٩٧٠)، والحاكم في " المستدرك " (٢٢٢٥)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (١٤٣٨).

وجلَّ، ولذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] إذا أقرض الإنسان إنسانـًا، والمدين متعسرٌ فعلاً، بدون مماطلةٍ، فإنظاره واجبٌ، وسؤاله حرامٌ، فيجب على العبد أن ينظره ويمهله حتى ييسر الله عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ».(١)

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

فأي خيرٍ يقدمه العبد لنفسه، سواءً كان صغيراً أو كبيراً، سواءً كان لقريبٍ أو لغريبٍ، سواءً كان في السر أم في العلن، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ وكلمة خيرٍ نكرةٌ، فهذا الخير تجدوه يوم القيامة،

قال الله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ يستغفروا الله من ماذا؟ هل هناك ذنبٌ فعلوه؟، بل إنهم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وتصدقوا بنافلةٍ، ولم يتبعوا ما أنفقوا منًّا ولا أذى، وتصدقوا من مالٍ حلالٍ، ولم يطلبوا الأجر إلا من الله، ورغم ذلك الله تعالى يرشدنا إلى أن العبد مهما بلغ من الطاعة ومهما سارع في الخيرات، فلا بد أن يستغفر الله تعالى، حتى لا يمن على ربه بعمله، ولعل هذا شأن جلِّ العباد أو أكثرهم بل كلهم، أنهم لن يبلغوا الأمر على أكمل ما يكون، كما أمر الله وكما يحب،

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٣٨٧)، وابن ماجه في " سننه " (٢٤١١)، وأحمد في " مسنده " (٨٧٣٣).

فإذا صلى العبد فمن السنة أن يستغفر الله ثلاثـًا، كما ورد عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: " كَيْفَ الْاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ "(١)،

وإذا حج فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] فهنا أيضـًا رب العالمين أمر بالاستغفار، و ذلك بعد عباداتٍ جليلةٍ، حتى يعلم العبد أنه مهما قام من طاعاتٍ، فهو مقصرٌ في جنب ربه، وأنه بحاجةٍ إلى غفران ربه له، وأنه لا يستغني عن ربه طرفة عينٍ، فكم للعبد من عيبٍ، وكم له من ذلةٍ، بحاجةٍ أن يغفرها الله سبحانه ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ سبحانه وبحمده وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته.

وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين

تم بحمد الله ومنته الانتهاء من سورة المزمل

******

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٥٩١) والترمذي في " سننه " (٣٠٠) والنسائي في " المجتبى " (١٣٣٧) وابن ماجه في " سننه " (٩٢٨).

﴿سُورَةُ المُدَّثِّرِ﴾

سورةٌ مكيةٌ(١)، نزلت بعد سورة المزمل، وعدد آياتها ستٌّ وخمسون.

مناسبتها لما قبلها:

١- أنها متواخيةٌ مع السورة قبلها فى الافتتاح بنداء النبي ﷺ.

٢- أن صدر كلتيهما نازلٌ فى قصةٍ واحدةٍ.

٣- أن السابقة بُدِئَت بالأمر بقيام الليل، وهو تكميلٌ لنفسه ﷺ بعبادةٍ خاصةٍ، وهذه بُدِئَت بالإنذار لغيره، وهو تكميلٌ لسواه.(٢)

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ⑦ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ⑧ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩﴾

قوله جلَّ جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ المراد به رسول الله ﷺ.

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الدر المنثور " (١٥/ ٦١): "أَخْرَج ابن الضريس، وَابن مردويه، والنحاس، والبيهقي عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: "نزلت سورة المدثر بمكة"، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مثله"، ونقل الإجماع على ذلك: ابن عطية في" المحرر الوجيز " (٥/ ٣٩٢)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٥٤).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٢٤).

سبب نزولها:

ما ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ - قَالَ فِي حَدِيثِهِ -: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥**﴾ - وَهِيَ الْأَوْثَانُ - " قَالَ: «ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ».[1]

أول ما نزل من القرآن:

ذهب جابرٌ رضي الله عنه عنه إلى أن هذه السورة هي أول ما نزل من القرآن الكريم[2]، وذلك لما روى البخاري ومسلم، أن يحيى بن أبي كثيرٍ رحمه الله قال: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١**﴾ فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١**﴾ فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبدِ اللهِ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١**﴾ فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ**﴾ فَقَالَ: لاَ أُخْبِرُكَ إِلاَّ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ، فَاسْتَبْطَنْتُ الوَادِيَ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا هُوَ

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه "(٣٢٣٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٦١).

(٢) عزاه ابن عطية في" المحرر الوجيز " (٥/ ٣٩٢) إلى جابر بن عبد الله وأبي سلمة رضي الله عنهما والنخعي ومجاهد.

جَالِسٌ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤**﴾. "[١]

إلا أن جماهير العلماء من الصحابة والتابعين وجماهير السلف والخلف، على أن أول ما أنزل من القرآن ﴿**ٱقْرَأْ**﴾[٢]، بدلالة الحديث الثابت في الصحيحين من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿**ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣**﴾ [العلق: ١-٣] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٢٤)، ومسلم في "صحيحه " (١٦١).

(٢) عزاه ابن عطية في" المحرر الوجيز " (٥/ ٣٩٢) إلى الزهري والجمهور، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا هو الأصح، وحديث صدر كتاب البخاري نصٌّ في ذلك." أهـ

حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ.(١)

وأما وجهُ الجمع بين الحديثين: فإن أول ما نزل بلا شك هو الآيات الأول من سورة اقرأ، ثم بعد ذلك فَتَرَ الوحيُ، فكان أول ما نزل بعد فترة الوحي هي سورة المدثر، وعلى ذلك يكون قول جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أول ما نزل من الوحي سورة المدثر"، يعني أول ما نزل بعد فترة الوحي.(٢)

تنبيهٌ: وهنا يذكر أهل السير في فترة الوحي أن الرسول ﷺ حزن حزنـاً شديداً،

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٣)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٠).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٦٢)، و "فتح الباري" لابن حجر (٨/ ٧٢٠).

فجعل يعدو إلى شواهق ورؤوس الجبال كي يتردى منها، من شدة اشتياقه للوحي المطهر، فكان كلما أوفى بذروة جبلٍ تبدى له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: إنك نبيُّ الله، فيسكن جأشُه، وتسكن نفسُه، فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك، قال: "بينما أنا أمشي يومـًا إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبـًا، فرجعت إلى خديجة فقلت: "زملوني"، فزملوه: أي فدثروه، فأنزل الله هذه الآيات، وإن كان الأثر الذي فيه التردي من شواهق الجبال ضعيفـًا ولا يصح عن رسول الله ﷺ، ولكنه من كلام الزهري رحمه الله، والله أعلم.(١)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قال السادة العلماء: فيها منقبةٌ جليلةٌ لرسول الله محمد ﷺ، لأن الله تعالى خاطب السادة الأنبياء بأسمائهم ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]، ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ونادى وقال ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠]

أما رسولنا ﷺ فقال الله له ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه ابن سعد في " الطبقات الكبرى" (٤٦٩)، وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (١٠٥٢).

قال ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في " فتح الباري " (١٢/ ٣٥٩): "وهو من بلاغات الزهري وليس موصولاً."

٦٧]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وهكذا.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ ملاطفةٌ في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبّر عنه بصفته، ولم يقل يا محمّد ويا فلان، ليستشعر اللّين والملاطفة من ربّه كما تقدّم في سورة" المزّمّل"، ومثله قول النّبيّ ﷺ لعليٍّ إذ نام في المسجد: (قم أبا ترابٍ) وكان خرج مغاضبًا لفاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فسقط رداؤه وأصابه ترابه، خرّجه مسلمٌ."(١)

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ ﷺ لِحُذَيْفَةَ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ: (قُمْ يَا نَوْمَانُ)(٢) عليه الصلاة وأتم السلام". أهـ(٣)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أَيْ يَا ذَا الَّذِي قَدْ تَدَثَّرَ بِثِيَابِهِ، أَيْ تَغَشَّى بِهَا وَنَامَ، قم واترك النوم، واترك الغطاء، واترك الثياب، واترك ما أنت فيه من الدَّعة.(٤)

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أنذر الناس عذاب الله وحذِّرْهم، فالإنذارُ هو التحذيرُ مع

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٤١)، ومسلم في " صحيحه " (٢٤٠٩)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، به.

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٧٨٨)، وابن حبان في " صحيحه " (٧١٢٥)، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) ينظر "أحكام القرآن" لابن العربي (٤/ ٣٣٩)، و "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٥٧).

(٤) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٥٤)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٢)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٦٧).

التخويف[١]، فهو إعلامٌ بقدرة الله، وإعلامٌ بعظمة الله، مع التخويف من جلال الله تعالى، وعذابه.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ۝٣﴾ عظِّم ربك وعظِّم شأنه، وكبِّره سبحانه جلَّ جلاله.

وقد صار هذا اللفظ (الله أكبر) ركنـًا في الصلاة لا تصح إلا به، عند افتتاحها، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ».[٢]

وكذلك أيضـًا معناها ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ۝٣﴾ أي سيّدك ومالكك ومصلح أمرك فعظّم، وصفه بأنّه أكبر من أن يكون له صاحبةٌ أو ولدٌ.[٣]

وفي يومِ أحدٍ لما انتهت المعركةُ، أَخَذَ أبو سفيان يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: " قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ".[٤]

---

(١) ينظر "مقاييس اللغة" لابن فارس (٥/ ٤١٤)، و"تاج العروس" للزبيدي (١٤/ ٢٠٠)، و"الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١/ ٢٨١)، و"الصحاح" للجوهري (٢/ ٨٢٥).

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (٦١)، والترمذي في "سننه" (٣)، وابن ماجه في "سننه" (٢٧٥)، وأحمد في "مسنده " (١٠٠٦)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٣٠١).

(٣) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٥٧)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٤)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٤/ ٣٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٠٣٩)، وأبو داود في "سننه" (٢٦٦٢)، والنسائي في "السنن

وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها أذانـًا وصلاةً وذكراً يقول: الله أكبر، وحُمِل عليه لفظُ النبيّ ﷺ الواردُ على الإطلاق مواردَها، منها قوله: «تحريمها التكبير وتحليلها التسليم»، والشرع يقتضي بعرفه ما يقتضي بعزمه، ومن موارده أوقاتُ الإهلال بالله تعالى تخليصـًا له من الشرك وإعلامـًا باسمه بالنسك، وإفراداً لما شرع من أمره بالنسك، والمنقولُ عن النبيِّ ﷺ في التكبير في الصلاة هو لفظ الله أكبر.(١)

قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المدثر: ٤] في تفسيرها عدة أقوالٍ:

١ - **منها**: عملَكَ فطهِّره، أي زيِّنه، وجمِّله، واجعله خالصـًا لوجه الله تبارك وتعالى(٢).

٢ - ومنها: أي قلبك طهِّره من الغدر، فلَا تَلْبَسْ ثِيَابَكَ عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا عَلَى غَدْرَةٍ(٣)، وهذا مروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، واستشهد له بقول غيلان بن سلمة الثقفي

=الكبرى " (٨٥٨١)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، به.

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٥٨)، و"السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" (٤/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٠٥) عن مجاهد وأبي رزين. وينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٥٩)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٣٦).

(٣) قال ابن كثيرٍ رحمه الله في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٦٣): " وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإنّ العرب تطلق الثّياب عليه، وقال سعيد بن جبيرٍ رحمه الله: **﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾** وقلبك ونيتك فطهر." أهـ

قال:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لَا ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ.

يعني يقول بأن قلبه طاهرٌ ونقيٌّ، ولا يحمل في قلبه غدراً.(١)

٣ - ومنها أيضـًا: ما قاله بعض السادة العلماء: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤**﴾ أي وَأَهْلَكَ فَطَهِّرْهُمْ مِنَ الْخَطَايَا بِالْوَعْظِ وَالتَّأْدِيبِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْأَهْلَ ثَوْبًا وَلِبَاسًا وَإِزَارًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧]، بأن تذكرهم بالله، وكذلك تنتقي الصالحات من النساء، لكي يكنَّ أزواجك.(٢)

٤ - **ومنها** أيضـًا: أي ثيابك طهرها من النجاسات.(٣)

٥ - ومنها أيضـًا: يعني اجعل دينك متينـًا وطاهراً من أن يكون فيه شيءٌ لغير الله

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٤٠٥) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وعن عكرمة وقتادة والضحاك. وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٦٠) و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٣٦)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٣٩٩).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٠٧) عن إبراهيم وابن عباسٍ رضي الله عنهما وقتادة. وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٦٠)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٣٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٠٣).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٤٠٩) عن محمد بن سيرين وابن زيدٍ، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٦٣)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٣٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٠٢)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٣٦٥)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٢).

تبارك وتعالى، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ وَمَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ قَالُوا مَاذَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «الدِّينَ»[1]

وليس معنى ذلك أن الرسول ﷺ تدنَّسَ بشيءٍ حاشا لله[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾

اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الأَصْنَامُ.[3]

وقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَالْمَعْصِيَةَ وَالإِثْمَ فَاهْجُرْ.[4]

قال الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله: "وعلى كلّ تقديرٍ فلا يلزم تلبّسه بشيءٍ من ذلك، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٢٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣٩٠).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٦٢).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٤١٠) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والزهري، وابن زيدٍ. وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٢)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٥).

(٤) أخرجه الطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٤١١) عن إبراهيم والضحاك. وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٢)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٥).

حَكِيمًا ۝١﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢]."أهـ[١]

مسألة: عصمة النبي ﷺ من الشرك قبل البعثة:

فإن نبينا ﷺ عصمه الله تعالى قبل البعثة من الكفر ومشاركة قومه في صور عبادة الأصنام والأوثان، من الذبح لها، والتوسل بها، ودعائها، وغير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وكثيرٌ من أهل السنة يقولون إن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة، كما قال ذلك ابن عطية وابن الجوزي والبغوي.

قال البغوي: وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا مؤمنين قبل الوحي". أهـ[٢]

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " لم يكن نبينا محمد ﷺ قبل البعثة على دين قومه، بل ولد مسلماً مؤمناً، كما قال ابن عقيل وغيره، قال في نهاية المبتدئين: قال ابن عقيل: لم يكن ﷺ على دين سوى الإسلام ولا كان على دين قومه قط، بل ولد نبينا مؤمناً صالحاً على ما كتبه الله وعلمه من حاله". اهـ[٣]

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه لطائف المعارف: "وقد استدل الإمام أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بحديث العرباض بن سارية السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنِّي عِنْدَ

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٦٤).

(٢) ينظر "تفسير آيات أشكلت" (١ / ١٨١).

(٣) ينظر "لوامع الأنوار البهية" (٢/ ٣٠٥).

اللهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ..."[١] على أن النبي ﷺ لم يزل على التوحيد مذ نشأ وردَّ بذلك على من زعم غير ذلك...

قال حنبل: "قلت لأبي عبد الله - يعني الإمام أحمد رضي الله عنه -: من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل أن يبعث؟ قال: هذا قول سوء، ينبغي لصاحب هذه المقالة أن يحذر كلامه ولا يجالس. قلت: إن جارنا الناقد أبا العباس يقول هذه المقالة. قال: قاتله الله، وأي شيء أبقى إذا زعم أن رسول الله ﷺ كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام؟ قال الله تعالى مخبراً عن عيسى عليه السلام: ﴿**وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف:٦]. ثم قال الإمام أحمد رضي الله عنه: أوليس كان لا يأكل ما ذبح على النُّصُب!" [٢]

عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه، قَالَ: "كَانَ صَنَمٌ مِنْ نُحَاسٍ يُقَالُ لَهُ: إِسَافٌ، أَوْ نَائِلَةُ، يَتَمَسَّحُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا. فَطَافَ رسول الله، ﷺ، فَطُفْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا مَرَرْتُ مَسَحْتُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ، ﷺ: لَا تَمَسَّهُ! فَقَالَ زَيْدٌ: فَطُفْتُ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَأَمَسَّنَّهُ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَكُونُ، فَمَسَحْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ، ﷺ: أَلَمْ تُنْهَ؟"

وفي روايةٍ: قال زيدٌ: "فو الذي هُوَ أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧١٦٣)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٦٣١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (١٣٢٢)، وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٢٠٩١).

(٢) ينظر "لطائف المعارف" لابن رجب (ص: ٨٢)، و"الجامع لعلوم الإمام أحمد" -العقيدة (٤/ ١٠٢).

حَتَّى أَكْرَمَهُ اللهُ بِالَّذِي أكرمه وأنزل عليه."[١]

وهذا يدل على عناية الله تعالى بنبيه ﷺ قبل البعثة وبعدها.

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى:" ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]. نقلاً عن القاضي عياض: والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة، منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك...

وفي قصة بحيرا حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى، إذ لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علامات النبوة فأخبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما...

أما قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية: شرائع الإيمان ومعالمه. ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع، أي كنت غافلاً عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع، ذكره القشيري، وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، ونحوه عن أبي العالية، وقال أبو بكر القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمنًا

(١) أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤).

بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فزاد بالتكليف إيمانـاً.، وهذه الأقوال الأربعة متقاربة.

وقال ابن خزيمةرَحِمَهُ اللَّهُ: عنى بالإيمان الصلاة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة:١٤٣]. أي صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص". أهـ[١]

العلاج الرباني لفيروس كورونا:

وعلى الوجه الثاني في تفسير قوله ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ۝٥﴾ أي اهجر المعاصي، يحسن بنا أن ننتبه لهذه المعنى، خاصةً في هذه الأيام التي انتشر فيها فيروس كورونا الذي هزَّ العالم أجمع، فيجب على الجميع من الكبار والصغار والرجال والنساء أن يهجروا المعاصي وأن يكثروا من التوبة والاستغفار.

وإن الإنسان ليعجب من فيروس لا يُرى بالعين المجردة، لا تستطيع دول العالم كله أن توقفه، وإنما يوقفه الله سبحانه وتعالى.

ولذلك فالنظرة الشرعية في هذه البلايا تتلخص في الآتي:

١ـ على العباد أن يرجعوا إلى الله ويعلموا أن هذه البلايا ببعض ذنوبهم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٦/ ٥٥: ٥٩)

ﭐسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]

فالعلاج الرباني هو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ أي أنه يجب على العباد جميعًا أن يتركوا ما حرم ربهم عليهم، حتى يكشف ما بهم من بلوى، فليس لها من دون الله كاشفة.

وأنت ترى العالم أجمع يُضرب اقتصاده ويخسر المليارات الهائلة، فتذكر ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾.

ثم مع ذلك كله وقبله يجب على العبد أن يعلم أن المدبر لهذا الكون كله هو الله، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن: ١١]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢]

وعلى المسلم أن يأخذ بأسباب الحماية التي جاء بها الشرع المبارك.

تذكر قول النبي ﷺ: "لاَ عَدْوَى، وَلاَ صَفَرَ، وَلاَ هَامَةَ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا بَالُ إِبِلِي، تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَأْتِي البَعِيرُ الأَجْرَبُ، فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فَقَالَ: فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟[1]

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٧١٧)، ومسلم في " صحيحه " (٢٢٢٠).

ولكن قال ﷺ أيضاً مقابل ذلك أخذاً بأسباب السلامة والعافية: «لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ».(١)

وقال ﷺ أيضاً: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَلاَ هَامَةَ وَلاَ صَفَرَ، وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ».(٢)

وعن عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: كَانَ فِي وَفْدِ ثَقِيفٍ رَجُلٌ مَجْذُومٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ فَارْجِعْ».(٣)

ومن الآداب الجليلة: ما جاء في الصحيحين عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا».(٤)

ولما وقع الطاعون بالشام وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الطريق ... فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٢٢١)، والطبري في " تهذيب الآثار" مسند على (٤)، والطحاوي في " شرح مشكل الآثار " (٤/ ٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥٧٠٧)، والبغوي في " شرح السنة " (٣٢٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣١)، والنسائي في " المجتبى " (٤١٨٢)، وابن ماجه في " سننه " (٣٥٤٤)، وأحمد في " مسنده " (١٩٤٧٤).

(٤) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٢٨)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه (٢٢١٨).

الله."(١)

وكذلك قراءةُ سورةِ الإخلاصِ والفَلَقِ والنَّاسِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.(٢)

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ."(٣)

في مسند أحمدَ عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةُ بَلاءٍ حَتَّى اللَّيْلِ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي، لَمْ تَفْجَأْهُ فَاجِئَةُ بَلاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ إِنْ شَاءَ اللهُ»(٤).

ثم إذا أصيب به إنسانٌ بعد أخذه بالأسباب، فليعلم أن في هذا البلاء أجراً عظيماً، ففي صحيح البخاري عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ، وَلاَ حُزْنٍ، وَلاَ

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٢٩)، ومسلم في صحيحه (٢٢١٩).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٥٠٨٢)، والترمذي في " سننه " (٣٥٧٥)، والنسائي في " المجتبى " (٥٤٢٨)، وفي " السنن الكبرى " (٧٨١١)، وصححه الألباني في " صحيح الجامع" (٤٤٠٦). عمن حديث مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٠٠٨)، ومسلم في " صحيحه " (٨٠٧).

(٤) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده" (٥٢٨)، وابن حبان في "صحيحيه" (٨٥٢)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

أَذًى، وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ".(١)

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ".(٢)

وفسر عددٌ من أهل العلم الطاعون بأنه المرض العام الذي يصيب كثيراً من الناس.(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٦٤١ و٥٦٤٢)، وأبو داود في "سننه" (٣٠٩٠)، والترمذي في " سننه " (٩٨٢).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢٨٣٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٩١٦).

(٣) الطاعون لغةً: جاء في " لسان العرب " (٢٦٧ / ١٣) أنه: "المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد له الأمزجة والأبدان." أهـ

ذكر من قال إن الطاعون هو الوباء العام: قال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "الطاعون الوباء"، وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "الطاعون المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة"، وقال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الطاعون المرض الغالب الذي يطفئ الروح، سمي بذلك لعموم مصابه وسرعة قتله"، وقال أبو الوليد الباجي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض الناس."

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض فسميت طاعونًا لشبهها بها في الهلاك." شرح الزرقاني على "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" (٥١٧ / ٩)

وبعض أهل العلم قال إن الطاعون أخص من الوباء، كما جاء في المعجم الوسيط: "داءٌ وَرَمِيٌّ وبائي سببه مكروب يصيب الفئران، وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى وإلى الإنسان."

ويؤيده ما ورد في التعريف الاصطلاحي الذي ذكره النووي، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في " شرحه على مسلم

فالواجب علينا جميعـًا أن نتوب إلى الله عزَّ وجلَّ ونكثر من الاستغفار ونترك المعاصي، قال تعالى ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٠-١٣]، وقال تعالى ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ [هود: ٣]، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود: ٥٢]

ولا تنسَ اجتناب بعض الآداب الخاطئة التي يقوم بها بعض الناس، والتي نبه عليه شرعنا الحنيف، من ذلك:

=" (١٤/ ٢٠٤): " وأما الطاعون فهو قروح تخرج في الجسد فتكون في المرافق أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن ويكون معه ورم وألم شديد وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة ويحصل معه خفقان القلب والقيء وأما الوباء فقال الخليل وغيره هو الطاعون وقال هو كل مرض عام والصحيح الذي قاله المحققون أنه مرض الكثيرين من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات ويكون مخالفا للمعتاد من أمراض في الكثرة وغيرها ويكون مرضهم نوعا واحدا بخلاف سائر الأوقات فإن أمراضهم فيها مختلفة قالوا وكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونـًا ".

ومن هذا التعريف يتبين أن الطاعون مرضٌ مخصوصٌ بأعراضٍ معينةٍ، وليس كل وباء معدٍ يعد طاعونـًا إلا بالقياس أو المجاز.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ، أَوْ صَدِيقَهُ، أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ."(١)

وعن أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لاَ يُمْسِكَنَّ أَحَدُكُمْ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ وَهُوَ يَبُولُ، وَلاَ يَتَمَسَّحْ مِنَ الْخَلاَءِ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ."(٢) وأما اليد اليمنى فهي للمصافحة والأكل والشرب.

وهكذا العافية والسلامة في تطبيق هذه الآية ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ۝٦﴾ [المدثر: ٦] اخْتَلَفَ المفسرون فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أي ولا تُعطِ يا محمّد عطيّةً لتُعطَى أكثر منها (٣)، وهذا هو الربا(٤).

---

(١) (حسن) أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٧٢٨)، وابن ماجة في " سننه " (٣٧٠٢)، وحسنه الألباني في " صحيح وضعيف سنن الترمذي " (٦/ ٢٢٨).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (١٥٣)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٧).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤١٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأبي الأحوص وعكرمة وإبراهيم والضحاك وقتادة وطاوس ومجاهد. وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٢)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٥).

(٤) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤١٤) عن الضحاك رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: " هو الرّبا الحلال، كان للنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصّةً وقال أيضا هما ربوان: حلالٌ، وحرامٌ؛ فأمّا الحلال: فالهدايا، والحرام:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا الأدب للنبيّ ﷺ خاصةً، وليس على أحدٍ من أمته إثمٌ أن يهديَ هديةً يرجو بها ثوابـًا أكثر منها." أهـ[(١)]

وَقَالَ آخَرُونَ فِي ذَلِكَ: لا تمنن بالنّبوّة على النّاس، تأخذ عليه منهم أَجْرًا على هدايتهم.[(٢)]

وهو صلوات الله وسلامه عليه سيدُ مَن تواضع لله، وسيدُ من دعا ابتغاءَ وجهه، ولم يمنُن على العباد بشيءٍ.

وقال بعضهم: لا تمنُنْ بعملك تستكثِرْه على ربك، قاله الحسن.[(٣)]

وقال آخرون: لا تَضْعُف عن الخير أن تستكثر منه، قاله مجاهد.[(٤)]

وكذلك لا تَعدُدْ نعمك على مَن أنعمتَ عليه على وجه المنة والاستكثار، ولكن اجعل أعمالك كلَّها لله رب العالمين، جلَّ جلالُه وتباركت أسماؤه.

=فالرّبا"، وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٣).

(١) ينظر "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٤/ ٣٦١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٣)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤١٦) عن ابن زيدٍ، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٥)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٣).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤١٥) عن الحسن والرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٣)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤١٠).

(٤) ينظر "زاد المسير في علم التفسير" لابن الجوزي (٤/ ٣٦١)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٣٨).

وقفةٌ: وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ أن العبد مهما قام بأعمالٍ جليلةٍ، ووفقه الله، سواء كانت أعمالاً في الدعوة إلى الله، أو في نفقةٍ على كثيرٍ من الفقراء، أو في الإحسان إلى الآخرين، مهما بَلَغَتْ غايةَ هذا الإحسان، حتى ولو بلغ الغاية، لا يمنُنْ به، لأن المنَّ بالعطية يُحبطها ويُذهبها ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢﴾ [البقرة: ٢٦٢]

فمهما بذل العبدُ من جُهدٍ لله، أو مِن مالٍ، أو من علمٍ، أو من شفاعةٍ، أو هَدَى الله على يديه أناساً كثيرين، أو كان هناك قومٌ كفارٌ وأسلموا، أو غير ذلك، فالمنة والفضل لله رب العالمين أولاً وآخراً، فالواجب على العبد أن لا يَمُنَّ بعمله، ويعلم أنه لولا الله ما اهتدى، ولولا الله ما فتح الله تعالى له قلوب العباد.

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ أَيْ وَلِسَيِّدِكَ وَمَالِكِكَ فَاصْبِرْ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَعِبَادَتِهِ[1]، واصبر على مجاهدة الكافرين.

واصبر أيضاً على الأذى الذي تناله، في سبيل الدعوة إلى الله عزَّ وجل.[2]

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٦٩)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤١١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٦).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٦٩)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٣٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤١١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٣).

وقد لاقى النبي ﷺ من الأذى ما الله به عليمٌ، آذته قريشٌ وهمُّوا بقتله مراتٍ ومراتٍ، وألقوا على ظهرِه الشريفِ سلا الجذور، يعني الأمعاء والكرشة التي تكون في البهيمة بعد ذبحها، ألقوها على ظهره الشريف وهو ساجد، ففي الصحيحين عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ، رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرْعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ - قَلِيبِ بَدْرٍ.(١)

وربُّنا يقول له: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ يعني يا أيها الداعي إلى الله، ويا أيها المسلم، إنك ستلقى تعبـًا وعنتـًا من أعداء الدعوة وأعداء الإسلام، فاصبر لربك، والصبر أجره

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٢٤٠)، ومسلم في "صحيحه" (١٧٩٤).

عظيمٌ، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وهكذا في الجمع بين الآيتين الكريمتين ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ يخرج الداعي إلى الله تعالى بمنهج مبارك في دعوته، هذا المنهج هو سبب سعادته وتوفيقه بعد أمر الله تعالى، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ يعني على الداعي أن يبذل كل ما يملك من أجل هداية الخلق ودلالتهم على الله تعالى، ابذل مالك، وابذل علمك ـ وهو أغلى ما يبذله المرء ـ، وابذل وقتك لقضاء مصالح المسلمين، واشفع لإخوانك، واسعَ في تفريج كرباتهم، ثم انسَ هذا العمل فلا تذكره لا لهم ولا لغيرهم، فضلاً عن أن تمن عليهم به، وهذا هو شكر النعم، والشكر هو الجناح الأول الذي يجب على المسلمين عامةً، والدعة خاصة أن يتخلقوا به، وهذا داعياً للمزيد من نعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]

ثم في قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ الجناح الآخر الذي يجب علينا التخلق به، ألا وهو الصبر، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النحل: ١٢٧]، والصبر للداعي لا بد وأن يلازمه في كل أحواله، وأن يستعين بالله في نجاح دعوته بالصبر على أذى من يدعوهم إلى الله، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]

والصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.(١)

---

(١) ينظر "تنبيه الغافلين " للسمرقندي (ص: ٢٦٣).

على الداعي إلى الله أن يسير على هدي رسول الله ﷺ، وأن يستقرأ سيرته، ويتعرف على صبره لله وفي الله، وكيف قام بمقامي الصبر والشكر، فذاك أحرى للداعي أن يستكمل دعوته ويواصل فيه، وتؤتي ثمارها بإذن الله.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ۝٨﴾ [المدثر: ٨] الناقور هو الصور[1]، والنفخ في الصور حقٌّ ويقينٌ، ومن الإيمان باليوم الآخر أن تؤمن بالنفخ في الصور، والنفخ في الصور ذكره الله في غير ما آية ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ۝١٥﴾ [الحاقة: ١٣-١٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ۝٨٧﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].

عدد النفخات في الصور:

اختلف العلماء في عدد النفخات:

فقيل: ثلاثُ نفخات: نفخة الفزع، ذَكَرَهَا الله تعالى فِي سُورَةِ النَّمْلِ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع البيان " (٢٣/ ٤١٨): "يعني جلَّ ثناؤه بقوله: فإذا نفخ في الصور فذلك يومئذ يوم شديد." وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٦)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٧٣).

وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴿٨٧﴾ [النمل: ٨٧]، ونفخة الصعق، ونفخة البعث، ذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]

وممن ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم.(١)

وقيل: هما نفختان: نفخةٌ للصعق وهي نفخةُ الفزع، لأن الأمرين لازمان لها، أي: فزعوا فزعـًا ماتوا منه، والنفخةُ الثانيةُ هي نفخةُ البعث، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴿٧﴾ [النازعات: ٦-٧]. وقد ذهب لذلك عددٌ كبيرٌ من أهل العلم.(٢)

وعلى كلِّ حالٍ فكلُّ قول له أدلةٌ، والقولان صحيحان معتبران.(٣)

والنفخُ في الصور يحدث والناس منشغلون بدنياهم، ليسوا على استعدادٍ لهذا اليوم العصيب،

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " ... وَلَتَقُومَنَّ

---

(١) ينظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية (١٦/ ٣٦).

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في " التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" (١/ ٢١٢): " ... والسنّة الثابتة على ما تقدم من حديث أبي هريرة، وحديث عبد اللّه بن عمر وغيرهما، يدل على أنهما نفختان لا ثلاث، وهو الصحيح إن شاء اللّه تعالى." أهـ

(٣) قال ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح الباري" (١١/ ٣٦٩): "ويمكن الجمع بأن الزلزلة تنشأ عن نفخة الصعق" أهـ.

السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ، وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا ".(١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا».(٢)

وقوله ﷺ " وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ ": يعني مصغية ومستمعة مع ترقب(٣)، وذلك من بعد الفجر إلى طلوع الشمس، لأن هذا هو وقت النفخ في الصور.

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٥٠٦)، ومسلم في "صحيحه" (٢٩٥٤).

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود في "سننه" (١٠٤٦)، ومالك في "الموطأ" (٢٩١)، والنسائي في "المجتبى" (١٤٣٠)، وفي "الكبرى" (١٧٦٦)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٧٩١)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٧٧٢)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل " (٣/ ٢٢٨).

(٣) قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ في "معالم السنن" (١/ ٢٤٢): "مسيخة معناه: مصغية يقال أصاخ وأساخ بمعنى واحد."

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ في "الاستذكار" (٢/ ٤٣): "وقوله "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ" فالإصاخة الاستماع وهو ها هنا سماع حذر وإشفاق خشية الفجأة والبغتة وأصل الكلمة الاستماع."

وهذا الوقت يكون أكثرُ الناس فيه في غفلةٍ، ولا يذكرون الله عزَّ وجلَّ إلا قليلاً، وكثيرٌ منهم نائمٌ لا يقوم إلا بعد طلوع الشمس، نسأل الله الإعانة على ذكره وشكره وحسن عبادته.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ يومٌ عسيرٌ جداً، كان مقدارُه خمسين ألف سنةً، نسأل الله العافية والسلامة.

في هذا اليوم العصيب يبتلي ربنا تعالى الكافرين ببلايا ومِحَنٍ شديدةٍ عظيمةٍ، نسأل الله العفو والعافية.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ أي غير سهلٍ ولا هيّنٍ، وذلك أنّ عقدهم لا تنحلّ إلّا إلى عقدةٍ أشدّ منها، بخلاف المؤمنين الموحّدين المذنبين فإنّها تنحلّ إلى ما هو أخفّ منها حتّى يدخلوا الجنّة برحمة اللّه تعالى، فاستدل بمفهوم هذه الآية عددٌ من أهل العلم أنه على المؤمنين يسير.(١)

وهل الكرب يختص بالكفار فقط في هذا اليوم لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ أم أنه يشمل أهل الإيمان والكفار؟

قال بعض أهل العلم: إن الكربات تغشى الكافرين، أما المؤمنون فالأمر عليهم يسيرٌ، لقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٧١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٧٤)

يَحْزَنُونَ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨]، ونحن نطمع في كرم الله، ونطمع أن يجعلنا ربُّنا ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، مع عظيم تقصيرنا جرمنا وسيئاتنا.

وقال بعض السادة العلماء: إن الكربات تغشى الناس أجمعين، المسلمين والكافرين، ثم بعد ذلك يُؤَمِّنُ الله المؤمنين، ويشتد العذاب والبلاء على أهل الكفر، لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، ولقول الأنبياء عليهم السلام عندما يفزع إليهم الناس، ليشفعوا لهم عند ربهم، يقولون: " إن ربي غضب اليوم غضبـًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله"(١) نسأل الله أن يجعلنا في أمنه، وفي أمانه، وفي ظله، وفي كرامته في الدنيا والآخرة يا رب العالمين.(٢)

قال الله تعالى:

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٣٤٠)، ومسلم في " صحيحه " (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " للشيخ مصطفى العدوي ـ تفسير جزء تبارك ـ (٣٢٥).

ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

سبب نزول الآيات:

جُلَّ أهل التفسير على أن المراد بهذه الآيات الوليد بن المغيرة المخزومي.(١)

فعَنْ عِكْرِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ "أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَقَالَ: أَيْ عَمِّ إِنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: يُعْطُونَكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا تَتَعَرَّضُ لِمَا قِبَلَهُ؛ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَعْلَمُ قَوْمُكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لِمَا قَالَ، وَأَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ؛ قَالَ: فَمَا أَقُولُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ مِنِّي، وَلَا بِقَصِيدِهِ، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى. قَالَ: وَاللهِ لَا يَرْضَى قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ؛ فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ

---

(١) وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٣٧١): "والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه. وإنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول ﷺ، وكان يسمى الوحيد في قومه." أهـ، وينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٢١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية" (٥/ ٣٩٤)، و " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٦٧)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤١٦).

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾."[١]

وَقَدْ ذكر السُّدِّيُّ أَنَّهُمْ لَمَّا اجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ لِيُجْمِعُوا رَأْيَهُمْ عَلَى قَوْلٍ يَقُولُونَهُ فِيهِ، قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِمْ وفودُ الْعَرَبِ لِلْحَجِّ ليصدّوهُم عَنْهُ، فَقَالَ قَائِلُونَ: شَاعِرٌ، وَقَالَ آخَرُونَ: سَاحِرٌ، وَقَالَ آخَرُونَ: كَاهِنٌ، وَقَالَ آخَرُونَ: مَجْنُونٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، كُلُّ هَذَا وَالْوَلِيدُ يُفَكِّرُ فِيمَا يَقُولُهُ فِيهِ، فَفَكَّرَ وَقَدَّرَ، وَنَظَرَ وَعَبَسَ وَبَسَرَ، فَقَالَ: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٢-٢٥].[٢]

وإن كان سبب النزول فيه ضعفٌ[٣]، لكن هذا ما عليه المفسرون، واشتهر ذلك حتى أغنت شهرتُه عن الإسناد.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي إنّ هذا الّذي خلقته وحيدًا، فكّر فيما أنزل على عبده محمّدٍ ﷺ من القرآن، وقدّر الكلام في ذهنه فيما يقول فيه.

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٢٩)، والواحدي في " أسباب النزول " (٤٣٦)، والحاكم في " المستدرك " (٣٩١٨) وقال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» وينظر "الصحيح المسند من أسباب النزول" للشيخ مقبل بن هادي (٢٢٥)، و "الاستيعاب في بيان الأسباب" (٣/ ٤٧٥).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٦٧).

(٣) **(ضعيف)** أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٤٢٩)، وينظر " التسهيل لتأويل التنزيل " (ص ٣٢٧)، و"الاستيعاب في بيان الأسباب" (٣/ ٤٧٥).

أي إنه فكر وزوّر فى نفسه كلاماً فى الطعن فى القرآن، وما يختلق فيه من المقال، وقدَّره تقديراً، أصاب به ما فى نفوس قريشٍ، وما به وافق غرضهم.

والخلاصةُ: أنه فكَّر وتروَّي ماذا يقول فيه، وبماذا يصفه به، حين سئل عن ذلك؟

ثم كرر هذا الدعاء للتأكيد والمبالغة فقال: ﴿**فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠**﴾ أي لُعن وعُذِّب على أيِّ حالٍ قدَّرَ ما قدَّرَ مِن الكلام كما يقال فى الكلام: لأضربنَّه كيف صنع: أي على أي حالٍ كانت منه.

﴿**ثُمَّ نَظَرَ ٢١**﴾ أي ثم نظر فى أمر القرآن مرةً بعد أخرى، لعله يجول بخاطره ما يحبون، ويصل إلى ما يرجون.

﴿**ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢**﴾ أي ثم قطّب وجهه حين ضاقت به الحيل ولم يدرِ ما يقول.

ثم أكد ما قبله فقال: ﴿**وَبَسَرَ**﴾ أي كلح واسودَّ وجهُه.(١)

﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ٢٣**﴾ أي ثم صرف وجهه عن الحق ورجع القهقرى مستكبراً عَنِ الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ.(٢)

---

(١) ينظر"جامع البيان للطبري" (٢٣/ ٤٢٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٢٩)، و"تهذيب اللغة" للأزهري (١٢/ ٢٨٦)، و"الصحاح" للجوهري (٢/ ٥٨٩).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٣١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٧٨)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٦٦).

ثم ذكر ما استنبطه من التّرّهات والأباطيل:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴿٢٤﴾﴾ أي فقال ما هذا القرآن إلا سحرٌ ينقله محمدٌ عن غيره ممن كان قبله من السحرة كمسيلمة وأهل بابل ويحكيه عنهم.

ثم أكد ما سلف بقوله:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴿٢٥﴾﴾ أي إنه ملتَقَطٌ من كلام غيره، وليس من كلام الله كما يدّعى.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴿٢٦﴾﴾ أي سأدخله جهنم وأغمره فيها من جميع جوانبه الست كلِّها، كما أنه فكَّر وقدَّر وأدبر واستكبر.(١)

ثم بالغ فى وصف النار وتعظيم شأنها فقال:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴿٢٧﴾﴾ تقول العرب: ما أدراك ما كذا، إذا أرادوا المبالغة والتهويل فى الأمر، أي وأيُّ شيءٍ أعلمك ما سقر؟ لأنها قد بلغت فى الوصف حداً لا يمكن معرفته، ولا يُتوصل إلى إدراك حقيقته.

قال عنها رسولنا محمد ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٢)، نسأل الله العافية والنجاة.

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٦٧)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٦٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٨٤٢)، والترمذي في "سننه" (٢٥٧٣)، والحاكم في "المستدرك" (٨٧٥٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، به.

ثم بيّن وصفها بقوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ أي لا تُبقي لهم لحماً ولا تذرُ عظمًا، ولا تبقي شيئًا إلا أحرقته[١]، فإذا أعيد أهلها خلقًا جديداً فلا تذرهم، بل تُعيد إحراقَهم كرةً أخرى، وهكذا دواليك.

قال تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾ كلمة البشر يعني الجلد، أي تَلْفَحُ الْجِلْدَ لَفْحَةً، فَتَدَعُهُ أَشَدَّ سَوَادًا مِنَ اللَّيْلِ.[٢]

ثم قال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها.

وهذه الآية كانت فتنةً للكافرين، جعل الله على النار تسعة عشر من الملائكة، فالكفار ازدادوا طغيانًا وكفراً بنزول هذه الآية، فقال أبوجَهْلٍ لِقُرَيْشٍ: أيخوفكم محمدٌ بتسعة عشر، أَمَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ تَغْلِبَ مِنْهَا وَاحِدًا؟[٣]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِقُرَيْشٍ: ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ، أَسْمَعُ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُخْبِرُ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ تِسْعَةَ عَشَرَ وَأَنْتُمُ

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٨١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٧٨)، و"بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٥١٧).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٣٤) عن أبي رزين ومجاهد وقتادة وغيرهم، وينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٥)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٠).

(٣) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٤٣٦)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٣٣٨٤)، وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٣٧).

الدُّهْمُ، أَيِ: الشُّجْعَانُ، أَفَيَعْجِزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِوَاحِدٍ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ قَالَ أَبُو الْأَشَدِّ أو أبو الأشدين: أَنَا أَكْفِيكُمْ مِنْهُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ، عَشْرَةً عَلَى ظَهْرِي وَسَبْعَةً عَلَى بَطْنِي، فَاكْفُونِي أَنْتُمُ اثْنَيْنِ.(١)

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد قيل: إنّ أبا الأشدّين -واسمه: كلدة بن أسيد بن خلفٍ- قال: يا معشر قريشٍ، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر، إعجابًا منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوّة فيما يزعمون أنّه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرةٌ لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزّق الجلد ولا يتزحزح عنه." أهـ(٢)

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: "أَنَا أَمْشِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ فَأَدْفَعُ عَشَرَةً بِمَنْكِبِي الْأَيْمَنِ وَتِسْعَةً بِمَنْكِبِي."(٣)

أي يفعل ذلك ويدخلهم الجنة، يعني نحتل الجنة بالقوة، ثم نذهب فنطفيء النار، ولا تحملوا همَّ شيءٍ، والعياذ بالله، هذا من الضلال والكفر والعتو على الله.

وكذلك قال أبو جهل قريبـًا من هذا الكلام.(٤)

---

(١) ينظر "معالم التنزيل للبغوي" (٨/ ٢٧٠)، وينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٤٣٨) و"الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٨٦).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٦٩)، "الروض الأنف" للسهيلي (١/ ٢٠٠).

(٣) ينظر " معالم التنزيل للبغوي" (٨/ ٢٧٠).

(٤) أخرج الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٣٦) عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ فلما سمع أبو جهل بذلك قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن

فربُّنا جلَّ جلاله أجاب عليهم، وأبطل كلامهم بقوله:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ يعني من جنسٍ خلاف جنس المعذَّبين من الإنس والجن، بل هم ملائكةٌ أقوياء، لا تأخذهم لومةُ لائمٍ، ولا يستطيع الإنسُ والجنُّ أن يغالبوهم، ولا يمكن لهم أن يهزموهم، بل المَلَكُ الواحد لو أذن الله له لأهلك الدنيا بتمامها، فجبريل الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ له ستمائة جناح(١)، بطرف جناحٍ واحدٍ حمل تسع مدائن، وهي مدائنُ قومِ لوطٍ، ورفعها حتى سُمع صياحُ الدِّيَكة ونباحُ

=يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحي إلى رسول الله ﷺ أن يأتي أبا جهل، فيأخذه بيده في بطحاء مكة فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ فلما فعل ذلك به رسول الله ﷺ قال أبو جهل: والله لا تفعل أنت وربك شيئا. فأخزاه الله يوم بدر. وينظر "الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٣٨٦)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٠).

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٣٢)، ومسلم في "صحيحه" (١٧٤)، عن ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ».

الكلابِ عند أهل السماء الأولى، وصاح بهم صيحةً وقَلَبَهُم رأسًا على عَقِبٍ فصاروا صرعى هلكى[(١)].

ومَلَكُ الجبال لما جاء إلى النبي ﷺ وقال له " إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ ".[(٢)]

فالملائكةُ عظامٌ جداً، ليسوا مثل البشر، فلا يمكن للبشر أن يغلبوهم أو أن ينتصروا عليهم.

لذلك قال ربنا تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ**﴾ أَيْ: خُزَّانها، ﴿**إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً**﴾ أي: زبانيةً غلاظًا شدادًا، وذلك ردٌّ على مشركي قريشٍ حين ذكر عدد الخزنة تسعة عشر.[(٣)]

ولك أن تعلم قدرة الله العظيم المقتدر، الذي جعل تسعةَ عشرَ من الملائكة هم الذين يقومون على عذاب الخلق كلِّهم.

وقال بعض السادة العلماء: هؤلاء التّسعة عشر، هم الرّؤساء والنّقباء، وأمّا

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (١٢/ ٥١٥) عن سعيد بن جبير. وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٤/ ١٩٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٢٣١)، ومسلم في " صحيحه " (١٧٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، به.

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم"لابن كثير (٨/ ٢٦٩)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٦).

جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وكلُّ مَلَكٍ مِن هؤلاء له أعوانٌ، كما أن مَلَكَ الموت له أعوانٌ.(١)

وربنا على ما يشاء قديرٌ، ولو شاء أن يعذب العباد بدون خزنةٍ للنار من الملائكة لفعل عزَّ وجلَّ، ولكن في ذلك حكمةٌ عظيمةٌ.

وهؤلاء الملائكة غلاظٌ، لا يرقون لبكاء أهل النار وعويلهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦]

فالكفار وهم في النار ينادون مالكًا خازن جهنم، رئيس هؤلاء التسعة عشر، ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، ينادونه مئات السنين، وهو لا يرق لهم أبداً، فنسأل الله العفو والعافية.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينُهم بالحق، لأن الرسول ﷺ ما كان له علمٌ بهذا، كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ﷺ، ولا يعلم كم عدد خزنة جهنم،

لذلك في بعض الأحاديث ـ وإن كان فيها ضعفٌ ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٦٨)، و" تفسير القرآن العظيم "لابن كثير (٨/ ٢٦٨).

قَالَ: قَالَ نَاسٌ مِنَ اليَهُودِ لِأُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: هَلْ يَعْلَمُ نَبِيُّكُمْ كَمْ عَدَدُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟ قَالُوا: لَا نَدْرِي حَتَّى نَسْأَلَهُ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، غُلِبَ أَصْحَابُكَ اليَوْمَ. قَالَ: «وَبِمَ غُلِبُوا؟» قَالَ: سَأَلَهُمْ يَهُودُ: هَلْ يَعْلَمُ نَبِيُّكُمْ كَمْ عَدَدُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟ قَالَ: «فَمَا قَالُوا؟» قَالَ: قَالُوا: لَا نَدْرِي حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنَا. قَالَ: " أَفَغُلِبَ قَوْمٌ سُئِلُوا عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ؟ فَقَالُوا: لَا نَعْلَمُ حَتَّى نَسْأَلَ نَبِيَّنَا، لَكِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ، فَقَالُوا: أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً، عَلَيَّ بِأَعْدَاءِ اللهِ، إِنِّي سَائِلُهُمْ عَنْ تُرْبَةِ الجَنَّةِ وَهِيَ الدَّرْمَكُ "، فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا: يَا أَبَا القَاسِمِ، كَمْ عَدَدُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟ قَالَ: «هَكَذَا وَهَكَذَا فِي مَرَّةٍ عَشَرَةٌ، وَفِي مَرَّةٍ تِسْعَةٌ»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا تُرْبَةُ الجَنَّةِ؟» قَالَ: فَسَكَتُوا هُنَيْهَةً، ثُمَّ قَالُوا: خُبْزَةٌ يَا أَبَا القَاسِمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الخُبْزُ مِنَ الدَّرْمَكِ».(١)

الشاهد أن هذا العدد فتنةٌ للكفار، فما آمنوا، بل استكبروا وأبَوا أن ينقادوا إلى كتاب الله وشرعه، وزادهم ذلك ضلالاً وكفراً وعتواً، أما أهل الكتاب فكانوا يقرأون في كتبهم، أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، فلما جاء رسول الله محمد ﷺ، وأخبرهم ـ وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ـ، أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، كان في ذلك من الأدلة العظيمة أن هذا الذي جاء به هو وحيٌ من السماء، فيزدادوا يقينـاً بهذا.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ لأن رسولهم ﷺ جاء ووافق الكتب السابقة، فيزدادوا إيمانـاً مع إيمانهم.

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٢٧) واللفظ له، وأحمد في "مسنده" (١٤٨٨٣)، وأبو نعيم في "صفة الجنة" (١٥٩)، وضعفه الألباني في " السلسلة الضعيفة " (٣٣٤٨).

الإيمان يزيد وينقص:

هذه الآية فيها دلالةٌ على أن الإيمان يزيد وينقص، والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرةٌ جداً، منها قوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧**﴾ [محمد: ١٧]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣**﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١)

وعَنْ أَبِي الْخَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»

قال: يا رسول الله أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال: «تطعمُ الطعامَ، وتقرأُ السلامَ على من عرفتَ ومن لم تعرف» (٢)

فالإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والإيمان عند أهل السنة قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، ويدخل فيه الأفعال والتروك، فالأفعال الواجبة والمستحبة

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه " (٢٤٧٥)، ومسلم في "صحيحه " (٥٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (١٢)، ومسلم في " صحيحه" (٣٩).

من الإيمان، والتروك المحرمة والمكروهة، أيضـًا تركُها من الإيمان.(١)

﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: ليزول عنهم الريبُ والشكُّ، في أن محمداً نبيُّ الله ﷺ، وأن هذا القرآن هو من عند الله.

وهذه مقاصدُ جليلةٌ، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعيُ في اليقين، وزيادةُ الإيمان في كلِّ وقتٍ، وكل مسألةٍ من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله ﷺ محصلاً لهذه الفوائد الجليلة، ومميزاً للكاذبين من الصادقين(٢)، ولهذا قال:

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: شكٌّ وشبهةٌ ونفاقٌ، ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ كلمة مَثَلاً يعني حديثـًا، لماذا ساق الله هذا الحديث؟

أما المؤمن فيؤمن بكل ما أخبره الله به، ويزداد إيمانـًا بكلِّ آيةٍ يقرأها، وبكل آيةٍ أُنزلت، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٥] فالواجب على العبد أن يزداد إيمانـًا بكلِّ آيةٍ يسمعها، أو يقرأها، وأن يعقل الأمثال في القرآن الكريم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا

---

(١) ينظر تفصيل هذه المسألة في كتاب " زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه " للشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

(٢) ينظر "تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (ص: ٨٩٧).

﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا سَمِعْتُ الْمَثَلَ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ بِكَيْتُ عَلَى نَفْسِي؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴿٤٣﴾**﴾ [العنكبوت: ٤٣](١)

فهذه الأمثال لا يسوقها ربُّنا هكذا، بل يسوقها سبحانه يُذَكِّرُ بها أهلَ الإيمان ليزيدهم هدىً، ويُضلُّ الله الكافرين الذين علم منهم بسابق علمه أنهم لا يهتدون أبداً، فيزدادوا غياً في غيهم وضلالاً على ضلالهم.

﴿**وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ**﴾ وهذا على وجه الحيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال: ﴿**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ**﴾ وهذا فيه إثبات مشيئة الله النافذة، فمن أضله الله، جعل ما أنزله على رسوله زيادةَ شقاءٍ عليه وحيرةٍ، وظلمةٍ في حقه.

ومن هداه الله؛ جعل ما أنزله الله على رسوله رحمةً في حقه، وزيادةً في إيمانه ودينه.

فإذا شاء الله لك الهدى فاحمده على ذلك، فوالله ثم والله ثم والله لاشيء من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء"(٥/ ٩٥) عن عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَكْرَهُ أَنْ أَمُرَّ، بِمَثَلٍ فِي الْقُرْآنِ فَلَا أَعْرِفُهُ» لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴿٤٣﴾**﴾"، وينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (١/ ٢٠٨).

أموال الدنيا يساوي مجلساً من مجالس القرآن، أو يساوي صلاة الجماعة، أو ركعتي الفجر.

الهدى من الله:

وفي قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ أن الهدى من عند الله، فالمهديُّ من هداه الله، ﴿**قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران ٧٣]، والذي حقت فيه الضلالة لا ينفع فيه شيءٌ، ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ [يونس: ٩٦]، وهل ظلمهم الله؟ قال الله: ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ [النحل: ٣٣]، وربُّك جلَّ جلالُه بسابقِ علمِه، اطَّلَعَ على بعض عباده، فعلم أن هذه النفوس الطيبة المؤمنة، تزكو بالصلاح والرشاد، فكتبها من أهل الجنة، وكتب أعمالها وآجالها وأرزاقها وسعادتها، واطلع على النفوس الأخرى فعلم أنه مهما يأتيها من بيناتٍ وهدىً، فإنها تضِلُّ ولا تسير في ركب الصالحين، بل تعادي دينَ الله وتحارب رسلَه، فكتبها ربُّ العالمين من أهل الشقاوة، وحقت عليهم كلمةُ ربِّك، فلا يؤمنون أبداً، ثم أرسل الرسل وأنزل الكتب، وجعل للعبد عقلاً، وبَصَّرَه بالآيات، وجعل له في كلِّ شيءٍ آيةً تدل على وحدانية الله، ثم هداه النجدين، وبصَّره بطريق الخير، وطريق الشر، ثم أبقى له العمل والاختيار، ويأتي فعله على وفق ما كتبه الله جلَّ جلاله، فلذلك ربنا يقول: ﴿**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾، ولذلك كان من الدعاء الذي علمه النبي ﷺ للحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قنوت الوتر: «اللَّهُمَّ

اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ». (١)

وكان ﷺ يسأل ربه في كل ركعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ۝﴾ [الفاتحة: ٥-٦]

وكان الرسول ﷺ يقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»(٢)

وكان رسولنا ﷺ يقول لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: " أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». (٣)

وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يُنشد بين يدي رسول الله ﷺ:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا(٤)

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (١٤٢٥)، والترمذي في " سننه (٤٦٤)، والنسائي في " المجتبى " (١٧٦١)، وابن ماجه في " سننه " (١١٧٨)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل " (٤٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٧٢١)، والترمذي في " سننه " (٣٤٨٩)، وابن ماجه في " سننه " (٣٨٣٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، به.

(٣) **(صحيح)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد" (٦٩٠)، وأبو داود في "سننه " (١٥٢٢)، والنسائي في " سننه " (١٣٠٣)، وأحمد في " مسنده " (٢٢١١٩)، وصححه الألباني في " صحيح الأدب المفرد " (٦٩٠).

(٤) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٤١٠٦)، ومسلم في " صحيحه " (١٨٠٣)، من

صدق والله، لولا الله ما حُبِّبَ إلينا الإيمان، ولولا الله عزَّ وجلَّ ما قمنا للصلاة، ولولا الله ما تعلمنا آيةً ولا حديثًا، لكنه فضلُ الله، فله الحمدُ أولاً وآخراً، فنسأل الله المزيد من فضله ودوام نعمه، ونعوذ بالله من الخذلان يا رب العالمين.

الرد على الجبرية:

وفي الآية أيضـًا ردٌّ على بعض الطوائف الضالة، التي تقول: العبد كريشةٍ في مَهَبِّ الريح، فليس له اختيارٌ أبداً في طاعته أو معصيته.

والجواب: نقول لهم كذبتم، فإن الله أثبت للعبد مشيئةً، وأثبت لنفسه مشيئةً، وقال تعالى: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠**﴾ [الإنسان: ٣٠]، فالله له مشيئةٌ، وللعبد مشيئةٌ، والله له اختيارٌ ويقضي ما يشاء ويختار، والعبد له اختيارٌ أيضـًا، فليس مجبوراً أن يقع في المعصية[١]

ثم نقول لمن يدعي ذلك: لماذا لا تذهب الآن وترمي نفسك أمام سيارةٍ، أو ترمي نفسك في البحر؟

فسيقول: لا، هذا هلاك، والعقل يؤديك أن تأخذ بأسباب السلامة، فدل على بطلان مذهبهم عقلاً.

وَقَوْلُهُ: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ**﴾ أَيْ: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلّا هو

=حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

(١) ينظر تفصيل مسألة هل العبد له مشيئة؟ في " مجموع الفتاوى " لشيخ الإسلام بن تيمية (٨/ ٤٥٩).

تعالى، لئلّا يتوهّم متوهّمٌ أنّهم تسعة عشر فقط [(١)]، والواجب أن يتلقى العبد ما أخبر اللهُ به ورسولُهُ ﷺ بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿**إلا هُوَ**﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب.

ومن الأدلة على كثرة الملائكة وعلى أن عددهم لا يُحصى: ما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: " ... ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ"[(٢)]، أي إلى آخر الدنيا، كل يوم يطوف بالبيت المعمور ـ وهو حيال الكعبة المشرفة في السماء السابعة ـ يدخله سبعون ألف ملكٍ من الملائكة، ثم يخرجون، ولا يرجعون إليه إلى آخر الزمان.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُم

---

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٧٠)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٨٩)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٧).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٠٧)، ومسلم في " صحيحه " (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، به.

بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ"(١)

فهذا يدل على أن أعداد الملائكة لا يعلمها إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ الآيةُ عامةٌ، ليست في الملائكة فقط، بل لله جنودٌ كثيرةٌ جداً، فالضفادعُ جنودٌ، والدم جندٌ من جند الله، والخوف والرعب جندٌ من جندِ ربِّك عزَّ وجلَّ، لذلك قال الله تعالى ـ مخبراً عن بعض هذه الجند التي أرسلها على أعتى أمةٍ جاءت، وعلى أعتى ملِكٍ جاء على مدار التاريخ ـ فرعون ـ، قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣]

والخوفُ جندٌ من جنود الله يقذفه الله تعالى في قلوب الكفار، من الموحدين والمؤمنين، قال ﷺ: "نُصِرتُ بِالرُّعبِ مَسِيرَة شَهرٍ"(٢)

والريحُ جندٌ من جنود الله، نصر الله بها حبيبَنا محمداً ﷺ، في يومٍ ضاقت بهم الأرض بما رحُبَت، وزاغت الأبصارُ، وبَلَغَتْ القلوبُ الحناجرَ، كما وصفهم الله تعالى في سورة الأحزاب، وجاء المشركون في خيلائهم، من مكة شرفها الله إلى المدينة المنورة، يمشون بَطَراً ورئاءَ الناس، وقالوا: سنذهب لنستأصلَ الإسلامَ والمسلمين،

---

(١) **(حسن)** أخرجه الترمذي في " سننه" (٢٣١٢)، وابن ماجه في " سننه" (٤١٩٠)، وأحمد في " مسنده " (٢١٥١٦)، وحسنه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٧٢٢).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٣٥)، ومسلم في " صحيحه " (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، به.

وغدرت اليهودُ، وصار المسلمون كما يقال بين كماشتين، أي بين قطبي الرحى، وإذا بهم كما وصفهم الله تعالى ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١٣]

فأرسل الله جنديـًا من جنوده، وهي الريح، فدمرتهم وردتهم خائبين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩]، فأرسل الريح تقلع خيامهم، وتكفي قدورهم، وتطفئ نارهم، وتسفي بهم التراب والرمال، وتقذف في قلوبهم الرعب، وأرسل الملائكة كذلك، تضرب وجوههم، فردهم الله كما قال رب العالمين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

قال ربنا تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أي: وَمَا النَّارُ الَّتِي وَصَفْتُهَا إِلَّا تَذْكِرَةً ذُكِّرَ بِهَا الْبَشَرُ، وَهُمْ بَنُو آدَمَ.

قوله جلَّ جلاله: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمةُ ردعٍ وزجرٍ، أي لَيْسَ الْقَوْلُ كَمَا يَقُولُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَكْفِي أَصْحَابَهُ الْمُشْرِكِينَ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ حَتَّى يُجْهِضَهُمْ عَنْهَا، ثم يقسم الله تعالى بالقمر وضياءه، وسطوع هذا القمر في الكون، فقال:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ۝٣٣﴾ إذ ولى وانصرم ظلامه.(١)

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ۝٣٤﴾ إذا جاء بضيائه، يكشف الظلام.

وهذه آياتٌ باهراتٌ، لا يستطيعها إلا ربُّ الأرض والسماوات سبحانه عزَّ وجلَّ، وهي أشياء متضادةٌ عظيمةٌ، تَعُمُّ الكونَ كُلَّه فلا يقدر عليها إلا الله ربُّ العالمين.(٢)

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ۝٣٥﴾ أي إِنَّ جَهَنَّمَ لِإِحْدَى الْكُبَرِ، يَعْنِي إحدى الدواهي الكبار العظام، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ۝٣٦﴾ يريد النار، أي هذه النار الموصوفة نذيراً للبشر فهو نصبٌ على الحال من المضمر في إنها، قاله الزجاج.

وَقِيلَ: المراد بالنّذير محمّدٌ ﷺ، أي قم نذيرًا للبشر، أي مخوّفًا لهم ف﴿نَذِيرٗا﴾ حَالٌ مِنْ قُمْ فِي أول السورة حين قال: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ۝٢﴾.(٣)

قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ۝٣٧﴾

ما أجمل هذه الآية!

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٤١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٣٩١).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٤٣)، و"فتح القدير " للشوكاني (٥/ ٤٦٤).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٤٦) عن ابن زيد، وينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ٨٥)، و"الكشف والبيان" للثعلبي (٢٨/ ٧٢).

أثبت الله مشيئةً للعبد، وأنه يشاء أن يتقدم إلى الخير، إلى الصفوف الأولى، إلى فعل الصالحات، يمكن له أن يفعل ذلك، ويمكن له أن يتأخر، والسعيدُ الذي يُوفَّقُ للخير، ولذلك لما رأى الرسول ﷺ أحيانـًا في بعض أصحابه تأخراً عن الصفوف الأولى، قال: " لا يزال قومٌ يتأخرون حتى يؤخرهم الله "(١).

فليحرص المؤمن أن يتقدم دائمـًا، إذا سمع المنادي ينادي بادر إلى الصلاة وتقدم، وإذا أُعلن عن باب من أبواب الخير سارع ونافس فيه.

يسعى أن يكون أبرَّ الناس بوالديه، وأوصل الناس برحمه، وأرحم الناس بالضعيف والمسكين، وأرقَّهم على اليتيم.

الشاهد أن الله تعالى أثبت للعبد مشيئةً في التقدم في فعل الخير، فإن تكاسل فات عليه هذا الخير.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ إذا كان للعبد قلبٌ يعي أن هناك ناراً أعدها الله للعصاة، وهذه النار لا يقوى على عذابها أيُّ أحدٍ من الخلق، فسيتقدم للخير، ويؤدي الفريضة، ويقوم الليل، ويحمل هَمَّ الدينِ بين جنبيه، ويسعى في تعبيد الناس لله رب العالمين، وتنشئة أبناءه وأبناء المسلمين على ما يحب الله ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه.

فهذه آيةٌ عظيمةٌ، نحتاج أن نجعلها منهج حياة، من استطاع أن يتقدم في باب من

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٤٣٨)، وأبو داود في " سننه" (٦٨٠)، والنسائي في " المجتبى" (٨٠٧)، وابن ماجه في " سننه" (٩٧٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، به.

أبواب الخير، فليفعل، ولا يتوانى أبداً حتى يأتي يوم القيامة متقدماً، مع السادة الكرام الذين سبقوا.

قال الله عزَّ وجل:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠﴾ أي سجينةٌ ومحبوسةٌ ومرتهنةٌ بعملها، إما أن يعتقها عملُها الصالح، أو يوبقها عملُها السيءُ، كما قال الحبيب ﷺ: "كُلُّ النَّاسِ يَغدُو فَبَائعٌ نَفسَهُ فَمُعتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا".(١)

وإذا أيقن المرءُ أنه رهينُ العمل، وأنه مرتهنٌ بكسبه، وجب عليه أن يصلح قوله

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٢٣)، والترمذي في "سننه" (٣٥١٧)، والنسائي في "المجتبى" (٢٤٣٧)، وابن ماجه في "سننه" (٢٨٠)، وأحمد في "مسنده" (٢٢٩٠٨) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، به.

وعمله، وأن يصلح سرَّه وعلانيتَه، وأن يتق الله ويراقبَه في كل حالٍ.

قال بعضُ السادة العلماء: كلّ نفسٍ مأمورةٌ منهيّةٌ بما عملت من معصية اللّه في الدّنيا، رهينةٌ في جهنّم ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ۝٣٩﴾ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُرْتَهَنِينَ، وَلَكِنَّهُمْ ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ۝٤٠﴾(١)

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفسير فِي أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ، الذين ماتوا قبل البلوغ، فإنه لا حساب عليهم، لأنه لا ذنوب عليهم.(٢)

وقال بعضهم: هم المؤمنون، فإنهم في الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ، لأن هؤلاء يخرجون من قبورهم إلى جناتٍ ونَهَرٍ، في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ.(٣)

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ۝٤١﴾ أي: في جناتٍ قد حصل لهم بها جميعُ مطلوباتهم، وتمت لهم الراحةُ والطمأنينةُ، حتى أقبلوا يتساءلون،

---

(١) أخرجه الطبري في" جامع البيان " (٢٣/ ٤٤٧)، عن قتادة، وينظر " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٩٦)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٤٩) عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر "الدر المنثور" للسيوطي (١٥/ ٨٥)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية" (٥/ ٣٩٨)، و " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٣٩٦)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٥٤)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٢).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٤٨) عن مجاهد وابن زيد والضحاك. وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٩٦)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية" (٥/ ٣٩٨)،

فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، وذلك لأنهم يرون الكفار وهم يُعذَّبون في نار جهنم، وهذا من تمام كرامة الله لأوليائه، أنه جلَّ جلاله يريهم أعدائَهم وهم يُعَذَّبون في نار جهنم، كما قص الله تعالى قوله الكريم: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴿٥٧﴾**﴾ [الصافات: ٥٠-٥٧][١]

﴿**فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿٤١﴾**﴾ أي الكافرين، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟ فقالوا لهم:

﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴿٤٢﴾**﴾ وسقر جهنم، أي: أيُّ شيءٍ أدخلكم فيها؟ وبأيِّ ذنبٍ استحققتموها؟

فذكروا أشياء هي التي أدخلتهم النار والعياذ بالله: ﴿**قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴿٤٣﴾**﴾

حكم تارك الصلاة:

وقد أجمع السادة العلماء على أن من ترك الصلاة جحوداً وتكذيباً لفرضيتها، فهو كافرٌ لا شك في كفره.[٢]

---

(١) ينظر " كتاب الصلاة " لابن القيم ص (٥ ـ ١٠٧).

(٢) سرد ابن القيم رحمه الله الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة.

وأما من تركها كسلاً وتهاونـاً، فاختلف فيه العلماء:

فذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعددٌ من أهل العلم: إلى أنه كافرٌ خارجٌ من الملة، مِثلُه مثلُ الجاحد.(١)

واستدلوا على ذلك بأدلةٍ(٢)، منها:

قول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: ٥٩]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة: ١١] وبقوله جلَّ جلاله: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝١٥﴾ [السجدة: ١٥]، وبقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ».(٣)

=ينظر "كتاب الصلاة " (٤٩).

(١) ينظر " المغني " لابن قدامة (٢/ ٣٣٠)، و"الإنصاف" للمرداوي (١/ ٤٠٣).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٥/ ٢٤٣)، و"أضواء البيان" للشنقيطي (٣/ ٤٤٤).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٨٢)، وأبو داود في " سننه" (٤٦٧٨)، والترمذي في " سننه" (٢٦١٨)، والنسائي في " سننه " (٤٦٤)، وابن ماجه في " سننه" (١٠٧٨).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» وهو حديثٌ حسنٌ.(١)

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ: ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا؟ كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»(٢)

وعن ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ "(٣)

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ المُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ».(٤)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٦٢١)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٣٢٦)، وابن ماجه في " سننه " (١٠٧٩)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤١٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في " مسنده " (٦٥٧٦)، والدارمي في " سننه" (٢٧٦٣)، وابن حبان في " صحيحه " (١٤٦٧)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٥٧٨).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٨)، ومسلم في " صحيحه" (١٦).

(٤) أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٩١)، والنسائي في "سننه" (٤٩٩٧).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ العُقَيْلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ».(١)

هذه أدلةُ أهل العلم الذين قالوا بكفر تارك الصلاة.

وذهب جمهور العلماء إلى(٢): أن من ترك الصلاة كسلاً أو تهاونـًا، فقد وقع في كبيرةٍ من كبائر الذنوب، ولكنه لا يَكْفُرُ بها، ولا يخرجُ من الملة بسبب ذلك، واستدلوا على ذلك:

بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴿٤٨﴾**﴾ [النساء: ٤٨]

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٦٢٢)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٠٤٤٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٥٧٩).

(٢) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ في "شرح صحيح مسلم" (٢/ ٧٠): "وأما تارك الصلاة فإن كان منكراً لوجوبها فهو كافرٌ بإجماع المسلمين خارج من ملة الإسلام إلا أن يكون قريب عهدٍ بالإسلام ولم يخالط المسلمين مدةً يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه، وإن كان تركه تكاسلاً مع اعتقاده وجوبها كما هو حال كثير من الناس؛ فقد اختلف العلماء فيه فذهب مالك والشافعي رحمهما الله والجماهير من السلف والخلف إلى أنه لا يكفر بل يفسق ويستتاب، فإن تاب وإلا قتلناه حداً كالزاني المحصن؛ ولكنه يقتل بالسيف."

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ في "المجموع" (٣/ ١٦): "في مذاهب العلماء فيمن ترك الصلاة تكاسلاً مع اعتقاده وجوبها: فمذهبنا المشهور ما سبق أنه يقتل حداً ولا يكفر وبه قال مالك والأكثرون من السلف والخلف."

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يَنْتَقِصْ مِنْهُنَّ شَيْئًا، اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَهْدًا أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ قَدِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا، اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ، لَمْ يَكُنْ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»، والحديث صحيح لطرقه وشواهده.(١)

وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَسْنَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى صَدْرِي فَقَالَ: " مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ - ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ - خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ "، وهو حديث حسن.(٢)

وعن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ، وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ "(٣)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٢٥)، وابن ماجه في " سننه" (١٤٠١)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٧٠٤)، وصححه الألباني في " مشكاة المصابيح " (٥٧٠).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٣٣٢٤)، والبزار في "مسنده" (٢٩١٩)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٦٥١) وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٩٨٥).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٤٣٥)، ومسلم في " صحيحه" (٢٨).

القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ». (١)

واستدلوا بقول الرسول ﷺ: " فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ"(٢)

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُخبِرُ بِهَا فَيَسْتَبْشِرُوا، قَالَ: «إِذًا يَتَّكِلُوا»، فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا"(٣)

وقالوا: بأن ترك الصلاة أقلُّ مِن الشرك، فلذلك هو في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذَّبه.

واستدلوا أيضـًا بحديث البطاقة، عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩٩)، والنسائي في "السنن الكبرى" (٥٨١١)، أحمد في "مسنده" (٨٨٥٨).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٢٥)، ومسلم في "صحيحه" (٣٣)، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه، به.

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (١٢٨)، ومسلم في " صحيحه " (٣٢).

رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ "، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ». (١)

كل هذه الأدلة استدلَّ بها جمهورُ العلماء على أن تارك الصلاة كسلاً أو تهاونـاً وقع في مهلكةٍ من موبقات الذنوب، ولكنها لا تُخرجه مِن الملة.

إذاً أصحابُ النار ذكروا عدةَ أعمالٍ استوجبت لهم عذابَهم في النار:

الأولى: ﴿**قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ**٤٣﴾ هذه واحدةٌ.

والثانية: ﴿**وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ**٤٤﴾ أي أنهم لم يكونوا يُطعموا المحاويج، ولم يبذلوا من مالهم للفقراء والمحتاجين.

وفي إطعام المسكين أجرٌ عظيمٌ، ففي الحديث: "أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ» (٢)

وقال تعالى: ﴿**وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا**٨﴾ [الإنسان: ٨]

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٦٣٩)، وابن ماجه في " سننه" (٤٣٠٠)، وابن حبان في " صحيحه" (٥٠٩٥)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة" (١٣٥).

(٢) **(صحيح)** تقدم تخريجه.

والثالثة: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي يخوضون مع الكذابين، الذين يفترون الكذب، ويخوضون في الباطل معهم، يقولون عن رسول الله ﷺ كذابٌ، ويقولون عنه شاعرٌ، ويقولون عنه كاهنٌ، ويخَالِطُون أَهْلَ الْبَاطِلِ فِي بَاطِلِهِمْ.(١)

والرابعة: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

وأنت إذا نظرتَ إلى هذه الأسباب، وهذه الأمور الأربع، تَعلَمُ أن السببَ الرئيسيَّ الذي استوجب لهم النار والخلود فيها، هو تكذيبهم بيوم القيامة، لأن الإيمان بيوم القيامة ركنٌ من أركان الإيمان، ثم إن هذه الأعمال التي ذُكرت لا شك أنها زيادةٌ في عذابهم، ولذلك أهل العلم يقولون: "دلالة الاقتران لا تقتضي المساواة في الحكم"، وهذا رأي جماهير أهل العلم، على الأصح والله أعلم.(٢)

وبعض السادة العلماء يقولون: تأخذ حكماً واحداً.

لكن الأصح أنها لا تأخذ حكماً واحداً، خاصةً أن كلَّ جزئيةٍ منها جملةٌ تامةٌ، مبتدأٌ وخبرٌ، فعلٌ وفاعلٌ، ثم عُطفت بحرف الواو، فقال أهل العلم: دلالة الاقتران هنا،

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٣٩٨)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٦٧).

(٢) قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "إرشاد الفحول" (٢/ ١٩٧): "وأنكر دلالة الاقتران الجمهور فقالوا: إن الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم."

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "أضواء البيان" (٢/ ٣٢٥): "وهذه الدلالة التي ذكرنا تسمى دلالة الاقتران، وقد ضعفها أكثر أهل الأصول"، وذكر هذا المبحث بطوله الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ص (٣٤٦-٣٤٩).

لا تقتضي المساواة في الحكم، فلا يمكن أن يستوي عدمُ إطعامهم للمساكين، مع تكذيبهم بيوم الدين، فاقترنت هذه الأشياء في سياقٍ واحدٍ، وكلٌّ له حكمٌ مستقلٌ.(١)

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ۝٤٧﴾ أي: الموت.

قال جلَّ جلاله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ۝٤٨﴾ يعني لا يشفع أحدٌ لهم، وإن شفع أحدٌ لهم لا تُقبل شفاعتُه، وأما أهل الإيمان فيشفع بعضُهم لبعضٍ، وينتفع بعضُهم من بعضٍ، فإن النبي ﷺ أخبر في الحديث الثابت في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري ﵁، في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ـ وفيه "فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ".(٢)

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ۝٤٨﴾ وهذه حسرةٌ عظيمةٌ، ما بعدها حسرةٌ، عندما يرى الكفارُ بعضَ المسلمين العصاة الذين كانوا معهم في النار، وقد خرج منهم عددٌ هائلٌ بشفاعة الحبيب ﷺ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».(٣)

---

(١) ينظر تفصيل مسألة دلالة الاقتران في "إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام" لابن دقيق العيد (١/ ١٢٧)، و"بدائع الفوائد" لابن القيم (٤/ ١٨٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٧٤٣٩)، ومسلم في " صحيحه" (١٨٣).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في" صحيحه" (٦٣٠٤)، ومسلم في "صحيحه " (١٩٩).

ففي هذه الآية إثباتُ الشفاعة، لأن بعض الفرق الضالة تنفي الشفاعة[١]، لقول الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾

والأحاديث كثيرةٌ جداً في الصحيحين وغيرهما تثبت الشفاعة، شفاعة الرسول العظمى، وشفاعته في إخراج أهل الكبائر من النار، وشفاعته ﷺ في دخول أناسٍ الجنةَ بلا حسابٍ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ» وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[٢]

ويشفع ﷺ لأناسٍ استوجبوا النار ببعض أعمالهم، فيشفع فيهم أن لا يدخلوها، ويعفو الله عنهم، ببركة شفاعته ﷺ.

ويشفع كما ذكرنا في خروج بعض الناس من النار، بعد أن عُذِّبوا شيئًا ما

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وعند الخوارج والمعتزلة أنه لا يشفع لأهل الكبائر لأن الكبائر عندهم لا تغفر ولا يخرجون من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا بغيرها." ينظر "مجموعة الرسائل والمسائل" (١/ ١١) وينظر شرح " العقيدة الطحاوية " لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٢٩).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٨١١)، ومسلم في "صحيحه" (٢١٦).

بأعمالهم، ويشفع في بعض المؤمنين لرفعة درجاتهم في الجنة.

قال الله سبحانه جلَّ جلاله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ أي ما لهؤلاء الكفار معرضين عنك يا محمد، ومعرضين عن التذكرة، وعن كتاب الله، وعن الإيمان بك.[١]

قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠﴾ أي كأنهم حمرٌ نافرةٌ، من ماذا؟

قال تعالى: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾ يعني كأنهم وهم في شدة فرارهم وإعراضهم عن السماع من رسول الله ﷺ كأنهم حمُرُ وحشٍ، فرت من قسورة، والقسورة هم القناصون[٢] والصيادون.

وقال بعضهم: هم الرماة[٣]، واحدها قَسْوَر، مأخوذةٌ من القسر وهو القهر، يعني يرمي بشدةٍ.

فهؤلاء معرضون عن القرآن، وعن الإيمان بالرسول ﷺ، كأنهم في شدة نفرتهم عن الحق كأنهم حمُرُ وحشٍ فرت هاربةً من الرماة من القناصين، من الذين يرمونهم

---

(١) ينظر "جامع البيان" (٢٣/ ٤٥٤)، و"تفسير ابن كثير " لابن كثير (٨/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٤٥٧) وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وسعيد بن جبير، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٤)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ٤٥٥) وأخرجه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وأبي موسى ومجاهد وعكرمة وقتادة، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٤)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٣٩٩).

ويصطادونهم.

والقسورةُ أيضـًا يُطلق على الأسد[١]، لأن الأسد يقهر السباع فلذلك قيل قسورة، فهي تفرُّ أيضـًا من الأسد.

فإذا رأى العبدُ مِن نفسه أن الكريم سبحانه حبَّبَ إليه الإيمان، وجعله مقبلاً على التذكرة، وعلى مجالس العلم، فليعلم أن هذا من عظيم كرامة الله له، ونعمته عليه، أن هيأ له الأسباب لأن يسلك سبيل الهدى، وأن يسمع تذكرةً يتعظ بها ويأتمر بأمر الله وينتهي عن نهيه.

أما إذا رأى من نفسه نفرةً عن مجالس العلم، وعن صلاة الجماعة، وعدم استجابةٍ لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، فهذا عنوانُ شرٍّ عظيمٍ، نسأل الله العافية ونعوذ به من الخذلان، فيجب على العبد أن يراجع نفسه وأن يتوب إلى الله وأن يستغفره، ويجأر إليه أن يأخذ بناصيته إليه.

قال تعالى: ﴿**بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ**﴿٥٢﴾﴾ يعني أن هؤلاء الكفرة المجرمين يقولون: ﴿**لن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ**﴾ [الإسراء: ٩٣]، هذا هو الصحف المنشرة، يريدون أن ينزل كتابٌ من السماء، لكلِّ واحدٍ منهم، من الله عزَّ وجلَّ، إلى فلانِ ابنِ فلانٍ أنا أرسلت محمداً رسولاً فآمِن به،

(١) قال الطبري في " جامع البيان" (٢٣/ ٤٥٨) وَقَالَ آخَرُونَ: "بَلْ هُوَ الْأَسَدُ وأخرجه عن أبي هريرة وزيد بن أسلم وابن عباسٍ رضي الله عنهم وابن زيدٍ." وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٦٠)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٧٢).

وهذا هو السَّفَهُ والضلالُ والعُتُوُّ.

ومن معانيها أيضـًا: ما ذكره بعض أهل التفسير، أنهم رغم عتوهم على الله، وكفرهم وإعراضهم، يظن كلُّ واحدٍ منهم أنه سيأخذ كتابـًا مُنَشَّراً مفتوحـًا، كُتِبَ له فيه الحسنات والخيرات ويذهب إلى الجنة، وهذا لا شك أنه كفرٌ وضلالٌ، فالجنة حرامٌ على كل الكفار.(١)

قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣﴾ زجرٌ وإبطالٌ لما تقدم، ليس الأمر كما يزعمون من أنّهم لو أوتوا صحفًا منشّرةً صدّقوا، بل لا يخافون الآخرة، ولا يخافون عقاب اللّه، ولا يصدّقون بالبعث والثّواب والعقاب، فذلك الّذي دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة اللّه، وهوّن عليهم ترك الاستماع لوحيه وتنزيله.(٢)

وعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُدْعَانَ كَانَ يُقْرِي الضَّيْفَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ أَيَنْفَعُهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: " لَا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا قَطُّ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".(٣)

---

(١) ينظر " جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٤٦٠) عن قتادة ومجاهد، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٠١)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٧٢).

(٢) ينظر " جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٤٦١)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٥)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٨٧).

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه" (٢١٤)، وأحمد في " مسنده " (٢٤٦٢١)، وابن حبان في "صحيحه" (٣٣٠)، والحاكم في " المستدرك " (٣٥٢٤).

والعبد إذا خاف الآخرةَ، وخاف القيام بين يدي الله، وعلم أنه يومٌ عسيرٌ، وعلم أن هذا المقامَ مقامٌ طويلٌ، وعلم أن الناس في هذا اليوم فريقان لا ثالث لهما، فريقُ السعداء سعادةً أبديةً سرمديةً، وفريقُ الأشقياء شقاوةً أبديةً، فلا بد لهذا أن يدفعه أن يستعين بالله أولاً وآخراً، ويسلك سبيل السعداء، ويتجنب سبيل الأشقياء.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ٥٤﴾ يعني ليس الأمر كما يقول هؤلاء المشركون في هذا القرآن من أنّه سحرٌ يؤثر، وأنّه قول البشر، ولكنّه تذكرةٌ من اللّه لخلقه، ذكّرهم به.(١)

وأيُّما تذكرة، فهذا القرآن العظيم، تذكرةٌ لمن يخشى، فيه العبرةُ وفيه العظةُ، وفيه نبأُ مَن قبلنا، وفيه أخبارُ الصالحين، والأنبياء، وفيه مآل السعداء، والأشقياء، وفيه بيان الطريق الواضح الذي يُوصِّل إلى الله، وفيه الطريق الذي يُوصِّل إلى النار وإلى الخَسارة الأبدية، فهذا القرآن قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥﴾ أي: فَمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ بِهَذَا الْقُرْآنِ ذَكَرَهُ، فَاتَّعَظَ فَاسْتَعْمَلَ مَا فِيهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ.

(١) ينظر " جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٤٦٢)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٠٢)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٦٨).

أثبت الله للعبد مشيئةً، حتى لا يأتي ضالٌّ يستدل بأنه لا حيلة للعبد فيما يفعل، ويقول: لو شاء الله لهدانا.

فنقول له: أين مشيئتُك أنت، ابذل ما في وسعك وقم بأمر الله، والله قال عن نفسه الجليلة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ يعني أمرك الله بأوامر وأنت تطيقها، والله هو الذي خلق النفس وأوجب عليها، والله لا يكلف نفساً مالا تطيق، سبحانه جلَّ جلاله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴿٥٦﴾﴾ أي: وما يذكرون هذا القرآن فيتّعظون به، ويستعملون ما فيه، إلّا أن يشاء اللّه أن يذكروه، لأنّه لا أحد يقدر على شيءٍ إلّا بأن يشاء اللّه يقدّره عليه، ويعطيه القدرة عليه.(١)

أثبت الله مشيئته، وأثبت أن مشيئته نافذةٌ، وهذا من مراتب الإيمان بالقدر، أنه يجب عليك أن تؤمن بأن مشيئة الله نافذةٌ، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

وإذا لم يشأ اللهُ لعبدٍ هدايةً، فوالله لو اجتمع أهل الأرض كلُّهم على أن يهدوه ما استطاعوا، ولو أراد الله لعبدٍ هدىً، ما استطاع أهل الأرض كلُّهم أن يضلوه.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴿٥٦﴾﴾ يعني هو أهلٌ أن يُتّقَى، وأهلٌ أن يغفرَ

---

(١) ينظر " جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٤٦٣)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٠)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٧٤).

لعباده جلَّ جلاله، وروى الإمام أحمد والترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ قَالَ: " قَالَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَمَنْ اتَّقَانِي فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِي إِلَهًا، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ".

وفي سند هذا الحديث راوي يقال له سهيل وليس بالقوي(١)، فالحديث وإن كان سنده ضعيفًا، لكن لا شك أن معناه صحيحٌ، فالله هو أهلٌ أن يُتقى سبحانه جلَّ جلاله، وهو أعظم من اتُّقِي.

وكذلك المعنى: من اتقى الشرك بالله يغفر الله له، ومن اجتنب الكبائر، فالله يغفر له الصغائر، ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فمن اتقى الشرك بالله، وتعامل مع الله سبحانه جلَّ جلاله بالتقوى وكذلك اتقى ظلم العباد، فإن الله يغفر له، وفي عقيدتنا في الميزان، أن الناس في يوم الوزن أصنافٌ، منهم متقون، ومنهم خَلَطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، ومنهم كفارٌ.

أما الكفار فقال الله تعالى عنهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٢٨) وقال عقبه رَحِمَهُ اللَّهُ: "هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَسُهَيْلٌ لَيْسَ بِالقَوِيِّ فِي الحَدِيثِ، وَقَدْ تَفَرَّدَ سُهَيْلٌ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ ثَابِتٍ"، وأخرجه النسائي في " السنن الكبرى" (١١٧٤٢)، وابن ماجه في "سننه" (٤٢٩٩)، وأحمد في "مسنده" (١٢٤٤٢)، وضعفه الألباني في" ضعيف الجامع " (٤٠٦١).

وأما المتقون فهؤلاء يوضع التوحيد وأعمالهم الصالحة في كفة، ثم توضع ذنوبهم في الكفة الأخرى، ثم يجعل ربُّ العالمين هذه الذنوب لا وزن لها، أمام إيمانهم الصالح وأعمالهم الصالحة، فتخف كفة السيئات، وتثقل الكفة التي فيها التوحيد والأعمال الصالحة، ويدخلون الجنة ببركة تقواهم لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على محمدٍ وآله وصحبه أجمعين

تم الانتهاء من تفسير سورة المدثر بحمد الله وتوفيقه.

******

﴿ سُورَةُ القِيَامَةِ ﴾

سورةٌ مكيةٌ[١]، وعدد آيها أربعون، نزلت بعد سورة القارعة.

مناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر فى السورة السابقة قوله: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ٥٣﴾ [المدثر: ٥٣]، وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم للبعث، وذكر هنا الدليل عليه بأتمِّ وجهٍ، فوصف يوم القيامة وأهواله وأحواله، ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن، ثم ما قبل ذلك من مبدء الخلق.[٢]

والسور المكية لها طابعٌ خاصٌّ تزلزل القلوب وتحركها، وتُذَكِّرُ بالبعث بعد الموت، وبالجنة والنار، وتُذَكِّرُ ببدء الخلق، وغير ذلك من تهذيب العقيدة والأخلاق الفاضلة.[٣]

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " الدر المنثور " (١٥/ ٩٥): "أَخْرَجَ ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: نزلت سورة القيامة وفي لفظ: نزلت ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ١﴾ بمكة."، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: "نزلت سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بمكة."، وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٤٠١): "وهي مكيةٌ بإجماعٍ من المفسرين وأهل التأويل."

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٤٤).

(٣) قال ابن جزي الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "التسهيل لعلوم التنزيل" (١/ ١٤): "واعلم أنّ السور المكية نزل أكثرها في إثبات العقائد والردّ على المشركين، وفي قصص الأنبياء." وينظر " الموسوعة القرآنية، خصائص السور" لجعفر شرف الدين (٣/ ٥).

يقول الله تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن
نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ
أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ
ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ
ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤
وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾

يقول الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ نقل عددٌ مِن أهل العلم الاتفاق على أن معنى ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ أي: أقسم بيوم القيامة(١)، وعلى ذلك بعض القراء يقرأ لا أقسم بيوم القيامة(٢)

(١) قال السمرقندي رَحِمَهُ اللهُ في " بحر العلوم " (٣/ ٥٢٠): "أجمع أهل التفسير أن معناه أقسم." وينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٠٤).

(٢) قال ابن زنجلة رَحِمَهُ اللهُ في "حجة القراءات" (٧٣٥): "قرأ ابن كثيرٍ" لأقسم بيوم القيامة" بغير ألف يجعل اللام لام تأكيد المعنى أقسم بيوم القيامة كما تقول أقوم ثم تدخل اللام فتقول لأقوم روي عن الحسن أنه على هذه القراءة قال إن الله تعالى أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة"، وقال ابن مجاهدٍ رَحِمَهُ اللهُ في "السبعة في القراءات" (٦٦١): "قرأت على قنبل عن ابن كثير" لأقسم بيوم القيمة " بغير ألف بين اللام والقاف ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ﴾ الثانية بلام وألف."

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ۝٢﴾ يعنى أقسم بالنفس اللوامة.[١]

وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ، هَلْ هُوَ قَسَمٌ أَمْ لَا؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قَسَمٌ أَقْسَمَ رَبُّنَا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَبِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.

وَقَالَ آخَرونَ: بَلْ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يُقْسِمْ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، وَقَالوا: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ۝٢﴾ وَلَسْتُ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.[٢]

والصحيح أن الله أقسم بالأمرين الاثنين، أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة.[٣]

أما قوله (لَآ) في أول السورة: فقال بعض السادة العلماء: دخلت (لَآ) هنا للتوكيد.[٤]

وقال بعضهم: جاءت (لَآ) هنا زيادةً للزينة، كما قال الله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن

---

(١) ينظر" جامع البيان " (٢٣/ ٤٦٦).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٦٧) عن الحسن، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٥١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٢).

(٣) ورجح ذلك الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٦٧)، وابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٧٥) فقال: "والصحيح أنه أقسم بهما جميعا كما قاله قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو المروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد بن جبيرٍ، واختاره ابن جرير-رحمهما الله-."

(٤) ينظر "جامع البيان " (٢٣/ ٤٦٦) وأخرجه عن أبي بكر بن عياش، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٥١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٠٥).

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴿٢٩﴾ [الحديد: ٢٩]، وقال جلَّ جلاله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢](١)

وقال الشيخ السعدى رَحِمَهُ اللهُ: "ليست (لَآ) ها هنا نافيةٌ، ولا زائدةٌ، وإنما أُتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يُستغرب الاستفتاحُ بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعةً للاستفتاح.

فالمُقسَمُ به في هذا الموضع، هو المُقْسَمُ عليه، وهو البعثُ بعد الموتِ، وقيامُ الناس من قبورهم، ثم وقوفُهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم". أهـ(٢)

يومُ القيامة يومٌ عصيبٌ:

فيومُ القيامة يشمل البعثَ بعد الموت، وقيامَ الناس، وكذلك حوضَ الحبيب ﷺ، ويشمل كذلك الصراطَ، وتطايرَ الصحفِ، والجنةَ والنارَ، وأعلى نعيم الجنة رؤيةُ الله عزَّ وجلَّ، وأعلى عذاب أهل النار حرمانُهم من رؤية الله تبارك وتعالى.

فلذلك أقسم بهذا اليوم العصيب حتى يستعدَّ الناسُ للقائه، وليعملوا لهذا اليوم الطويل، الذي قال الله عنه: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]

---

(١) ينظر " بحر العلوم للسمرقندي" (٣/ ٥٢٠) و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٠٤).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " للسعدي (٨٩٨).

فهو يومٌ تتلون فيه المشاهد، وتختلف فيه الأمور، والناس في هذا فريقان لا ثالث لهما: سعداءُ سعادةً أبديةً سرمديةً ـ جعلنا الله منهم ـ، وأشقياءُ شقاوةً أبديةً سرمديةً – نعوذ بالله أن نكون منهم–.

وقال الله تعالى عن هذا اليوم أيضـًا: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝٦﴾ [المطففين: ٦]

وفي صحيح الإمام مسلم عن الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.(١)

معنى النفس اللوامة:

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ۝٢﴾ جماهير أهل التفسير على أنها النفس التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندمُ على ما فات.(٢)

والصحيح أنها النفس الصالحةُ، وتدخل النفسُ الشريرةُ أيضـًا في ذلك، فنفسُ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٦٤)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢١)، وابن حبان في " صحيحه " (٧٣٣٠)، وأحمد في " مسنده " (٢٣٨١٣).

(٢) ينظر" جامع البيان " (٢٣/ ٤٧٠)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٧٦)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٧٦)، و"التفسير الوسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٧٥).

المؤمنِ تلومه إن لم يستكثر من الخير، فقصر في قراءة القرآن، أو البر، أو الصدقة، أو تكاسل عن الجماعة، وهذا في الدنيا، وأما نفس الكافر فتلومه يوم القيامة، على ارتكاب المعاصي، وعلى الفجور، وعلى الكفر بالله جلَّ جلاله، وعلى عدم الإيمان بالرسول ﷺ، لما ترى من عذابٍ أليمٍ حلَّ بها بسبب كفرها وعنادها وعُتُوِّها على الله جلَّ جلاله.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ المَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ».[1]

فعلى هذا تكون اللوامة بمعنى اللائمة، وهو صفة مدحٍ، وعلى هذا يجئ القسم بها سائغـًا حسنـًا.[2]

وقال بعض أهل العلم: إن النفس اللوامة هي النفس المذمومة[3]، فليست هي اللائمة، بل الملومة، وهي نفس العاصي والكافر، فهي صفةُ ذمٍّ، وعلى هذا يجري قولُ مَن نفى أن يكون قَسَمـًا، إذ ليس للعاصي خَطَرٌ يقسم به، فهي كثيرة اللوم.

قسم الله بالمخلوقات:

لله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، فأقسم بيوم القيامة، وبالنفس

---

(١) (متفق عليه) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٢٣٥)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٨٢).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ٩٣)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٢).

(٣) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٧٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

اللوامة، وبالضحى، وبالشمس، وبحياة الرسول ﷺ، وبالليل، وغير ذلك من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يقسم بأحدٍ سوى خالقه جلَّ وعلا؛ لدلالة الأدلة الشرعية على ذلك،

فعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».(١)

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ، وَعُمَرُ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ».(٢)

فلا يجوز للعبد أن يحلف بالنعمة، وبأبيه الغالي، أو المرحوم، أو بالنبي ﷺ، أو بالولي، لا يجوز أن يقسم إلا بالله تعالى، والحلف بغير الله شركٌ أصغر، وسيئة الشرك سيئةٌ عظيمةٌ، ليس للإنسان بها طاقةٌ.(٣)

---

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في " سننه" (٣٢٥١)، والترمذي في " سننه" (١٥٣٥)، وابن حبان في " صحيحه" (٤٣٥٨)، والحاكم في " المستدرك " (٤٥)، وصححه الألباني في " إرواء الغليل "(٢٥٦١).

(٢) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه" (٦١٠٨)، ومسلم في " صحيحه" (١٦٤٦).

(٣) ينظر " كتاب التوحيد " للشيخ محمد بن عبد الوهاب وشرحه " القول المفيد " للشيخ العثيمين (٢/ ٢٣٧).

وقد ذهب عددٌ من أهل العلم والمحققين إلى أن الشرك وإن كان أصغر فلا يغفره الله، إلا بالتوبة، فمن مات على ذلك غير تائبٍ فهو غير مغفورٌ له ما فعله من الشرك، ولا يوجب التخليد في النار، ولا ينقل عن الملة.

وليس معنى أنه لا يغفره الله أن صاحبه من أهل النار، بل معناه أنه لا بد أن يُوضع في المقاصَّةِ، فيُقتصُّ من صاحبه، ويدخل تحت الموازنة، إن حصل معه حسناتٌ راجحةٌ على ذنوبه دخل الجنة وإلا دخل النار فيُعذَّبُ بقدر ذنبه ثم يخرج منها، بخلاف باقي الذنوب فقد يغفرها الله تعالى ابتداءً، وهذا يدل على خطر الشرك الأصغر.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[١]، وشيخ الإسلام ابن القيم[١]،

(١) لم أقف على تصريحٍ لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك، وأما ما قاله في " الاستغاثة الرد على البكري " (١/ ٣٠١): "وقد يقال الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضى عموم القرآن وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلماً لكن شركه لا يغفر له بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة" أهـ، فقد جعل ذلك محتملاً دون جزم.

نعم نقله ابن مفلح عنه كما في " الفروع " (٦/ ٦٦)، لكن لشيخ الإسلام موضعٌ آخر يوافق فيه الجمهور، فقال في كتابه" تفسير آيات أشكلت ١/ ٣٦٤": " فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر أو كان كثيرا أصغر والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به...ومن نجا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ورجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة".

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في " القول المفيد " (١/ ١١٤): "وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل، اختلف كلامه في هذه المسألة; فمرةً قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر،

والإمام محمد بن عبد الوهاب، وأئمة الدعوة النجدية رحمهم الله.[٢]

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ يعنى أيشكُّ الإنسان في البعث بعد الموت، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وهذا هو المُقْسَمُ عليه، فالله أقسم بالنفس اللوامة، وقبلها أقسم بيوم القيامة، أقسم بذلك على أن البعثَ حقٌّ، وأن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ هذا هو المراد من القسم أن

=ومرةً قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر". أهـ وانظر: " كتاب الشرك في القديم والحديث " (١/ ١٧٦) لأبي بكر محمد بن زكريا.

(١) لم أقف على كلامٍ صريحٍ له في ذلك.

لكن قال الشيخ صالح آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في " التمهيد لشرح كتاب التوحيد " (ص: ٤٦): "وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وأكثر علماء الدعوة." أهـ، وقال (ص: ٤٧): هو اختيار عدد من المحققين: كشيخ الإسلام: ابن تيمية، وابن القيم وغيرهما. أهـ

(٢) قال الشيخ عثمان النجدي رَحِمَهُ اللهُ في " فتح الحميد " (١/ ٣٥٩، ٣٦٠): "ففي قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به) فدخل تحت ذلك جميع الشرك كبيره وصغيره فلا يُغفر من ذلك شيءٌ إلا بالتوبة منه، وقد ذُكر دخول الشرك الأصغر في عموم هذه الآية عن بعض السلف كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء ...". أهـ

يُنظر " حاشية كتاب التوحيد " (٥١)، على أنه ورد في الدرر السنية في الكتب النجدية (٣/ ١٨٢): "والشرك الأصغر: ذنبٌ تحت المشيئة، كسائر الذنوب، بل هو أكبرها".

الله تعالى قادرٌ على إحياء الخلائق بعد موتها.

والبَنانُ: أطراف الأصابع، وأطراف الأصابع من أصغر العظام في بدن الإنسان، فإذا كان العظيم جلَّ جلالُه قادراً على أن يسوي هذه العظام الصغيرة في جسم الإنسان، فمن باب أولى إعادةُ بدنِه كلِّه.

قال أهل التفسير: "أيظنّ ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرّقها، بلى قادرين على أعظم من ذلك، أن نسوّي بنانه، وهي أصابع يديه ورجليه، فنجعلها شيئًا واحدًا كخفّ البعير، أو حافر الحمار، فكان لا يأخذ ما يأكل إلّا بفيه كسائر البهائم، ولكنّه فرّق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسّن خلقه."(١)

قوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ۝٥﴾ يعني ما يجهل ابن آدم أنّ ربّه قادرٌ على أن يجمع عظامه، ولكنّه يريد أن يمضي أمامه قدمًا في معاصي اللّه، لا يثنيه عنها شيءٌ، ولا يتوب منها أبدًا، ويسوّف التّوبة، يريد أن يستمر في الفجور، ويقع في المعاصي والآثام، لأنه لا يؤمن بيوم القيامة.(٢)

يريد أن يجدَ لنفسه مبرراً للفجور والمعاصي والاندفاع في الشهوات، فإذا قيل له: اترك المعاصي، يقول: لا يوجد قيامةٌ ولا بعثٌ، حتى يُسَوِّلَ لنفسه ارتكاب الآثام

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٧١) وأخرجه عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٧٨).

(٢) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٧٤)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٨١)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٧٦).

والجرائم والمعاصي.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴿٦﴾﴾ يعني متى هذا اليوم؟

وَإِنَّمَا سُؤَالُهُ سُؤَالُ اسْتِبْعَادٍ لِوُقُوعِهِ، وَتَكْذِيبٌ لِوُجُودِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩-٣٠][(١)]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟» قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا، بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ.[(٢)]

فالمؤمنون يسألون سؤال استرشاد وانتفاع، والكافرون يسألون سؤال إنكارٍ.

فذكر الله عزَّ وجلَّ له علاماتٍ إذا وقعت وقع يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴿٧﴾﴾ برق أي حار وشخص، بِمَعْنَى أنه فَزِعَ فَشُقَّ وَفُتِحَ مِنْ هَوْلِ الْقِيَامَةِ وَفَزَعِ الْمَوْتِ[(٣)]، واحتارت هذه الأبصارُ تشخَصُ وتنظرُ إلى

(١) ينظر " تفسير القرآن العظيم "لابن كثير (٨/ ٢٧٧)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ١٩٣)، و"روح المعاني" للألوسي" (٢٨/ ٩٧).

(٢) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٦٨٨)، ومسلم في " صحيحه " (٢٦٣٩).

(٣) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٧٩) وأخرجه عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ومجاهد، وقتادة.

الداعي الذي يدعو مِن قبل الله جلَّ جلاله، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾ [طه: ١٠٨]، فتشخص الأبصار وتحتارُ، ولا تنظرُ نظرةَ طمأنينة، ولكنها تفزع فزعـًا عظيمـًا هائلاً، نسأل الله تعالى العافية.

قال تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ٨﴾ أي ذهب ضوؤه.(١)

قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ٩﴾ وهذا لا يكون في الدنيا، فكل الدنيا علي مدارها لا يجتمع فيها الشمس والقمر، ولكن يجمعهما الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة، فيجمعان ويكوران، ويُلقى بهما في جهنم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الشَّمْسُ وَالقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٢)، وذلك تبكيتـًا لمن كان يعبدهما في الحياة الدنيا، فكأنهم يقال لهم: إن كانت هذه الآلهة لم تغنِ عن نفسها شيئـًا، فكيف تغني عنكم أنتم شيئـًا؟(٣)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ

=و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٧٣)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/ ٦٦٠).

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٤٨١) عن قتادة والحسن، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٧)، و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٢٠٠)، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (١٨٣)، وابن بطة في "الإبانة الكبرى" (٧٠).

(٣) قال ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ في " فتح الباري " (٦/ ٣٠٠): "قال الخطابي: ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلاً، وقيل: إنهما خلقا من النار فأعيدا فيها، وقال الإسماعيلي: لا يلزم من جعلهما في النار

﴿جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ يقولُ الإنسان يوم يعاين أهوال يوم القيامة: أين المفرّ من هول هذا الّذي قد نزل، ولا فرار.

يقول أين المكان الذي أفرُّ وأهربُ إليه؟ ولا فرار من الله.

وكما قال القائل:

أَيْنَ الْمَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبْ ... وَالظالمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبْ

أي والله، هنا يُغلبُ كلُّ ظالمٍ، ويُهزمُ كلُّ مجرمٍ، ويندمُ كلُّ معتدٍ أشدَّ الندم.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ وهو الجبل الذي يُعتصم ويُحتمى به، يعني يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: لَيْسَ هُنَاكَ فِرَارٌ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، لِأَنَّهُ لَا يُنَجِّيهِ فِرَارُهُ، وَلَا شَيْءَ يَلْجَأُ إِلَيْهِ مِنْ حِصْنٍ وَلَا جَبَلٍ وَلَا مَعْقِلٍ، مِنْ أَمْرِ اللهِ الَّذِي قَدْ حَضَرَ.(١)

قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي المرجع والمآب والمصير.

=تعذيبهما، فإن لله في النار ملائكةً وحجارةً وغيرها لتكون لأهل النار عذاباً وآلةً من آلات العذاب وما شاء الله من ذلك فلا تكون هي معذبة، وقال أبو موسى المديني: في غريب الحديث لما وصفا بأنهما يسبحان في قوله ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وأن كل من عُبد من دون الله إلا من سبقت له الحسنى يكون في النار وكانا في النار يعذب بهما أهلهما بحيث لا يبرحان منهما فصارا كأنهما ثوران عقيران."

(١) ينظر "جامع البيان " (٢٣/ ٤٨٤)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤١٤)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٧٤).

ما أجملها للمؤمن وما أشدها على الكافر!

إلى ربك ـ أيها المؤمن ـ المستقر، الذي كنت تعبده وتطيعه وتخافه وترجوه، فالآن سترجع إليه يُكرمُك ويَحبُوك ويرفعُ درجتَك ويُمتِّعُك في الجنان، ويكرمُك بكراماتٍ لا تخطرُ على بالك.

وإلى ربك يومئذٍ المستقرُّ أيها الكافر، الذي كفرتَ به وعصيتَه وخالفتَ رسلَه وأنبياءَه، فالآن سيعذبُك عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝**﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]

قال تعالى: ﴿**يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝**﴾ أي: يُخبَرُ بجميع أعماله قديمِها وحديثِها، أولِها وآخرِها، صغيرِها وكبيرِها، كما قال تعالى: ﴿**وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝**﴾ [الكهف: ٤٩][(١)]

يندم الإنسانُ يوم القيامة على كلِّ ساعةٍ ضاعت منه ولم يغتنمْها في طاعة ربه، فأهل الجنة يندمون على أيِّ ساعةٍ مرتْ عليهم ولم يذكروا الله فيها، فكيف بالساعات التي تضيع منا كل يوم، فيجب على العبد أن يراقب نفسه، ويتذكر هذه الآية.

وقوله: ﴿**بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**﴾ ولأهل العلم في تفسيرها أقوالٌ، منها:

١ - يُنبَّأُ بما أسلف مِن عملٍ سيئٍ أو صالحٍ، أو أخَّرَ مِن سنةٍ سيئةٍ أو صالحةٍ يُعمل بها بعده، قاله ابن عباسٍ وابن مسعودٍ رضي الله عنهم.

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٧٧)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٨/ ١٠١)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٣).

٢ – وعن مجاهدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "يُنبَّأُ بأولِ عمله وآخره"، وقاله النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ – وقال ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أيضـًا: أي بما قدم من المعصية، وأَخَّرَ من الطاعة، وهو قول قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤ – وقال ابن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بما قدم من أمواله لنفسه، وأخر: خَلَّفَ للورثة.

٥ – وقال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُنبَّأ بما قدَّمَ مِن فرضٍ، وأخَّر مِن فرضٍ.

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا الإنباءُ يكون في القيامة عند وزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأول أظهر.(١)

وفي صحيح مسلمٍ عن جريرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا».(٢)

فمن ذَكَّرَ إنسانـًا بسنةٍ فاستمسك بها وعمِل بها وعلَّمها أولادَه وجيرانَه، ثم نسي

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ٩٨)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٥٤)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٢٠)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٤٩١).

(٢) أخرجه مسلم في" صحيحه" (١٠١٧)، والترمذي في" سننه " (٢٦٧٥)، والنسائي في " المجتبى" (٢٥٥٤)، وفي " السنن الكبرى " (٢٣٤٦)، وابن ماجه في " سننه " (٢٠٣).

ذلك، فإن الله لا ينسى، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة: ٦] فيجد هذا أحوجَ ما هو إليه، ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ ويُنَبَّأُ كذلك بما أخر خلف ظهره مِن سُنَّةٍ سيئةٍ أحياها فمات ولا تزال سنته في الخلق.(١)

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ بل الإنسان شاهدٌ على نفسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ يعني مهما ألقى الأعذار لا يُقبل منه عذرٌ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ ".(٢)

---

(١) قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في " جامع البيان " (٢٣/ ٤٩١): "والصواب من القول في ذلك عندنا، أن ذلك خبرٌ من الله أن الإنسان ينبأ بكل ما قدم أمامه مما عمل من خيرٍ أو شرٍ في حياته، وأخر بعده من سنةٍ حسنةٍ أو سيئةٍ مما قدم وأخر، كذلك ما قدم من عمل عمله من خيرٍ أو شرٍ، وأخر بعده من عملٍ كان عليه فضيعه، فلم يعمله مما قدم وأخر، ولم يخصص الله من ذلك بعضاً دون بعضٍ، فكل ذلك مما يُنبأ به الإنسان يوم القيامة." أهـ

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٦٩)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١١٥٨٩)، وابن حبان

وقد قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ [فصلت: ٢٠-٢١]

وفي صحيح الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قال رسول الله ﷺ: " ... فَيَلْقَى - أي الله - الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ " (١)

أيُّ فضيحةٍ أعظمُ مِن هذه الفضيحةِ أمام الله، وأمام رسوله ﷺ، وباقي الأنبياء الكرام، وأمام إخوانه، وأمام الصديقين والشهداء والصالحين.

=في " صحيحه " (٧٣٥٨)، والحاكم في " المستدرك " (٨٧٧٨).

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٦٨)، والترمذي في " سننه " (٢٤٢٨).

قال تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

هذا تعليمٌ من الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من المَلَكِ، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق المَلَكَ في قراءته، فأمره الله عزَّ وجلَّ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكَفَّل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه.

فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ.(١)

هذا القرآن ثقيلٌ، ولكن من أخذ به رفعه الله، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين».(٢)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥)، ومسلم في "صحيحه" (٤٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٨١٧)، وابن ماجه في "سننه" (٢١٨)، وأحمد في "مسنده" (٢٣٢)، وابن حبان في "صحيحه" (٧٧٢).

يرفعهم به في الدنيا والآخرة.

فالقرآن كان ثقيلاً في حال نزوله على رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ ﷺ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.(١)

وعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «... فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ».(٢)

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «إِنْ كَانَ لَيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا(٣)»(٤)، وعند البيهقي" فَتَضْرِبُ عَلَى جِرَانِهَا مِنْ ثِقَلِ مَا يُوحَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ".(٥)

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢)، والترمذي في "سننه" (٣٦٣٤)، والنسائي في "المجتبى" (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٥٩٢)، وأبو داود في " سننه " (٢٥٠٧)، والترمذي في " سننه " (٣٠٣٣).

(٣) قال السندي رَحِمَهُ اللهُ في "حاشية على مسند أحمد" (٢٣/ ٣٦٩): "قوله (فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا) بكسر الجيم باطن العنق، والبعير إذا استراح مد عنقه على الأرض، والمراد أنها تستقر، وتترك المشي، لاشتغاله -ﷺ- عنها وانقطاعه عن الالتفات إليها، والله تعالى أعلم."

(٤) أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٤٨٦٨)، والحاكم في " المستدرك " (٣٨٦٥) وقال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، به.

(٥) أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٧/ ٥٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، به.

فكان ﷺ يعاني من التنزيل شدةً، ولذلك قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً كَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ»، قَالَ سعيد: فقال لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا» فَقَالَ سَعِيدٌ: «أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْآنَهُۥ**﴾، قَالَ: جَمْعَهُ فِي صَدْرِكَ ثُمَّ تَقْرَؤُهُ ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨**﴾ قَالَ: فَاسْتَمِعْ وَأَنْصِتْ ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا**﴾ أَنْ تَقْرَأَهُ قَالَ: «فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا أَقْرَأَهُ».(١)

يعني أن الله عزَّ وجلَّ تكفل بحفظ القرآن الكريم، ولم يترك ذلك لبشرٍ، ولا لرسوله ﷺ ، لذلك لا يوجدُ كتابٌ أنزله الله تعالى مِن كلِّ الكتبِ، لا التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا صحف موسى ولا أي صحيفةٍ مما أنزلها الله تعالى، تكفل الله بحفظه إلا القرآن الكريم فقط، فقد تكفل الله بحفظه في الصدور وفى السطور، في صدور العلماء الحفظة للقرآن، وفي المصاحف، ولا يمكن أن ينقص حرفٌ من كتاب الله، ولا أن يُزادَ حرفٌ، أما غيره من الكتب، فلعلك لا تجد نسخةً واحدةً من التوراة أو الإنجيل لم تُحَرَّفْ منذ زمنٍ بعيدٍ جداً.

قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩**﴾ أي: إذا تلاه عليك الملَكُ عن الله عزَّ وجلَّ، ﴿**فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ**﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٥)، ومسلم في " صحيحه " (٤٤٨).

ما أردنا وشرعنا.[(١)]

والمراد بيان اللفظ والمعنى، فقد بين الله تعالى لرسوله ﷺ القرآن، ثم فسره رسول الله ﷺ لأصحابه كاملاً.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾ أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عزَّ وجلَّ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم: أن همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة.

موعظةٌ في التقلل من الدنيا:

وهذا هو السبب العظيم الذي جعل العباد ينصرفون عن الله جلَّ جلاله، وعن العمل بكتابه، وعن اتباع رسوله ﷺ، أنهم ركنوا للدنيا، وهذا من أعظم الأسباب التي توهن القلب وتضعف العمل وتشتت الفكر، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠].

فربنا تعالى يَذُمُّ الناسَ الذين يؤثرون العاجلة على الآخرة الباقية، وهذا لا يليق بأي عاقلٍ، فالعاقلُ الحقيقيُّ يعلم أن الدنيا دارُ مَمَرٍّ، وليست دارَ مَقَرٍّ، ويعلم أن الدنيا عملٌ ولا حساب، وفي الآخرةِ حسابٌ ولا عمل، ويعلم أنها سريعة الزوال، ويعلم أنه جاء إليها ليأخذ منها للآخرة، لا لتأخذ هي منه.

---

(١) ينظر "تفسير ابن كثير" (٨/ ٢٧٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٥٠٢)، و" تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي (٨٩٩).

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» (١)

ولذلك يقول الله عزَّ وجلَّ عن الدنيا وزوالها: ﴿**ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾**﴾ [الحديد: ٢٠]

وحبيبنا ﷺ نصح الأمةَ أعظمَ نصحٍ، ولكن قليلٌ من ينتبه، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(٢)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ

---

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود في " سننه " (٤٢٩٧)، وأحمد في " مسنده " (٢٢٣٩٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ١٠٢)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ١٨٢)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٥٨)، والترمذي في " سننه " (٢٣٢٣)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١١٧٩٧)، وابن ماجه في " سننه " (٤١٠٨).

أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إِلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(١)

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»(٢)

هذه الدنيا الحقيرةُ التي لا قيمة لها هي التي يهجر الأخُ أخاه مِن أجلها، وهى التي تهجر الزوجةُ زوجَها من أجلها، وهي التي يَعُقُّ الابنُ أباه مِن أجلها، وهي التي يقتلُ المسلمون بعضُهم بعضـًا مِن أجلها، وينهبون الأموالَ، ويقعون في السرقة، ولذلك حكى النبي ﷺ عن أعظم حسرةٍ يلقاها العبد كما روى الإمامُ مسلمٌ في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا، أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٧٤٤)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٣٥٢)، والحاكم في " المستدرك " (٨٠٧٠)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٤٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٩٥٧)، وأبو داود في " سننه " (١٨٦)، وأحمد في " مسنده " (١٤٩٣٠).

الْقَاطِعُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا ".(١)

فالعاقل اللبيب يأخذُ من الدنيا على قدر بلاغه، فلا تشغله الدنيا عن الدين أبداً ما استطاع، وهو الذي يجعل همَّه همـاً واحداً.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ. (٢)

وعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنَّ لَهُ وَادِيًا آخَرَ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَاللهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ».(٣)

وليس معنى ذلك أن ينقطع العبدُ عن الدنيا وعن الناس ويعكف على الذكر والعبادة فقط، بل لا بد أن يعمِّرَ الدنيا بالدين، وقد ورد عن عامر الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أن رجالاً خرجوا من الكوفة بعيداً عن الدنيا ليتعبدوا، واعتزلوا الناس، فعلم بهم ابنُ

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٠١٣)، والترمذي في " سننه " (٢٢٠٨)، وابن حبان في " صحيحه " (٦٦٩٧).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في " سننه " (٢٤٦٥)، والطبراني في " المعجم الأوسط " (٥٩٩٠)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٦/٣٠٧)، ووكيع في "الزهد" (٣٥٩) وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (٩٤٩).

(٣) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٤٣٩)، ومسلم في " صحيحه " (١٠٤٨).

مسعودٍ رضي الله عنه، فجاء إليهم، وقال: ما الذي أخرجكم؟ فلما رأوه فرحوا، وقالوا: يا أبا عبد الرحمن، خرجنا من أوساط الناس ومن معاشرتهم لنتعبد، فقال: لو أن الناس كلَّهم صنعوا مثلما صنعتم، فمن يقاتل عن دين الله ويجاهد العدو؟ ومن يُعَلِّم الناسَ؟ والله لا أرجع حتى ترجعوا جميعـًا."(١)

فليس معنى إيثار الآخرة أن ينفضَ الإنسانُ يديه من الدنيا، ويترك أولاده ووالديه وأصحاب الحقوق عليه، بل يتكسب ما يؤدي به الحقوق الواجبة عليه، وينفق في أبواب الخير، من غير أن ينشغل بذلك عن ربه سبحانه.

ونعم المالُ الصالحُ في يد الرجلِ الصالحِ، طالما كان عونـًا له على طاعة الله، وعلى خدمة دينه.

ولنا بالصحابة رضي الله عنهم أسوةٌ، كعبد الرحمن بن عوف(٢)، وسعد بن الربيع(١)،

---

(١) قال ابن رجب رحمه الله في "فتح الباري" (١/ ١١٠): "قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين. والسياحة على هذا الوجه قد فعلها طوائف ممن ينسب على عبادة واجتهاد بغير علم، ومنهم من رجع لما عرف ذلك. وقد كان في زمن ابن مسعود من المتعبدين خرجوا إلى ظاهر الكوفة وبنوا مسجدا يتعبدون فيه، منهم: عمرو بن عتبة، ومفضل العجلي، فخرج إليهم ابن مسعود وردهم على الكوفة وهدم مسجدهم وقال: إما أن تكونوا أهدى من أصحاب محمد أو تكونوا متمسكين بذنب الضلالة. وإسناده هذا صحيح عن الشعبي أنه حكى ذلك."

(٢) هو عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفِ بنِ عَبْدِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ أَحَدُ العَشْرَةِ، وَأَحَدُ السِّتَّةِ أَهْلِ الشُّوْرَى، وَأَحَدُ السَّابِقِيْنَ البَدْرِيِّيْنَ، وَهُوَ أَحَدُ الثَّمَانِيَةِ الَّذِيْنَ بَادَرُوا إِلَى الإِسْلاَمِ انظر "سير أعلام النبلاء"

والحسن بن علي بن أبي طالب[٢]، وعروة البارقي[١]، وعثمان بن عفان[٢]، رضي الله عنهم

=(١/ ٦٨) ومن فضائله ما جاء عن الزهري، قال: «تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله على عهد رسول الله ﷺ أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٦٦) ، والبداية والنهاية لابن كير (١٠/ ٢٥٣) .وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (قلت: كان تاجرًا سعيدًا فُتِح عليه في التجارة وتموّل، حتّى إنّه باع مرَّةً أرضًا بأربعين ألف دينار فتصدَّق بها، وحمل على خمس مائة فرسٍ في سبيل الله، ثمّ على خمس مائة راحلة.) (٢/ ٢١٠).

(١) هو سَعْدُ بنُ الرَّبِيْعِ بنِ عَمْرِو بنِ أَبِي زُهَيْرٍ الأَنْصَارِيُّ، من شهداء غزوة أحد ـ انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣١٩) ومن فضائله ما أخرجه البخاري في " صحيحه" (٣٩٣٧) عن أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ المَدِينَةَ فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ، فَرَبِحَ شَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ، بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مَهْيَمْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ: «فَمَا سُقْتَ فِيهَا؟» فَقَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»

(٢) قَالَ سَعِيْدُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ: سَمِعَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رَجُلاً إِلَى جَنْبِهِ يَسْأَلُ اللهَ أَنْ يرزُقَهُ عَشْرَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ، فَانْصَرَفَ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ. قَالَ المَدَائِنِيُّ: أَحصَنَ الحَسَنُ تِسْعِيْنَ امْرَأَةً. عَنْ حَارِثَةَ، عَنْ عَلِيٍّ: أَنَّهُ خَطبَ، وَقَالَ: إِنَّ الحَسَنَ قَدْ جَمَعَ مَالاً، وَهُوَ يُرِيْدُ أَنْ يَقسِمَهُ بَينَكُم، فَحَضَرَ النَّاسُ، فَقَامَ الحَسَنُ، فَقَالَ: إِنَّمَا جَمَعتُهُ لِلْفُقَرَاءِ. فَقَامَ نِصْفُ النَّاسِ ينظر "سير أعلام النبلاء للذهبي " (٣/ ٢٦٠)

أجمعين، أتتهم الدنيا فبذلوها لله رب العلمين، وما والوا ولا عادوا من أجلها أبداً، بل كان ولاؤهم لله ورسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ الناسُ يوم القيامة فريقان:

فريقٌ مُنَعَّمٌ مُكَرَّمٌ، ينظر إلى وجه الله الكريم جلَّ جلاله، وهم المسلمون الموحدون.

وفريقٌ مُعَذَّبٌ، محجوبٌ عن رؤية الله تعالى، وهم الكفار والمشركون.

وأما المنافقون الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، فهؤلاء يرون الله تعالى

---

(١) هو عُرْوَة بن عَيَّاش ابْن أبي الْجَعْد الْبَارِقي اسْتَعْملهُ عمر على قَضَاء الْكُوفَة وَذَلِكَ قبل أَن يستقضي شريحاً قَالَ عَليّ بن الْمَدِينِيّ من قَالَ فِيهِ عُرْوَة بن الْجَعْد فقد أَخطَأ إِنَّمَا هُوَ عُرْوَة ابْن أبي الْجَعْد وَتُوفِّي هفي حُدُود السّبْعين وروى لَهُ الْجَمَاعَة ـ انظر " الوافي بالوفيات " للصفدي (١٩/ ٣٦٠). ومن فضائله ما أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٦٤٢) عَنْ عُرْوَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «أَعْطَاهُ دِينَارًا يَشْتَرِي لَهُ بِهِ شَاةً، فَاشْتَرَى لَهُ بِهِ شَاتَيْنِ، فَبَاعَ إِحْدَاهُمَا بِدِينَارٍ، وَجَاءَهُ بِدِينَارٍ وَشَاةٍ، فَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ فِي بَيْعِهِ، وَكَانَ لَوِ اشْتَرَى التُّرَابَ لَرَبِحَ فِيهِ»

(٢) **(حسن)** عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ – قَالَ الحَسَنُ بْنُ وَاقِعٍ: وَكَانَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِي، فِي كُمِّهِ – حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ مَرَّتَيْنِ» أخرجه الترمذي في "سننه" (٣٧٠١)، وأحمد في "مسنده" (٢٠٦٣٠)، وحسنه الألباني في "المشكاة " (٦٠٧٣)

أولاً مع المؤمنين، ثم يُحجبون عن رؤيته، فيكون هذا زيادةً في عذابهم.

الأدلة على رؤية الله تعالى يوم القيامة:

هذه المسألةُ العظيمةُ وهي رؤيةُ الله جلَّ جلاله يوم القيامة، مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، واستدلوا عليها بأدلةٍ من كتاب الله تعالى، وتواترت السنة عن رسول الله ﷺ بذلك [(١)].

من ذلك: قولُ الله تعالى في هذه الآية ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣**﴾ وعدَّى الفعل بإلى ليدل على أنها رؤيةٌ حقيقيةٌ لله ربِّ العالمين.[(٢)]

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٧٩): "وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها.... ثم قال: ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهداة الأنام"

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ في" شرح العقيدة الطحاوية" (ص ١٨٨): "وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن "

(٢) ينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٠٢)، و"اللباب في علوم الكتاب" (١٩/ ٥٦٣) لابن عادل الحنبلي.

قال في اللباب: "ودخول «إلى» مع النظر يدل على أنه نظر العين، وليس من الانتظار ولو كان من الانتظار لم تدخل معه «إلى»؛ ألا ترى أنك لا تقول: انتظرت إلى زيد، وتقول: نظرت إلى

ويقول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى.(١)

وقال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥] قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما حجب هؤلاء في السَّخَطِ دلَّ على أن أهل الإيمان يرونه في الرضا." (٢)

=زيد تعني نظر العين، ف «إلى» تصحب نظر العين، ولا تصحب نظر الانتظار، فمن قال: إن «ناظرة» بمعنى «منتظرة» فقد أخطأ في المعنى وفي الإعراب ووضع الكلام في غير موضعه."

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا: نظرته، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [الزخرف: ٦٦]، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: ٤٩]، وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقرونـًا بذكر» إلى «وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان».

(١) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " جامع البيان " (١٢/ ١٦٢): "الحسنى: هي الجنة، جعلها الله للمحسنين من خلقه جزاء، والزيادة عليها النظر إلى الله تعالى. (ورواه عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وعَامِرِ بْنِ سَعْدٍ وحُذَيْفَةَ وأبو إسحاق وأبو موسى الأشعري وابن أبي ليلى والحسن وقتادة وغيرهم)."

(٢) أخرجه البيهقي في "مناقب الشافعي" (١/ ٤١٤)، والثعلبي في "الكشف والبيان" (١٠/ ١٥٤)، والواحدي في "الوسيط" (٤/ ٤٤٦)، وذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٤٥٢)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القران" (٢٢م/ ١٤٦) وابن كثير في "تفسير القرآن

وفي صحيح مسلم عن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ "، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾"(١)

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: " مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا".(٢)

وعن جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى

=العظيم" (٨/ ٣٥١) وقال رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا الذي قاله الإمام الشافعي، رَحِمَهُ اللهُ، في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝**﴾. وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عزَّ وجلَّ في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنان الفاخرة."

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه" (١٨١)، والترمذي في " سننه"(٢٥٥٢)، والنسائي في " الكبرى " (١١١٧٠)، وابن ماجه في " سننه " (١٨٧).

(٢) **(متفق عليه)**، أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٥٨١)، ومسلم في "صحيحه " (١٨٣).

الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» - يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ -، ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**﴾ ".(١)

فمن الأسبابِ العظيمةِ لرؤية الله المواظبة على صلاة الفجر والعصر في جماعةٍ خاصةً، لأن المجاهدة فيهما أعظمُ، وحظ النفس في التكاسل عنهما أكبر، فمن جاهد نفسه لله، وذهب ليلبي نداءه سبحانه، وأكرمه الله بالإعانة والمدد، فهذا من أكبر أسباب رؤية الله تعالى.

وكذلك من أكبر الأسباب في رؤية العبد ربَّه أن يحفظ حديثًا عن رسول الله ﷺ، ويبلغه لإخوانه، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ» (٢)

وفي الصحيحين عَنْ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في" صحيحه "(٥٧٣)، ومسلم في " صحيحه "(٦٣٣).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في" سننه " (٣٦٦٠)، والترمذي في " سننه " (٢٦٥٦)، والنسائي في " السنن الكبرى " (٥٨١٦) وابن ماجه في " سننه "(٢٣٠)، وصححه الألباني في" السلسلة الصحيحة " (٢٣٠).

يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». (١)

وقال السادة العلماء: قَدْ رَوَى أَحَادِيثَ الرُّؤْيَةِ نَحْوُ ثَلَاثِينَ صَحَابِيًّا، فتواترت عند السلف والعلماء، ولذلك فالإيمان بها واجبٌ، ويحرم على العبد أن ينفيها، أو يؤولها. (٢)

وبعض أهل البدع يصرفون هذه النصوص عن ظاهرها والمراد منها، ويؤولونها، وهؤلاء حريٌّ بهم ألا يرون ربَّهم يوم القيامة إلا مَن أراد الله به خيراً منهم.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ وهي وجوهُ أهل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ يعني كالحةٌ كاسفةٌ عابسةٌ، متغيرة الألوان، تراها تسودُّ وتتغيرُ مِن شدةِ ما عاينت من الأهوال، والعياذ بالله. (٣)

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٨٧٨)، ومسلم في " صحيحه" (١٨٠).

(٢) قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ في " شرح العقيدة الطحاوية " (١/ ٢١٧): "وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا. ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا أني التزمت الاختصار لسقت ما في الباب من الأحاديث.

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء، وأنه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، وأنه يتجلى لعباده، وأنه يضحك، إلى غير ذلك من الصفات التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق." أهـ

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٣٢)، و"معاني القرآن" للفراء (٣/ ٢١٢)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٥٣)، و"تاج العروس" للزبيدي (١٠/ ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ أي توقن وتعلم، والفاقرةُ: الداهيةُ والأمرُ العظيمُ، يقال: فقَرَتْه الفاقرةُ: أي كسرت فقار ظهره، يعني مصيبةٌ عظيمةٌ، وداهيةٌ تكسِرُ فَقَارَ الظهر.

قال الله عزَّ وجل:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ ﴿كَلَّآ﴾ قال بعض أهل العلم: ردعٌ وزجرٌ، أي بعيدٌ أن يؤمنَ الكافرُ بيوم القيامة.

وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ معناه حقـًا، أي حقـًا أن المساق إلى الله.

ثم استأنف فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ أي إذا ارتقت النفسُ إلى التراقي، والتراقي: جمعُ ترقوةٍ، وهي العظام المكتنفة لنقرة النحر، وهو مقدَّمُ الحلقِ مِن أعلى الصدر، موضع الحشرجة.

يعني: إذا بلغت نفسُ المؤمن روحَه، وبَلَغَتْ الروحُ الحلقومَ.

فالمعنى: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّهُمْ لَا يُعَاقَبُونَ عَلَى

شِرْكِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ رَبَّهُمْ بَلْ إِذَا بَلَغَتْ نَفْسُ أَحَدِهِمُ التَّرَاقِيَ عِنْدَ مَمَاتِهِ وَحَشْرَجَ بِهَا.(١)

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ۝٢٧﴾ أظهر عاصمٌ وقومٌ النونَ في قوله تعالى: ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾، والأكثر على ترك الإظهار.(٢)

اختُلف في معنى ﴿رَاقٍ﴾ هذه(٣):

١ - فقيل: مِن الرقية، أي قال من حوله: هل من طبيبٍ يرقيه؟ أي حالةَ اشتداد الأمر عليه رجاءً لشفائه أو استبعاداً بأنه لا ينفعه.

٢ - وقيل: من الرُّقِيِّ، أي تقول الملائكة: من الذي سَيَرْقَى بروحه، أملائكةُ العذابِ أم ملائكةُ الرحمةِ؟(٤)

وكأن الملائكة لا تريد أن تصعد بها لأنها نفسٌ خبيثةٌ، قال الله تعالي عنهم: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ۝٤٠﴾** [الأعراف: ٤٠]

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ۝٢٨﴾ أي تيقن الإنسان أن هذا فراق الحياة الدنيا

---

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥١٢).

(٢) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٣٣)، و"السبعة في القراءات" لابن مجاهد (١١٦)، و"الحجة في القراءات السبع" لابن خالويه (٣٥٧)، وحجة القراءات" لابن زنجلة (٧٣٧).

(٣) ينظر "تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" لعطية سالم (٨/ ٣٧٥).

(٤) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥١٤) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما وأبي قلابة، وينظر "النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٥٨)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٦).

والأهل والمال والولد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ۝٢٩﴾ فيها أقوال:

الأول: التَفَّت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب، أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى.

الثاني: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوالاً، يعني أن الحياة قد انتهت.[١]

الثالث: أي اجتمعت شدة الحياة الدنيا بشدة الآخرة على هذا الكافر[٢]، ولعله الأظهر.

وهنيئًا لمن خرج من الدنيا بالإيمان، فإن الله تعالى يُكرمه، وإن قدَّر عليه شيئًا من سكرات الموت وشدته فإنه يطهره بها من الذنوب، أو يرفعه بها الدرجات، فإنه لا كرب على المؤمن بعد الموت بإذن الله عزَّ وجلَّ، فإنه يُكرَمُ ويُنَعَّمُ ويَتَفَضَّلُ الربُّ عليه بكراماتٍ لا حصره لها.

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥١٩) عن الشعبي وأبي مالك والحسن وقتادة، وينظر "النكت والعيون" للماوردي، و"معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٢٨٦)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٥٢٢).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥١٥) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ومجاهد، والحسن، والضحاك، والربيع، وعطية، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن زيدٍ، وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٥٢٠)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٨٢)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٨١).

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ۝٣٠﴾ أي المرجع، وهذا حال جميع الخلق، فمن كان محسناً يرضى الله عنه، ويباهي به عباده، ومن كان ظالماً كافراً منافقاً مرائياً، يسخط الله عليه، ويريه ألوان العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ۝٣٣﴾ هذا إخبارٌ عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ۝٣٣﴾ أي: جذِلاً أشراً بطِراً كسلاناً، لا همة له ولا عمل، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ۝٣١﴾ [المطففين:٣٤]، وقال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ۝١٤﴾ [الانشقاق: ١٣-١٤] أي: يرجع.

وقيل: نزلت في أبي جهل[1]، لا صدَّقَ الرسولَ ﷺ، ولا صلى لله، ولا انقاد بقلبه، ولا بجوارحه، بل كذَّب بقلبه وبلسانه، وتولى بجوارحه، ثم ترفَّع واختال، فجمع بين شرِّ الأوصاف.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ۝٣٥﴾ أي: وليُّك الويلُ، وأصله أولاك الله ما تكرهه، واللام مزيدة، والتكرير للتأكيد، أي: يتكرر عليك ذلك

---

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٢٣)، و"تفسير ابن أبي حاتم" (١٩٠٦٩)، و"الدر المنثور" للسيوطي (١٥/ ١٣٩)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٠٦).

مرةً بعد مرةٍ.(١)

وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِ بِهِ الْمُتَبَخْتِرِ فِي مِشْيَتِهِ، أَيْ: يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَمْشِيَ هَكَذَا وَقَدْ كَفَرْتَ بِخَالِقِكَ وبارئك، كما يقال فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالتَّهْدِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وكقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.(٢)

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "تهديدٌ بعد تهديد، ووعيدٌ بعد وعيد، أي: فهو وعيدُ أربعةٍ لأربعةٍ، كما روي أنها نزلت في أبي جهلٍ الجاهلِ بربه، فقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي لا صدق رسول الله، ولا وقف بين يديَّ فصلى، ولكن كذَّب رسولي، وتولى عن الصلاة بين يدي.

فتركُ التصديقِ خِصلةٌ، والتكذيبُ خصلةٌ، وتركُ الصلاةِ خِصلةٌ، والتولي عن الله تعالى خِصلةٌ، فجاء الوعيدُ أربعةً مقابلةً لترك الخصال الأربعة."أهـ(٣)

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أَيَظُنُّ هَذَا الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ بِاللهِ أَنْ يُتْرَكَ هَمَلًا، أَنْ لَا يُؤْمَرَ وَلَا يُنْهَى، وَلَا يَتَعَبَّدَ بِعِبَادَةٍ، هذا ينافي حكمةَ الله عزَّ

---

(١) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤١١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٠٦)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٧).

(٢) ينظر " تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٨٢)، و"روح المعاني " للألوسي (٢٨/ ١١٩).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٣٨).

وجلَّ، وقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ ألم يك هذا المنكر قدرة اللّه على إحيائه من بعد مماته، وإيجاده من بعد فنائه ﴿نُطْفَةً﴾ يَعْنِي: مَاءً قَلِيلًا فِي صُلْبِ الرَّجُلِ، ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ يعني يُراق هذا المنيُّ في رحم المرأة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ يعني ثمّ كان دمًا من بعد ما كان نطفةً، ثمّ علقةً، ثمّ سوّاه بشرًا سويًّا، ناطقًا سميعًا بصيرًا.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ فالله سبحانه يُذَكِّرُ العبدَ بالأطوار التي مرَّ بها، ثم يقول:

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أليس الّذي فعل ذلك فخلق هذا الإنسان من نطفةٍ، ثمّ علقةٍ حتّى صيّره إنسانًا سويًّا، له أولادٌ ذكورٌ وإناثٌ، بقادرٍ على أن يحيي الموتى من مماتهم، فيوجدهم كما كانوا من قبل مماتهم. يقول: معلومٌ أنّ الّذي قدر على خلق الإنسان من نطفةٍ من منيٍّ يمنى، حتّى صيّره بشرًا سويًّا، لا يعجزه إحياء ميّتٍ من بعد مماته.[١]

حكم قول الإنسان: (بلى) بعد قراءتها في الصلاة:

---

(١) ينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٢٨)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٨٣)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٤٢)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٨١).

روى الإمام أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ بسندٍ صحيحٍ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قَالَ: سُبْحَانَكَ، فَبَلى، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قَالَ أَحْمَدُ: يُعْجِبُنِي فِي الْفَرِيضَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ.(١)

وروى أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ- أيضـًا- عن إِسمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ فَانْتَهَى إِلَى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللهِ قَالَ إِسمَاعِيلُ: ذَهَبْتُ أُعِيدُ عَلَى الرَّجُلِ الأَعْرَابِيِّ وَأَنْظُرُ لَعَلَّهُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَتَظُنُّ أَنِّي لَمْ أَحْفَظْهُ لَقَدْ حَجَجْتُ سِتِّينَ حَجَّةً مَا مِنْهَا حَجَّةٌ إِلاَّ وَأَنَا أَعْرِفُ الْبَعِيرَ الَّذِي حَجَجْتُ عَلَيْهِ." (٢)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في " تفسيره " (٣/ ٣٧٠)، وأبو داود في " سننه " (٨٨٤)، البيهقي في "السنن الكبرى" (٣٦٩٢)، وصححه الألباني في " صحيح سنن أبي داود"(٨٨٤).

(٢) **(صح موقوفـًا)** أخرجه أبو داود في " سننه " (٨٨٧)، والترمذي في "سننه " (٣٣٤٧)، وقال هَذَا حَدِيثٌ إِنَّمَا يُرْوَى بِهَذَا الإِسْنَادِ عَنْ هَذَا الأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلاَ يُسَمَّى، وأحمد في " مسنده" (٧٣٩١) والحاكم في " مستدركه" (٣٨٨٢) وصححه ووافقه الذهبي، والحديث (لا يصح مرفوعـًا)، قال أبو زرعة الصَّحيحُ: إسماعيلُ بن أميَّة، عن عبد الرحمن بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ

وأيضـاً روى الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسنادٍ حسنٍ عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: «سُبْحَانَكَ وَبَلَى» (١)

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ ذَلِكَ قَالَ: «بَلَى». (٢)

فهذا من باب التعايشِ مع القرآن الكريم، حتى لا يقرأ الإنسانُ الآياتِ ولا يُمِرُّها على قلبه، بل واجبٌ على العبد أن ينتفع بكتاب الله إذا قرأه، وأن يتفاعل يتعايش معه، ويستحضر أن الله يحدثه به. (٣)

=أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، موقوفـاً. وينظر "علل ابن أبي حاتم الرازي" (٤/ ٧١٧)، وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (٥٧٨٤) مرفوعـاً.

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٢٨)، وحسنه الشيخ مصطفى العدوي في " التسهيل لتأويل التنزيل " ـ تفسير جزء تبارك ـ ص (٣٧٠).

(٢) ينظر" جامع البيان " (٢٣/ ٥٢٨)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٨٤)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٢/ ٥٢٩)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٧)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٠٧).

(٣) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "المجموع شرح المهذب" (٢/ ١٦٨): "إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استحب أن يقول بلى وأنا على ذلك من الشاهدين."

وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الشرح الممتع" (٣/ ٢٩٠): "مسألة: لو قرأ القارئ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فهذه ليست آية وعيد ولا آية رحمة فله أن يقول: بلى، أو «سبحانك فبلى»، لأنه ورد في حديث عن النبي ﷺ ونص الإمام أحمد عليه، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا

وصلى الله وسلم على محمدٍ وآله وصحبه أجمعين

تم الانتهاء من تفسير سورة القيامة بحمد الله وتوفيقه.

*****

=قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في الصلاة وغير الصلاة، قال: سبحانك فبلى، في فرض ونفل."

وقال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " فتاوى نور على الدرب " (١١/ ٣٣٥): "كذلك الآية الكريمة آخر القيامة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، هذا ورد فيه حديث صحيح، فإذا قال: بلى. فلا بأس؛ لأنه حديث صحيح في آخر القيامة يقول ذلك"

﴿ سُورَةُ الإِنسَانِ ﴾

هي مدنيةٌ، وآياتها إحدى وثلاثون، نزلت بعد سورة الرحمن.

مناسبتها لما قبلها:

أنه ذكر في السورةِ السابقةِ الأهوالَ التي يلقاها الفجار يوم القيامة، وذكر في هذه السورة ما يلقاه الأبرار من النعيم المقيم فى تلك الدار.(١)

فضل سورة الإنسان:

ثبت في صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة ﵁، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ». (٢)

وورد حديثٌ ضعيفٌ عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قرأ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً حتى جاء إلى ذكر صفة الجنة، وكان عنده عبدٌ أسودُ فشهِق شهقةً وخرجت روحُه، فقال النبي ﷺ أَخْرَجَ نفسَ صاحبكم أو أخيكم الشوقُ إلى الجنة.(٣)

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٥٩).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٨٩١)، ومسلم في "صحيحه"(٨٧٩).

(٣) **(ضعيف)** أخرجه الطبراني في "الكبير"(١٣٥٩٥)، و "الأوسط" (١٥٨١)، والمنذري في "الترغيب والترهيب"(٥٤٥٠)، وأبو نعيم في "الحلية"(٤٢٩٧)، وأخرجه في "معرفة الصحابة"(٩٢١)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٦٩٣٦)، كلهم من طريق أيوب بن عتبة،

قال الله تعالى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا

=عن عطاء، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ يسأله فقال النبي ﷺ: «سل، واستفهم» ، فقال: يا رسول الله فضلتم علينا بالصور، والألوان، والنبوة؛ أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به، وعملت مثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنة؟ قال: «نعم» ، ثم قال النبي ﷺ فضلتم علينا بالصور، والألوان، والنبوة؛ أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به، وعلمت مثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنة؟ قال: «نعم» ، ثم قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام» ثم قال رسول الله ﷺ: " من قال: لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله، وبحمده كتبت له مائة ألف حسنة، وأربعة وعشرون ألف حسنة "، فقال رجل: كيف يهلك بعد هذا يا رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل، ولو وضع على جبل لا تقله فتقوم النعمة من نعم الله فيكاد أن يستنفد ذلك كله إلا أن يتطاول الله برحمته» ، ونزلت هذه السورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: ١] إلى قوله: ﴿وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠﴾ [الإنسان: ٢٠] ، قال الحبشي: وإن عيني لتريان ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» فاستبكى حتى فاضت نفسه قال ابن عمر رضي الله عنهما: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده» قال الطبراني رحمه الله: "لم يرو هذا الحديث عن عطاء إلا أيوب، تفرد به عفيف، ولا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد"، وقال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره"(٢/ ٣٥٧): "فِيهِ غَرَابَةٌ وَنَكَارَةٌ، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ."

﴿شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا۝١﴾

﴿هَلْ﴾ هنا تقريريةٌ بمعني قد(١)، يعني قد جاء على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً.

وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أن المراد بهذه الآية هو آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٢)، جاء عليه وقتٌ لم يكن شيئًا يُذكر، ولم يكن له قَدْرٌ قبل أن يخلقه الله عزَّ وجلَّ، ولمَّا خلقه شرَّفَه وفَضَّله وكرَّمه على سائر الخلق.

وذهب آخرون إلى أن المراد به عمومُ الإنسان قبل خلقه، كان نطفةً، ثم علقةً،

---

(١) ينظر "جامع البيان للطبري" (٢٣/ ٥٢٩)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٦١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢٣/ ٥٢٩).

وقد نقل الفخر الرازي في "التفسير الكبير"(٣٠/ ٢٠٨) " أن "هل" في هذا الموضع بمعنى "قد" اتفاقا، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتفقوا على أن هَل ههنا في هذا الموضع بمعنى وفي قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ۝١﴾ [الغاشية: ١] بمعنى قد كما تقول هل رأيت صنيع فلان وقد علمت أنه قد رآه وتقول هل وعظتك هل أعطيتك ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، وقد تجيء بمعنى الجحد تقول وهل يقدر أحد على مثل هذا." أهـ

(٢) قاله قتادة والسدي وعكرمة والثوري، وقيل: إنه كل إنسانٍ، قاله ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن جريج.

يُنظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١١٩)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٠٨)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/ ٦٦٦)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٨٦)، و"مفاتح الغيب" للرازي (٣٠/ ٢٠٨)، و"أضواء البيان" للشنقيطي (٨/ ٣٧٨).

ثم مضغةً، لا قيمة له، قبل أن يُنفخ فيه الروح، ثم بعد نفخ الروح صار إنسانـًا مُكَرَّمـًا.

وقوله ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ ورد عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه مرَّ عليه أربعون سنةً قبل أن يُنفخ فيه الروح.

وورد عنه أنه خُلِق مِن طينٍ فأقام أربعين سنةً، ثم مِن حَمَأٍ مسنونٍ أربعين سنةً، ثم مِن صَلْصَالٍ أربعين سنةً، فتمَّ خلقُه بعد مائةٍ وعشرين سنةً، ثم نُفِخَ فيه الروحُ.(١)

وقيل: أقام وهو من ترابٍ أربعين سنةً، فتمَّ خلقُه بعد مائةٍ وستين سنةً، ثم نُفخ فيه الروح.(٢)

لكن هذه الأقوال لا يصحُّ منها شيءٌ عن النبي ﷺ.

وقفةٌ: وينبغي على العبد أن يُذَكِّرَ نفسَه بهذه الآية، ويستحضرَ عظمةَ الله جلَّ جلالُه، ويستحضر أنه مرَّ عليه زمانٌ طويلٌ لم يَكُن فيه شيءٌ يُذكر، فليتذكر العالمُ الجليلُ، والمهندسُ البارعُ، والطبيبُ الفذُّ، والتاجرُ الثريُّ، والمحامي الذكيُّ، أنه أتى

---

(١) قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في "النكت والعيون"(٦/ ١٦٢): "وفي قوله تعالى: ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ ثلاثة أقاويل: **أحدها:** أنه أربعون سنة مرت قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف قاله ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في رواية أبي صالح عنه. **الثاني:** أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وهذا قول ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في رواية الضحاك. **الثالث:** أن الحين المذكور ها هنا وقت غير مقدر وزمان غير محدود قاله ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضـًا."

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الجامع لأحكام القرآن" (١٩/ ١١٩): "وزاد ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة، ثم نفخ فيه الروح."

عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئـًا مذكوراً، فلا يفخر ابنُ آدم، ولا يتعالى.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾**﴾ والمراد بالإنسان هنا ذرية آدم[١]، واستُثني من ذلك آدمُ وحواءُ، لأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ من طينٍ صلصالٍ كالفخارِ، أما بنو آدم فخلقهم الله جلَّ جلالُه من ﴿**نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**﴾ يعني أخلاطٍ، من ماء الرجل وماء المرأة[٢]،

وفي الصحيحين من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله ﷺ أن يهوديـًا جاء إلى النبي ﷺ فسأله عن أمورٍ، إلى أن «قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ. قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟ قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ». قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) نقل ابن عطية في "المحرر الوجيز"(٥/ ٤٠٨) الاتفاق على ذلك فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإِنْسان هو هنا اسم الجنس بلا خلاف." وكذلك الماوردي في " النكت والعيون"(٦/ ١٦٢)، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٩/ ١٢٠)، وعطية سالم في "تتمة أضواء البيان"(٨/ ٣٧٨).

(٢) ينظر "لسان العرب"(٢/ ٣٦٧)، و"تهذيب اللغة"(١٠/ ٢٩٢)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٦٢،١٦٣)، و"جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٣١)، و"المحرر الوجيز لابن عطية"(٥/ ٤٠٨)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٢٠).

«لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ».[(١)]

وقوله: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ يعني نختبره، أي يختبره الله بصنوفٍ مِن أنواعِ الاختبارات، فأحيانًا بالمِحَن، وأحيانًا يُسَلِّطُ عليه ظالمًا، وأحيانًا بفقدِ عزيزٍ، أو خسارةٍ في مال الإنسان، أو غلبةِ الدَّين، أو جارٍ مُسيءٍ، أو زوجةٍ سيئةِ الخُلُقِ، أو زوجٍ ظالمٍ لزوجتِه، أو غير ذلك مما يُقَدِّره الله تعالى من أنواع الابتلاءات والهموم والأحزان.

والمعنى: تذكر يا ابن آدم دائمًا أنك خُلِقتَ للاختبار، فما خُلِقْتَ لتحيا كما تريد، وما خُلِقتَ لتأكلَ وتشربَ وتمرحَ وتفعلَ ما تشاءُ في هذا الكون، وإنما خلقنا الله جلَّ جلالُه للاختبار، فمن فاز فيه أفلح، ومن لم يفُز فيه خسِر الخسارة العظيمة.

ثم أخبر أنه صحح آلته لمعرفة الله ﴿**فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا**﴾ فجعله سميعًا بصيراً، وجعل له إرادةً، وعلمًا وعزمًا، وجعل له يدين ورجلين، وصحَّحَ له بدنَه حتى يُمَكِّنَه مِن عبادةِ ربِّه عزَّ وجل.

أي لا عذر له، فهو سميعٌ يسمع كلام الله، ويسمع كلام الرسول ﷺ، وهو بصيرٌ يبصر الحق، ويهتدي إلى طريق الهدي.

ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا**③﴾ المرادُ بالسبيل هنا سبيلُ الهدى والرشاد، والغي والفساد، وعلى ذلك أكثرُ أهلِ العلم، بل تكاد تكون

---

(١) **(متفق عليه)** أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٩٣٨)، من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في "صحيحه" (٣١٥) واللفظ له، من حديث ثوبان رضي الله عنه، به.

كلمتُهم متفقةً على ذلك، أَيْ: بَيَّنَّا لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ.(١)

والْهِدَايَةُ هُنَا بِمَعْنَى الْبَيَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧]

وَفِيهِ بَيَانُ انْقِسَامِ الْإِنْسَانِ إِلَى قِسْمَيْنِ: شَاكِرٌ مُعْتَرِفٌ بِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، مُقَابِلٌ لَهَا بِالشُّكْرِ، أَوْ كَافِرٌ جَاحِدٌ.(٢)

فالمعنى: بَصَّرك الله يا ابن آدم بطريق الهدى والحق، وبَصَّرك بطريق الباطل، وعَرَّفك الحلال والحرام، وعَرَّفك طريق النور وطريق الظلام، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، فطريقُ الهدى آخره السعادةُ والفلاحُ والفوزُ، وطريقُ الشَّرِّ آخره الندامةُ والحسرةُ والعذابُ الأليمُ.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ هذا من أعظم نعم الله على العبد أن هداه للإسلام، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يجعل صدرَه منشرحـًا للتكاليف الشرعية ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسير القرآن العظيم"(٨/ ٢٨٦): "وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد -في المشهور عنه-والجمهور، وروي عن مجاهد، وأبي صالح، والضحاك، والسدي أنهم قالوا في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ يعني خروجه من الرحم. وهذا قول غريب، والصحيح المشهور الأول. أهـ

(٢) ينظر " تتمة أضواء البيان " لعطية سالم (٨/ ٣٧٩).

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] يعنى يقوم ليصلي كأنه يساق إلى جهنم والعياذ بالله، وينفق النفقة وهو كاره، يتهيأ له الحج وأسبابه، وهو رافضٌ له، لأن الله ضيَّقَ صدرَه، وما شاء له الهدى.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ كما قال النبي ﷺ " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا"(١)، فالناسُ جميعاً ينتشرون في الصباح، فمنهم من يذهب الى طاعة الله، وإلى العمل الحلال حتى يكتسب به ما يكفي به نفسه وأهله، وينفق على أحبابه وأقرباءه، ومنهم من يتفنن في صنوف الغِشِّ والحِيَلِ، وبعضهم يذهب فيسعى في أذية المسلمين.

وصح من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة رضي الله عنه: «أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ» ، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟، قَالَ: " أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي. يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ - أَوْ قَالَ: بُرْهَانٌ - يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ النَّارُ، أَوْلَى بِهِ. يَا كَعْبُ

(١) **(صحيح)** أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٢٣)، والترمذي في "سننه"(٣٥١٧)، وابن ماجة في "سننه"(٢٨٠)، وأحمد في "مسنده"(٢٢٩٠٢) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، به.

بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا". (١)

أي يشترى المسلمُ نفسَه في الدنيا، كما قال الرسول ﷺ: "الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ"(٢) فالمؤمن مُقَيَّدٌ في الدنيا، له نظرٌ وسمعٌ، ولكنه ممنوعٌ أن ينظر إلى النساء، أو يسمع أيَّ كلامٍ حرامٍ، ولا يُفَكُّ عنه هذا القيدُ إلا مع أول قدمٍ في الجنة، كما قيل

(١) **(صحيح لغيره)** أخرجه أحمد في "مسنده" (١٤٤٤١)، واللفظ له، وعبد الرزاق في "مصنفه" (٢١٦٤٣ـ ٢٠٧١٩)، والدارمي في "سننه"(٢٨١٨) مختصرا، وابن حبان في "صحيحه" (١٧٢٣) والحاكم في "المستدرك" (٨٥٢٢)، وعبد بن حميد في "مسنده" (١١٣٨)، وأبو يعلي في "مسنده" (١٩٩٩)، ومعمر بن راشد في "جامعه" (٢٠٧١٩)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب الترهيب" (٢٢٤٢).

(٢) **(صحيح)** أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٩٥٦)، والترمذي في "سننه"(٢٣٢٤) وابن ماجة في "سننه"(٤١١٣)، وأحمد في "مسنده"(٨٢٨٩)، وابن حبان في "صحيحه"(٦٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، به.

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ في "إكمال المعلم"(٨/ ٥١١): "قوله " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ": معناه: أنّ المؤمن مدة بقائه فيها، وعلمه بما أُعد له فى الآخرة من النعيم الدائم والبشر، أنه عند موته وعرضه عليه، فحبسه عنه فى الحياة الدنيا، وتكليفه ما ألزمه، ومنعه مما حرّم عليه من شهواته كالمسجون المحبوس عن لذاته ومحابه، حتى إذا فاء فارقها واستراح من نصبها وأنكادها، خرج إلى ما أُعدّ له واتسعت آماله، وقضى ما شاء من شهواته. والكافر إنما له من ذلك ما فى الدنيا على قلته وتكديره بالشوائب، وتنكيده بالعوائق، حتى إذا فارق ذلك صار إلى سجن الجحيم، وعذاب النار، وشقاء الأبد."

للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "يا إمام متى الراحة؟ قال: مع أول قدمٍ تضعها في الجنة".[(١)]

وهناك حديثٌ عظيمٌ ثابتٌ في مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ - يَعْنِي مِنْ بَيْتِهِ - إِلَّا بِبَابِهِ رَايَتَانِ: رَايَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ، وَرَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ، فَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، اتَّبَعَهُ الْمَلَكُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الْمَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُسْخِطُ اللهَ، اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ".[(٢)]

فلينظر العبدُ إلى ما يخرج به كل يومٍ، أَمَلَكٌ أم شيطانٌ؟ فإن خرج بما يحب الله أتبعه المَلَكُ برايته، فلم يزل تحت راية المَلَكِ حتى يرجع إلى بيته، ﴿**لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ**

---

(١) أخرجه ابن أبي يعلى في "طبقات الحنابلة" (١/ ٢٩٣) عن مُحَمَّد بْن حسنويه صاحب الأدم قَالَ: حضرت أبا عبد الله أَحْمَد بن حنبل وجاءه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عَبْد اللهِ قصدتك من خراسان أسألك عَنْ مسألة قَالَ: له سل قَالَ: متى يجد العبد طعم الراحة قَالَ: عند أول قدم يضعها فِي الجنة.

وفي "الزهد " لهناد بن السري (٥٨) بسنده إلى أبي الدهماء قال: كان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأخذ بلحيته ويقول: " برح الله اللحى متى الراحة منها قال: فقيل متى الراحة منها؟ قال: إذا دخلنا الجنة "

وأخرجه أبو نعيم في "الحلية"(١٠/ ١٣٢)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦/ ١٣)، وعزاه المناوي في "فيض القدير" (٢/ ٥٦٣) بنحوه عن بعض الزهاد.

(٢) **(حسن)** أخرجه أحمد في "مسنده"(٨٢٨٦)، والطبراني في "الأوسط"(٤٧٨٦)، والبيهقي في "الزهد الكبير"(٧٠٥) وحسنه الأرناؤوط في "مسند أحمد" (٨٢٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، به.

بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١]، وإن خرج فيما يسخط الله، اتَّبَعَه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع الي بيته.

قال الله عزَّ وجل:

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴿٤﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴿١٢﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴿٤﴾﴾ أي: إنا هَيَّأْنا وأرصَدْنا لمن كفر بالله، وكذَّب رسلَه، وتجرَّأ على المعاصي ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٢].

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾ تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

﴿وَسَعِيرًا﴾ أي: ناراً تستعر بها أجسامُهم وتُحرق بها أبدانُهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ

﴿ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا٥٦﴾ [النساء: ٥٦] وهذا العذاب دائم لهم أبداً، مخلدون فيه سرمداً.(١)

جزاءً وفاقاً لهم على كفرهم وعنادهم، فربُّنا لا يظلم أحداً، ولا يظلم مثقال ذرةٍ، فهم يستحقون ذلك، ولو قُدِّرَ لأحدهم وعاش ألف عامٍ فلن ينجيه ذلك من عذاب الله، كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ٩٦﴾ [البقرة: ٩٦]

وعنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا٦﴾ وهذا من جمال القرآن وعظمته أنه إذا ذَكَرَ الكفار والفجار، يعقب بذكر الأخيار، حتى يكون الطريقان واضحين فيتبين العبد ويختار، ويسلك الطريق على بينةٍ وبصيرةٍ.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ الأبرار جمع برّ، والبرُّ: كثير الخير والإحسان في عبادة الله، وإلى

---

(١) ينظر "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي (ص: ٩٠١).

(٢) **(صحيح)** أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٨٤٢)، والترمذي في "السنن"(٢٥٧٣)، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٣٥٢٥٤)، والطبراني في "الكبير"(١٠٤٢٨)، والحاكم في "المستدرك" (٨٩٨٤) من حديث عبد الله بن مسعود ﵁، به.

عباد الله.

وسُمُّوا أبراراً، لأنهم برَّتْ قلوبُهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرَّتْ جوارحُهم.

و﴿**مِزَاجُهَا**﴾ يعني خليطها، ﴿**كَافُورًا**﴾ أي: شرابٌ لذيذٌ من خمرٍ قد مُزِج بكافورٍ، أي: خُلِط به ليُبَرِّدَه ويكسرَ حِدَّتَه، وهذا الكافور في غاية اللذة، قد سَلِمَ مِن كُلِّ مُكَدِّرٍ ومُنَغِّصٍ موجودٍ في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تُعدم في الآخرة.(١)

وقال بعض العلماء: يعني الكافور الذي له رائحةٌ طيبةٌ، وهو قول مقاتلٍ ومجاهدٍ -رحمهما الله-.(٢)

وعلى هذا له معنيان:

أحدهما: أن يمازجه ريحُ الكافور، فيكون طيبَ الريح.

والآخر: أن يمازجه عينُ الكافور، ولا يكون في ذلك ضررٌ لأهل الجنة، لا يمسُّهم الضررُ فيما يأكلون ويشربون.

---

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (٩٠١).

(٢) قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في "معالم التنزيل" (٨/ ٢٩٣): "وقال أهل المعاني: أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده، لأن الكافور لا يشرب، وهو كقوله: "حتى إذا جعله نارا" أي كنار. وهذا معنى قول قتادة ومجاهد: يمازجه ريح الكافور. وقال ابن كيسان: طيبت بالكافور والمسك والزنجبيل."

وقال مقاتلٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس ككافور الدنيا؛ ولكن الله سمى ما عنده بما عندكم حتى يهدي له القلوب."(١)

ويضاف إلى ذلك الزنجبيل، فالزنجبيل حارٌّ، والكافور باردٌ، ولا يشبه لا كافور الدنيا ولا زنجبيل الدنيا وما هي إلا أسماء، وإنما ذلك غايةٌ في اللذة والجمال، أعده الله تعالى لعباده وأوليائه الكرام.

وقال بعض السادة العلماء: برد الكافور في طيب الزنجبيل؛ ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا۝٦﴾ أي: هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عينٌ يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزجٍ ويروون بها.(٢)

وهذا يدلك على تفاوت أهل الجنة في الجنة، وأنهم درجاتٌ، كيف لا وإن أدناهم وأقلَّهم من له مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا عشرَ مراتٍ.

فربنا تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا۝٥﴾، أي خليط يُخلط لهم ولكن هذه ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا۝٦﴾، يعني المقربون، وهذا يدل على تفاوت أهل الجنة، ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ۝٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦]، فذكر هاتين الجنتين، ثم ذكر

---

(١) ينظر " التفسير البسيط" للواحدي (٢٣/ ٢٣).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٨٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٥٥).

بعدهما ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] فتجد أن نعيم الجنتين الأوليين، أعلى من نعيم الجنتين الأخريين.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ».(١)

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يعني تنبع بإذن الله مع ولي الله حيث شاء، في قصوره، في داره، في محله الذي هو فيه، في بساتينه، في أيِّ مكانٍ يكون.(٢)

ثم قال الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ وصف الله عباده الصالحين بصفاتٍ، منها:

- أنهم يوفون بالنذر، وما أجمل ما قاله أحدُ السادة العلماء من أهل التفسير، قال: أي بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٥٦)، ومسلم في "صحيحه" (٢٨٣١).

(٢) قال القرطبي رحمه الله في "الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٤٥٦): "فيقال: إن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره."

الأصلية، من باب أولى وأحرى.(١)

ومما ورد في النذر ما ثبت في الصحيحين عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لاَ يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ»"(٢)

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ»(٣)

وعنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ».(٤)

يعني إذا نذر الإنسان نذراً، ثم شق عليه هذا النذر، فيكفر كفارة يمين، مثل إنسانٍ نذر أن يصوم الاثنين والخميس طول العمر، وكبر في السن، فيكفر كفارة يمين إن لم يستطع.

- ومنها: الخوف من يوم القيامة، قال جلَّ جلاله: ﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧**﴾ فاشياً منتشراً، وهذا كلام ابن عباس رضي الله عنه، قال "شره استطار

---

(١) ينظر " تيسير الكريم الرحمن " للسعدي (٩٠١).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٦٠٨)، ومسلم في "صحيحه" (١٦٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٦٩٦)، وأبو داود في "سننه" (٣٢٨٩)، والترمذي في "سننه" (١٥٢٦)، والنسائي في "المجتبى" (٣٨٠٦)، وابن ماجه في "سننه" (٢١٢٦).

(٤) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٢٩٠)، والترمذي في "سننه" (١٥٢٤)، والنسائي في "المجتبى" (٣٨٣٤)، وابن ماجه في "سننه" (٢١٢٥)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (٢٥٩٠).

فاشيا"[(١)].

وكان قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: "اسْتَطَارُوا اللهَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى مَلأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ."[(٢)]

ووالله إذا كان هذا نصب عين الإنسان دائمـًا، فلن يظلم، ولن يقتل، ولن يسرق، ولن يحرم إخوته من الميراث، ولن يضيع حق الله.

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»[(٣)]

قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧﴾

– من صفات الأبرار الأخيار، الذين ينالون الجنان عند الرحمن، أنهم يُطعمون الطعام على حُبِّهِ أي على حُبِّ الطعام وهم يشتهونه، فيطعمونه غيرَهم لله ربِّ العالمين، وهذا قول أكثر أهل التفسير.[(٤)]

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٥٤٢)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٣١)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٦٦).

(٢) أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٥٤٢) عَنْ قَتَادَةَ.

(٣) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٤٥٠)، والحاكم في "المستدرك" (٧٨٥١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٨٥٥)، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب " (٣٣٧٧).

(٤) قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير كما في "جامع البيان " (٢٣/ ٥٤٣)، وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في "زاد المسير" (٨/ ٤٢٣): "وهذا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد، والزجاج، والجمهور."

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ». (١)

وكان بعض إخواننا الكرام يتفنن في إدخال السرور على الفقراء، فيشتري لهم أطيب الحلويات والجاتوهات والفواكه التي لا يمكنهم شراؤها، ويتصدق بها عليهم.

وهذا كان حال سلفنا الصالح، فعَنْ نَافِعٍ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، اشْتَهَى عِنَبًا وَهُوَ مَرِيضٌ فَاشْتَرَيْتُ لَهُ عُنْقُودًا بِدِرْهَمٍ فَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي يَدِهِ، فَجَاءَ سَائِلٌ فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فَسَأَلَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: ادْفَعْهُ إِلَيْهِ قَالَ: قُلْتُ: كُلْ مِنْهُ ذُقْهُ قَالَ: لَا، ادْفَعْهُ إِلَيْهِ قَالَ: فَدَفَعْتُهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ اشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ بِدِرْهَمٍ، فَجِئْتُ بِهِ إِلَيْهِ فَوَضَعْتُهُ فِي يَدِهِ، فَعَادَ السَّائِلُ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: ادْفَعْهُ إِلَيْهِ، قُلْتُ ذُقْهُ كُلْ مِنْهُ قَالَ: ادْفَعْهُ إِلَيْهِ قَالَ: فَدَفَعْتُهُ إِلَيْهِ ثُمَّ، اشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ بِدِرْهَمٍ فَجِئْتُ بِهِ إِلَيْهِ فَوَضَعْتُهُ فِي يَدِهِ فَعَادَ السَّائِلُ، فَقَالَ لِي: ادْفَعْهُ إِلَيْهِ قَالَ: قُلْتُ: كُلْ مِنْهُ ذُقْهُ قَالَ: ادْفَعْهُ إِلَيْهِ قَالَ: فَدَفَعْتُهُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: وَيْحَكَ مَا تَسْتَحِي فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ وَلَا أَعْلَمُهُ قَالَ إِلَّا فِي الرَّابِعَةِ، شَكَّ يَزِيدُ قَالَ: فَاشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ بِدِرْهَمٍ فَذَهَبْتُ فَجِئْتُ بِهِ إِلَيْهِ فَأَكَلَهُ. (٢)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٤١٩)، وأخرجه مسلم في "صحيحه" (١٠٣٢).

(٢) أخرجه أحمد في "الزهد" (١٠٥٢)، أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ٢٩٧).

وكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَبْتَاعَ لَهُ جَارِيَةً مِنْ سَبْيِ جَلُولا، وَيَوْمَ جَلُولا فُتِحَتْ مَدَائِنُ كِسْرَى فِي قِتَالِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَدَعَا بِهَا عُمَرُ فَأَعْتَقَهَا، وَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]."(١)

وقال بعض أهل التفسير: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب الله(٢)، ولكن المعنى الأصح والأقرب على حب الطعام.(٣)

---

(١) أخرجه الواحدي في "البسيط" (١/ ٤٦٣)، وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الدر المنثور" (٣/ ٦٦٢): "وأخرج عَبد بن حُمَيد، وَابن جَرِير، وَابن المنذر عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾"، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٢/ ٦٧) و "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٥/ ٢٠٠).

(٢) قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في "المحرر الوجيز" (٥/ ٤١٠): "قوله تعالى: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الطعام، أي وهو محبوب للفاقة والحاجة. وهذا قول ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد. ويحتمل أن يعود على الله تعالى أي لوجهه وابتغاء مرضاته، قاله أبو سليمان الداراني. والأول أمدح لهم لأن فيه الإيثار على النفس. وعلى الاحتمال الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر."، وينظر "زاد المسير" (٨/ ٤٣٣) لابن الجوزي و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٥٩).

(٣) قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٢٨٨): "والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ... كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾."

وذكر الله الأصناف التي يُنفَقُ عليها بالإطعام ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ والمسكين: من أسكنه الحاجةُ والفقرُ، واليتيم: هو من تُوفي أبوه دون البلوغ، مأخوذٌ مِن اليُتْمِ، وهو الانفرادُ عن الكاسبِ، ولا يُتم بعد البلوغ كما قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما (١)،

(١) **(صحيح)** أخرجه مسلم في "صحيحه"(١٨١٢)، وأبو داود في "سننه"(٢٧٢٧) والترمذي في "سننه"(١٥٥٦)، والنسائي في "الكبرى"(٤٤١٩)"الصغرى"(٤١٣٣)، وأحمد في "مسنده"(٢٢٣٥)، (٢٩٤١)، وأبو يعلى في "مسنده"(٢٥٥٠) من حديث عن يزيد بن هرمز، أن نجدة، كتب إلى ابن عباسٍ رضي الله عنهما يسأله، عن خمس خلال، فقال: ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لولا أن أكتم علما ما كتبت إليه، كتب إليه نجدة: أما بعد، فأخبرني هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهن بسهم؟ وهل كان يقتل الصبيان؟ ومتى ينقضي يتم اليتيم؟ وعن الخمس لمن هو؟ فكتب إليه ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كتبت تسألني هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء؟ " وقد كان يغزو بهن، فيداوين الجرحى، ويحذين من الغنيمة، وأما بسهم فلم يضرب لهن، وإن رسول الله ﷺ لم يكن يقتل الصبيان، فلا تقتل الصبيان، وكتبت تسألني متى ينقضي يتم اليتيم؟ فلعمري، إن الرجل لتنبت لحيته وإنه لضعيف الأخذ لنفسه، ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتم، وكتبت تسألني عن الخمس لمن هو؟ وإنا كنا نقول: هو لنا، فأبى علينا قومنا ذاك "، وقد ورد الحديث موقوفا ومرفوعا من حديث على رضي الله عنه، وصحح رفعه الألباني في "إرواء الغليل" (٥/ ٧٩)

أخرجه أبو داود في "سننه" بَابُ مَا جَاءَ مَتَى يَنْقَطِعُ الْيُتْمُ (٢٨٧٣)، وابن ماجة في "سننه" باب لا طلاق قبل النكاح (٢٠٤٩) ، وعبد الرزاق في "مصنفه" واللفظ له (١١٤٥٠)، (١١٤٥٣)، (١٣٨٩٧)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٧٠٥٥) (٣٦٣١٥)، وسعيد بن منصور في "سننه" (١٠٢٥) (١٠٣٠)، والطبراني في "المعجم الأوسط"(٢٩٠)(٦٥٦٤)، "المعجم الصغير"

هذا بالنسبة للآدميين، أما بالنسبة للبهائم، فاليتيمُ فيها من تُوفِّيَتْ أمُّه.

وأما الأسير: فقال سعيد بن جبيرٍ، والحسن، والضحاك- رحمهم الله-: الأسير: من أهل القبلة.

وقال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان أسراؤهم يومئذٍ مشركين.

ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدرٍ أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبيرٍ، وعطاء، والحسن، وقتادة-رحمهم الله-.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في الأسير ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه المسجون المسلم، قاله مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: أنه العبد قاله عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثالث: أسير المشركين، قاله الحسن وسعيد بن جبيرٍ. قال سعيد بن جبيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم نسخ أسير المشركين بالسيف، وقال غيره بل هو ثابت الحكم في الأسير

=(٢٦٦) (٩٥٢)، والبيهقي في "السنن الكبير" (١١٣٠٩) (١٤٨٨٤)، "السنن الصغير" (٢٠٧٢) (٢٨٦٧)، والطحاوي في "مشكل الأثار" (٦٥٨)، والعقيلي في "الضعفاء" (٤/٤٢٨) ، من حديث علي بن أبي طالبٍرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رَضَاعَ بَعْدَ الْفِصَالِ، وَلَا وِصَالَ، وَلَا يُتْمَ بَعْدَ الْحُلُمِ، وَلَا صَمْتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَا طَلَاقَ قَبْلَ النِّكَاحِ». فَقَالَ لَهُ الثَّوْرِيُّ: يَا أَبَا عُرْوَةَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ عَلِيٍّ مَوْقُوفٌ، فَأَبَى عَلَيْهِ مَعْمَرٌ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ".

بإطعامه، إلا أن يرى الإمام قتله."[١]

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأسرى في غير ما حديثٍ، سواءٌ كان الأسيرُ مسلماً أو كافراً، وها هو الحبيب ﷺ " يأمر أصحابه يوم غزوة بدرٍ لما أسروا سبعين من رؤساءها، قال: أحسنوا الى الأسارى[٢] فكان الواحد منهم يفضل الأسير على نفسه في الطعام إذا جاء الغذاء يعطي للأسير ويأكل تمرات ".

وكذلك فإن بعض السلف قال: الأسير هو العبد، فالعبد مملوكٌ كالأسير عند صاحبه، ولذلك أوصى الشرع المبارك بالعبيد المماليك، حتى كان آخر ما أوصى رسول الله ﷺ أن جعل يقول: "الصَّلَاْةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ".[٣]

---

(١) ينظر "النكت والعيون " للماوردي (٦/ ١٦٦)

(٢) **(ضعيف)** أخرجه الطبراني في " المعجم الكبير للطبراني (٩٧٧)، وخليفة بن خياط في " مسنده" (٦٨)، والطبري في "تاريخه" (١٩٢٠)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٦٩١٨)، من حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، به. وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع" (١٨٤٣).

(٣) **(صحيح)** أخرجه النسائي في "الكبرى"(٧٢٦٠)، واللفظ له، وابن ماجة في "سننه"(١٦٢٥)، وأحمد في "مسنده"(٢٦٤٧٣)، والطبراني في "الكبير"(٦٩٠)، كلهم من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ عند موته: الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل يلجلجها في صدره وما يفيض بها لسانه"، وأخرجه أبو داود في "سننه"(٥١٥٦)،وابن ماجة في "سننه"(٢٦٩٨)،وأحمد في "مسنده"(٥٨٥)،(٦٩٣) واللفظ له، من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ آتِيَهُ بِطَبَقٍ يَكْتُبُ فِيهِ مَا لَا تَضِلُّ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ تَفُوتَنِي نَفْسُهُ، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَحْفَظُ وَأَعِي. قَالَ: " أُوصِي بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَمَا مَلَكَتْ

ومن العجيب في ذلك ما جاء في صحيح البخاري، عَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».[(١)]

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا۝٩﴾ قال سلفنا الصالح كمجاهد وسعيد بن جبير -رحمهما الله-: أما والله ما قالوا ذلك بألسنتهم، ولكن علم الله ذلك من قلوبهم، فأظهره ليتأسى الناس بهم ليعملوا مثلهم، فأثنى الله عليهم ليرغب في ذلك راغبٌ.[(٢)]

أَيْمَانُكُمْ "، وأخرجه النسائي في "الكبرى"(٧٢٥٧)، وابن ماجة في "سننه"(٢٦٩٧)، وأحمد في "مسنده"(١٢١٦٩)، وابن حبان في "صحيحه"(٦٦٠٥)، واللفظ له من حديث أنس رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ آخِرُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا كَانَ يُفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ: «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، وصححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد " (٢/ ٢٥٢).

(١) **(صحيح)** أخرجه البخاري في "صحيحه"(٦٠٥٠)، واللفظ له، وأخرجه مسلم في "صحيحه" (١٦٦١)، من حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، به.

(٢) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٥٤٦)، و"تفسير القرآن" لأبي المظفر السمعاني (٦/ ١١٦)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٣٠)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٨٩).

وذكر الله في سببِ مسارعتِهم في قضاء حوائج المسلمين وإطعامهم، أمرين عظيمين:

الأمر الأول: ابتغاء وجه الله، وهذا أعظمُ دافعٍ للمسارعة في كل خيرٍ، أن يعمل الأعمال يبتغي بها وجه الله ومرضاته.

وهذا حالُ المخلص مِن عباد الله، لا يريد جزاءً مِن أحدٍ، ولا أن يشكره أحدٌ.

ومما يُذكر عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا " أنها كانت إذا أرسلت بصدقةٍ الى إنسانٍ تقول للخادمة انتظري -يعنى عندما تذهبين انتظري دقائق يسيرة - إذا دعوا بشيءٍ احفظي الدعاء وأخبريني به، فترجع الخادمة تخبرها أنهم دعوا لكِ بكذا وكذا فتدعو أم المؤمنين لهم بمثل ما دعوا " فتكون دعوة مقابل دعوة وتكون الصدقة لله عزَّ وجلَّ لأنها تريد العمل خالصاً عند الله تبارك وتعالى(١)

ولا مانع من طلب الدعاء ممن أحسن الإنسان إليه، ولكن هذه منازل أخرى

---

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في " قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة "(١/ ٦٨)، و"مجموع الفتاوى"(١/ ١٨٨) ... وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول: "اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويبقى أجرنا على الله".

وقال بعض السلف إذا قال لك السائل: بارك الله فيك، فقل: وفيك بارك الله، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلاً صالحاً أو ملكاً من الملوك أو غنياً من الأغنياء فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك خالصاً لله يبتغي به وجه الله، لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره، لا من نبي ولا رجل صالح ولا ملك من الملائكة، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين.

عاليةٌ، رضي الله تعالى عنهم.

وكان من هدي النبي ﷺ أنه كان يكافيء مَن أحسن إليه، وقد ثبت عنه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» (١)، وفي روايةٍ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ." (٢)، وهذه الكلمة اليسيرة التي نستهين بها تؤَلِّف بين الرجل وبين أخيه، ويأخذ بها أجراً، ويرد جميل من أحسن إليه.

والأمر الثاني: من أسباب فعلهم الخير ـ: خوفهم من الله تعالى.

وهو قول الله تعالى حاكيًا عنهم: ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠**﴾ وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (١٦٧٢)، (٥١٠٩) واللفظ له، والنسائي في "الكبرى" (٢٥٥٣)، وأحمد في "مسنده" (٥٣٦٥)، وعبد الرزاق في "مصنفه" (١٩٦٢٢-٢٠٥٢٩)، وابن حبان في "صحيحه"(٣٤٠٨)، وصححه الألباني في "التعليقات الحسان على ابن حبان"(٥/ ٢٨٥).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه"(٢٠٣٥) واللفظ له، والنسائي في "الكبرى"(١٠١١٨)، وابن حبان في "صحيحه"(٣٤١٣)، والبزار في "مسنده"(٢٦٠١)، وابن السني في "عمل اليوم والليلة"(٢٧٥)، والطبراني في "الصغير"(١١٨٣). وصححه الألباني في " صحيح وضعيف سنن الترمذي "(٥/ ٣٥).

غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ» [١]

فمن خاف يوم القيام عمل أعمالاً صالحةً، واجتنب المحرمات، لأنه يخاف الله عزوجل.

ولذلك قال ربنا تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣] يعني ما خافوا الآخرة، ولو خافوا الآخرة لعملوا مِن أجلها، وتركوا الحرام في الدنيا، ولكن أعمالُهم كانت أعمالَ الآمنين.

وفي قصة الثلاثة الذين آواهم الغار خيرُ دليلٍ على ذلك، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا،

---

(١) **(صحيح لغيره)** أخرجه الترمذي في "سننه"(٢٤٥٠)، والحاكم في "المستدرك"(٨٠٦٣)، وأخرجه أحمد في مسنده"(٢١٢٤١) مختصرا، والحاكم في "المستدرك" (٨٠٦٤) واللفظ له، وأبو نعيم في "الحلية"(٨/ ٣٧٧)، وأخرجه تمام في "فوائده"(٧٧٤)، من حديث الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٣/ ٣١٩).

وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ.(١)

فالحاصل أنهما سببان عظيمان يدفعان العبد دفعـًا لكلِّ خيرٍ، ويصرفان عنه بإذن الله كلَّ سوءٍ وشرٍّ: ابتغاء وجه الله، وخوف يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسًا قَمۡطَرِيرًا**﴾ قال ابن عباس ﵄: العبوس: هو الضيق، والقمطرير: هو الطويل، مقداره ألف سنة ﴿**وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ**

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٢١٥)، ومسلم في "صحيحه" (٢٧٤٣).

﴿كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ٤٧﴾ [الحج: ٤٧]، وفي الآية الأخرى خمسين ألف سنة ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ٤﴾ [المعارج: ٤]، ولكنه يسيرٌ على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ١٠﴾ [المدثر: ١٠] ومفهومه أنه يسيرٌ على المسلمين بإذن الله تعالى.

وقال مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العبوس هو العابس الشفتين، والقمطرير: هو تقبيض الوجه بالبثور، والقمطرير بالجبهة والحاجبين، فجعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم."

وقال سعيد بن جبيرٍ وقتادة-رحمهما الله-: "تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ تقليص الجبين وما بين العينين، من الهول."(١)

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ بعدما ذكر هذه الأقوال ـ: "وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها وأعلاها وأولاها قولُ ابنِ عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا الذي تقدم أولاً."(٢)

وإذا كان يوم القيامة عبوساً قمطريراً، فواجبٌ علينا أن نُقَدِّمَ أعمالاً ينجينا الله بها من هول هذا اليوم، مِن دعاءٍ وصدقةٍ وصلاةٍ بالليل والناسُ نيامٌ.

وليعلم العبدُ أن أخفَّ ركعتين يصليهما في حياته مع الطمأنينة خيرٌ من الدنيا وما

---

(١) يُنظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٤٨)، و"تفسير البغوي"(٨/ ٢٩٥)، و"المحرر الوجيز لابن عطية"(٥/ ٤١١)، و"النكت والعيون " للماوردي (٦/ ١٦٧).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٤٧،٥٤٨،٥٤٩)، و"تفسير البغوي"(٨/ ٢٩٥)، و"تفسير القرآن العظيم "لابن كثير (٨/ ٢٨٩).

فيها، حتى لو سبح تسبيحةً واحدةً في الركوع أو في السجود، أو تقرأ الفاتحة فقط كما ثبت بإسنادٍ صحيحٍ عن بعض الصحابة " أنه قرا الفاتحة فقط، في الركوع سبحان ربي العظيم مع أدنى طمأنينة، وفي السجود سبحان ربي الأعلى مع أدنى طمأنينة"(١)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه عبد الرزق في "مصنفه" (٢٦٢٢) من طريق ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبَةٌ قِرَاءَةُ أُمِّ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: " أَمَّا أَنَا فَلَا أَدَعُهَا فِي الْمَكْتُوبَةِ وَالتَّطَوُّعِ فَاتِحَةَ الْقُرْآنِ قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: «إِذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَإِنِ انْتَهَى إِلَيْهَا كَفَتْهُ، وَإِنْ زَادَ عَلَيْهَا فَخَيْرٌ»

وأخرجه أيضـاً (٢٦٢٤) عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، من طريق عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمُزَ الْأَعْرَجُ: أَنَّهُ " سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَرَأَ: بِأُمِّ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ – أَوْ قَالَ: فِي كُلِّ صَلَاةٍ – "

وقد روي مرفوعـاً كما في "سنن أبي داود " (١٣٦٤) عن كُرَيْب، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِاللَّيْلِ؟ قَالَ: " بِتُّ عِنْدَهُ لَيْلَةً وَهُوَ عِنْدَ مَيْمُونَةَ، فَنَامَ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ – أَوْ نِصْفُهُ – اسْتَيْقَظَ، فَقَامَ إِلَى شَنٍّ فِيهِ مَاءٌ، فَتَوَضَّأَ وَتَوَضَّأْتُ مَعَهُ، ثُمَّ قَامَ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ عَلَى يَسَارِهِ، فَجَعَلَنِي عَلَى يَمِينِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي كَأَنَّهُ يَمَسُّ أُذُنِي كَأَنَّهُ يُوقِظُنِي، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ قَدْ قَرَأَ فِيهِمَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّى حَتَّى صَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً بِالْوِتْرِ، ثُمَّ نَامَ، فَأَتَاهُ بِلَالٌ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَامَ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى لِلنَّاسِ "

والحديث صححه الألباني في "صحيح وضعيف سنن أبي داود "(١٣٦٤)، وإن كانت هذه الزيادة ليست في الصحيحين أعني "قَرَأَ فِيهِمَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ" فأصل الحديث في الصحيحين

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في "الأم" (١/ ٢٧٢): "وَإِذَا قَرَأَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِمَّا وَصَفْتُ أَجْزَأَهُ مَا قَرَأَ بِهِ مَعَهَا أَوْ اقْتَصَرَ عَلَيْهَا أَجْزَأَتْهُ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى: مِنْ غَيْرِهَا، وَلَا يُجْزِيهِ غَيْرُهَا مِنْهَا."

قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ جعلهم الله في أمنه وأمانه، كما قال الله عن أوليائه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥﴾ [يونس: ٦٢-٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩﴾ [الزخرف: ٦٨-٦٩]

وهناك قومٌ في ظلِّ الله يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، في الوقت الذي يقضيه الناس في كرباتٍ وشدائد، ففي الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.(١)

وعن أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ حِمْصَ فَإِذَا فِيهِ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كَهْلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا فِيهِمْ شَابٌّ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، بَرَّاقُ الثَّنَايَا سَاكِتٌ، فَإِذَا امْتَرَى الْقَوْمُ فِي شَيْءٍ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ فَسَأَلُوهُ. فَقُلْتُ: لِجَلِيسٍ لِي مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُعَاذُ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٦٠)، واللفظ له، ومسلم في "صحيحه" (١٠٣١).

بْنُ جَبَلٍ فَوَقَعَ لَهُ فِي نَفْسِي حُبٌّ، فَكُنْتُ مَعَهُمْ حَتَّى تفَرَّقُوا، ثُمَّ هَجَّرْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قَائِمٌ يُصَلِّي إِلَى سَارِيَةٍ، فَسَكَتَ لَا يُكَلِّمُنِي فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ جَلَسْتُ فَاحْتَبَيْتُ بِرِدَائِي، ثُمَّ جَلَسَ فَسَكَتَ لَا يُكَلِّمُنِي، وَسَكَتُّ لَا أُكَلِّمُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. قَالَ: فِيمَ تُحِبُّنِي؟ قَالَ: قُلْتُ: فِي اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَأَخَذَ بِحُبْوَتِي فَجَرَّنِي إِلَيْهِ هُنَيَّةً، ثُمَّ قَالَ: أَبْشِرْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ "، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْوَلِيدِ لَا أُحَدِّثُكَ بِمَا حَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فِي الْمُتَحَابِّينَ. قَالَ: فَأَنَا أُحَدِّثُكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْفَعُهُ إِلَى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ قَالَ: " حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ ". (١)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في "مسنده"(٢٢٠٠٢)، واللفظ له، والترمذي في "سننه"(٢٣٩٠)، والحاكم في "المستدرك"(٧٥٢٢)، وابن حبان في "صحيحه"(٥٧٧)، والطبراني في "الكبير"(١٦٨)، وللحديث طرق أخرى : منها ما أخرجه أحمد في "مسنده"(٢٢٨٩٤)، وعبد الرزاق في "مصنفه" (٢١٢٤٦، ٢٠٣٢٤)، والطبراني في "الكبير"(٣٤٣٣) واللفظ له من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال : كنت عند النبي ﷺ : فنزلت هذه الآية **﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾** قال : فنحن نسأله إذ قال : إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله عزوجل يوم القيامة قال وفي ناحية القوم أعرابي فقام فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال : حدثنا يا رسول الله عنهم من هم ؟ قال : فرأيت وجه النبي ﷺ ينتشر فقال النبي ﷺ : عباد من عباد الله من بلدان شتى وقبائل من

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ كما أنهم خافوا الله في الدنيا، يؤمنهم الله في الآخرة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جلَّ وَعَلَا، قَالَ: «وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (١)

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ أَيْ دفع عنهم شرّ ذلك اليوم أي بأسه وشدّته وعذابه ولقّاهم أي أتاهم وأعطاهم حين لقوه أي رأوه نضرةً أي حسنًا وسروراً أي حبورًا. (٢)

جمع الله لهم بين سعادة الأبدان في الظاهر، وسعادة القلوب في الباطن، السرور في القلب، والنضرة في الوجوه، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه" كما في صحيح البخاري. (٣)

=شعوب أرحام القبائل لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها لله لا دنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله عزَّ وجلَّ يجعل الله وجوههم نورا يجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن تعالى يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون) . والحديث صححه الألباني في "مشكاة المصابيح" (٣/ ١٣٩٥).

(١) **(صحيح)** أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٦٤٠)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٥٩)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٧٤٢).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن "للقرطبي (٢١/ ٤٦٨).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥٥٦)، وأخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٧٦٩) من حديث كعب بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة توبته.

وفي الصحيحين من حديث عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُورًا، تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ، فَقَالَ: أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزًا نَظَرَ آنِفًا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.(١)

وقال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤]

ثم ذكر الله تعالى بعض نعيم هؤلاء الكرام، فقال عزَّ وجل: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ جزاهم بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم عن الحرام، وصبرهم على أقدار الله المؤلمة، فهذه أقسام الصبر الثلاثة.

وقد أورد الحافظ بن عساكر رَحِمَهُ اللهُ في تَرْجَمَةِ هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ الدّارَاني قَالَ، قال هشام: قُرِيءَ على أبي سليمان الداراني: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ﴾ فلما بلغ عليه: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ قال: بما صبروا على ترك الشهوات في دار الدنيا، وأنشد الشيخ:

كم قتيلٍ لشهوةٍ وأسيرِ ... أُفٍّ مِن مُشْتَهٍ خلافَ الجميلِ
شهواتُ الإنسانِ تورثه الذ ... لّ وتُلقيه في البلاءِ الطويلِ(٢)

وصدق رحمه الله، فكم مِن شهوةٍ تدفع الإنسان إلى الندم طولَ حياتِه، وأعظمُ من ذلك قد ترديه في نار جهنم، والعياذ بالله.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ وقد جزاهم الله حريراً يلبسونه في الجنة،

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٥٥٥)، ومسلم في "صحيحه" (١٤٥٩).

(٢) ينظر "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٢٧/ ٨٦).

والحرير في الدنيا حرامٌ على الرجال، ولا يلبس الحرير في الدنيا إلا قومٌ لا خَلَاق لهم، وفي حديث على رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ: أَخَذَ حَرِيرًا فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ، وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي». (١)

قال الله عزَّ وجل:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ﴾ وقد اختُلِف في الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرفق، أو التربع أو التمكن في الجلوس؟ وكلُّ هذا واردٌ، وهذا

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه"(٤٠٥٧)، والترمذي في "سننه"(٩٥٧٩)، والنسائي في "الكبرى"(٩٥٨٠)، وابن ماجة في "سننه"(٣٥٩٥)، وأحمد في "مسنده"(٧٥٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٢٥١٤٩). وصححه الألباني في " صحيح وضعيف سنن أبي داود "(٢).

الاتكاء يدلك على أمنٍ وأمانٍ ونعمةٍ، فقد أكلوا وشربوا واستراحوا، ولا يوجد ما يشغلهم، بل هم في طعامٍ وشرابٍ وفي نعمةٍ ونعيمٍ، وشهواتٍ ولذاتٍ أحلَّها الله تعالى لهم، وأكرمهم بها سبحانه.

والأرائك: واحدتها أريكة، وهو السرير فى الحجلة (الناموسية)، بحيث لا يراهم أحدٌ، **والزمهرير:** هو البرد الشديد، أي لا يرون في الجنة شدةَ حرٍّ كحرِّ الشمس، ولا برداً مفرطـًا.

فهو جوٌّ جميلٌ وممتعٌ، أكرم الله به أولياءَه وعبادَه، وهذا الجوُّ الممتعُ يعيشون فيه أبد الآباد.

قوله تعالى: ﴿**وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا**﴿١٤﴾﴾ أي: ظلالُ الجنانِ دانيةٌ عليهم، أي قريبةٌ من الأبرار، فهي مظلةٌ عليهم، زيادةً في نعيمهم، وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ، كما أن أمشاطهم الذهبُ والفضةُ، وإن كان لا وسخ ولا شعث ثَمَّ.

﴿**وَذُلِّلَتْ**﴾ أي سُخِّرَت لهم ﴿**قُطُوفُهَا**﴾ أي ثمارُها، ﴿**تَذْلِيلًا**﴿١٤﴾﴾ أي تسخيراً، فيتناولها القائمُ والقاعدُ والمضطجعُ، لا يرد أيديَهم عنها بُعدٌ ولا شوكٌ، قاله قتادة.

وقال مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن قام أحدٌ ارتفعت له، وإن جلس تدلت عليه، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها.

وعنه أيضـًا: أرض الجنة من ورِق، وترابها الزعفران، وطيبها مسكٌ أذفر، وأصول شجرها ذهبٌ وورِق، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، والثمر تحت ذلك كلِّه، فمن أكل منها قائمـًا لم تؤذه، ومن أكل منها قاعداً لم تؤذه، ومن أكل منها

مضطجعًا لم تؤذه."

وقال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "إذا هَمَّ أن يتناول من ثمارها تدلت إليه حتى يتناول منها ما يريد.

وتذليل القطوف تسهيل التناول، والقطوف: الثمار، الواحد قِطف بكسر القاف، سمي به لأنه يقطف، كما سمي الجنى لأنه يجنى."(١)

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا۝١٦﴾ أي يدور على هؤلاء الأبرارِ الخدمُ إذا أرادوا الشراب بآنيةٍ مِن فضةٍ، والأكوابُ: جمعُ كوبٍ، وهو الكوز العظيم الذي لا أذن له ولا عروة.(٢)

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ أي في صفاء القوارير وبياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضة.

وقال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "ليس في الجنة شيءٌ إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا القوارير من فضةٍ.

وقال: لو أخذت فضةً من فضةِ الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب

---

(١) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٥٣،٥٥٤)، و"تفسير ابن أبي حاتم "(٥/ ١٤٨٠)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٣٨).

(٢) ينظر" الجامع لأحكام القرآن "(١٩/ ١٤٠)، و"تفسير القرآن العظيم"(٨/ ٢٩١)، و"فتح القدير للشوكاني" (٥/ ٤٢٢).

لم تر من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة في صفاء القوارير."

﴿**قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴿١٦﴾**﴾ أي قدرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم، فأتوا بها على قدر رِيِّهم، بغير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وذلك ألذُّ وأشهى، والمعنى: قدرتها الملائكة التي تطوف عليهم، قدروها على ملء الكف لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيهم بثِقَلٍ أو بإفراطِ صِغَرٍ.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴿١٧﴾**﴾ الكأس هو الإناء فيه الخمر، وإذا كان خالياً عن الخمر فلا يقال له كأس، والمعنى: أن أهل الجنة يُسقون في الجنة كأساً من الخمر، ممزوجةً بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذُّ مزجَ الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته، لأنه يحذو اللسان، ويهضم المأكول، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب.

وهو زنجبيلٌ لا يشبه زنجبيل الدنيا، فليس في الدنيا شيءٌ مما في الجنة إلا الأسماء، أي ما في الجنة أشرف وأعلى وأنقى.(١)

قال أهل العلم: تقدم في أول السورة ﴿**كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴿٥﴾**﴾، وهنا في هذه الآية ﴿**زَنجَبِيلًا﴿١٧﴾**﴾، فتارةً يُمزج لهم الشرابُ بالكافورِ وهو باردٌ، وتارةً بالزنجبيلِ وهو حارٌّ، ليعتدل الأمرُ، وهؤلاء يُمزج لهم مِن هذا تارةً ومِن هذا تارةً، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرفًا، كما قاله قتادة وغير واحد.(٢)

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" القرطبي (١٩/ ١٤٢)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٢٣).

(٢) ينظر "جامع البيان للطبري"(٢٣/ ٥٦٠،٥٦١)، و"الوسيط للواحدي"(٤/ ٤٠٣)، و "تفسير

قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ والسلسبيلُ: الشرابُ اللذيذُ، مأخوذٌ من السلاسة، تقول العرب: هذا شرابٌ سلِسٌ، وسلسالٌ، وسلسبيلٌ، أي: طيبٌ لذيذٌ.

يعنى هذه العين التي يُؤخذ منها شيء يسيرٌ مِن الزنجبيل ويُخلطُ للأبرار، تسمى سلسبيلاً، وسُمِّيَت سلسبيلاً لسلاسة ماءها وشدة جريانها، وذكر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره أن قوله: ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ صفةٌ للعين، وُصِفَت بالسلاسة في الحلق، وفي حال الجري، وانقيادها لأهل الجنة، يصرفونها حيث شاءوا، كما قال مجاهد وقتادة. وإنما عنى بقوله: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ توصف.[(١)] فهو ماءٌ جميلٌ ممتعٌ غايةَ المتعة.

قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩﴾ أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالةٍ واحدةٍ مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارُهم عن تلك السن.[(٢)]

قال بعض أهل العلم: أقلُّ أهل الجنة من يقوم عليه ألفُ خادمٍ.[(٣)]

=البغوي"(٨/ ٢٩٦)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٢).

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٥٦٢)، و"التحرير والتنوير" لابن عاشور (٢٧/ ١١٩).

(٢) ينظر "جامع البيان للطبري"(٢٣/ ٥٦٥)، و "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٩/ ١٤٣)، و "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٢٩٢).

(٣) قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في " تفسير القرآن العظيم "(٨/ ٢٩٢): "قَالَ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ عَبْدِ

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ١٩﴾ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن." أهـ(١)

قال أهل العلم: اللؤلؤ المنثور أجمل من اللؤلؤ المنظوم، لوقوع شعاع بعضه على بعض بغاية بياضه وبريقه فيكون مخالفـًا للمجتمع فيه.(٢)

قال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنثور لانتشارهم في الخدمة، ولو كان صفًّا.. لشبهوا بالمنظوم. وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور

=اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: مَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَسْعَى عَلَيْهِ أَلْفُ خَادِمٍ، كُلُّ خَادِمٍ عَلَى عَمَلٍ مَا عَلَيْهِ صَاحِبُهُ."

وورد مرفوعـًا عن رسول الله ﷺ، ولا يصح، أخرجه الترمذي "سننه"(٢٥٦٢) واللفظ له، وأحمد في "مسنده"(١١٧٢٣)، وابن حبان في "صحيحه"(٧٤٠١)، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٣٥١١٤) مرسلا، وأخرجه ابن جرير الطبري في "جامع البيان"(٢٠/ ٦٤٤) موقوفـًا. من طرق عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً، وَتُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الجَابِيَةِ إِلَى صَنْعَاءَ»، ضعفه الألباني في " صحيح وضعيف سنن الترمذي "(٦/ ٦٢).

(١) "تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٩٢)، وينظر "جامع البيان للطبري" (٢٣/ ٥٦٥،٥٦٦)، و"الوسيط للواحدي" (٤/ ٤٠٤).

(٢) ينظر "روح البيان" (١٠/ ٢٧٣)، و"الوسيط للواحدي"(٤/ ٤٠٤).

العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون؛ لأنهن لا يمتهن بالخدمة.[١]

قال رب العالمين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد، ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠﴾ أي: مملكةً لله هناك عظيمةً وسلطانـاً باهراً.[٢]

ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: " إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي - أَوْ: تَضْحَكُ مِنِّي - وَأَنْتَ المَلِكُ " فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: «ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً».[٣]

وفي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قَالَ: "سَأَلَ

---

(١) ينظر "تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن "(٣٠/ ٤٩٩).

(٢) ينظر "جامع البيان للطبري" (٢٣/٥٦٦)، و"تفسير أبي المظفر السمعاني" (٦/ ١٢٠)، و"تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٢٩٢).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ١١٧)، ومسلم في "صحيحه "(١٨٦).

مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السجدة: ١٧] الآيَةَ".(١)

فهذه جنة عدنٍ التي غرسها ربنا بيده الكريمة، وقد أعدَّ لأهلها المتقين نعيمَهم بيديه الكريمتين، وهذه كرامةٌ عظيمةٌ لأهل الجنة، فلم ترَ عينٌ ولم تسمع أذنٌ ولا يخطر على قلبِ بشرٍ.

قال رب العالمين: ﴿**عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾**﴾ أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندسٌ، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريقٌ ولمعانٌ، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس، ﴿**وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ**﴾

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"(١٨٩)، والترمذي في "سننه"(٣١٩٨)، وابن حبان في "صحيحه"(٦٢١٦)، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٣٤٠١٨)، والطبراني في "الكبير"(٩٨٩).

وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣﴾ [الحج: ٢٣].(١)

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ أي: طهَّر بواطنَهم من الحسد والحقد والغِلِّ والأذى وسائر الأخلاق الردية، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما أُلهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرةُ النعيم.(٢)

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ أي: يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة: ٢٤]، وكقوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف: ٤٣]

وقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ أي: جزاكم الله على القليل بالكثير.

قال الله عزَّ وجل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ۝٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" (٨/ ٢٩٣).

(٢) أورده ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم" "(٨/ ٢٩٣).

لَيۡلًا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ٢٧ نَّحۡنُ
خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلًا ٢٣**﴾ يمتن الله تعالى على النبي ﷺ أنه هو الذي نزَّل عليه القرآن، ولم يتقوَّله من عند نفسِه، فليس بكاذبٍ ولا ساحرٍ ولا مجنونٍ صلوات الله وسلامه عليه، كما افتراه عليه الكفارُ المجرمون، بل هو صادقٌ بارٌّ فيما جاء به من عند الله جلَّ جلاله.

﴿**إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلًا**﴾ أنزله الله على قلبه الكريم في ثلاثٍ وعشرين سنةً، واعترض الكفار على ذلك فقالوا ﴿**لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢**﴾ [الفرقان: ٣٢].

والنبي ﷺ كان يعاني من التنزيل شدةً، فالقرآن كان ثقيلاً في حال نزوله على رسول الله ﷺ، قال الله تعالى ﴿**إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥**﴾ [المزمل: ٥]، وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ ﷺ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.[1]

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢)، والترمذي في " سننه " (٣٦٣٤)، والنسائي في " المجتبى " (٩٣٤).

وعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «... فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ».(١)

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «إِنْ كَانَ لَيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا(٢)»(٣)، وعند البيهقي "فَتَضْرِبُ عَلَى جِرَانِهَا مِنْ ثِقَلِ مَا يُوحَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ".(٤)

علوُّ الله تعالى على عرشه:

هذه الآية وأشباهها يَستَدِلُّ بها السادةُ العلماء على علوِّ الله تبارك وتعالى، وأنه عالٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، فكلُّ آيات النزولِ والعروجِ، يُستدل بها على علوِّ الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤٥٩٢)، وأبو داود في "سننه" (٢٥٠٧)، والترمذي في "سننه" (٣٠٣٣).

(٢) قوله (فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا) بكسر الجيم باطن العنق، والبعير إذا استراح مد عنقه على الأرض، والمراد أنها تستقر، وتترك المشي، لاشتغاله - ﷺ - عنها وانقطاعه عن الالتفات إليها.

(٣) أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٤٨٦٨)، والحاكم في " المستدرك " (٣٨٦٥)، وقال «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أحمد في " مسنده " (٢٤٨٦٨)، والحاكم في " المستدرك " (٣٨٦٥) وإسحاق بن راهويه "مسنده"(٧٥٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة " (٧/ ٥٣) عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ " كَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَضَعَتْ جِرَانَهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكْ، وَتَلَتْ قَوْلَ اللهِ عزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل: ٥]

كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] وغيرها من الآيات.

وصفة العلوِّ ثابتةٌ لله تبارك وتعالى، ليست كصفةٍ من صفات المخلوقين، بل صفةٌ تليق بالله تعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ وهذه الآية مواساةٌ للحبيب ﷺ، فاصبر لحكم ربك أي: لقضائه، ومن حكمه وقضائه تأخير نصرك إلى أجلٍ اقتضته حكمتُه(١)، فاصبر لما يصيبك الله من بلاءٍ ومِحَنٍ وتكذيبٍ من الكفار فسينصرك الله عليهم ويجعلك الأعلى بإذنه وكرمه.(٢)

وقيل: أي اصبر لما حكم به عليك من الطاعات(٣)، ولكن المعنى الأول أنسب وأظهر للآية.(٤)

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدَّك عما أُنزل إليك، بل بلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك، وتوكل على الله؛ فإن الله

---

(١) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٢٦).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي" (١٩/ ١٤٩).

(٣) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٥٧٢)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٩/ ١٤٩).

(٤) ينظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٤).

يعصمك من الناس.

فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر بقلبه.(١)

وذكر بعض أهل العلم من أهل التفسير أنها نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكر النبوة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤﴾.

قال مقاتلٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الذي عرض التزويجَ عتبةُ بن ربيعة، قال: إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوجك ابنتي من غير مهرٍ وأرجع عن هذا الأمر."

وقال الوليد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن كنت صنعتَ ما صنعتَ لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر، فنزلت."(٢)

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير" (٨/ ٢٩٤).

(٢) ينظر "زاد المسير" (٨/ ٤٤١،٤٤٠)، و "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٤٩).

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الدر المنثور"(١٥/ ١٦٩،١٦٨): "أخرَج عَبد بن حميد، وَابن جَرِير، وَابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾ قال: حُدِّثنا أنها نزلت في عدو الله أبي جهل."

وأخرج عبد الرزاق في "تفسيره"(٣٤٣٩)، (٣٦٥٥)، (٣٦٥٦)، وَابن جَرِير في "جامع البيان "(٢٤/ ٥٣٤) عن قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه بلغه أن أبا جهل قال: لما فرضت على النَّبِيّ ﷺ الصلاة وهو يومئذٍ بمكة: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه، فأنزل الله في ذلك ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤﴾.

وجُلُّ المفسرين كالطبري والبغوي والماوردي والسيوطي وغيرهم رحم الله الجميع إنما ذكروا أن

وما كان ﷺ يريد جاهـاً ولا دنيا، وهو صادقٌ برٌّ فيما جاء به، وما تقَوَّلَه من عند نفسه، بل أوحاه الله إليه فبلَّغ ما أنزل إليه من ربه.

قال عزَّ وجل: ﴿**وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦**﴾ أي دم على ذكره في جميع الأوقات.[١]

وقيل المعنى: صلِّ لربك أولَ النهار وآخرَه، فأولُ النهار صلاةُ الصبح، وآخرهُ صلاة الظهر والعصر، ﴿**وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ**﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة، ﴿**وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦**﴾ يعني التطوع في الليل.[٢]

فضل ذكر الله عزَّ وجل:

وكأن ذكر الله تعالى يعين العبد على الشدائد، وعلى ما يلقاه من تكذيب القوم الكفار، وأعداء الدعوة إلى الله، فتسبيح الله وذكره سببٌ عظيمٌ في الثبات على الحق، وعلى مواساة العبد وتهوين الشدائد عليه، وهذا يدلك على أن العبد لا بد أن يجعل لنفسه ورداً من ذكر ربِّه في أول النهار وفي آخره، فالمؤمن مجاهدٌ في سبيل الله، وله أعداء كُثُر من الإنس والجن، بل إن الله تعالى قال ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا**

=هذه الآية نزلت في أبي جهل، ولما ذكروا القول الآخر ذكروه بصيغة التمريض لا الجزم وهذا يوحي أنها نزلت في عدو الله أبي جهل، والله أعلم.

(١) ينظر "فتح القدير"(٥/ ٤٩٧).

(٢) أورده القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن "(١٩/ ١٥٠)، والماوردي في "النكت والعيون"(٦/ ١٧٢)، والشوكاني في "فتح القدير"(٥/ ٤٩٧).

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فإذا كان هذا لكلِّ نبيٍّ جعل الله له أعداء يخالفونه ويحاربون دعوته من شياطين الإنس والجن، فكذلك أتباع هؤلاء الرسل لهم أعداء من الإنس والجن، فإذا كان الأمر كذلك، فلا خلاص للعبد ولا حماية له إلا باللجوء إلى رَبِّه، فيذكره في الصباح وفي المساء، ولذلك شُرِع الذكر بعد كلِّ صلاة فريضة، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا، ثُمَّ قَالَ: " يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ". فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ. قَالَ: " أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ ".(١)

فلا إعانة للعبد إلا إذا أعانه الله، ولو وُكِلَ إلى نفسه لضاع ولهلك، ولكن ربنا تعالى هو الذي يُحَبِّبُ إلينا الإيمان، ويزينه في قلوبنا، وهو الذي يُكَرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

فليلزم العبدُ ذكرَ الله في الصباح والمساء، فلو داوم المرء عليها بخشوعٍ واستحضارٍ، فوالله لو كاده الخلقُ جميعـًا، لجعل الله له من بينهم فرجـًا ومخرجـًا.

وما أجمل حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه"(١٥٢٢)، والنسائي في "الكبرى"(١٠٠٤٧)، وأحمد في "مسنده"(٢٢١١٩)، وابن خزيمة في "صحيحه"(٧٥١)، والطبراني في "الكبير"(١١٠)، وصححه الألباني في "صحيح موارد الظمآن "(٢/ ٤٢٢).

اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.(١)

وفي حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ، حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ».(٢)

وفي الصحيحين من حديث أبي مسعود البدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ».(٣)

وفي صحيح مسلم من حديث مصعب بن سعد، حدثني أبي قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٣٢٩٣)، ومسلم في "صحيحه"(٦٩٤١).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه" (٥٠٨٨)، وأخرجه الترمذي في "سننه" (٣٣٨٨)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٢٨٦)، وابن ماجة في "سننه" (٣٨٦٩)، وأحمد في "مسنده" (٤٤٦)، (٥٢٨)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٢/ ١٠٩٧).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٤٠٠٨)، وأخرجه مسلم في "صحيحه"(٨٠٨) واللفظ له.

جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»[١]

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: " مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ، حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ".[٢]

قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا**٢٦﴾ أي: أكثر له من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة[٣]، فذَكَر الله عزَّ وجلَّ السجود وعبَّر به عن الصلاة، لأنه من أعظم أركانها.

فضل قيام الليل:

فربنا تعالي يقول لسيد أولياءه وأحب خلقه إليه ﷺ: ﴿**فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ**﴾ أي لله

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٦٩٨)، والترمذي في "سننه"(٣٤٦٣)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٠٩٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٠٠٤٥)، وأحمد في "مسنده"(١٤٩٦).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦٤٠٥)، وأخرجه مسلم في "صحيحه" (٢٦٩١) واللفظ له.

(٣) ينظر " تيسير الكريم الرحمن" للسعدي" (ص: ٩٠٣).

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ وكان النبي ﷺ يصلي من الليل الكثير، قال الله عنه وعن الصحب الكرام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ ۝٢٠﴾ [المزمل: ٢٠] فأحيانًا يقوم أكثر من نصف الليل، وأحيانًا نصف الليل، وأحيانًا ثلث الليل.

ونحن نضيع ليلنا في اللهو والسهو واللعب، إلا من رحم الله، ويخسر المرء أعزَّ ما يملك وهو رأس ماله، ويندم المرء يوم القيامة على ما ضيع من وقته.

وصحَّ عن رسول الله ﷺ، من حديث معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا». (١) لما يرونه من الأجر العظيم الذي أعده الله لعباده.

وهناك حديثٌ سمعه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما غيَّر حياته، والحديث في الصحيحين من حديث ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: إِنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَانُوا يَرَوْنَ الرُّؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَقُصُّونَهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَقُولُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ، وَأَنَا غُلَامٌ حَدِيثُ السِّنِّ، وَبَيْتِي المَسْجِدُ قَبْلَ أَنْ أَنْكِحَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ لَرَأَيْتَ مِثْلَ مَا يَرَى هَؤُلَاءِ، فَلَمَّا اضْطَجَعْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ فِيَّ خَيْرًا فَأَرِنِي رُؤْيَا، فَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ إِذْ جَاءَنِي مَلَكَانِ، فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ

---

(١) **(ضعيف)** أخرجه الطبراني في "الكبير"(١٨٢)، و"مسند الشاميين"(٤٤٦)، وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان"(٥٠٩)، وأخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول"(١٤٦٨)، وابن السني في "عمل اليوم والليلة"(٣)، وضعفه الألباني في "السلسلة الضعيفة" (٤٩٨٦).

مِنْهُمَا مِقْمَعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، يُقْبِلاَنِ بِي إِلَى جَهَنَّمَ، وَأَنَا بَيْنَهُمَا أَدْعُو اللهَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهَنَّمَ، ثُمَّ أُرَانِي لَقِيَنِي مَلَكٌ فِي يَدِهِ مِقْمَعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، فَقَالَ: لَنْ تُرَاعَ، نِعْمَ الرَّجُلُ أَنْتَ، لَوْ كُنْتَ تُكْثِرُ الصَّلاَةَ. فَانْطَلَقُوا بِي حَتَّى وَقَفُوا بِي عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البِئْرِ، لَهُ قُرُونٌ كَقَرْنِ البِئْرِ، بَيْنَ كُلِّ قَرْنَيْنِ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِقْمَعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَأَرَى فِيهَا رِجَالًا مُعَلَّقِينَ بِالسَّلاَسِلِ، رُءُوسُهُمْ أَسْفَلَهُمْ، عَرَفْتُ فِيهَا رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَانْصَرَفُوا بِي عَنْ ذَاتِ اليَمِينِ.

قال: فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ، عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ عَبْدَ اللهِ رَجُلٌ صَالِحٌ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» فَقَالَ نَافِعٌ: «فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذَلِكَ يُكْثِرُ الصَّلاَةَ». (١)

وهذا الحديث ليس خاصـًا بعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، بل هو لنا جميعـًا، فنِعمَ الرجلُ أنت لو كنت تقوم من الليل.

وقال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿**إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨**﴾ [الذاريات: ١٥-١٨] ، وقال تعالى: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧**﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

وصح من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري "صحيحه"(٧٠٢٨،٧٠٢٩)، ومسلم في "صحيحه"(١٤٠).

النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (١)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ». (٢)

يعنى خذ لنفسك ورداً لا تنقطع عنه، حتى وإن كان قليلاً.

بعض الأسباب المعينة على قيام الليل:

هناك بعض الأسباب المعينة على قيام الليل، ومن أعظمها:

١ـ ترك الذنوب، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: "وإنَّ الَعبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيْبُهُ". (٣)

فالعبد قد يقع في معصية الله، فيصرف عنه أبواب خيرٍ وعلمٍ.

ومن جميل ما قاله الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ، حين قال له رجلٌ: يا أبا سعيدٍ، إني

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي "سننه"(٢٤٨٥)، وابن ماجة "سننه"(١٣٣٤)، وابن أبي شيبة "مصنفه"(٣٦٩٩٧)، وأحمد في "مسنده"(٢٣٧٨٤)، والدارمي في "سننه"(١٥٠١)، والحاكم في "المستدرك"(٤٣٣٥). والحديث صححه الألباني في "السلسلة"(٢/ ١١٣).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(١١٥٢)، ومسلم في "صحيحه"(١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، به.

(٣) **(حسن)** أخرجه النسائي في "الكبرى"(٢٧٣)، وابن ماجة في "سننه"(٤٠٢٢)، وأحمد في "مسنده" (٢٢٣٨٦)، والطبراني في "الكبير"(١٤٤٢)، والحاكم في "المستدرك"(١٨٣٨)، وابن حبان في "صحيحه" (٨٧٢)، وحسنه الألباني في" صحيح وضعيف سنن ابن ماجة "(٩/ ٢٢).

أبيت معافى وأحب قيام الليل وأتخذ طهوري فما بالي لا أقوم؟ فقال: "ذنوبك قيدتك يا ابن أخي"، وكان الحسن إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم قال أظن ليل هؤلاء ليل سوءٍ ما يقيلون.

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن العبد ليذنب الذنب فيُحرم به قيام الليل وصيام النهار."(١)

فقد يُفَوِّتُ ربُّنا سبحانه على العبد صيام يوم الاثنين والخميس، أو قيام ليلةٍ، لنظرةٍ حرامٍ، أو لغيبةٍ، أو نميمةٍ، أو شهادةِ زورٍ.

قال رجلٌ لإبراهيم بن أدهم إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواءً نفسي، قال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل."(٢)، وصدق والله، فهذا علاجٌ عظيمٌ.

٢ـ ومن أسباب قيام الليل: أن يقلل العبدُ من الطعام ما استطاع،

رأى معقل بن حبيب قومـًا يأكلون كثيراً فقال ما نرى أصحابنا يريدون أن يصلوا الليلة. (٣)

---

(١) أورده الغزالي في "إحياء علوم الدين" (١/ ٣٥٦)، وأبو طالب المكي في "قوت القلوب" (٣/ ٧٥).

(٢) لم أقف عليه مسنداً، وأورده الشيخ أحمد فريد في كتاب" تزكية النفوس" (ص: ٥٠)، والشيخ محمد يعقوب في "أصول الوصول" (ص: ٢٢٩).

(٣) أخرجه المروزي كما في" مختصر قيام الليل" للمروزي، اختصار المقريزي (ص: ٥٩) ورَأَى

وذلك لأن طبيعة الإنسان إذا أكل كثيراً، أنه ينام ولا يستطيع القيام.

٣ـ استشعار نزول الرب سبحانه وتعالى في الثلث الأخير من الليل.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي، فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي، فَأَغْفِرَ لَهُ. (١)

فلو قيل للعبد أن سُمُوَّ الأمير يقول له: لو استيقظتَ قبل الفجر بساعةٍ، وسألتني أيَّ شيءٍ سأعطيك إياه، فلا شك أنه سينتهز تلك الفرصة، لأن الأمير لن يُخلف وعده، وسيستيقظ ويطلب حاجته، فكيف بأكرم الأكرمين سبحانه يدعونا كل ليلةٍ، ونحن

=مَعْقِلُ بْنُ حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْمًا يَأْكُلُونَ كَثِيرًا فَقَالَ: مَا نَرَى أَصْحَابَنَا يُرِيدُونَ يُصَلُّونَ اللَّيْلَةَ.

وأخرج في الباب أيضـًا: وَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ قَيِّمٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَقُومُ عَلَيْهِمْ إِذَا أَفْطَرُوا فَيَقُولُ: لَا تَأْكُلُوا كَثِيرًا فَإِنَّكُمْ إِنْ أَكَلْتُمْ كَثِيرًا نِمْتُمْ كَثِيرًا، وَإِنْ نِمْتُمْ كَثِيرًا صَلَّيْتُمْ قَلِيلًا.

وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِابْنِهَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بُنَيَّ، لَا تُكْثِرِ النَّوْمَ فَيُفْقِرَكَ يَوْمَ تَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَا تُكْثِرِ الْجِمَاعَ فَيُفْقِرُكَ يَوْمَ تَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى قُوَّتِهِمْ.

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: إِنَّ اللهَ لَيُدْخِلُ خَلْقًا مِنْ خَلْقِهِ الْجَنَّةَ فَيَعْطِيهِمْ فِيهَا حَتَّى يَثْمَلُوا وَفَوْقَهُمْ نَاسٌ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِمْ عَرَفُوهُمْ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا مَعَنَا فِي الدُّنْيَا وَكُنَّا مَعَهُمْ فَبِمَ فَضَّلْتَهُمْ عَلَيْنَا؟ فَيَقُولُ اللهُ: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنَّهُمْ كَانُوا يَجُوعُونَ حِينَ تَشْبَعُونَ وَيَظْمَئُونَ حِينَ تَرْوُونَ وَيَقُومُونَ حِينَ تَنَامُونَ وَيَشْخَصُونَ حِينَ تَخْفِضُونَ.

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(١١٤٥)، وأخرجه مسلم في "صحيحه"(٧٥٨).

نتغافل عن نداءه سبحانه.

وفي صحيح مسلمٍ من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ».[١]

٤ ـ عدم السهر وتضييع الوقت ليلاً.

وقد كان رسول الله ﷺ يكره النوم قبل العشاء ويكره الحديث بعدها.[٢]

ويقول الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝**﴾ [النبأ: ١٠-١١]، فالليل ثُباتٌ تنام وتستقر فيه، وتأخذ قسطًا من الراحة، لتقوم لله رب العالمين.

٥ ـ إيقاظ الزوج زوجته والعكس.

ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى، نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ"[٣]

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"(٧٥٧)، واللفظ له وأحمد في "مسنده"(١٤٣٥٥) وأبو يعلى في "مسنده"(١٩١١)، والطبراني في "الصغير"(٨٤٨)، وابن حبان في "صحيحه"(٢٥٦١).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٧٧١)، ومسلم في "صحيحه"(٦٤٧).

(٣) **(حسن صحيح)** أخرجه أبو داود "سننه" (١٤٥٠)، والنسائي في "الكبرى" (١٣٩٣)،

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتِ». (١)

وفي الصحيحين من حديث عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: «أَلاَ تُصَلُّونَ»، قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: ﴿**وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴿٥٤﴾**﴾[الكهف: ٥٤]. (٢)

ثم قال الله عزَّ وجلَّ منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم:

﴿**إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴿٢٧﴾**﴾ وسماها الله عاجلة، لأنها تنتهي سريعـًا، واليوم الثقيل هو يوم القيامة، الذي قال ربنا سبحانه عنه:

=و"الصغرى" (١٦٢٦)، وأحمد في "مسنده"(٧٤١٠)، وابن خزيمة في "صحيحه"(١١٤٨)، والطبراني في "الكبير"(٣٤٤٨). وصححه الألباني في" صحيح موارد الظمآن "(١/ ٣٠٠).

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه"(١٤٥١)، والنسائي في "الكبرى"(١٤٠٣)، وابن ماجة في "سننه" (١٣٣٥)، والحاكم في "المستدرك" (١١٨٩ــ ١٢٠٦)، وابن حبان في "صحيحه" (٢٥٦٨)، من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به. وصححه الألباني في "صحيح أبي داود"(٥/ ١٩٤).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه"(٧٤٦٥)، وأخرجه مسلم في "صحيحه"(٧٧٥).

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج: ٤]

الحث على الزهد في الدنيا:

هذا زمانٌ تشبَّه المسلمون بالكفار، فانشغلوا بالدنيا، ووقعوا فيما ذم الله أهله، وحرصوا عليها، فأحبوا ووالوا من أجل الدنيا، وربنا تعالي يقول: ﴿**ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠**﴾[الحديد: ٢٠].

وحُبُّ الدنيا سببُ كلِّ مصيبةٍ، وسببُ الذلِّ والهوان لهذه الأمة، وفي حديث ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ". قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: " أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ". قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: " حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ".[1]

وعن سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فإذا هو بشاةٍ ميتةٍ شائلةٍ برجلها، فقال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في "سننه"(٤٢٩٧)، وأحمد في "مسنده"(٨٧١٣)، (٢٢٣٩٧)، والطبراني في "الكبير"(١٤٥٢)، وأبو نعيم في "الحلية"(١/ ١٨٢)، وابن أبي عاصم في "الزهد"(٢٦٨)، وصححه الألباني في" صحيح الجامع "(٢/ ١٣٥٩).

بِرِجْلِهَا، فَقَالَ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا.»(١)

وعن عبد الله بن مسعود ﵁، قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».(٢)

ولذلك كان رَسُولُ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا».(٣)

---

(١) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه"(٢٣٢٠)، وابن ماجة في "سننه"(٤١١٠)، والطبراني في "الكبير"(٥٨٤٠)، والحاكم في "المستدرك"(٨٠٥٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان"(٩٩٨٢)، وابن أبي عاصم في "الزهد"(١٢٨)، وأبو نعيم في "الحلية"(٢/ ٢٥٣)، وصححه الألباني في " صحيح وضعيف سنن ابن ماجة "(٩/ ١١٠).

(٢) **(صحيح)** أخرجه الترمذي في "سننه" (٢٣٧٧)، وابن ماجة في "سننه" (٤١٠٩)، والبزار في "مسنده" (١٥٣٣)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (١٠٢/ ٢)، وأبو داود الطيالسي في "مسنده" (٢٧٥)، والطبراني في "الأوسط" (٩٣٠٧)، وصححه الألباني في "صحيح وضعيف سنن الترمذي " (٢٣٧٧).

(٣) **(حسن)** أخرجه الترمذي في "سننه"(٢٣٤٦)، وابن ماجة في "سننه"(٤١٤١)، وابن حبان في "صحيحه"(٦٧١) من حديث أبي الدرداء ﵁، والطبراني في "الأوسط"(١٨٢٨)، والبيهقي في "شعب الإيمان"(٩٨٧٦) وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (٦٠٤٢)، من حديث ابن

وروى مسلمٌ من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ».(١)

فهذه هي قيمة الدنيا التي تُقطَّع الأرحامُ من أجلها، ويقع القتل والسرقة والظلم من أجلها، لذلك لا ينبغي أن يحزن المؤمن على ما فاته من الدنيا، وإنما يحزن على ما فاته من قيام الليل، أو على ما فاته من ورده من القرآن.

قال ربنا تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهدٌ، وغير واحدٍ: يعني خلقهم،

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "شددنا المفاصل بالأوتار."(٢)

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلناهم فأعدناهم خلقـًا جديداً، وهذا استدلالٌ بالبداءة على الرجعة.

=عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، به.

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"(٢٩٥٧)، وأبو داود في "سننه"(١٨٦)، وأحمد في "مسنده"(١٤٩٣٠)، وابن أبي شيبة في "مصنفه"(٣٤٣٩١)، والبخاري في "الأدب المفرد"(٩٦٢).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٤/ ١١٨).

وقال ابن زيدٍ، وابن جريرٍ-رحمهما الله-: أي: وإذا شئنا أتينا بقومٍ آخرين غيرهم، كقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣]، وكقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠].[١]

قال الله عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠]

أي هذه السورة بما فيها من عظاتٍ وعِبَر، وذكر نعيم أهل الجنة، وعذاب الكفار، وذكر ما يكون يوم القيامة، تذكرة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ أي طريقًا ومسلكًا، أي: من شاء اهتدى بالقرآن، فالذي يتعظ ويعتبر وينتفع بالقرآن سيسلك سبيلاً يوصله إلى الله، من أداء الفرائض والإكثار من النوافل، والقيام بالحقوق.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجرُّ لنفسه نفعًا، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: عليمٌ بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٤)، و"العذب النمير" للشنقيطي (٢/ ٣٠٥).

ثم قال: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ٣١﴾ أي: يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ﴾ يُكرمهم بها، ويَشْمَلُهم بها، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ٣١﴾ والظالمون هنا هم الكافرون، لأن العذاب الأليم الأبدي لا يكون إلا للكفار.

الرد على القدرية والجبرية:

في الآيات ردٌّ على القدرية الذين يقولون: إن الأمر أُنُف، وأن الله لا يعلم الأشياء حتى تقع.

وفيها أيضـًا الرد على الجبرية الذين قالوا: إن العبد مجبورٌ على ما يفعل [1]، مجبورٌ أن يزني، أو يسرق، أو يترك الصلاة.

فالله عزَّ وجلَّ أثبت لنفسه مشيئةً، وأثبت للعبد مشيئةً، ولكن مشيئة الله قبل مشيئة العبدِ، وإن علم الله من قلب العبد الخير، يسر له الخير، وإن علم من قلبه السوء،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " منهاج السنة "(٣/ ١٤٥،١٤٦): "الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد؛ بمعنى أنها قائمة بالعبد وحاصلة بمشيئته وقدره وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه، وهي من الله بمعنى أنه خلقها قائمة بالعبد، وجعلها عملاً له وكسبـًا؛ كما يخلق المسببات بأسبابها؛ فهي من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة به، واقعة بقدرته وكسبه؛ كما إذا قلنا: هذه الثمرة من الشجرة، وهذا الزرع من الأرض؛ بمعنى أنه حدث منها، ومن الله؛ بمعنى أنه خلقه منها، لم يكن بينهما تناقض ..." اهـ

حال بينه وبين الخير، وما ظلمهم الله.

ولذلك حريٌّ بالمؤمن أن يدعو الله دائمـًا أن يحبب إليه الإيمان، وأن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وصلى الله وسلم على محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

تم الانتهاء من تفسير سورة الإنسان بفضل الله وكرمه.

****

﴿سُورَةُ المُرْسَلَاتِ﴾

هي سورةٌ مكيةٌ عند جمهور المفسرين(١)، إلا آية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨] فذهب ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقتادة رَحِمَهُ اللَّهُ، أنها مدنية.(٢)

وعدد آيها خمسون، نزلت بعد سورة الهمزة.

مناسبتها لما قبلها:

أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد الفجار، ووعد المؤمنين الأبرار.(٣)

ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، فَنَحْنُ نَأْخُذُهَا مِنْ فِيهِ رَطْبَةً، إِذْ خَرَجَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ، فَقَالَ: «اقْتُلُوهَا» فَابْتَدَرْنَاهَا، لِنَقْتُلَهَا، فَسَبَقَتْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَقَاهَا اللهُ شَرَّكُمْ كَمَا وَقَاكُمْ شَرَّهَا».(٤)

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الدر المنثور" (١٥/ ١٧٢): "أَخْرَج ابن الضريس والنحاس، وَابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نزلت سورة المرسلات بمكة."، وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في " المحرر الوجيز " (٥/ ٤١٦): "وهي مكية في قول جمهور المفسرين."

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ١٥٣)، و"التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جزي . (٢ / ٤٤١)

(٣) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٧٨).

(٤) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٨٣٠)، ومسلم في "صحيحه " (٢٢٣٤).

فسورة المرسلات نزلت بمنىً، والصحابةُ مع النبي ﷺ في الغار.

وفي الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنَّ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ، سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ. إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ.(١)

قال الله عزَّ وجل:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ الواو واو القسم(٢)، وفي المرسلات ثلاث أقوال لأهل العلم:

الأول: وهو قول الجمهور الرياح (٣)، **الثاني:** الملائكة(١)، **الثالث:** الرسل.(٢)

---

(١) (متفق عليه)؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٧٦٣)، ومسلم في " صحيحه " (٤٦٢).

(٢) قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في "التحرير والتنوير" (٢٩/ ٤١٩): "قسم بمخلوقات عظيمة دالة على عظيم علم الله تعالى وقدرته. والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر، وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقي المقسم عليه."

(٣) ينظر: "جامع البيان للطبري" (٢٣/ ٥٨٠)" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٩٤)،

وذُكر **قول رابع** ألا وهو: السحاب.(٣)

القول الأول ـ وهو الرياح ـ : أي أن الله تعالى يرسلها عرفًا يتبع بعضها بعضا، وهذه الرياح آيةٌ من آيات الله تعالى دالةٌ على وحدانيته وعظمته وقدرته سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، وقال تعالى:

=و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٦)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٣/ ٧١)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل (٢٠/ ٦٠)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٩٨)

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٨٠) عن ابن مسعودٍ وابن عباسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والكلبي ومجاهد، وقتادة. وينظر: "معالم التنزيل للبغوي" (٨/ ٣٠١)، و"الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٩٥)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٤٥)، و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٧٦)، و"غريب القرآن" لابن قتيبة (٥٠٥)، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة (٢/ ٢٨١)، وغريب الحديث والأثر" لابن الأثير (٣/ ٢١٧)، و"لسان العرب" لابن منظور (١١/ ٢٨٥).

(٢) ينظر" النكت والعيون " (٦/ ١٧٥)، وقال: وهذا قول أبي صالح، " زاد المسير " لابن الجوزي (٨/ ٤٤٥)، و "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٩٥)، وعزاه الواحدي في "البسيط" (٢٣/ ٧٢) إلى ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (في رواية عطاء).

(٣) عزاه ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/ ٤١٦) إلى الحسن بن أبي الحسن، وقال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في "النكت والعيون" (٦/ ١٧٥): "ويحتمل رابعـًا: أنها السحب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه. ويحتمل خامسًا: أنها الزواجر والمواعظ." أهـ، وينظر "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٤٤)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٩٦).

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رحمته﴾ [الروم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣].

ربنا القدير جلَّ جلاله يرسل الرياح ويصرفها كيف يشاء، أحياناً يرسلها لواقح تلقح الأشجار والزروع وغير ذلك، وأحياناً يرسلها سبحانه عقيماً لا تنفع، بل فيها الهلاك والدمار.

قال الله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وأحياناً يرسلها الله تعالى رحمةً ونصراً لبعض أولياءه، وأحياناً يرسلها انتقاماً من أعداءه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ».(١)

وأحيانا تكون ليِّنةً طيبةً، وأحياناً تكون عاصفاً، وكل ذلك يدلك على قدرة رب العالمين الذي يديرها بقدرته سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٠٣٥)، ومسلم في "صحيحه" (٩٠٠).

بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٦]، يعني لينةً طيبةَ الهبوب.

أما عاصف فمعناها شديدةٌ سريعةُ الهبوب، تعصف بصوتٍ شديدٍ، أي يخرج منها صوتٌ شديدٌ، وقال تعالى عن قوم عاد: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [فصلت: ١٦].(١)

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وكان الحبيب ﷺ إذا هبت الريح دخل وحرج، وعُرف ذلك في وجهه، يخشى أن يكون عذابـًا.(٢)

---

(١) قال السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "بحر العلوم" (٢/ ٣٢٩): "يَوْمٍ عاصِفٍ يعني: عاصف شديد الريح." وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (١٣/ ٦٢٣): "وقيل: {في يوم عاصف} فوصف بالعصوف، وهو من صفة الريح، لأن الريح تكون فيه كما يقال: يوم بارد، ويوم حار، لأن البرد والحرارة يكونان فيه." أهـ وينظر "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير (٣/ ٢٤٨)، و"لسان العرب" لابن منظور (٩/ ٢٤٨)

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٠٦)، ومسلم في "صحيحه" (٨٩٩) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا رَأَى مَخِيلَةً فِي السَّمَاءِ، أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَدَخَلَ وَخَرَجَ،

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا هاجت ريحٌ شديد، قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا أُرسلت بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أُرْسِلَتْ به".(١)

وكان يقول ﷺ «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا، فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا» ».(٢)

ولما وصف ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، جود النبي ﷺ قال «فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ».(٣)

فكان ﷺ يعمُّ جودُه وبرُّه وإحسانُه المحتاجَ وغيرَ المحتاج، ويعمُّ الغنيَّ والفقيرَ، والمسلمَ والكافرَ.

القول الثاني ـ أنهم الملائكة ـ: ولا شك أن الملائكة رسلٌ كذلك يرسلهم الله تعالى، قال الله عزَّ وجلَّ ﴿**جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ**﴾ [فاطر: ١]، وقال تعالى: ﴿**ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا**﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿**۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن**

=وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَدْرِي لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ»: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ**﴾ الآيَةَ

(١) **(حسن)** أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " (٧١٧)، وأبو يعلى في " مسنده "(٢٩٠٥)، والطبراني في " الدعاء " (٩٦٩)، وحسنه الألباني في " صحيح الأدب المفرد " (ص: ٢٦٦).

(٢) **(صحيح)** أخرجه أبو داود في " سننه "(٥٠٩٧)، والنسائي في " السنن الكبرى " (١٠٦٩٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في " صحيح وضعيف سنن أبي داود" (٥٠٩٧).

(٣) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦)، ومسلم في " صحيحه " (٢٣٠٨).

﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورى: ٥١].

والملائكة رسل من الله تعالى إلى أنبياءه ورسله، وإلى غيرهم من الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، فقد أرسلهم الله تعالى ليثبتوا المؤمنين، ويقاتلوا الكافرين.

وقصَّ علينا النبي ﷺ في حديث الثلاثة نفر أن الله تعالى أرسل إليهم ملائكة ليختبرهم.(١) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عزَّ وجلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ.(٢)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ

(١) **(متفق عليه)**: أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٦٤)، ومسلم في " صحيحه " (٢٩٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٦٧)، والبخاري في " الأدب المفرد " (٣٥٠)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٧٢)، وأحمد في " مسنده " (٧٩١٩).

أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ.(١)

وهكـذا يرسـل الله تعـالى الريـاح ويصـرفها بقدرتـه، وكـذلك يرسـل الملائكـة ويصرفها بقدرته.

القول الثالث - الرسل -: ربنا تعالى يصطفي من عباده رسلاً بينه وبين خلقه، يبلغوا عباده، ويأمروهم وينهوهم، فمن أطاعهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن عصاهم شقي في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ**﴾ [النساء: ١٦٥].

ومعنى عرفًا على هذا الوجه من التأويل أنه رسولٌ بعد رسولٍ، وكما قال النبي ﷺ "كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي".(٢)

وكما قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ**﴾ [الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴿٢٤﴾**﴾ [فاطر: ٢٤].

حتى ختمهم برسول الله ﷺ وكان مسك الختام صلوات ربي وسلامه عليه، وبهذا يعلم المؤمن مدى عناية الله بعباده، حيث أرسل إليهم الرسل، وما تركهم لا يهتدون

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٧٠)، ومسلم في " صحيحه " (٢٧٦٦).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في " صحيحه " (٣٤٥٥)، ومسلم في " صحيحه " (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، به.

سبيلاً، فليس لأحدٍ حجةٌ على الله بعد الرسل، كما قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذه الأقوال الثلاثة هي أقوى الأقوال في الآية الكريمة، أقواها وأصحها الرياح، ثم القول الثاني، ثم الثالث.

وفي هذا الموضع رجح الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المراد بالمرسلات الرياح، فقال: "والأظهر أن المراد بالمرسلات هي الرياح".(١)

وأما الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد توقف في هذا الموطن ولم يجزم، وجعل الآية تشمل الرياح والملائكة.(٢)

ولكن كما أسلفت أن جمهور أهل العلم ذهبوا إلى أن المراد بالمرسلات الرياح، روي ذلك عن ابن مسعودٍ وابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقتادة ومجاهد-رحمهما الله- وغيرهم.

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٧)

(٢) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جامع البيان" (٢٣/ ٥٨٢): "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفـًا، وقد ترسل عرفا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعني بذلك أحد الحزبين دون الآخر؛ وقد عم جلَّ ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كان صفته كذلك، فداخل في قسمه ذلك ملكـًا أو ريحـًا أو رسولاً من بني آدم مرسلاً." أهـ

قال عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تتمة أضواء البيان" (٨/ ٤٠٠): "توقف ابن جرير، والواقع أن كلام ابن جرير يفيد أنه لا مانع عنده من إرادة الجميع ; لأن المعنى محتمل ولا مانع عنده." أهـ

قوله تعالى: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ الجمهور أن المراد بالعاصفات أيضـًا الرياح، أي فَالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا، يَعْنِي الشَّدِيدَاتِ الْهُبُوبُ السَّرِيعَاتِ الْمَمَرُّ.(١)

والمعنى أن الله تعالى أحيانـًا يرسل الرياح عاصفةً شديدةَ الهبوب، تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه، كما قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وعلى القول الثاني بأن المراد الملائكة يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالرياح يعصفون بها، وأيضـًا يعصفون بأرواح الكفار، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، في المسند وغيره "فَيَصْعَدُونَ بِهَا وَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ فَيَقُولُونَ فُلَانٌ ابْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا".(٢)

وقال الله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، أي تنزع أرواح الكفار بشدةٍ وغلظةٍ.

وعلى هذا التأويل أيضـًا يكون الله تعالى قد وصف الملائكة الكرام بسرعة تنفيذ

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٨٣) عن عليٍ وابن مسعودٍ وابن عباسٍ، رضي الله عنهم، وأبي صالح وقتادة، وينظر "البحر المحيط " لأبي حيان (٨/ ٣٩٥)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٤٥) وعزاه للجمهور.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد في " مسنده" (١٨٥٣٤)، والحاكم في "المستدرك" (١٠٨)، من حديث البراء رضي الله عنه، به. وصححه الألباني في" مشكاة المصابيح" (١٦٣٠)

أوامره كالريح العاصف، وقد جزم ابن جرير رحمه الله في هذا الموطن أن المراد هنا بالعاصفات أي الرياح.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا۝٣﴾ اختلف المفسرون في معناها، على عدة معانٍ منها:

١ - عُنِيَ بِالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا: الرِّيحُ تنشرُ السُّحُبَ وتُفرِّقُها حيث شاء الله سبحانه، أي أنها تنشر السحاب للغيث، وروي هذا عن ابن مسعود ومجاهد.(١)

٢ - وقال بعضهم: هي الملائكةُ التي تنشر كتب الله عزَّ وجل.(٢)

يعني والله أعلم أن الملائكة تفتح كتب الله عزَّ وجلَّ فتكتب فيها ما يكون من أرزاق العباد وآجالهم، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وكما في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٨٥) عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه ومجاهد وأبي صالح وقتادة، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٨٣) إلى الجمهور. وينظر "المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٤١٧).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٨٧) عن أبي صالح، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٣٠١)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٣/ ٧٥)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٣٣).

خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ، فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ"(١)

وكما في حديث عَبْدُ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ".(٢)

وقيل: أن المراد بها الملائكة تنشر الصحف التي كتبت فيها أعمال العباد على الله جلَّ جلاله، والله أعلم.

كما في حديث أُسَامَة بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ: «ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ».(٣)

وقال النبي ﷺ " تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ، فَيَغْفِرُ اللهُ عزَّ وجلَّ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣١٨)

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٢٠٨)، ومسلم في "صحيحه" (٦٨١٦)،

(٣) **(حسن)** أخرجه النسائي في "المجتبى" (٢٣٥٧)، وأحمد في مسنده (٢١٧٥٣)، وحسنه الألباني في " صحيح وضعيف سنن النسائي " (٦/ ١).

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِكُلِّ امْرِئٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلاَّ امْرَءًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: ارْكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، ارْكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا". (١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ وَصَلاَةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ. (٢)

٣ - وقال بعض السلف: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ يعني أنه البعث يوم القيامة تنشر فيه الأرواح، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]. (٣)

وهذا يدفع العبد إلى إحسان العمل بالإخلاص والمتابعة، لأنه إذا علم أن الملائكة الكرام يكتبون أعماله ثم يصعدون بها، يدفعه ذلك إلى تعظيم الله عزَّ وجل.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ [المرسلات: ٤] اختلفوا في معناها أيضـًا:

فقال بعض السادة العلماء: هي الملائكة تنزل بما يفرق الله به بين الحق والباطل. (١)

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٥٦٥)، ومالك في " الموطأ " (٢/ ٩٠٨)، وأبو داود في " سننه " (٤٩١٦)، والترمذي في " سننه " (٢٠٢٣)، وابن ماجه في " سننه " (١٧٤٠).

(٢) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥٥٥)، ومسلم في "صحيحه" (٦٣٢).

(٣) حكاه الماوردي في" النكت والعيون" (٦/ ١٧٦) عن الربيع، ويُنظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٨٣)، تفسير القرطبي (١٩/ ١٥٥).

قال الحافظ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: الملائكة قاله ابن مسعودٍ، وابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسروق، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والسّدي، والثوري. ولا خلاف هاهنا؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغيّ، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره".(٢)

فعلى ذلك يكون المعنى الملائكة تتنزل تفرق بين الحق والباطل، وتنزل تفرق أقوات وأرزاق وآجال العباد، ولكن غير الحافظ ابن كثير ذكر أقوالاً أخرى في الآية الكريمة.

فذكر بعضهم: أن المراد بالفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدده.

وقيل: المراد به الرسل فرقوا بين ما أمر الله به، وبين ما نهى الله عنه، يعني بينوا ذلك.(٣)

كما قال ﷺ: " إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا،

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٨٧) عن أبي صالح وابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر و"النكت والعيون" للماوردي (٦/ ١٧٦)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٩٥).

(٢) " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٩٧).

(٣) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ١٧٦)، و" زاد المسير " لابن الجوزي (٨/ ٤٤٦)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٩٧).

وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا".(١)

قال تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أي فَالْمُبَلِّغَاتِ وَحْيَ اللهِ رُسُلَهُ، وَهِيَ الْمَلاَئِكَةُ الكرامُ فالملقيات، تنزلُ بالذكرِ على أنبياءِ اللهِ ورسله.(٢)

وقد ادعى بعضُ العلماء الإجماعَ أن المراد بهذه الآية الملائكة(٣)، وعزاه ابن عطية إلى جمهور أهل العلم.(٤)

وقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: "ولا خلاف هاهنا يعني أنهم الملائكة." (٥)

فالملائكة تلقي أشرف الأوامر وهو الذكر، الذي يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم تلقيه إلى الرسل.

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " (١٨٤٤)، وابن حبان في " صحيحه " (٥٩٦١)، وأحمد في " مسنده " (٦٧٩٣)، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، به.

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٨٨) عن ابن عباس وقتادة وسفيان، وينظر "معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٣٠٤)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٣٣).

(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٤٩٧): "الملائكة بإجماع، أي تلقي كتب الله عزَّ وجلَّ إلى الأنبياء"، وينظر "التفسير البسيط" للواحدي (٢٣/ ٧٧).

(٤) ينظر " المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٤١٧)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٩٦)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٤٦)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٧).

(٥) " تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٩٧).

وثَمَّ قولٌ آخرُ: وهو أن المراد بقوله: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا۝٥﴾، هم الرسل من الأنبياء صلوات الله عليهم، يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم، من آيات الذكر الذي أنزلها الله تعالى عليهم، ليتذكر بها العباد.(١)

قال تعالى: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا۝٦﴾ أي فالملقيات ذكرًا إلى الرّسل إعذارًا من اللّه إلى خلقه، وإنذارًا منه لهم، فالملائكة تنزل بأمر اللّه على الرّسل، تفرّق بين الحقّ والباطل، والهدى والغيّ، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرّسل وحيًا فيه إعذارٌ إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقاب اللّه إن خالفوا أمره، حتى لا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل.(٢)

روي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "عذرا أي ما يلقيه الله - جلَّ ثناؤه - من معاذير أوليائه وهي التوبة أو نذرا ينذر أعداءه".(٣)

ويستفاد من ذلك أن ربنا سبحانه يحب العذر، ولذلك قال النبي ﷺ "لَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرَ مِن الله".(٤)

---

(١) ينظر " النكت والعيون " للماوردي (٦/ ١٧٧)، و" زاد المسير " لابن الجوزي (٨/ ٤٤٦)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٩٨).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٨٩)، و" تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٩٩).

(٤) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧٤١٦)، ومسلم في "صحيحه" (١٤٩٩).

فأقسم الله سبحانه بالمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، على أمرٍ جَلَلٍ، وهو: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ۝٧﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وعدتم به من قيام السّاعة، والنّفخ في الصّور، وبعث الأجساد وجمع الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، ومجازاة كلّ عاملٍ بعمله، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، إنّ هذا كلّه لواقع، أي: لكائنٌ لا محالة. (١)

وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وأوعد الله العصاةَ والكافرين ناراً تلظى.

ووعد الله تعالى أهل العفاف وأهل التقوى الحورَ العينَ، ورفقةَ النبيين، ونعيماً لا يبيد، فهذا الوعدُ لا بد أن يتحقق فضلاً من الله تعالى وكرماً.

وتدبر أيها الحبيب، أن ربَّك الجليل الذي لا أصدق منه وهو الذي قال عن نفسه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا۝١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]، أقسم سبحانه أيماناً متعددةً، على أمرٍ جَلَلٍ عظيمٍ، ألا وهو ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها العباد من قيام السعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، لِمجازاةِ كلِّ واحدٍ بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شَرَّاً فَشَرٌّ، هذا كلُّه واقعٌ لا محالة، لا ارتياب فيه، فإذا وقع حصل من التغيُّرِ والأهوالِ الشديدةِ للعالَم ما يُزعج القلوب، وتشتدُّ له الكروبُ.

---

(١) ينظر "تفسير القرآن العظيم " (٨/ ٢٩٧)، و" الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٤٩٩)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٧).

ثم ذكر الله تعالى بعض العلامات التي تكون عند نهاية الدنيا، وعند يوم القيامة، فقال: ﴿**فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴿٨﴾**﴾ أي فَإِذَا النُّجُومُ ذَهَبَ ضِيَاؤُهَا، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا نُورٌ وَلَا ضَوْءٌ.(١)

تنطمس النجوم، أي تتناثر وتزول عن أماكنها، ويذهب ضوؤها، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴿٢﴾**﴾ [التكوير: ٢]، وكقوله: ﴿**وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴿٢﴾**﴾ [الانفطار: ٢]، فيُمحى نورُها ويُطمس كطمس الكتاب.

يقال: طُمِسَ الشيءُ إذا دَرَسَ وطُمِسَ فهو مطموس، والريحُ تَطمُسُ الآثارَ فتكون الريحُ طامسةً والأثر طامسًا بمعنى مطموسٍ.(٢)

﴿**وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴿٩﴾**﴾ أي: وَإِذَا السَّمَاءُ شُقِّقَتْ وَصُدِعَتْ، وانفطرت، وتدلَّت أرجاؤها، ووَهَت أطرافُها(٣)، كما قال الله: ﴿**وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴿٤٧﴾**﴾ [الذاريات: ٤٧]، وكما قال تعالى: ﴿**إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴿١﴾**﴾

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٩٠)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (٨/ ٣٩٦)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٧)، و "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٧)،

(٢) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٩٩)، ويُنظر " تاج العروس " للزبيدي (١٦/ ٢٠٨).

(٣) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٩٠)، و "المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٧)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٤٩٩)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٣٦).

[الانشقاق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥]، وهذا والله شدائد وكربات، نسأل الله تمام الستر في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وأُزيلت مِنْ أَصْلِهَا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا.(١)

أي ذُهِبَ بها، لا يبقى لها عينٌ ولا أثرٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] [طه: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧﴾ [الكهف: ٤٧].

والمعنى وإذا الجبال نُسفت أي ذُهب بها كلِّها بسرعة، يقال: نسفتُ الشيء وأنسفتُه إذا أخذته كلَّه بسرعة، ونَسَفَتْ الناقةُ الكلأَ إذا رعته، وقيل: النسف تفريق الأجزاء حتى تذروها للرياح، ومنه نسف الطعام، لأنه يُحرَّكُ حتى يُذهب الريحُ بعضَ ما فيه من التبن.(٢)

---

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٩٠)، و"معاني القرآن وإعرابه" للزجاج (٥/ ٢٦٦)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٤٧).

(٢) ينظر "فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٤٣١).

تدبر أخي هذه المشاهد العظيمة، أمامك أهوالٌ لا نجا منها إلا الاستقامة على طريق الله، والاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ أي وَإِذَا الرُّسُلُ أُجِّلَتْ لِلاجْتِمَاعِ لِوَقْتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.(١)

أي جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، فالمعنى: جُعل لها وقتٌ وأجلٌ للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]،

وقال تعالى ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨].

﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢﴾ يعني لأيِّ يومٍ أُخِّرَتْ ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣﴾ يعني جُعِل يومٌ محددٌ لاجتماع الرسل والعباد، ألا وهو يومُ الفصلِ، ويوم الفصل هو يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾ [النبأ: ١٧].

وفي الحديث قال ﷺ «يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ».(٢)

---

(١) ينظر" جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٩٠)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٨)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٩٧٦٣)، والشاشي في " المسند " (٤١٠)، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣/ ٤١٨).

وسُمِّيَ يومُ القيامة بيوم الفصل لأن الله جلَّ جلاله يَفْصِلُ فيه بين الظالم والمظلوم، وبين المؤمن والكافر، وبين البَرِّ والفاجرِ، وبين كلِّ ظالمٍ ومظلومٍ.(١)

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴿١٤﴾﴾ تعظيمٌ وتهويلٌ لهذا اليوم العظيمِ العصيبِ.

قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴿١٥﴾﴾ ﴿وَيۡلٞ﴾ وعيدٌ أكيدٌ بالعذاب الأليم للمكذبين بيوم الدين.

واعلم أن هذه الآية الكريمة كُرِّرَتْ في هذه السورة كثيراً، قال عددٌ من أهل العلم: تَكرارُ الوعيد يفيد التأكيد.

وقال بعضهم: وكرّره في هذه السّورة عند كلّ آيةٍ لمن كذّب، لأنّه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإنّ لكلّ مكذّبٍ بشيءٍ عذابًا سوى تكذيبه بشيءٍ آخر، وربّ شيءٍ كذّب به، هو أعظم جرمًا من تكذيبه بغيره، لأنّه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرّدّ على اللّه، فإنّما يقسم له من الويل على قدرٍ ذلك، وعلى قدر وفاقِهِ وهو قوله: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦].(٢)

وهذا وعيدٌ شديدٌ لكل من كذَّب بالله، أو كذَّب بآياته، أو كذَّب برسله، أو كذَّب باليوم الآخر، أو كذَّب بغير ذلك، مما أوجب الله الإيمان به.

---

(١) ينظر" جامع البيان " (٢٣/ ٥٩٣)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٨)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٣/ ٨٥)، و"تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٤٠٢).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٥٠١)،

فهو عذابٌ وخزيٌ لهؤلاء المكذبين المجرمين، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [الزمر: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾ [التغابن: ١٠].

وذكر الله تعالى في هذه السورة هذا الوعيد عند كل آية لمن كذَّب، لأنه سبحانه قسَّمه بينهم على قدر كذبهم، فإن لكلِّ مكذِّبٍ بشيءٍ عذاباً آخر غير عذاب تكذيبهم.

وروي عن ابن عباسٍ، وكذلك النعمان بن بشيرٍ، رضي الله عنهما، أنه قال: "ويلٌ وادٍ في جهنم."(١)

وكذلك روى سعيد بن منصور وابن المنذر، عن ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قال: «وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ فِيه صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ، جُعِلَ لِلْمُكَذِّبِين»(٢)

---

(١) قال السيوطي رحمه الله في "الدر المنثور " (١/ ٤٣٣): "وأخرج عَبد بن حُمَيد، وَابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال: الويل واد من فيح في جهنم.

وأخرج ابن المبارك في الزهد، وَابن جَرِير، وَابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عطاء بن يسار قال: ويل واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت من شدة حره.

وأخرج هناد في الزهد، وعَبد بن حُمَيد، وَابن جَرِير، وَابن أبي حاتم عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: ويل سيل من صديد في أصل جهنم وفي لفظ ويل واد في جهنم يسيل فيه صديده." أهـ

(٢) أخرجه سعيد بن منصور كما في "التفسير من سننه"(٢٣٧٠)، ورواه البيهقي في "البعث

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:" وإنما يسيل الشيء فيما سفل من الأرض وانفطر، وقد علم العباد في الدنيا أن شرَّ المواضع في الدنيا ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغسالات من الجيف وماء الحمامات، فذكر أن ذلك الوادي مستنقع صديد أهل الكفر والشرك، ليعلم ذوو العقول أنه لا شي أقذر منه قذارة، ولا أنتن منه نتناً، ولا أشد منه مرارةً، ولا أشد سواداً منه ". أهـ(١)

تنبيه هام:

ينبغي أن يُعلم أن هذا الوعيد لمن علم وأقيمت عليه الحجة ثم كذب بعد ذلك، أما قبل قيام الحجة فلا، لعله عنده دليلٌ وإن كان ضعيفاً، أو لعله لم يبلغه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥**﴾ [الإسراء: ١٥].

وعن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا، وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا، فَقَالَ لِي: أَرْسِلْهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اقْرَأْ، فَقَرَأَ، قَالَ: هَكَذَا أُنْزِلَتْ، ثُمَّ قَالَ لِي: اقْرَأْ، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: هَكَذَا أُنْزِلَتْ، إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ،

=والنشور" (١٠٤٥)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (١/ ٤٣٣) إلى سعيد بن منصور، وَابن المنذر والطبراني.

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي" (١٩/ ١٥٨).

فَاقْرَؤُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ.(١)

فمن كذَّب بالله ووحدانيته، أو كذَّب برسول الله ﷺ وبسنته، أو حديثًا من حديثه، أو كذَّب بالقرآن، فهو مهدَّدٌ بهذا الوعيد بعد إقامة الحجة عليه، فاحذر يا عبد الله من التكذيب بآيات الله أو برسله أو وعده ووعيده أو بخبره، نسأل الله السلامة والعافية.

ثم قال الله عزَّ وجل:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾

قوله تعالى: **﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾** أي ألم نهلك مَن كذَّبَ الرسلَ قبلكم، ونُعَذِّبَهم في الدنيا بشتى أنواع العذاب، فتارةً بالغَرَقِ كما حدث لقوم نوح، وأخرى بالزلزال كما كان لقوم لوطٍ، إلى أشباه ذلك من المَثُلات التي حلَّت بالأمم قبلكم، جزاءً لهم على قبيح أعمالهم وسيئ أفعالهم، وإن سنننا في المكذبين لا تبديل فيها ولا تغيير، فاحذروا أن يحل بكم مثلُ ما حل بهم، وتندموا، ولاتَ ساعةَ مندمٍ.(٢)

---

(١) **(متفق عليه)**؛ أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٤١٩)، ومسلم في "صحيحه" (٨١٨).

(٢) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٨٢)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٣٨)، و"التحرير

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ١٧﴾ بعدهم، ممّن سلك سبيلهم في الكفر بي وبرسولي، كقوم إبراهيم وقوم لوطٍ، وأصحاب مدين، فنهلكهم كما أهلكنا الأوّلين قبلهم، وفي ذلك عبرة وعظة لكل معتبر

، وذلك حتى يحذر العبد من مخالفة طريق المرسلين، ويقتفي آثارهم، ويحذو حذوهم، ويعتبر كلُّ معتبرٍ بمصارع أعداء الرسل وهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ١٨﴾ أي كَمَا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ بِكُفْرِهِمْ بِي، وَتَكْذِيبِهِمْ بِرُسُلِي، كَذَلِكَ سُنَّتِي فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ، فَنُهْلِكُ الْمُجْرِمِينَ بِإِجْرَامِهِمْ إِذَا طَغَوْا وَبَغَوْا.

هذه سنة الله في كلِّ مجرمٍ، وإن طالت به الحياةُ، وزينه الناسُ وجمَّلُوه، لكنَّ أَخْذَ ربِّك أليمٌ شديدٌ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: ١٠٢][(١)]

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٩﴾ أي ويل يومئذٍ لمن يُكَذِّبُ بهلاك الله للظلمة المجرمين، هذا على التأويل الثاني.

والمعنى ـ على التأويل الأول ـ هو تكرارٌ بعد تكرارٍ، ووعيدٌ بعد وعيدٍ، حتى ينزجر الناس.

=والتنوير" لابن عاشور (٢٩/ ٤٢٨).

(١) ينظر "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " ص (٩٠٤)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٨/ ١٤٨).

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ۝٢٠**﴾ يَعْنِي مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ، وهو ماءٌ خرج من بين الصلب والترائب، يعني يا ابن آدم خلقناك وأنت ضعيفٌ، وفي المسند عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَزَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: " قَالَ اللهُ: ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ "(١)

قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ۝٢١**﴾ القرار المكين هو رحم الأم، جعل الله النطفة تستقرُّ في رحم الأم استقراراً مُمَكَّنـاً. (٢)

قوله تعالى: ﴿**إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ۝٢٢**﴾ شاءه الله سبحانه، أربعين يومـاً نطفةً، ثم أربعين يومـاً علقةً، ثم أربعين مضغةً، ثم يرسل الله إليه الملَكَ، فينفخ فيه الروح.

قوله تعالى: ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ۝٢٣**﴾ أي قدرناه نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم جعلناه عظامـاً، ثم كسونا العظام لحمـاً، ثم أنشأه الله خلقـاً آخر، فصار إنسانـاً، ثم بعد ذلك خرج إلى هذه الحياة الدنيا طفلاً صغيراً، وهكذا.

وقُرأت فَقَدَّرْنا بتشديد الدال أو تخفيفها.

---

(١) **(صحيح)** أخرجه أحمد في " مسنده " (١٧٨٤٢)، وابن ماجه في " سننه " (٢٧٠٧)، وابن حبان في " صحيحه" (٣٣٦٦)، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (١٠٩٩).

(٢) ينظر "تفسير القرآن العظيم " لابن كثير (٨/ ٢٩٩)، و"بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٥٢٣)، و"تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٤٠٢).

أما على قراءة التشديد فيكون المراد قدَّرنا وقت الولادة، وأحوال النطفة في التنقيل من حالة إلى حالة، حتى صرتَ بشراً سوياً، وكذلك شقياً أو سعيداً، طويلاً أو قصيراً، غنياً أو فقيراً.

وقراءة التخفيف معناها ملكنا، وقيل: هما نفس المعنى.

قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴿٢٤﴾**﴾ **على التأويل الأول:** أنه تكرارٌ للوعيد، شدةً بعد شدةٍ وعذاباً بعد عذابٍ.

وعلى التأويل الثاني: ويلٌ لمن يُكَذِّبُ بخلق الله تعالى الإنسانَ من ماءٍ مهينٍ، وأنه جعله في قرارٍ مكينٍ إلى قدرٍ معلومٍ.

ثم قال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴿٢٦﴾**﴾ قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "(كفاتاً) أي كِنًّا." (١)

يعني تُكِنُّ الخلقَ وهم أحياء على ظهرها، وكذلك وهم أمواتٌ تُكِنُّهم في بطونها، يعني بالدفن في الأرض. (٢)

وهذه من نعمة الله سبحانه، وقد علَّم الله الإنسان سنة الدفن عن طريق الغراب في قصة ابني آدم، ﴿**فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ**

---

(١) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٥٩٦) عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر "النكت والعيون " للماوردي (٦/ ١٧٩)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٩).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٩٦)، و"المحرر الوجيز " لابن عطية (٥/ ٤١٩)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٣/ ٩١).

أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴿٣١﴾ [المائدة: ٣١]. المقصود أن الأرض جعلها الله تعالى تحملنا على ظهرها ونحن أحياء، وتحملنا في باطنها ونحن أموات.

حكم دفن الموتى:

وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، والكفت الضم والجمع، وأنشد سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ:

كرام حين تنكفت الأفاعي إلى أحجارهن من الصقيع

وقال القائل:

فأنت اليوم فوق الأرض حيٌّ وأنت غداً تضمك في كفات

وخرج الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ في جنازةٍ فنظر إلى الجبان، فقال: "هذه كفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كفات الأحياء."

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "روي عن ربيعة في النباش قال تقطع يده فقيل له: لم قلت ذلك؟ قال: إن الله - عزَّ وجلَّ - يقول: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءً وَأَمۡوَٰتًا﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦]، فالأرض حرزٌ". [١]

مسألةٌ: حكم النباش الذي ينبش القبور؟

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويقطع النباش إذا أخرج الكفن من جميع القبر: لأن هذا

---

(١) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي" (١٩/ ١٦١).

حرزٌ مثله".

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النباش: هو الذي ينبش القبور ويسرق أكفان موتاها، اختلف أهل العلم في قطعه، فذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى وجوب قطعه.

وبه قال من الصحابة: ابن الزبير، وعائشة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ومن التابعين: عمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، رحمهما الله.

ومن الفقهاء: إبراهيم النخعي، وحماد بن أبي سليمان، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك بن أنسٍ، وأبو يوسف، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، رحمهم الله.

وقال أبو حنيفة ومحمد: لا يقطع.

وبه قال من الصحابة : زيد بن ثابتٍ ، وعبد الله بن عباسٍ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، استدلالاً برواية الزهري أن نباشاً رفع إلى مروان بن الحكم فعزره ولم يقطعه ، وفي المدينة بقية الصحابة وعلماء التابعين فلم ينكره أحدٌ منهم ، ولأن أطراف الميت أغلظ حرمة من كفنه ، فلما سقط ضمان أطرافه فأولى أن يسقط القطع في أكفانه، ولأنه لو سرق من القبر غير الكفن لم يقطع، فكذلك إذا سرق الكفن، لأن ما كان حرزاً لشيءٍ كان حرزاً لأمثاله ، وليس القبر حرزاً لمثل الكفن ، فكذلك لا يكون حرزاً للكفن، ولأن الكفن مُعَرَّضٌ للبلى والتلف فخرج عن حكم المحفوظ المستبقى، فسقط عنه القطع المختص بما يحفظ ويستبقى، ولأن الكفن لا مالك له، وما لا مالك له لا قطع فيه لعدم المطالب، كمال بيت المال ، ولأنه لو كفن بأكثر من العادة لم يقطع في الزيادة ،

كذلك فيما جرت به العادة ، ولأن قبر الميت يشتمل على كفنه وطيبه ، ثم لم يقطع في طيبه ، فكذلك في كفنه." أهـ[١]

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ جِبَالًا ثَابِتَاتٍ فِيهَا، بَاذِخَاتٍ شَاهِقَاتٍ.[٢] ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ أَيْ وَجَعَلْنَا لَكُمْ سَقْيًا، وَالْفُرَاتُ: الْمَاءُ الْعَذْبُ يُشْرَبُ وَيُسْقَى مِنْهُ الزَّرْعُ.[٣]

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ."[٤]

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي عذابٌ وخزيٌ لمن كذَّبَ بالله ورسله وكتبه وبكلِّ ما ورد على ألسنة أنبيائه وأخبروا به.

---

(١) ينظر "الحاوي الكبير" للماوردي (١٣ / ٣١٣).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٥٩٨)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٩/ ٥٠٧).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٥٠٧)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤١٩) و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٩).

(٤) أخرجه مسلم في " صحيحه " (٢٨٣٩)، وأحمد في " مسنده " (٧٨٨٦)، وأبو نعيم في " صفة الجنة " (٣٠٥).

قال عزَّ وجل:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٤ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٠﴾

بعد أن ذكر الله أن للمكذبين بالله وأنبيائه واليوم الآخر العذابَ في يوم الفصل والجزاء، بين هنا نوع ذلك العذاب بما يحار فيه أولو الألباب، ويخرّ من هَولِه كلُّ مخبتٍ أوَّاب.

قوله تعالى: ﴿**ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩**﴾ أي يقول لهم خزنةُ جهنمَ حينئذٍ: إذهبوا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب في الدنيا.

ثم بين هذا العذاب ووصفه بجملة صفاتٍ، فقال: ﴿**ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠**﴾ أي انطلقوا إلى ظلِّ دخانِ جهنمَ المتشعبِ إلى ثلاثِ شُعَبٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَرْتَفِعُ مِنْ وَقُودِهَا الدُّخَانُ فِيمَا ذُكِرَ، فَإِذَا تَصَاعَدَ تَفَرَّقَ شُعَبًا ثَلَاثًا: شعبةٍ عن يمينهم، وشعبةٍ عن شمالهم، وشعبةٍ من فوقهم، والمراد أنه محيطٌ بهم مِن كلِّ جانبٍ، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿**وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ**

أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴿٢٩﴾ [الكهف: ٢٩].(١)

وكرر سبحانه لفظ الانطلاق، وكأنه ـ والله أعلم ـ كما أنهم كانوا ينطلقون بكلِّ قوةٍ في السعي في إطفاء نور الله، والصدِّ عن سبيله، كذلك يُجازون يوم القيامة أن يقال لهم انطلقوا إلى العذاب الأليم كما كنتم تنطلقون في الدنيا لحرب الله ورسله، كما قال تعالى ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴿٦﴾﴾ [ص: ٦].

قوله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴿٣١﴾﴾ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يَعني: لَا هُوَ يُظِلُّهُمْ مِنْ حَرِّهَا ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴿٣١﴾﴾ وَلَا يُكِنُّهُمْ مِنْ لَهَبِهَا(٢)، كما قال في سورة الواقعة: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤٢-٤٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴿٣٢﴾﴾ أي إن هذه النار يتطاير منها شَرَرٌ متفرقٌ في جهاتٍ كثيرةٍ كأنه القصر عِظَمـاً وارتفاعـاً.

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٨٦)، و "زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٥٠)، و"بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٥٣٣).

(٢) ينظر" جامع البيان " (٢٣/ ٦٠٠)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٩)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٥٠٨).

فالمراد بالقصر هنا واحد القصور، وهو البيت العظيم.[١]

وَقَالَ بعض العلماء: بَلْ هُوَ الْغَلِيظُ مِنَ الْخَشَبِ، كَأُصُولِ النَّخْلِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وبعض العرب يقول عن الأخشاب العظيمة الكبيرة، مثل جذوع النخل: قصرٌ، فالمعنى عندهم: إنها ترمي بشررٍ، الشرارة الواحدة منها مثل جذع النخلة العظيم، أو مثل الشجرة العظيمة.[٢]

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾ وصفرٌ هنا يعني سودٌ، باتفاق أهل العلم، قَالُوا: وإنّما قيل لها صفرٌ وهي سودٌ، لأنّ ألوان الإبل سودٌ تضرب إلى الصّفرة، ولذلك قيل لها صفرٌ، كما سمّيت الظّباء أدمًا، لما يعلوها في بياضها من الظّلمة.[٣]

يعني أن الشرر الذي يتطاير من هذه النار كالقصر، وكأنه الجمال الصفرُ لونـًا وكثرةً وتتابعـًا وسرعةَ حركةٍ.[١]

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان " (٢٣/ ٦٠١)، عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد والقرظي، وينظر "النكت والعيون "للماوردي (٦/ ١٨٠)، و"زاد المسير" لابن الجوزي (٨/ ٤٥٠).

(٢) أخرجه الطبري في " جامع البيان " (٢٣/ ٦٠١) عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وقتادة والضحاك والحسن، وينظر " معالم التنزيل" للبغوي (٨/ ٣٠٦)، و"المحرر الوجيز" لابن عطية (٥/ ٤٢٠).

(٣) قال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الوسيط" (٤/ ٤٠٩): "والصفر معناها: السود في قول المفسرين." وينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٦٠٥)، و"التفسير البسيط" للواحدي (٢٣/ ١٠٠)، و"معالم التنزيل" للبغوي (٢١/ ٥١٣)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٢٩٩).

وهذا يدل على أن النار مظلمةٌ، لهبُها وجمرُها وشررُها، وأنها سوداء، كريهة المرأى، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها ومن الأعمال المقربة منها. (٢)

وكثيرٌ من أهل العلم قالوا: شبه الله تعالى لون الشرر بالجمالات الصفر، وهي الإبل، والعرب تسمي السود من الإبل صُفراً.

قال الشاعر:

لَكَ خَيْلِي مِنْهُ وتِلْكَ رِكَابِي   هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

أي هن سودٌ.

وإنما سُمِّيت السودُ من الإبل صُفراً لأنه يشوب سوادَها شيءٌ من صفرة ; كما قيل لبيض الظباء: الأدم، لأن بياضها تعلوه كُدرةٌ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وضعف الترمذيُّ هذا القول، فقال: "وهذا القول محالٌ في اللغة، أن يكون شيءٌ يشوبه شيءٌ قليلٌ، فنُسب كلُّه إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قد قال هذا، وقد قال الله تعالى: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾ فلا نعلم شيئًا من هذا في اللغة.

ووجهه عندنا: أن النار خُلِقَتْ من النور فهي نارٌ مضيئةٌ فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار وبعث إليها سلطانه وغضبه، فاسودت من سلطانه وازدادت حدةً، وصارت أشد سواداً من النار ومن كل شيء سواداً، فإذا كان

---

(١)ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/ ٥١١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٤٤).

(٢) ينظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " ص (٩٠٤)، و"فتح القدير" للشوكاني (٥/ ٥٠٥).

يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها على أهل الموقف ، غضباً لغضب الله، والشرر هو أسود، لأنه من نارٍ سوداء، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمي الأعداء به، فهن سُودٌ من سواد النار لا يصل ذلك إلى الموحدين، لأنهم في سُرادق الرحمة قد أحاط بهم في الموقف وهو الغمام الذي يأتي فيه الرب تبارك وتعالى، ولكن يعاينون ذلك الرمي فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء ; ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه".(١)

وكان ابن عباسٍ رضي الله عنهما يقول: "الجمالات الصفر، حبال السفن يُجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال"، ذكره البخاري.(٢)

فائدة: قال القرطبي رحمه الله: " في هذه الآية دليل على جواز ادخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغاني مفاقره، وذلك مما يقتضي النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته ; ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه. وقد بين ابن عباسٍ رضي الله عنهما هذا بقوله: كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندخره للشتاء وكنا نسميه القصر. وهذا أصح ما قيل في ذلك، والله

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي" (١٩/ ١٦٤)

(٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٤٩٣٣)، وعبد الرزاق في " تفسيره " (٣/ ٣٨١)، وهناد بن السري في " الزهد " (٢٧٣).

أعلم". أهـ[(١)]

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين يكذبون بهذه الظُلَلِ من النار، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة.

إشكالٌ والجواب عليه:

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ قِيلَ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وَقَدْ عَلِمْتَ بِخَبَرِ اللهِ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَهُ؟

والجواب: إِنَّ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ دُونَ بَعْضٍ، فأهوال هذا اليوم عصيبةٌ، ومشاهده تتلون وتتنوع، فهي تختلف، فأحياناً يخسئون ولا ينطقون، وأحياناً إذا نطقوا لا ينطقون بشيءٍ ينفعُهُم، فإن يوماً واحداً مقدارُه خمسون ألف سنةً، وآخر مقدارُه ألف سنة، فمشاهدُ الخزيِ والعارِ للكفار تتلون.[(٢)]

---

(١) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي" (١٩/ ١٦٤).

(٢) قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ في " التفسير الكبير " (٣٠/ ٢٤٥): "كيف يمكن الجمع بين قوله هَاذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وقوله ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبّكُمْ تَخْتَصِمُونَ وقوله وَاللهِ رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ وقوله وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ويروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن هذا السؤال

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ۝٣٦﴾ أي ولا يُؤذنُ لهم في الاعتذار، لأنه ليس لديهم عذرٌ صحيحٌ، ولا جوابٌ مستقيمٌ.

فلا يُقبل منهم عذرٌ، ولا يُقبل لهم شفاعةٌ، ولا يُؤخذُ منهم صرفٌ ولا عدلٌ.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ۝٣٧﴾ بما دعتهم إليه الرسل، فأنذرتهم عاقبته.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ۝٣٨﴾ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ﴾ أي هذا يومٌ يُفصَلُ فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحقُّ من الباطل، فيؤتى كلُّ عاملٍ جزاءَ عمله من ثوابٍ وعقابٍ، ويُفصل بين العباد بعضِهم مع بعضٍ، فيُقتص من الظالمِ للمظلومِ، وتُردُّ له حقوقُه، ثم بين كيف يكون الفصل، فقال: ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ۝٣٨﴾ أي جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم في صعيدٍ واحدٍ، ليمكن الفصل بينكم، فيُقضى بهذا على هذا.

وإذا أيقن الإنسان بهذا استراح جداً، فكم من ظالمٍ ظَلَمَ وأُفلِتَ، ولا يستطيع المظلومُ أن يتكلم معه بكلمةٍ، لكن الله سيجمعهم يوم القيامة أمام العباد كلِّهم ويفصل بين الجميع.

=والجواب عنه من وجوه أحدها قال الحسن فيه إضمار والتقدير هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة ولا يؤذن لهم فيعتذرون لأنه ليس لهم فيما عملوه عذر صحيح وجواب مستقيم فإذا لم ينطقوا بحجة سليمة وكلام مستقيم فكأنهم لم ينطقوا لأن من نطق بما لا يفيد فكأنه لم ينطق ونظيره ما يقال لمن ذكر كلاماً غير مفيد ما قلت شيئاً." وينظر " جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٦٠٩).

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي فإن كان لكم حيلةٌ في دفع العذاب عنكم فاحتالوا، لتُخَلِّصُوا أنفسَكم من العذاب.(١)

وفي هذا تقريعٌ لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهارٌ لعجزهم وقصورهم حينئذٍ، وفيه تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].(٢)

وقال بعض أهل العلم: المعنى: كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تُحَارِبُونَ مُحَمَّدًا ﷺ وَتُحَارِبُونَنِي فَالْيَوْمَ حَارِبُونِي، وكنتم تكيدون لرسلي وأوليائي في الحياة الدنيا فاليوم كيدون، ومن يستطيع أن يكيد الله جلَّ جلاله؟! وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥-١٧](٣)

---

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في " الجامع لأحكام القرآن " (٢١/ ٥١٥): "أي حيلة في الخلاص من الهلاك فكيدون أي فاحتالوا لأنفسكم وقاووني ولن تجدوا ذلك." وينظر "التفسير الوسيط "للواحدي (٤/ ٤١٠)، و"بحر العلوم" للسمرقندي (٣/ ٥٣٥).

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٠٠)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٤٧).

(٣) ينظر " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (٢١/ ٥١٥)، و"اللباب في علوم الكتاب" لابن عادل الحنبلي (٢٠/ ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا.

قال الله عزَّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾

بعد أن بيّن سبحانه ما يحلُّ بالكفار من الخزي والنكال يوم القيامة، أعقبه بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذٍ، فهم يكونون في تَرَفٍ ونعيمٍ، ويأكلون فواكه مما يشتهون، وهذا جزاءُ كلِّ محسنٍ لعمله.

وهذه طريقةُ القرآن العظيم، إذا ذكر طريق الفجارِ ومآلَهُم وعذابهم، يفتحُ باب الرجاءِ العظيمِ بذكرِ حالِ الأخيارِ ومآلِهم الطيِّب، حتى يختار العبادُ الطريقَ الصالحَ ويسلكوا فيه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾ والمتقون هم الذين اتقوا الشرك، واتقوا ظلم العباد، واتقوا ما حرَّم اللهُ عليهم في جنب الله، وفي جنبِ عبادِه، وفي حق أنفسهم.

﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية، ﴿وَعُيُونٍ۝٤١﴾ جاريةٍ من السلسبيل، والرحيق وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ۝٤٢﴾ ما لذَّ وطابَ مِن شتى صنوف الفواكه، لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ، من فضل ربنا تعالى.

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ۝٤٣﴾ يقال لهم: كلوا أيّها القوم من هذه الفواكه، واشربوا من هذه العيون كلّما اشتهيتم، ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ لا تكدير عليكم، ولا تنغيص فيما تأكلونه وتشربون منه، ولكنّه لكم دائمٌ لا يزول، ومريءٌ لا يورثكم أذًى في أبدانكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ۝٤٣﴾ أي: هذا جزاءٌ بما كنتم في الدّنيا تعملون من طاعة اللّه، وتجتهدون فيما يقرّبكم منه.

يخاطبهم بذلك الملائكة الكرام، كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

ويخاطبهم بذلك ربنا جلَّ جلاله، أي كلوا عبادي هنيئًا لكم بما كنتم تعملون، بصلاتكم، وصومكم، وقراءتكم القرآن، وبِرِّكم بآبائكم، ونفقتكم، وصدقتكم، وخوفكم من الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ۝٤٤﴾ إنّا كما جزينا هؤلاء المتّقين بما وصفنا من الجزاء على طاعتهم إيّانا في الدّنيا، كذلك نجزي ونثيب أهل الإحسان في طاعتهم إيّانا وعبادتهم لنا في الدّنيا على إحسانهم لا نضيع في الآخرة أجرهم.

فليس الأمرُ قاصراً على طائفةٍ معينةٍ، بل هذا هو جزاءُ الله للمحسنين على مدارِ الزمانِ.(١)

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين يكذبون بنعيم الأبرار.(٢)

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ خطابٌ للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمرَ تهديدٍ ووعيدٍ فقال تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ أي: مدةً قليلةً قريبةً قصيرةً، ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها.(٣)

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين عرَّضُوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل، وكذبوا بما أخبرهم الله أنه فاعلٌ بهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المكذبين اعبدوا الله وأطيعوه واخشوا يومـًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، استكبروا وأصروا على عنادهم.

ومن اللطائف:

ما يذكر أنّ الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممّن لا يرى

---

(١) ينظر "جامع البيان" للطبري (٢٣/ ٦١١)، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٠١)، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٢١/٥١٦)، و"تتمة أضواء البيان" لعطية سالم (٨/ ٤٠٤).

(٢) ينظر "جامع البيان " للطبري (٢٣/ ٦١٢)، و"أنوار التنزيل" للبيضاوي (٥/ ٢٧٧).

(٣) ينظر "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير (٨/ ٣٠١)، و"التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٤٨).

الرّكوع بعد العصر[١]، فجلس ولم يركع، فقال له صبيٌّ: يا شيخ قم فاركع، فقام فركع ولم يحاجّه بما يراه مذهبًا، فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الّذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.[٢]

وهذا يدل على مكانة هؤلاء الأئمة ومزيد ورعهم.

حكم الركوع في الصلاة: ومن هنا استدلَّ أهلُ العلم على أن الركوع ركن في الصلاة بإجماع السادة العلماء.[٣]

قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ بأوامر الله ونواهيه.

---

(١) ينظر "التمهيد" لابن عبد البر (١٣/ ٤٢)، و "الاستذكار" لابن عبد البر (١/ ٣٨٣)، و" مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل" لابن حطاب (٢/ ٦٢)، و"الموسوعة الفقيهة الكويتية" (٧/ ١٨١).

(٢) ينظر "الجامع لأحكام القرآن" (٢١/ ٥١٧)، و " نظم الدرر" للبقاعي (٨/ ٥٣٧).

(٣) قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " أحكام القرآن " (٤/ ٣٥٩): "هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركنا في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة، وليست بدار تكليف، فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يدعون إلى السجود كشفا لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد لله تمكن من السجود، ومن كان يسجد رئاء لغيره صار ظهره طبقا واحدا." وينظر "التفسير الكبير" للرازي (٣٠/ ٢٤٩) و"السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" للخطيب الشربيني (٤/ ٤٦٧).

وبعد أن بالغ فى زجر الكفار بما تقدم ذكره، وحثَّ على الانقياد للدين الحق، ختَمَ السورةَ بالتعجيب من هؤلاء المشركين الذين لم يسمعوا نصيحة الداعي، ولم يتبعوا عظاته، وما فيه رشدهم وصلاحهم في آخرتهم ودنياهم، فقال:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ۝٥٠﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل على تجلّيها ووضوحها، فبأيِّ كلامٍ بعد هذا يصدقون؟

فالقرآن الكريم جامعٌ لأخبار الدارين، مبينٌ لأحوال النشأتين على نمطٍ بديعٍ تؤيده الحجج القاطعة، وتدعمه البراهين الناطقة.

وقصارى ذلك: إن القرآن قد اشتمل على البيان الشافي والحق الواضح، فما بالهم لا يبادرون إلى الإيمان به قبل الفوت وحلول الموت، وعدم الانتفاع بعسى ولعلّ وليت.(١)

وصلى الله وسلم على محمدٍ وآله وصحبه أجمعين

تم الانتهاء من تفسير سورة المرسلات بحمد الله وتوفيقه.

******

---

(١) ينظر "تفسير المراغي" (٢٩/ ١٩٠)، و"روح المعاني" للألوسي (٢٨/ ١٩٥)، و" تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان "للسعدي (٩٠٥)

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

مقدمة المصنف **٥**

سورة الملك: **١٣**

أسماؤها:..١٣

مناسبة السورة لما قبلها:..١٣

فضل سورة الملك:..١٤

مسألةٌ: إن قال قائلٌ: أوليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت، فكيف قيل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾..٢٣

مسألةٌ: كيف يعذب الشيطان بالنار وهو مخلوقٌ من نار؟ ٣٦

مسألةٌ: صفة العلو: ٥١

دلالات صفة العلو في القرآن:..٥٣

دلالات صفة العلو في السنة:..٥٤

صفة الاستواء:..٥٨

مسألةٌ: لماذا نصَّ على السمع والبصر والفؤاد من بين سائر أعضاء البدن؟ ٦٤

سورة القلم: **٧٣**

ترتيب نزولها:..٧٤

ومناسبتها لما قبلها:.................................... ٧٤
الأحرف المقطعة في أوائل السور:........................... ٧٦
أول ما خلق الله:.................................... ٧٨
قَسَمُ اللهِ بخلقه:.................................... ٨٠
نماذج من حُسْنِ خُلُقه ﷺ:.............................. ٩٣
ومن حُسنِ خلقه ﷺ عفوُه عند المقدرة:........................ ٩٣
أخلاقه ﷺ مع مخالفيه:................................. ٩٥
من أخلاقه ﷺ مع الصغار:............................... ٩٨
من أخلاقه ﷺ في بيته:................................ ٩٩
أخلاقه ﷺ مع خادمه:................................. ١٠٠
حكم المداهنة في الدين:................................ ١١٤
مسألة: وسم البهائم:.................................. ١٢٧
صفة الساق لله تعالى:................................. ١٥٩
قصةٌ واقعيةٌ:...................................... ١٧٤
سورة الحاقة:.................................... ١٧٩
ومناسبتها لما قبلها:.................................. ١٧٩
سرُّ تسمية القيامة بالحاقة:.............................. ١٨١

سبب تسميتها بالقارعة:.. ١٨٣
مسألة الطيرة:.. ١٩٥
إشكالٌ والجوابُ عليه:.. ١٩٥
البيان الشافي الكافي في مسألة النفخ في الصور:.................. ٢٠٧
أما وقت النفخ في الصور؛ فينفخ فيه في يوم الجمعة:.................. ٢٠٩
عدد النفخات في الصور:.. ٢١١
سورة المعارج: ٢٣٨
مناسبتها لما قبلها:.. ٢٣٨
دلالة ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ﴾ على صفة العلو:.................. ٢٤٣
وقفةٌ: المسلمون وفيروس كورونا:.............................. ٢٦٨
فائدةٌ: في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾:.................. ٢٧٤
أثر الإيمان بيوم الدين على العبد: ٢٨٦
مسألة الزنا وشدة حرمته:.. ٢٩١
مسألة نكاح المتعة:.. ٢٩٤
أدلة التحريم ورد أدلة المجيزين:.............................. ٢٩٦
مسألة إتيان المرأة في دبرها:.............................. ٢٩٨
مسألة الاستمناء: ٣٠٠

مسألة السحاق:.. ٣٠٣

من علاج هذه الشهوات المحرمة: ٣٠٣

الزواج العرفي:.. ٣٠٤

سورة نوح: ٣١٤

مناسبتها لما قبلها: ٣١٤

فائدةٌ للداعية من سورة نوحٍ:.. ٣١٤

قصة نوحٍ عليه السلام مختصرة:.. ٣١٥

مسألةٌ:.. ٣٢٨

سبب كفر بني آدم:.. ٣٧٤

حكم الدعاء على الكافرين الظالمين:.. ٣٧٨

من أدلة عذاب القبر:.. ٣٨٦

سورة الجن: ٣٩٥

مناسبتها لما قبلها: ٣٩٥

الجن حقيقةٌ، وليست خرافةً:.. ٣٩٩

بعثة النبي -ﷺ -للثقلين (الجن والإنس): ٤٠٠

رؤية الحيوانات للجنِّ:.. ٤٠٢

أصل خلق الجن من النار، ولهم ذرية كبني آدم: ٤٠٣

الراجح أن صالحي الجن في الجنة ينعمون كالإنس:........................ ٤٠٣
هل الجن يتزوجون من الإنس والعكس: ٤٠٤
مساكن الجن وأماكن معيشتهم: ٤٠٦
كيف نحفظ أنفسنا وبيوتنا من الشياطين:........................ ٤٠٩
أعمار الجن: ٤١٥
مسألةٌ: هل يجوز الاستعانة بالجن المسلم في أمر مباح؟.................. ٤٢٦
مسألة: حكم اتخاذ القبور في المساجد ٤٥٢
فائدةٌ نفيسةٌ: ٤٥٤
مسألةٌ: هل يجوز استعمال المساجد في غير العبادة؟....................... ٤٥٥
مسألةٌ: ما يذكره علماء الأرصاد من توقع المطر أو الريح، هل هو من الغيب؟ ٤٨٢
سورة المزمل: **٤٨٤**
مناسبتها لما قبلها: ٤٨٤
مسألةٌ: هل من أسماء رسول الله ﷺ المزمل؟ أو هل من أسمائه المدثر؟ ٤٨٥
مسألةٌ: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ حثٌ من الله لرسوله على قيام الليل فهل قام الرسول ﷺ وحده؟............................ ٤٩٢
مسألةٌ: قول النبي ﷺ " طول القنوت" هل هو طول الدعاء؟ أم طول القراءة؟ أم كثرة عدد الصلوات؟.. ٤٩٨

تدبر النبي ﷺ للقرآن الكريم:.. ٤٩٩
أدلة الزيادة على إحدى عشر ركعة في قيام الليل:..................... ٥٠٢
حكم الاختصاء:.. ٥٢٢
وقفةٌ مع المشكلة السكانية:.. ٥٢٥
لباس الخصي:.. ٥٢٨
تعريف التوكل:... ٥٣١
ثمرات التوكل:... ٥٣٩
حكم قيام الليل:.. ٥٦٥
سورة المدثر: ٥٧٢
مناسبتها لما قبلها:.. ٥٧٢
سبب نزولها:.. ٥٧٣
أول ما نزل من القرآن:... ٥٧٣
مسألة: عصمة النبي ﷺ من الشرك قبل البعثة: ٥٨٢
العلاج الرباني لفيروس كورونا:.. ٥٨٥
عدد النفخات في الصور:.. ٥٩٦
الإيمان يزيد وينقص:.. ٦١١
الرد على الجبرية:.. ٦١٦

حكم تارك الصلاة: ٦٢٤

سورة القيامة: ٦٤١

مناسبتها لما قبلها: ٦٤١

يومُ القيامة يومٌ عصيبٌ: ٦٤٤

معنى النفس اللوامة: ٦٤٥

قسم الله بالمخلوقات: ٦٤٦

موعظةٌ في التقلل من الدنيا: ٦٦١

الأدلة على رؤية الله تعالى يوم القيامة: ٦٦٨

حكم قول الإنسان: (بلى) بعد قراءتها في الصلاة: ٦٧٨

سورة الإنسان: ٦٨٢

مناسبتها لما قبلها: ٦٨٢

فضل سورة الإنسان: ٦٨٢

علوُّ الله تعالى على عرشه: ٧٢٥

فضل ذكر الله عزَّ وجل: ٧٢٨

فضل قيام الليل: ٧٣١

بعض الأسباب المعينة على قيام الليل: ٧٣٤

الحث على الزهد في الدنيا: ٧٣٩

الرد على القدرية والجبرية:.. ٧٤٣
سورة المرسلات: **٧٤٥**
مناسبتها لما قبلها:... ٧٤٥
حكم دفن الموتى:.. ٧٧٢
مسألةٌ: حكم النباش الذي ينبش القبور؟................................. ٧٧٢
إشكالٌ والجواب عليه:.. ٧٨٠
ومن اللطائف:.. ٧٨٥